

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

سلسلة تاريخ المغرب

المغرب العتيق

تأليف
جيروم كَرْكوپينو

ترجمة
محمد التازي سعود

LE MAROC ANTIQUE

Par Jérôme CARCOPINO

الرباط، 2008

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم	عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد	عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الشؤون العلمية	أحمد رمزي
مدير الجلسات	إدريس خليل

العنوان : شارع محمّد السادس (الإمام مالك سابقاً)، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

تليفون : (037) 75.51.99/46 (037) 75.51.24/35/57/00

البريد الإلكتروني : arm@alacademia.org.ma **E-mail** :

فـاكْس (037) 75.51.01/89/78

اسم الكتاب : «المغرب العتيق»

أصله الفرنسي : "Le Maroc antique"

تأليف : جيروم كَرْكوپـينو Jérôme Carcopino

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية، أشرف على إخراج الخرائط من الأصل الفرنسي، وتوثيق الأعلام بالحرف العربي وغيره : أحمد رمزي

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2008/1481

ردمك : 9981-46-066-4

تصدير

أصدرت أكاديمية المملكة المغربية قبل شهور قليلة الترجمة العربية لكتاب «تاريخ شمال أفريقيا القديم» في أجزائه الثمانية، للمؤرخ اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell. وهاهي اليوم تُصدر هذا الكتاب الذي ألّفه في جزء واحد جيروم كَرْكوپينو Jérôme Carcopino بعنوان «المغرب العتيق» *Le Maroc antique*.

الكتاب الأول عُني بتاريخ شمال أفريقيا عامة، جغرافيتها، وأجناسها البشرية، وأحداثها السياسية والعسكرية. وقد هيمنت على تلك الأحداث ما كان بين روما وقرطاجة من صراع دائم أثّر على ضفّتي غرب البحر الأبيض المتوسط، وتخللته حروب طاحنة انتهت بقضاء روما على قرطاجة قضاءً نهائياً، وظهر في ذلك الصراع الدائم ما كان لروما من تفوّق عسكري برّاً وبحراً، وما كان لها من تألّق في التدبير السياسي والإداري، وخبرة الرجال المحنّكين في الاستراتيجية والفن المعماري والكتابة الأدبية والتاريخية. إن الحضارة الرومانية كانت بذلك لا تقبل أيّ منافس. ومن ثمّ كان حظ قرطاجة مأساتها التاريخية. وكأننا بعالم يعي في ذلك الزمان مفهوم «القطبية الأحادية» التي لا ثانية لها.

أما الكتاب الثاني الذي بين يدي القارئ الآن فإنه عُني بالمغرب وحده، منذ عهد الفينيقيين حتى الفتحِ الإسلامي، أو بالتحديد حتى ظهورِ البرغواطيين. لذلك اخترناه ليكون تكملة للذي قبله.

إن جيروم كَرْكوپينو أستاذ متمكن من الموضوع الذي قدّمه في كتابه هذا. إنه لا يطلق الكلام على عواهنه، بل يجادل في كتابه أقرانه من كبار رجال البحث

العلمي الذي كان لهم رأي في قضية من القضايا، فيشكّك، ويرجّح، ويأتي ببراهين مستقاة من واقع الآثار الباقية، ومن أقوال من لا تردُّ حجّتهم. وهو يذكرُ اصْطيفان اكْصيل بإنه من شيوخه ويعتمد على أفكاره. وفي هذا يكون الكتاب أنموذجا لمن يريد الاطّلاع على أساليب الجدال العلمي والمقارعة بالبرهان.

ويلوح لنا، من خلال القراءة المتأنية لهذين الكتابين، أمران اثنان :

أولهما أننا نحتاج إلى دراسة تاريخنا كلّه، لا من بداية معيّنة ناسية ما قبلها، لأن التاريخ يتعلق بمسيرة الإنسان الطويلة منذ القِدم، وبعلاقته بمحيطه الطبيعي. كان عليه أن يكدّ ليعيش، ويكتشف الأدوات التي يدافع بها عن نفسه، ويتجمّع في كتل بشرية ليتقوى عدداً، كل ذلك في سلسلة من التطورات، إلى أن صنع الحضارة، أو حضارات متتالية في حِقَب نحن اليوم نعيش في إحداها.

ثم إن دراسة التاريخ يجب أن لا تحيد عن الموضوعية، وإلا اعتراها التزوير والهوى. ولا نظن إلاّ أن أقواما أدركوا في العصر الحديث هذا المعنى فصاروا يتحدثون عن مفهوم جديد سمّوه «المصالحة مع التاريخ»، أي أنهم يقبلون تاريخ أجدادهم حُلوه ومرّه.

ثانيهما أننا نحتاج كثيرا إلى ترجمة ما كُتب عنّا باللّغات الأخرى، ولمّا يتوفّر لنا باللغة العربية. وعيبٌ علينا أن نُبخس هذه اللغة حقّها في الاطّلاع على المعارف والعلوم لتخرج من عزلتها ويدور «محرِّكها» بدورانه هو، لا أن تتحرك مجرورة كعربة لا وقود فيها ولا محرِّك.

إن الترجمة إلى العربية أمر استراتيجي، ولا تعليمَ ولا ثقافةَ قائمين متألّقين بدونها. إننا إذ نؤمن بهذا، نفكر في ضرورة إنشاء معهد عالٍ وطني للترجمة، مبرمَجةٌ أعماله ومحدَّدةٌ مقاصده، ليسدّ الفراغ الذي نشكوه، فنلجأَ إلى المراجع الأجنبية التي لا سبيل إليها إلاّ بإتقان اللغات التي كُتبت بها.

لذلك لا يسعنا إلاّ أن نشكر الأستاذ محمد التازي سعود على تحمّله عبء ترجمة كتاب ج. كَرْكوپينو إلى العربية رغم صعوبة مادته التي تتأرجح بين نصوص فرنسية وأخرى لاتينية مع كتابة فرنسية صعبة التركيب، بجمَلها الطويلة واستطراداتها الكثيرة. ندعو الله للأستاذ سعود بالصحة والعافية ومزيد العطاء.

على أيّ، فإنه لَيسعدنا أن نقدّم هذا الكتاب إلى جمهور القرّاء والباحثين، عساهم يجدون فيه ما يفكّ بعض ألغاز التاريخ المغربي القديم، ويربطون الماضي بالحاضر، لأن كثيراً من ذلك الماضي يفسّر ما هو جدير بالتفسير في هذا الحاضر الذي نعيشه على صعيد هذا المغرب العزيز.

الرباط، 6 جمادى الثانية سنة 1429 — عبد اللطيف بربيش

الموافق 11 يونيه سنة 2008 — أمين السرّ الدائم لأكاديمية المملكة المغربية

مقدّمة المترجم*

مؤلِّف هذا الكتاب هو المؤرخ والأركيولوجي الفرنسي جيروم كَرْكوپينو Jérôme Carcopino. وُلد في مقاطعة "l'Eure" الفرنسية في يوم 27 يونيه 1881. تخرّج من المدرسة العليا للأساتذة، وجاء في الرتبة الأولى من مباراة التبريز في مادة التاريخ والجغرافيا (1904)، ثم عيّن

(*) ترجمته بخطّ يده : محمّد بن محمّد التازي المعروف بلقب سَعود. المولود بفاس سنة 1920. تربّى فيها ودخل الكتّاب القرآني، ثم نُقل سنة 1927 إلى المدرسة الفرنسية العربية، حيث قضى سنتين قرّر بعدهما جدّه المرحوم عبد الرحمن أن يعيده إلى الكتّاب القرآني لعدم رضاه عن تلك «البلبلة» التي سمع حفيده يلغو بها وهو يحفظ أحد دروس المحادثة باللّغة الفرنسية. بعد ذلك تعدّدت للطفل مسالكه التعليمية من المدرسة الحرّة بالْمَخْفِية في فاس، ثم بالقرويّين حيث كان طالباً مستمعاً فحسب، فاختار الحضور بدروس الجِلة من علماء النحو والبلاغة، وخلال كل ذلك لم يكن يهمل بداياته الأولى في اللغة الفرنسية فنمّاها بدروس خاصّة ثم انتسب إلى معهد الدروس المغربية العليا، فأقبل على الترجمة حتى نال دبلوم المعهد. واتضحت المسيرة أمامه في كلية الآداب فنال الإجازة في الأدب العربي ودبلوم الدراسات العليا والدكتوراه في التاريخ القديم.

عمل معلّماً في الابتدائي، ثم مدرّساً في الثانوي ثم أستاذاً جامعاً بكلية آداب الرباط من 1964 إلى 1973، وبفاس – ظهر المَهْراز – حيث كان رئيساً لشعبة التاريخ – ومديراً لشعبة تكوين المكوّنين – فزوّد الكليات الجديدة بأساتذة التاريخ.

وللأستاذ محمد التازي سعود، زيادة على عنايته بتاريخ أرض المغارب، مَلْحمة شعرية عن بعض الجوانب من حياة الجاهلية العربية إلى ظهور الإسلام بعنوان : «الملحمة العربية... قال الراوي» في نحو 15.000 بيت شعري. وهي مطبوعة. كما له مجموعات شعرية تبلغ 12 دفتراً شعرياً لم يطبع منها شيء حتى اليوم. وكذلك فإن محاضراته في التاريخ تنتظر منه أن يوليها العناية لتهذيبها وإخراجها للوجود.

أستاذاً للتاريخ في ليسي مدينة «لوهاڤر» le Havre (1907-1911). بعد سنة كان فيها سكرتيراً لـ «ريمون پْوانْكاري» Raymond Poincaré الذي سيُنتخَب فيما بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية، عُين أستاذاً في جامعة الجزائر، ثم مفتشاً ومديراً لِـ «المتحف الوطني للتاريخ الجزائري القديم».

بعد أدائه الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولي، قدّم أطروحتَين في جامعة السوربون بپاريس، وعُيّن أستاذاً للتاريخ الروماني في هذه الجامعة.

في سنة 1940، وقد احتلّ الألمان النصف الشمالي لفرنسا، عُيّن كرْكوپينو مديراً للمدرسة العليا للأساتذة، وتولّى منصب عميد أكاديمية پاريس. وبعد عام، تولّى منصب كاتب الدولة للتربية الوطنية في حكومة المارشال پيتان Pétain المهادِنة للاحتلال الألماني، لكنه استقال بعد أن أصبح پْييرْ لاڤال Pierre Laval عضواً بارزاً في الحكومة وداعيا إلى تعاون فرنسيّ ألماني حقيقي ومتكامل (سيُقبض على پْييرْ لاڤال بعد انهزام ألمانيا في الحرب، وسيُعدم رمياً بالرصاص بعد محاكمته).

غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية، قُدّم كرْكوپينو أمام المحكمة العليا بتهمة المشاركة في حكومة المارشال پيتان المتهَمة بالخيانة العظمى لتعاونها مع الألمان المحتلّين، وسُجن، لكن عُفي عنه في فبراير 1945، واستعاد حقوقه المدنية كاملة في سنة 1947 مع الاعتراف الرسمي بكفاءاته العلمية وتأهله لوظائف التعليم والبحث العلمي.

يُعدّ كَرْكپينو من أكبر المتخصّصين في التاريخ الروماني، وله في هذا التاريخ ما يفوق الثلاثين كتاباً. وعندما كان في حكومة پيتان

استصدر من الحكومة قانوناً – يحمل اسمه – يسعى إلى تنظيم الحفريات الأركيولوجية بفرنسا. وبقي هذا القانون، مدة خمسين سنة، الإطار القانوني والعلمي الذي كان له الفضل في تحديد المفهوم الأكاديمي للحفريات، وفي تكوين الأطر الساهرة على المواقع التاريخية التي يجري فيها التنقيب على الآثار الباقية.

ألّف كرْكوپينو كتاب «المغرب العتيق» Le Maroc antique في سنة 1943، أي في أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان يتردد كثيرا على المغرب لمتابعة التنقيب الجاري في وَليلي Volubilis والاتصال بالقائمين على الحفريات في هذا الموقع، لاسيما «لْوي شاتْلان» L. Chatelin رئيس «مصلحة التاريخ القديم بالمغرب» و«ريمون توڤْنو» Raymond Thouvenot الذي كان يشتغل على مواقع التاريخ في وَليلي، ويكتب بحوثه العلمية التي مازالت مرجعاً هاماً في التاريخ القديم للمغرب.

* * *

اعتنى اصْطيفان اگْصيل في كتابه «تاريخ شمال أفريقيا القديم» الذي ترجمناه وأصدرته أكاديمية المملكة المغربية في ثمانية أجزاء، بدراسة العهدين الفينيقي والقرطاجي بالمغرب، وترك جانباً موضوعين اثنين هما : المغرب البونيقي واتّصاله بالأساطير الإغريقية، ورحلة حنّون البحرية. وهذان الموضوعان هما اللذان تولّى جيروم كَركوپينو دراستهما في أحد أقسام هذا الكتاب.

أما العهد الروماني فكان مفتاح الغوص فيه الحفريات التي ابتدأت في وَليلي Volubilis سنة 1918 بإشراف «لْوي شاتْلان» Louis Chatelain. وبعد مدة، في سنة 1940 توّج «ريمون توڤْنو» Raymond Thouvenot ما كشفت عنه الحفريات في وَليلي وغيرها من المواقع في شمال المغرب، بأطروحة الدكتوراه التي قدّمها في جامعة السربون في موضوع التاريخ القديم لِـ «بَناسّا»، وهو موقع قريب من نهر سبو، غرقت كثير من آثاره في النهر. وبقيت هذه الأطروحة أول عمل أكاديمي متصلٍ بالحفريات المغربية يُقدّم أمام مجمع علمي في مستوى الدكتوراه.

قلنا آنفاً إن كَركوپينو كان يتابع الحفريات الجارية في المغرب، وكانت له صلات شخصية وعلمية بالساهرين عليها. كل ذلك مكّنه من جمع معلومات قيّمة سطرها في هذا الكتاب. ويقول إنه راجَع بعض المسلّمات التي كانت تروج في أوساط الأركيولوجيين، واستخلص ما تفرّد به هو، بعد النقد والتمحيص، فيما يلي :

– إن بطليمي، آخر ملوك موريطانيا (الطنجية)، لم يُقتل في روما كما ادُّعِي من قبل، بل في مدينة «ليون» (الفرنسية الآن)، في إحدى فورات الغضب التي كانت تنتاب كاليگولا Caligula، وتزامنت تلك الوفاة مع اندماج المغرب في الإمْبراطورية الرومانية.

– إن وَليلي الرومانية لم تكن خارجة عن النفوذ الروماني بل كانت داخلة فيه وكانت عاصمته بعد أن كانت من قبل مقراً للملوك المورريين.

– قيل إن سَلا كانت قرية لا قيمة لها، ثم ظهر من خلال ترجمة نصوص أُخذت من اصْطيفان اگْصيل أنها كانت بُؤرة اشعاع ثقافي كلاسيكي لا يُستهان به.

– قيل إن الديانة المسيحية لم تتوغّل إلى داخل المغرب، ثم بعد التمكّن من قراءة نقوش في متحف وَليلي، سنة 1928، ظهر أن شاهد قبر مسيحي يحمل تاريخ 655 للميلاد، والقرائن المواكبة لهذا التاريخ، كل ذلك يدلّ على أن المسيحية وصلت إلى وَليلي ومكثت فيه مدّة أطول ممّا كانت عليه في أي مكان آخر من أفريقيا.

* * *

هذه النتائج وصل إليها جيروم كَركوپينو، وأوردها وغيرَها في هذا الكتاب، وأكّدها بحجج علمية متينة. والاحتجاج والاستدلال يواكبان كل ما كتبه المؤلّف في هذا السِّفر. ويمكن القول بأن القارئ المتتبّع بإمعان لما ورد في الكتاب من جِدال يثيره المؤلف مع أقرانه، سيستفيد كثيراً من عملية المقارعة الفكرية الباحثة عن الموضوعية بعيداً عن الأهواء. إنها مدرسة ساد فيها الباحثون الذين عاشوا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لا سيما منهم أولائك الذين يتقنون اللّغات القديمة كالإغريقية واللاتينية التي لا يَستغني عنهما المهتم بالتاريخ القديم.

ونرى أن مؤلِّف «المغرب العتيق» يُكمل بعمله هذا ما بدأه في العشرينات من القرن الماضي العلاّمة اصْطيفان اگْصيل. وعلى القارئ الراغب في استجلاء خبايا التاريخ القديم لمنطقة شمال أفريقيا أن يطّلع على الكتابين معاً بإمعان وصبر.

وإني لَيسرّني أن أقدم هذا الكتاب لقراء اللغة العربية لأغني الخزانة العربية بهذا الأثر العلمي النفيس. ولا يفوتني أن أقدّم شكري الجزيل لأكاديمية المملكة المغربية وللقائمين عليها الأستاذ الدكتور عبد اللطيف بربيش، أمين السر الدائم لها، وكذلك الأستاذ الدكتور السيد أحمد رمزي الذي له اليد الطّولى في إظهار هذا العمل العلمي الكبير في حلّته هذه، والسلام.

فاس، في 28 محرّم سنة 1429

6 فبراير سنة 2008

محمّد التازي سعود

محتويات الكتاب

نظرة إجمالية في تاريخ المغرب القديم

1- الجغرافيا المقارنة

- الحدود
- الملامح الطبيعية

2- الخطوط الكبرى للتطور التاريخي

- الفينيقيون
- الملوك الأهالي
- الاحتلال الروماني
- المغرب ولاية رومانية

المغرب البونيقي

1- الفينيقيون والإغريق : تاريخ وأساطير

- تأسيس ليكْسوس Lixus
- الإمبراطورية البونيقية واحتكاراتها
- المغرب البونيقي في الأساطير الإغريقية

2- المغرب، السوق البونيقية للذهب

- رحلة حَنّون وأسرارها الخاطئة

- حنّون واللِّكسِيون Lixites
- البحث عن الذهب وعن قيرْني
- التعرّف على قيرْني
- قيرْني ووادي الذهب
- حنّون عند السّود
- نهاية الذهب البونيقي

مغرب الرومانيين

1- وَليلي مدينة إقامة يوبا والحكّام الرومانيين

2- موت بطُلِمي ملك موريطانيا

3- سَلاَ (شالّة–الرباط) في عهد الأنْطونانيّين استناداً إلى النصوص المنقوشة على قاعدة مَرْكوس سِلْپيكْيوس فيلِكْس

- قاعدة تمثال سِلْپيكْيوس فيلِكْس وإهداؤها
- قائمة الأصدقاء (Amici)
- قرار ديكورْيونات سَلا

4- نهاية المغرب الروماني

- التخلّيات عن القيْصرية وتأثيرها على التنْجيتان
- إخلاء وَليلي
- البكْواتيون Les Baquates
- أقدم آثار المسيحيّة في المغرب
- الروميّون بوَليلي.

تنبيه

كثيراً ما تَرِد أسماء الأعلام والأماكن وغيرها مكتوبة بحروف لا توجد في الألفبائية العربية، فأشرنا إليها بمقابلات بالحرف العربي لنحتفظ على النطق الأجنبي الأصلي. ولا يتعدى هذا الإجراء ثلاثة حروف هي :

– الپـــاء (پ) كما في پاريس Paris. وپولونيا Pologne القطر الأوروبي (عوض بولونيا المدينة الإيطالية المشهورة). وپْلين Pline، ويحمل هذا الإسم في العهد الروماني شخصان هما : پْلين الشيخ عالِم الطبيعة، والقائد البحري، وابنُ أخيه پْلين الفتَى، وهو كاتب.

– الڤـــاء (ڤ) كما في باڤارْيا المقاطَعة الألمانية (عوض باوارْيا)، وڤيكْتور (عوض فيكْتور).

– الگـــاف (گ) كما في أگادير (عوض أغادير)، وگايا والد مسِّنيسا، وگورباتْشيڤ (عوض غورباتْشيف) الرئيس السيوڤْييتي السابق.

وهكذا تجتمع في كلمة واحدة هذه الحروف كما في : ڤيكْتور هوگو (عوض فيكتور هوغو).

(أ. ر)

نظرة إجمالية
في تاريخ المغرب القديم

1

الجغرافيا المقـارنة

الحـدود

المغرب اليوم منحصر بين حدود جغرافية بالمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، وهي حدود وهبتها له الطبيعة في الغرب والشمال، وحدود سياسية حددتها الاتفاقيات الدولية في العهد الحديث، وهي شرقاً : الخط الاتفاقي المحدد بينه وبين الجزائر، ابتداء من بورساي Port-Say على نحو عشرين كيلومترا من مصبّ نهر مَلْوِية. وجنوباً مجرى وادي دَرْعة الذي يفصله عن المستعمرة الأسبانية للوادي الذهبي Rio de Oro (وادي الذهب)(*).

باديّ الرأي، قد يُظن أن الخطوط الأساسية لهذه الصورة قد خُطّت في العهود العتيقة. إذ عند النزول مع الساحل المحيطي للمغرب، نجد أن پْلين الأكبر Pline l'Ancien لا يذكر أبدا أيّ عشيرة Peuplade بعد عشيرة الدَّراتيتايْ Daratitae، أهلِ ضِفاف دَراتْ Darat أي وادي دَرْعَة،

*) هذا في الواقع الاستعماري، إذ الحقيقة هي أن هذه المنطقة الجنوبية، كانت تابعة لمنطقة النفوذ الإسباني بالشمال. لأن منطقة النفوذ الإسباني جميعها تخلت عنها فرنسا لإسبانيا مصداقا للاتفاق الودي Entente Cordiale الذي جرى في سنة 1904 وبمقتضاه أطلقت يد إنكلترا في مصر وإيطاليا في ليبيا وفرنسا بالمغرب مع تنازلها عن قسم منه لإسبانيا. وبهذا فوادي الذهب (الواد الذهبي) هو جزء لايتجزأ من المملكة المغربية. (المترجم)

إنما يذكر اتفاق علماء عصره المجمعين على أن يحددوا بالأطلس الذي يخرج منه دَراتْ Darat قاصيةَ موريطانيا التي يشمل المغرب قسما منها اليوم. ومن جانب آخر، فعند مَلْوية المعروفة باسم مُلوشات (مُلوخات) Molochath عند سْترابون Strabon، ومُلوشا Mulucha في جل النصوص اللاتانية، كانت دائما تقف موريطانيا الغربية، وذلك كلما كَوَّنت إما مملكة متميزة، وإما ولاية متميزة عن مملكة أو ولايةِ موريطانيا الشرقية. وهناك ما هو أكثر : فبداخل المغرب اعترفت فرنسا وإسبانيا فيما بينهما بمنطقتَيْ نفوذ يقسمها وادي اللُّكُّوس Loukkos، أيْ لكْسُسْ Lixos أو ليكسوس Lixus عند الكتّاب القدماء. لكن عندما قام دِيوكْليتْيان Dioclétian بالتنقيص من الجبهة الإمبراطورية ليحسن الدفاع عن هذه الجبهة، فإنه تخلى عن السيطرة على القسم الأبعد جنوبا بموريطانيا، الواقعة بين المحيط ومُلوشا. فكان هو الذي ربطها فيه بالتبعية الإدارية إلى إسبانيا، وحدّد بِليكسوس Lixus التقدم نحو الجنوب بالمنطقة الجديدة للولاية.

ولكن علينا أن نعترف بأن هذه المقارنات السطحية أحيانا، هي غير قطعية.

قبل كل شيء، يجب أن لا ننسى أنه إذا كان تطور القوات الإسلامية، وإذا كانت ضرورات الاتفاق الأوربي، قد أوجدا وحافظا بين المغرب والجزائر على حدّ لا يزال موجوداً تحت طيات رايتنا (الفرنسية)، فعلى النقيض من ذلك، إن حرية العمل التامة التي تمتعت بها في شمال أفريقيا قرطاجة أولاً ثم الرومانيون الذين قهروها، وتشتت سكانها من ناحية أخرى، كل ذلك قد ترك هؤلاء وأولئك سادة يعملون فيها بمناطقهم كما يشاؤون. فقرطاجة كانت قد أخضعت لمعاملة متماثلة في الاقتحام

التجاري أولئك الذين لم تضمّهم لدولتها بالشمال والشمال الغربي للقطر التونسي الحالي. وروما اقتطعت فيها حسب مشيئة الظروف ومصالحها مساحات حكوماتها، مستعملة السوابق التي خلفتها لها بالتناوب أسَرها الأهلية الحاكمة، بحيث إنها وحّدت تارة وفرّقت تارات أخرى الموريطانيتَيْن، أي تلك التي وراء مُلوشا Mulucha ، أو تلك التي قبلها. وهكذا فالبلاد التي أصبحت هي المغرب، المنفصل أحياناً تحت اسم متداول هو «موريطانيا الطنْجية»، عن موريطانيا المسماة عادة بِـ «القيصرية» التي تعادل ثلاثة أرباع جزائر(نا)، وتارة ممتزجا معها في موريطانيا واحدة، لم يعرف أبدا ما بين المحيط وملْوية سوى فترات وحدة متقطعة.

وبعد ذلك لابد أن نحذر على الخصوص من اعتبار هذه الوحدة من وجهات نظرنا نحن. إننا قد صنعنا لأنفسنا، بفعل السيطرة على الأرض، مفهوما صلبا كرهه الرومانيون دائماً كما كرهه القرطاجيون. ذلك أن هؤلاء، وهم تجار بطبيعتهم، كانوا لا يستقرون نهائيا إلا في نقط مختارة على السواحل ولا يهتمون بنشر سلطتهم بقدر ما يهتمون بتكثير زبائنهم. أما الرومانيون، عندما اهتموا بحبس ممتلكاتهم المغربية في تنظيم للدفاع العسكري، فإنهم لم يتسعوا فيه كثيرا إلى أبعد من الأحواز المباشرة للرباط. ثم إنه ليس مؤكدا أنهم ارتضوا التدخل في جميع المناطق التي سيطروا عليها. قبل إعلان حمايتنا، كان السلاطين يميزون بين «بلاد المخزن» التي كانوا يراقبون إدارتها ويجبون ضرائبها، وبين «بلاد السيبة» التي يتخلون فيها عن تسيير القبائل المستقلة عمليا. وقبلهم كان الأباطرة قد اتخذوا منهاجا مماثلا، فكانوا يخفضون إلى أقصى حد ما يمكن أن نسميه باسم المصاريف العامة لاحتلالهم. فكانوا يتلافون الجبال والبراري العقيمة، ويتركونها للعشائر المتخلفة أو للرحّل فيصدونهم ويحصرونهم بهذه الطريقة. ونعثر أحيانا

في الجزائر على أحجار للحدّ كانت تبيّن تلك الأراضي المنحصرة التي كأنها «خارج التراب» (Exterritorialisées) التي كانت روما لا تتجشم الدخول إليها شاهرة السلاح، إلا لتنزع من الأهالي الذين ترغمهم على البقاء بها نزوةَ الخروج منها، كما وقع بأرض «الموسولام» Musulames التي أمر بها تراجان Trajan بين 102 و105، حول شعْب الموثول Muthul أي (وادي مِلاگ)، والأرضِ التي اضطُر السُّبورْبوريون Suburbures لأن يرضَوا بها في نفسِ الحقبة بالقرب من «شطّ البيضاء»، وتلك الأرضِ التي حصر فيها أحد حكّام هادْرِيان النوميديين Numides في قلب بلادِ القبائل. ولاشك أننا حينما نتعرف كثيرا على الطبوغرافية الرومانية للمغرب، فإننا سنلاقي أراضي محصورة مماثلة. وانتظارا لذلك فإننا متيقنون بأن الأراضي التي ازدهر فيها استعمارنا أحسن ازدهار، أي «شاوية» الدار البيضاء قد أُبعِدت عمداً إلى خارج «الولاية»، ووقع تسليمها إلى «الباربار» الذين تعاقَبوا عليها بشرط أن لا يتجاوزوها. وعلى كل حال، فإن المقارنة بين الهندام السياسي للمغرب، وهندامه الذي كان له وهو تحت القياصرة، لن يُؤذَن لنا بها إلا بشرط الاحتفاظ في الفكر بهذه الاختلافات الأساسية.

الملامح الطبيعية

هذه الملامح الطبيعية نفسها قد تحملت تغيرات أثناء القرون، يكثر أو يقل الشعور بها. منها ما هو واضح مثل التي ينجزها أمام أعيننا العمل المستمر للأنهار الكبيرة بالمنحدر الأطلنطي، فهي في آخر أقسام مسيرتها تتجه نحو المحيط بمنعطفات حرة في التعرجات العديدة. فنهر سبو، وهو سُبوبوس Sububus عند پْلين الطبيعي Pline le Naturaliste الذي كان معجبا به، وقال عنه : «نهر عظيم وصالح للملاحة» (amnis magnificus et navigabilis)، لم يعد يستحق كل هذا المديح اليوم. إنه يتمدد متكاسلا على تربة محفرة بفيضاناته، بين البِرَك والمستنقعات التي بجانب حافاته حتى الرصيف الرملي الذي يسدّ مصبّه. ونهر بورگْراگ لم يغيّر اسمه فحسب، بل غير حتى المجرى. وعندما كان اسمه سَلا Sala، فالحلّة Agglomération المسمّاة باسمه كانت مشرفة على الضفة اليسرى لمجراه. ولكن هذا المجرى قد ابتعد عنها في وقت نجهله، وعلى الساحل المقابل فإن سْلا Sla (Salé) هي التي ورثت في الوجود اسم وأهمية مدينة سلا الرومانية. ونهر اللكّوس Loukkos لا يساير اليوم كذلك جميع المجرى لنهر ليكْسوس Lixus، لأن ليكسوس كان يساير ربْوَة تْشمِّشْ Tchemmich التي لا تزال بها جدران المدينة العتيقة التي تحمل نفس الإسم وهو ليكسوس Lixus (lixus flumini lixo proxima). واللكّوس يبعد بما يقرب من كيلومتر واحد، ويجري عن بعد 100 مترٍ جنوبي ربوة رقّادة Rekada التي كانت فيما مضى تقوم وكأنها جزيرة صغيرة وسط مجراه. وهكذا

فإن عملية التّحات وتراكم الغرين قامت على طول العصور بإنجاز عمل بالغ العمق أفضى إلى أن يفرض على الأرض اليابسة تغيرا لا يسهل إيضاحه أو تركه للإهمال.

لِنرجع مثلا إلى أقدم وثيقة تتحدث لنا عن المغرب، وهي «رحلة حنّون» Le périple d'Hannon التي كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد، وسنتصفّحها قريباً. إنها تعرفنا برأس سولويْس Cap Soloeis كمرتفع تكسوه الأشجار، ورأس كَنْتان Cap Cantin الذي هو نفس سولويْس، وهو اليوم عارٍ تماماً. وبجوار سولويْس ذَكرت وجود بحيرة شاطئية Lagune، سنتعرف بها بعد قليل، وكان يرعى بها عدّة من الفِيَلة وسط «قصب كثير وعال». واليوم قد غاب القصب والفيلة عن الأنظار.

ثم إننا اليوم قادرون على فهم هذه التحولات. إن كون الأرض تطغى على الماء أمر لا عجب فيه بجوار أنهار جرّارة للرسوبات مثلما يفعله حتى اليوم نهر اللكّوس، ونهر سُبو، ونهر بورگْراگ، ونهر أم الربيع، ومثلما كان ذلك بالتأكيد في الماضي عندما كانت تسمّى باسم ليكْسوس Lixus وسُبوبوس Sububus، وسَلا Sala، وأناتيس Anatis (أو أسانا Asana)، وكون بحيرات شاطئية قد جفّت بالقرب من رأس كنْتان، مثلما جرى أيضا بالمصبّ في المحيط لوادي غريفة Oued Ghérifa أي نهر أنيدس Anidès الذي ذكره بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax، فذلك ليس فيه ما يدهشنا، إذا كان التبخر منذ العصور العتيقة قد استفاق بقوة لم تعد تعوّضها تهاطلات مناخية معادلة لما كانت عليه من قبل. لذلك فكل شيء يجعلنا نرى أن الأمر عمليا كان كذلك : أي في الشمال نتيجةً للتعرية من الأشجار التي جلبت كوارثها، وفي الجنوب بسبب تجفيف السهوب Steppes التي تحولت إلى صحارى بطريقة

تدريجية. ولنرجع إلى الفصل البديع الذي كتبه اكْصيل (التاريخ، ج 1 ص 40-100) في الموضوع، لنرى أنه لا يمكن التنصل من الاعتقاد أن بين ما يؤكده لَبْلانْشير La Blanchère بأن الظروف المناخية قد تغيرت بأرض المغارب منذ بدء التاريخ، وبين ما يعارضه به اكْصيل القائل ببقاء الوضع على ما كان عليه (Statu quo)، ثمّة احتمال لرأي وسط، لا يقول بتغيرات عنيفة وجذرية، بل يدعو – لكي يربط الملاحظات الطبيعية بالشهادات الإنسانية – إلى استمرارية التطور الذي لم يفتأ منذ آلاف السنين يضاعف الجفاف ويوسع المناطق الصحراوية بشمال أفريقيا. ففي المغرب كما في الجزائر وتونس، تبقى الصحراء أرضاً حكم عليها تضاؤل الأمطار بموت مُعدٍ وتدريجي.

ووقوفا عند تناقض له مغزاه، فالكاتب الذي أخذ عنه پْلين الأكبر، وهو أگْريبا Agrippa، إن لم يكن هو پوليب، لما وصل إلى وادي دَرْعَة Draa الذي تملأ الأحجار اليوم مجراه، فإنه يحكي أن التماسيح كانت تعيش فيه، وهي اليوم لا توجد به ولو بصفة الاستغراب الاستثنائي. إن هذه التعارضات الصارخة لا يمكن أن تنكر ولا أن تنتقص، بل يجب إرجاعها إلى الجفاف العام الذي تتولد عنه.

على أن هذا الجفاف قد يسره حتى في شمال المنطقة الصحراوية التحطيم المنهجي للأشجار، التي تكثف الأمطار، هذه التي تنظم السيلان، والتي زيادة على محاسنها، فإنها كانت دائما تكره الرعاة الرحّل أو المستقرين الذين يحطمون الأشجار دون رحمة كلما تعرقلت فيها مسيرة قطعانهم. ولم يحدث في شمال أفريقيا بالقوة التي قد حدث بها في المغرب سُعار هذه التحطيمات التي لم تنج منها غروس البساتين ولا الغابات السامقة. بحيث إن جل المواقع التي تنشر فيها النصوص

القديمة رداء من خضرة الأشجار والجنبات Arbustes، لا نرى فيها اليوم سوى نبات هزيل أو تربة صلعاء كما في رأس كنتان Cap Cantin. وعلى وجه المثل، إننا لا نستطيع أن نتصور على ضفة وادي أمْليل Oued Amlil (رافد نهر مَلْوية) المغارسَ Saltus والحيوانات الضخمة التي وصفها پْلين Pline بأحواز وادي أميلو Amilo. ونفهم فحسب أي تعرض يثيره اختلاف هذه المظاهر ضد المماثلة اللغوية الأكيدة بين أميلو وأمليل. وكذلك لا نستطيع أن نتصور على البسائط العارية الممتدة جنوبي الرباط قطعان الفِيَلة التي كانت، على قول پْلين، تعيث بأحواز سَلا. والحقيقة هي أنه لا توجد جهة مغربية لم ينخرها منذ العهود العتيقة داء إزالة الأشجار. إن السواح، عندما ينظرون بإعجاب لجمال أَرْز Cédres أزْرو، ووفرة أشجار بلّوط الفلّين Chênes-liège التي بين القنيطرة والرباط، تكسو ألفا وثلاثمائة كيلومتر مربّع بغابة المعمورة، فعليهم أن يذكروا أنهم أمام بقايا ثروة تَلفتْ. وحسب تقدير الجغرافيين، فإن «أكثر من مليونين من هكتارات الغابات قد ضاعت من المغرب»، وحلّ محلّها، كما كتب عن ذلك السيد سيليرْيي M. Celerier «مساحات عقيمة»، تصرخ «منتقمةً للشجرة».

ومع ذلك فسنخطئ إذا استنتجنا من هذه التغيرات أنها أثرت تأثيرا عميقا في تكوين النبات المغربي، فأطفأت بهجته وقللت من بهائه. إنها لم تشوّه طبيعته. فالهجمات العربية ثم الأوربية قد أدخلت من المشرق أنواعا جديدة، فالهندية (الزعْبول) agaves، والصبّار، قد جاء بهما البرتغاليون من المَكْسيك في القرن السادس عشر، وبرتقال تطوان والرباط وزرهون، وبجانبها شجرة الليمون التي لها فاكهة يسميها ڤِرْجيل Virgile تفاح ميدْيا Médie، ولا يكفي هنا تصديق الملك يوبا الذي جعل هذا التفّاح هو التفّاح الذهبي لحدائق الهِسْپِريد Hespérides. أما أشجار

القطن المغروسة في بسائط وادي سُبو، وقصب السكّر الذي أجريت محاولات توطينها لم تعط حتى اليوم نتيجة مرضية، ولكنها أبقت القديمة في الوجود. والتاريخ يعثر في الطبيعة على جميع تلك التي يذكرها كتابه. فهي نفس النباتات التي تكسو التربة، ونفس الغروس، ونفس أشجار الفواكه، التي طوال سلسلة من القرون، تكون الثروة الفلاحية للبلاد.

وعلى النقيض من ذلك فالثروة الحيوانية اغتنت وافتقرت في آن معا. فقد اغتنت بمستجلبات مهمة كالخنزير والجَمل اللذين أحرزت عليهما أفريقيا من الإغريق والرومان أو الفرس العربي. وقد افتقرت بصفة خاصة ليس فحسب بالصيد الذي كان الأهالي يتعاطونه بشغف لضمان السلامة لقراهم، والرومانيون لتزويد عروض ملاعبهم، ولصالح تجاراتهم العالية في العاج والفراء، ولكن أكثر من ذلك أيضا بسبب ردم البِرَك والبحيرات وجفاف الأنهر، وبصفة عامة بسبب قلة كمية المياه الصالحة. ومع أن الصيادين لم يستطيعوا مطلقا الوصول إلى أن يقضوا بالمغرب، كما في الجزائر، على الدِّبَبة والأُسود، فإن هذا الضعف التدريجي في وفرة الماء وفي الرطوبة هو الذي، بالاشتراك معهما، قد قضى على الفيلة والتماسيح وأفراس النهر Hippopotames التي تعجّ بها حكاياتنا القديمة. وذلك الضعف في أرض تكثر بها العظايا والعقارب والأفاعي والجراد هو وحده الذي جعل حدا لوسق الحلزون الذي كان يتعاطاه في الإمبراطورية الرومانية بعض تجار الساحل.

على أن فوق هذه التغيرات الحيوانية بقي عنصر يظهر أن يد الزمان لم تمسسه مطلقا، هو نوع، سواء باشتراك أو بانفراد، فإن بساطة أخلاقه، وجِبلّة أمزجته وليونته في التكيف، كلها صفات وَقَتْهُ من التغير، إنه الإنسان. ففي المغرب يعيش البيض بكثرة كاثرة مع السود،

يحيون تارة مختلطين وتارة منعزلين بعضهم عن بعض، خصوصا بالجنوب. ومهما صعدنا في الماضي، فهم فيه متجاورون قديما، بحيث إن سترابون Strabon – كعلماء الإثنوغرافيا المعاصرين – لم يكن قادرا على أن يسطّر في المناطق التي يحدّها المحيط خطاً يفصل بدقة بين ليبيا التي يسكنها البيض، وبين إثيوبيا الآهلة بالسّود. فبالنسبة للهيلّينيّين واللاتانيين من بعدهم، فالسّود يُسمّون باسم معروف هو الأثيوبيون (اَيْثُيوبس Aethiopes). فاسم الجنس المأخوذ في الإغريقية من لون وجههم المحروق (brulé) قد أُطلق على الأرض التي يقيمون بها، وكان يشمل مختلف العشائر التي ميّز پْلين Pline من بينها : عشائر النِّگْريتايْ Négritae المقيمين بداخل القارة حتى نهر نيگْريس Nigris الذي يظهر أنهم تسمّوا باسمه، أي وادي جِدِي قبل أن تبتلع رمال الصحراء مجراه العظيم الذي لم تعد به عادة سوى الحجارة. وعشيرة بيرورْسي– فاروسيي Perorsi- Pharusii المتدرجين على طول البحر المحيط. ويتذكر سْترابون بعض غارات هؤلاء السّود في الشمال، ولكنهم في الغالب يكونون مهجوما عليهم لا هاجمين، وكانوا في العادة مرتبطين باستغلال الواحات حيث يستطيعون وحدهم مقاومة الحُمّى، وحيث كثيرا ما حدث أن ساقهم القرطاجيون والرومانيون عبيدا. فإذا كانت كثافتهم السكانية قد ضعفت، وإذا كانت حدودهم السلالية أرجعت اليوم لخارج المغرب، لما وراء جَوْن أرْگين Arguin فذلك لأنهم قد طردهم البيض. وعندما انتشر الأهالي البيض في الصحراء كلها (لا يدري اگْصيل متى أو كيف، ولكن على ما يحتمل بسبب الضغط المتزايد للجمّالين)، فإن الأهالي البيض انتشروا في الصحراء جميعها حتى السودان. إنهم مشدودون بتكوينهم الجثماني إلى ظروف العيش التي يخضعون لها دائما. وهم الآن يحيون الحياة الرديئة كما في الماضي. وقبل إثارة

فضولنا، فإن أغرب عاداتهم قد أثارت فضول المراقبين القدماء، مثل عادة صبغ بشراتهم. وهي عادة نلاحظ بقاء وجودها في وسط أفريقيا، والتي حافظ عليها الأثيوبيون البيض الذين ذكرهم پْلين Pline، وميلا Méla. والأثيوبيون الحُمر Rouges الذين ذكرهم بطليموس Ptolémée، أي السّود الذين كان بعضهم يصطبغ باللون الأبيض، ويصطبغ آخرون باللون الأحمر، تقريبا مثل الأثيوبيين الذين بجنوب مصر، وقد تحدث عليهم هيرودوت Hérodote، وكانوا يصبغون أبدانهم، نصفها بالجير ونصفها بالزنجفر Vermillon. وسواء تعلق الأمر بسير الحياة اليومية في واحات النخيل، أو بأوليات تقنياتهم، أو بالأغروبات الوهمية في أناقتهم، فالسّود الصحراويون يرجعون بنا إلى المغرب في صميم العصور العتيقة.

وكذلك فإن الأهالي الذين من الجنس الأبيض ينقلوننا مع بعض التغيرات إلى أبعد الأزمنة. فالمغرب استولى عليه العرب، وهو آهل بالسكان البربر، كما كان الأمر حينما اقتحمه القرطاجيون، ثم حكمه الرومانيون، إذ كان آهلاً بالليبيين. فليبيون وبربر لفظان مترادفان للدلالة بطول القرون على حقيقة واحدة، هي أن الرجال في نفس المناطق قد غيروا الإسم كما غيروا السادة والأماكن. وحافظوا فيها دائما على نفس الهندام والنفس حتى لكأنهم خالدون. إنهم في نموذجهم وفي عاداتهم ومزاجهم وعقليتهم، يمكثون في أعماقهم كما عرفهم التاريخ دائماً، سُمر اللون وبأكثرية قاتمة، شُقْر وبلون نير في بعض الجهات، هنا بقامات قصيرة، وهناك بقامات عالية جدا، البعض منهم رُحّل والآخرون مستقرون، وامتزاجهم الخلقي مع الشعوب يصعد إلى ما قبل التاريخ وفي اختلاف أقوامهم يقدمون لنا الخطوط التي لا تمحى، والتي فاجأت القدماء ولا تزال ثابتة لم يقع محْوها. وفكرة تعارض المجموعات التي

نوزعها عليها، هي فكرة ثانوية ومتنوعة ولا يمكن أن تخفي عنا الأصل المشترك الذي يخرجون منه. والحق أنه لا قيمة في أن نرتّبهم في بني يَزْناسَن Beni Snassen، وزْناگة Zenaga، وبرابر وشلوح، وأن يكون ابن خلدون قد صنفهم إلى مصمودة، وغُمارة وصنهاجة وزناتة. وقبله كان الكتّاب الكلاسيكيّون قد عارضوا أولاً الموريّين Maures في المغرب بالجيتوليّين Gétules الذين كان منهم الأُطُلوليون Autololes بجنوب سلا. ثم نسوا الجيتوليين واعتبروا الموريين فريقاً من النوميديين بنفس صفة الماسيليين Massyles والمسيسيليين Masaesyles الذين قد تأكد وجودهم في بداية التاريخ الميلادي بشمال تطوان. وختاما ففي عهد الدولة السفلى Bas-Empire أطلق اسم الموريين على جميع الأهالي في بلاد البربر. ففي كل هذه الفروع، وفي جميع الحقب جرى نفس ماء الحياة Sève. ومهما بدوا لنا منقسمين، متواجهين قبيلة ضد أخرى، أو كما قد نقول في صوف ضد صوف، فالليبيون والبربر توحّدهم كذلك وطنية منبنية – عدا الاعتبارات الترابية – على الشعور بوحدة الدم، شعورا يقوّيه التقارب الدائم للهجات المتولدة عن أصل مشترك، هو اللغة الليبية التي لا شعوريا، صارت هي اللغة البربرية بأبجدية الطوارق التي تنقل حتى اليوم علامات لها ألْفان من السّنين. وعملا بوطنيتهم السلالية، فهم لا يفتأون يستندون إلى الطاقات الأبدية التي تميزهم، وهي القوة والاحتيال، والطبع الصراعي والجرأة، والمصابرة في العَوَز والتعب، وفردانية Individualisme غيورة، وشعور حادّ بعدالة المساواة. وهم في المغرب كما في بقية أرض المغارب، أياً ما كان الفخذ الذي ينتمون إليه، والنسب الذي ينتسبون له، يستمرون في التشابه كالإخوة رغما عن تجزئتهم وتباعدهم. ومع ذلك فهم اليوم كما كانوا بالأمس لا يجتمعون إلا إذا أرغمتهم على ذلك سلطة مفروضة من الخارج. وإذا كان التاريخ

الحديث للمغرب يتضح في سلسلة الأسَر التي باسم الإسلام أحلت به هؤلاء الفاتحين المتتابعين. فالتاريخ القديم للمغرب متكوّن من سلسلة من السيطرات التي وصلته، ولم تتصادم مثل ما وقع عندنا مع تعارض الديانات، ولم تستفد كذلك من الانعدام الصارخ للمساواة في الأسلحة، لفائدة الأوربيين الذين يقيمون به بقوة تزيد أو تنقص. والحقيقة هي أن تاريخ المغرب لا يبدأ إلا مع الإقامة الأولى تاريخيا للأجانب على سواحله، وهي وصول الفينيقيين الذين أنشأوا قرطاجة في شمال أفريقيا.

2

الخطوط الكبرى للتطور التاريخي

يخرج المغرب مما قبل التاريخ عند ما – حول نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد – حطّ به من البحر الساميون القادمون من سورية، المعروفون باسم الفينيقيين أو البونيقيين. وهو يدخل العصور الوسطى حين تقتحمه في القرن السابع الميلادي الموجة الأولى من العرب المسلمين. وبين هذين الطرفين المتباعدين 18 قرنا من التاريخ الذي يكون أعصره القديمة.

وأثناء هذه الحقبة الزمنية الطويلة، فإن تربته، وسكانه الأهالي، وهم الليبيون الذين ذُكر اسمهم بصيغة لِبو Lebou في هيروغْليفيات الفرعَوْن منِفْتاح Menephtah في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ومن هؤلاء ينحدر في خط مستقيم بربر اليوم، وقد أخذوا علامات الحضارات التي جلبها لهم سادتهم الأجانب. وهم أولاً البونيقيون[1] من القرن الحادي عشر إلى سنة 146 ق.م التي هي سنة تهديم عاصمتهم على يد فيالق سيپْيون إميلْيان Scipion Emilien، ثم الرومانيون منذ 146ق.م إلى أن ظهر في 647 م فرسان سيدي عُقبة على الساحل الأطلسي.

الفينيقيون

أما عن الاحتلال الأقدم للمغرب من قِبَل الفينيقيين فنحن لا نعلم لا مداه ولا طبيعته ولا تقلباته. ونعلم فحسب بالأصداء المتأخرة عن رواية طويلة وأكيدة، أنه تقريبا في الزمن الذي حل فيه الصوريون Tyriens في قادس Gadès سنة 1101 ق.م، وربما قبل ذلك بقليل، فإن صوريين آخرين قد أنشأوا على المحيط بالجهة الأخرى وعلى نفس المسافة من مضيق جبل طارق، على 4 كيلومترات بأعلى العرائش بالضفة اليمنى لوادي اللكوس O. Loukkos مستوطنة اسمها لكس Liks باسم بربري صار هو لِكْسُس Lixos بالإغريقية وليكْسوس Lixus باللاتانية، وجعلوه مثل قادس في رعاية ربّهم الوطني مِلْقارْت Melqart الذي مثل فيه الإغريق هيرَكْليس Héracles، والرومانيون هِرْكول Hercule.

ثم يعم الظلام إلى نهاية القرن السادس قبل الميلاد. ففي هذه الحقبة سمع هيكاتي الميليتي Hécatée de Milet بمنشآت أخرى بالمغرب، لا يمكن أن تكون إلا فينيقية أو مُتَفيْنِقَة Phénicisées، هي تِنْجي Tingi التي حلّت محلها طنجة، وثْرانْكي Thrinké، ومِليسّا Mélissa، الموقعان اللذان فَقدْنا عنهما أي أثر فوق الأرض. ولكن من المحتمل جدا أنهما كانا يقعان بين رأس سْبَرْتِل Cap Spartel شمالاً ومصبّ وادي اللكّوس جنوباً. على أن اختصار الإحالات المستخلصة من مؤلفات هيكاتي التي أبلغها لنا إتْيان البيزنطي Etienne de Byzance بعد نشرها بإثني عشر قرناً، لا تسمح لنا مطلقا بمعرفة أي البونيقيين يجب أن نعْزو لهم هذا

الإنشاء : هل للفينيقيين القادمين روادا من المشرق ؟ أو الذين أبعدوا إلى أفريقيا حول سنة 813 قبل الميلاد، وأقاموا في هذه السنة عند مدخل البحر الأبيض المتوسط الغربي مدينةَ «صور الجديدة»، المسمّاة قرطاج Carthage (قَرْتْ حَدَشْتْ qart-hadasht) أي القرية الحديثة = المدينة الجديدة، مما يدل على ذلك الإنشاء ؟

إن عظمة قرطاجة اقتضت ثلاثمائة سنة في الإنشاء. وفي القرن الخامس قبل الميلاد ترسخت في آن واحد في قوة الدولة التي أسستها في تونس، وفي سعة الإمبراطورية التي كانت تستولي بها على جزر البحر التِّرهوني Mer Tyrrhenienne، أي سرْدانية، وصقلّية، والبالْيار، وإسبانيا الجنوبية، وجميع سواحل إفريقيا الشمالية. إذن إنها حسب علمنا تتصل لأول مرة مع الموريّين Maures، أي مع الليبيين الذين يسكنون لا المغرب وحده، بل أيضا المناطق الوسطى والغربية من الجزائر، وقد استُخدم من بعدُ الإسم السّلالي لجمع هذه الشعوب كلها تحت اسم واحد هو موريطانيا. وكل هؤلاء الموريين دون تمييز جعلتهم قرطاجة يحسّون بقدرة أسلحتها في عهد حكم حفيدَيْ ماگون Magon، وهما حنّون Hannon، وحملْكون Himilcon ما بين 475 و450 قبل الميلاد. وفي ارتباط لاشك بهذه الحَملات الناجحة، فإن أحدهما، وهو حنّون، قد قرر القيام بأقوى مجهود للاستيطان قامت به قرطاجة على الساحل المحيطي بجنوب وشمال مُرْتفع سولويْس Soloeis (رأس كَنْتان)، وتبعه دون مهلة استكشافٌ جريئ امتد لما وراء السينغال، حتى خليج غينْيا Guinée على سواحل السودان منتج الذهب.

ثم ينزوي بعد ذلك المغرب في الصمت. لكن بالرجوع إلى الوثائق المتأخرة بعدة قرون، يمكن أن نضيف لمدنه البحرية التي ذكرها إما

هيكاتي Hécatée، وإما رحلة حـنّون Le périple d'Hannon موانئ مغربية أخرى تشير أسماؤها بالتأكيد إلى أصل بونيقي هي : روسَّدير Russaddir (مليلية)، و سَلا (شالة قرب الرباط)، و روسِبيسْ Rusibis (مازيغَنْ، الجديدة الآن)، وروسَّدير أخرى. التي يمكننا القول بأنها هي موقع أگادير، لا في موگَدور (تَموزيگا Tamuziga) ؟

على أن القرطاجيين وهم يتقدمون بعيدا جدا نحو الجنوب بسفنهم الخماسية ومراكبهم المستديرة، لم يكونوا يبتغون لا السيطرة على مناطق واسعة، ولا أن يتحملوا حكومة العشائر التي أنشأوا بينها مدنهم. ولاشك أن سيادتهم كانت قد فرضت نفسها بالحروب المنتصرة. كما عبّر عن ذلك جوسْتان Justin في كلمة تبيّن الحقيقة، دون أن توضح التفصيل. ولكن حتى إذا أثبتوها بهذا الجهد الحربي فإنهم أهملوا تحويلها إلى عملية احتلالية. إن القرطاجيين الأوفياء لعبقرية جنسهم قد فضلوا في المغرب كما في الجزائر السيادة البحرية الخاصة والدائمة تحت حماية راية يخشاها ويحترمها الكل، عوضا عن المعارك المتجددة دائما لتملّك الأرض، والاستئثار دون منازع بالأسواق، وعوضاً كذلك عن المخاطرات بالمواجهات في ميادين الوغى، وأيضا بالضغط الاقتصادي عوض الإكراه العسكري، وبالاستثمار الخفي عوض الاحتلال جهراً. فمستوطناتهم التي كانت في آن واحد حصينة ومزدهرة على البحرين الأبيض المتوسط والمحيط قد حافظت لعدة قرون حول هذه الجزيرة العظيمة التي تلطمها الأمواج والرمال، وهي أفريقيا الشمالية، حافظت على حصار ليس فيه صدع، ويضمن لهم سيادتهم في صمت. وبواسطة هذه المستوطنات فقط عرف الموريون كالنوميديين وجود عالم خارجي، ومن خلال شبكتها كانت تمر ريح الحضارة التي صاروا يتنسّمونها. هذه المستوطنات كانت، من غير احتياج لقوة عاصمتها قرطاجة، هي

التي أنَّسَتْهم رويداً رويداً وشكّلتهم على مثالها. وبذيوع المنتجات المحررة من المزاحمة الأجنبية، التي كانوا يباذلونهم فيها حسب هواهم، وبجاذبية ثرواتهم، وبطرائقهم الرفيعة والجذابة في العمل، فإنهم سَمَوا بهم إلى مستوى في الحياة يقترب من مستواهم شيئا فشيئا. كانوا في الظاهر لا يهتمون بحكمهم ولا بخصوماتهم، فكانوا بذلك يؤثرون عليهم تأثيرا عميقا جدا بإشراق وجودهم. وقد كفاهم أن يتمتعوا بينهم بحرّية لا حدود لها ولا مزاحمون لينجحوا في أن يزاولوا عليهم المزايا الضمنية للسيادة التي تفضي إلى أن تكون مقبولة لدى الجميع، من غير أن تشعر بالحاجة للتعبير عن نفسها في أي مكان، والتي بليونتها قد ترسّخت تدريجيا.

في النصوص القديمة، ذُكرت هذه المستوطنات القرطاجية بالمغرب بأنها مدن «ليبية فينيقية Libyphéniciennes». وصحيح أن هذا اللفظ إذا أخذ حرفيا، لا يكون معناه إلا أنها كانت مسكونة بفينيقيي ليبيا، أي بالقرطاجيين. لكن الأسهل أن يُدعوا «قرطاجيّين» باختصار، إذا كان اللفظ لم يأخذ عند الاتصال بالحقيقة معنى أكثر دلالة وأكثر غنى، وإذا لم تكن المدن الليبية الفينيقية لم تمتزج فيها قليلا أو كثيرا العناصرُ السلالية المسيطرة. ويجب اعتبار قوة التكيّف العجيبة التي للبونيقيين الذين سكنوها، وموهبتِهم العجيبة في تعلّم لغات الأهالي، والسهولة التي تدهش الإغريقي أو الروماني، إذ بها يتزوّجون في البلاد التي يقيمون فيها، وختاما وعلى الخصوص القابلية الغريبة التي بها يعرفون الموارد الطبيعية ويستغلونها. ومما لاشك فيه أن هذه المستوطنات قد كوّنت مع الزمان الكثير من المراكز لحضارة مزدوجة انتشرت شيئا فشيئا من الساحل نحو القارة، وأعطت التفوق لروح قرطاجة في كل الشمال الإفريقي ولآلاف السنين.

وبالتأكيد فإن قرطاجة، بواسطة المستوطنات، ضمّت إلى إمبراطوريتها بربر المغرب وبربر الجزائر، بعمل وحيد هو أنها فازت بهم لحضارتها. لقد أحاطت بهم في أمكنة اقتصادها، وعوّدتهم على أخلاقها، وأخيرا أخضعتهم لإرادتها. وبدون أن تُظهر أنها تحدث لهم إلزامات بالتدفع الصامت لاحتكاراتها التجارية وبسلطة أرباحها، فإنها علّمتهم استخدام المعادن. ولولاها لمكثوا يجهلونها، خصوصاً الحديد الذي اسمه البربري أزَّلْ Azzal الذي يذكّرنا باسمه العبراني بَرْزل Barzel، وثبتتهم على الأرض لزراعة الحبوب وغرسها بأشجار الفاكهة التي كثرت، ومنها فيما بينهم الدوالي التي علّمتهم غرسها، والرمّان الذي جلبته من المشرق، ولا يزال الرومانيون يسمّونه التفّاحَ البونيقي (Malum punicum)، والزيتون – زِتونْ – Zitoun – الذي يشبه الزيتون البرّي Oléastre، فسمّوه به، وسريعا ما عرفوا كيف يعتصرون الزيت، الذي يسمى زِتْ Zit في لهجاتهم وهو من لفظ أصله فينيقي. وفي ذلك الوقت نفسه، ودون أن تندفع في الدعوة إلى الدين، الأمر الذي يخالف كبرياءها في عدم الاكتراث، فإن قرطاجة جعلتهم يعبدون ربّها بَعْل حمّون Baal Hammon الذي كانت قبل ذلك قد شكلت خطوطه على معتقداتهم. وبدون أن تهينهم أو أن تخضعهم جهارا فإنها أدرجت ملوكهم ورؤساءهم في تحالفات صيّرتهم باعتراف منهم أدوات لسياستها. وعوضا من أن تنزع سلاحهم فإنها موّلت تجنيدهم في جميع الحروب التي لصالحها، قد تضخمت فيها وحداتها بوحداتهم منذ حروب القرن الخامس ضد إغريق صقلية إلى المعارك ضد الرومانيين، حيث قُبيل معركة الإبر Ebre «دخل موريّو المحيط Maures de l'Océan» في خدمة حَسْدرُبَعْل. وقد حصلت منهم على ولاء أعمى إلى حد أنها كادت تكون ضحية له. فحول 340 ق.م، خلط الموريون جمهورية قرطاجة بأحد

مسيريها، وربطوا مقاديرهم بحظوظ الشوفيط Sufète الذي كان في نظرهم يمثّلها، وانخرطوا دون وعي في ثورة ضد أولِغَرْشية قرطاجة. فإلى هذا الحد كانت قد حققت الامتزاج Assimilation الذي أظهر أن المورِيين لم يبدوا أكثر تعلقاً بالحضارة البونيقية إلا بعد سقوط قرطاجة.

الملـوك الأهـالي

منذ سنة 146 ق.م، مرت الممالك الأهلية، إذا صح التعبير، إلى السيطرة الرومانية التي حلت بالنسبة لهم محل السيطرة البونيقية. وفي الوقت نفسه نشاهد عودة مشعة لقرطاجة الضائعة، التي لم يكن مجلس شيوخ روما قرر – على ما يحتمل – تخريبها إلا ليمنع أمراءهم من السيطرة عليها.

إن جميع القرطاجيين الذين عاشوا بعد المجاعة من حصار دام ثلاث سنين، ثم نجوا من التقتيل في الهجوم الأخير، ولم تحملهم سفن إيمليان Emilien ذات الصفوف الخمسة من المجاديف Quinquérèmes عبيدا إلى إيطاليا، إنهم جميعا التجأوا عند النوميديين وعند الموريين، وقووا فيما بينهم العمل المجدي الذي كان حكامهم يسيرونه من قبل. فقرطاجة التي أحيلت رمادا، كانت على غرار كوكب قد همد ولكن أنواره استمرت تشع بعد انطفائه مدة قرون، وتابعت من تونس حتى المحيط رسالتها التمدينية. ولأول مرة إذن، حول سنة 118 ق.م تظهر في نقوش أفريقيا الكتابة البونيقية الجديدة التي ستفيد انتشار لغتها تفيد اللهجات البربرية التي لم يسبق أن اتضح بالحجة أنها كانت موضوع كتابة، فارتفعت حتى إلى وَليلي Volubilis لمستوى خطّ أبجدي، بحيث إن الاستعمال والانتشار يشهدان ويقيسان التقدم الذي قامت به القبائل التي تعلمت قراءة تلك النقوش. وقد اقتبل الملوك الأهالي في نوميديا الخزانات البونيقية التي نجّاها إيميلْيان من النيران التي أوقدها،

وأعادوا العمل حتى في ليكْسوس Lixus في الأطرزة القديمة لضرب السكة، وقرروا أو حافظوا على اللهجة الفينيقية لكتابة وثائقهم الرسمية. فقرطاجة لم تعد هي قرطاجة التي اجتُثت من فوق الأرض، ولكنها موجودة بكليتها حيثما يوجدون هم أنفسهم. وحتى بالمغرب حيث يصرّون كما في سيرْتا Cirta على نوع الحياة التي أدخلتهم فيها فيما مضى.

ولم تشعر الحماية الرومانية بأنها مهددة بمجهوداتهم. بل على النقيض من ذلك استفادت، بمعنى أنها اتخذت بكل بساطة لحسابها موقف البونيقيين تجاههم. إذ من 146ق.م إلى عهد الإمبراطورية، فإن روما لم تهتم بشؤونهم الداخلية. واقتصرت على الإمساك بهم لهواها في اتحاد غير متعادل بالحصار البحري والتجاري الذي سجنتهم فيه أساطيلها، مثلما فعلته سفن قرطاجة من قبل. وفوق ذلك فإنها وجهت مزاجهم الصراعي ضد خصومها هي، وذلك بأن أدمجت – كلما سنحت الفرصة – بحرب تقاد باشتراك وحداتهم Mehallas مع جنود فيالقها. وبالمناسبة تذكّرتْ أن عند نهاية الحرب البونيقية الثانية، كانت جيوش باگا Baga الملك الموري قد انضمت لجيوش حليفه مَسنيسّا ضد قرطاجة. ولم تفتر عن الاستفادة في آن واحد بالمغرب من خلافاتهم ومن قيمتهم القتالية. ففي عهد ماريوس Marius وسيلا Sylla استعملت التواطؤ مع بوخوس الأول Bocchus I، ملك الموريين، لاعتقال يوغرطة Jugurtha ملك النوميديين. وأدت ثمن الخدمة الكريهة لشريكها، بأن أضافت للدولة المغربية، لبوخوس الأول، ثلاثة أرباع الجزائر، التي ما بين مَلْوية والوادي الكبير، وكانت ملْكاً ليوغرطة. ثم قلقت من الأهمية التي اكتسبتها فجأة موريطانيا التي أنشأتها هكذا، فشجعت فيها ثورة حاكم الريف الذي اقتطع لنفسه حول طنجة إمارة مستقلة إلى حدّ ما،

تحكمها أسرة إيفتاس Îphtas وأسْكاليس Ascalis، وهي التي هاجمها سرْطورْيوس Sertorius. وبعد موت بوخوس الأول حول سنة 80 ق.م قامت بتقسيم المملكة بين ولدَيِ الملك الهالك، وهما بوخوس الثاني الذي كان ملكاً بالجزائر، وبوگود Bogud الذي تولّى على البلاد الموجودة بين مَلْوية والمحيط.

ويمكن ابتداء من هذا التقسيم التأريخُ لمولد المغرب كقوة مستقلة، لأن حدوده من الشرق والغرب تتفق إلى حدّ ما مع حدود مملكة بوگود، غير أن موريطانيا الغربية لم تبرز مطلقا في العهود العتيقة ذاتيتَها القطعية التي نالها المغرب في عهد الإسلام، بحيث إنها دائما حافظت فيها على الصلات التي كانت تقربها من موريطانيا الشرقية، وعلى ذكرى الروابط التي جمعتهما. وحتى فيما بعد، عندما انفصلت أحيانا من جديد بالخط المتغير الذي وضعته الحكومات الرومانية، فإنها لم تتميز عنها أبدا إلا بالأوصاف التي كانت تصاحب اسم موريطانيا الذي في اللاتانية قد عرفت به هذه الولاية وتلك، المختلطتان دائما.

وفوق هذا، فمهما كانت هذه الاختلافات اصطناعية ومؤقتة، فروما سارعت لتقوي بها سيادتها. وحتى قبل أن تستخدمهما، لما احتلت كتلة الموريطانيتَيْن، فقد عملت على أن إحداهما توقف في الأخرى القوات الضرورية لمملكتها المنفصلة. ولقد نجحت جدا في هذه السياسة المتوازنة إلى حد أنه عند وقوع الصراعات التي مزقتها هي نفسها، فإن الملوك المورِيين، عوضا عن انتهاز الفرصة جميعا للخروج من دائرة الأحلاف الثقيلة، فإنهم أشبكوا فيها أنفسهم، إما بالانتصاب دفعة واحدة لمناصرة قيصر ضد نوميديي يوبا الأول الذي كان سنة 46 ق.م يناصر حزب مجلس الشيوخ الملتجئ إلى أفريقيا، وإما بارتماء الواحد ضد

الآخر باندفاع في المعسكرين المتعاديين، اللذين بعد اغتيال الدكتاتور توزع بينهما القيصريون، فسار بوگود مع حزب أنطوان، وبوكوس الثاني الذي أحسن الاستلهام، أو ناله حسن الحظ فكان مع أوكتاف Octave.

وانتصر هذا الأخير فجازى بوكوس الثاني بأن أعطاه في سنة 38ق.م – باستثناء عدد من المدن – دولة بوگود (الذي سيندحر ويقتل في ميطونة Methoné بميسينيا Messenie سنة 31 ق.م)، الأمر الذي جعل الوحدة بين الموريطانيتين تعود إذن تحت صولجان الملك الذي كان لعب على اللوحة الرابحة. ولكنه مثل بوگود لم يتنصل من قضية روما، وهما معا كانا دائما يوفقان ولاءهما لها مع ارتباطهما بالثقافة التي ورثاها عن قرطاجة، والتي لم يخطئ الرومانيون في الاستياء منها.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكونوا يجهلون أن القوة التي قهروها كانت في الحقيقة منتسقة حول حاضرة هيلنسْتية hellénistique امتزجت فيها جميع التيارات الممدنّة في البحر الأبيَض المتوسط – مثلما تصب الآن في نهر التيبر – سواء منها التيارات المنبعثة من الشرق حيث الديادقة diadoques، والتي تأتي من بلاد الإغريق نفسها حيث الفنانون والكتاب وحيث كتّاب تاريخ حنيبَعْل Hannibal هاجروا إليها، والذين ينزلون من إيطاليا حيث الصناعات الأترورية étrusques، وتجّارهم الخاصون انتقل إليها العديد منهم. لقد كان الرومانيون يفهمون أن أي تقدم تحققه في أفريقيا الحضارة القرطاجية فهو يساعد فيها تغلغلهم. فكانوا عمدا يتركون الملوك الموريين يزرعون بأرض أفريقيا البذور البونيقية، وقريبا أو بعيدا يحصدون غلتها.

وبوفاة بوكوس الثاني سنة 34 ق.م، كان أوكتاڤ Octave يستطيع حصدها مقدما. ولكن عمليات أخرى كانت بجهات أخرى تدعو جهوده.

ولقد قاوم الإغراء، واكتفى في موريطانيا بالسيطرة على الجسور وعلى مفترقات الطرق المؤدية لمستوطنات قدماء المحاربين الذين وزع عليهم الأراضي الشاغرة التي حولها. ولهذا العهد ترجع المدن الرومانية التي ملأت بازدهارها قسمي المملكة القديمة لبوكوس الثاني : أي إيـگَلْـگيلي Igilgili (جيجلي)، صَلْداي Saldae (بْجاية)، روسازو (Port Gueydon) Rusazu روسْگونْياي (Matifou) Rusguniae ، گونوگو Gunugu (گوراية)، كَرْتـِنايْ Cartennae (تنيس)، توبوسوبْتو Tubusuptu (تكلات)، أكْواي Aquae (حمام ريغة) بالجزائر، وتـِنْجي Tingi (طنجة)، وزيليس Zilis (أزيلا، أصيلة)، وبابّا Babba (ريغة على وادي بهت ؟)، وبناسا (سيدي علي بوجنون على نهر سبو) بالمغرب.

وسنخطئ إذا لم نُعِر سوى أهمية قليلة لهذه المحاولة الاستيطانية العظيمة وراء البحر. وفعلا، فبهذه «السيطرة الضيقة» – مثل التعبير الذي قد يعبر به النواب في عهد لْوي فيليپْ Louis-Philippe حين كانوا لا يقدرون على دفع مَلَكية يوليوز Monarchie de juillet لاحتلال الجزائر – قد عاد أوكتاڤ بحيلة سياسته العامة إلى جنوده في الحرب الأهلية، إلى المنهج الذي ليس فيه مخاطرة ولكن فيه فوائد، وكانت الأوليغَرشية القرطاجية قد طبقته عند الموريين. وبهذا فإنه كان يتلافى المصاريف الفادحة لإدارة مباشرة. وفي حقبة كانت تحضيراته ضد أنطوان وكليوبترة تستغرق جميع جهوده، فإنه كان يصون فيالقه عن حملة، ربما لم تكن لتكلفهم كثيرا من التضحيات، ولكن تاريخ يوغرطة الذي نشره سالوسْت Salluste حديثا كان قد قرن فيه المصاعب بالآلام المنتظرة. وفي نفس الحين كان يقوي ببعوث جديدة للمهاجرين، الوضعيات التي نالها بالمتاجرين الإيطاليين في دولتَيْ بوكوس الثاني وبوگود، بفضل

التسامح المحتوم للملوك القدماء. كان يشعر الأهالي باحترام قوته العسكرية الظاهرة في جميع المدن التي أسكن فيها جنوده من قدماء المحاربين جزاء لهم على انتصاراتهم. وكان يهيئ على الخصوص بهذه المحاولة الأولى في التكييف للمستقبل السلمي الذي ستصير فيه موريطانيا بدورها أرض توطّن للرومانيين.

لكن، ومع الزمان، هناك الخوف من هذه المستوطنات المنعزلة وسط القبائل التي قد تعود لاضطرابها من جراء غياب سلطة مركزية. وقد كان أوكتاڤ مرغما على إعادة تكوينها الآن أو بعد الآن. ولكن نظرا لأنه لم يكن يرى أن يأخذ الأمر بيده هو، فقد انتظر بأناة الساعة التي تكون مواتية والرجلَ المناسب لتمكينه منها دون تهور.

ولكن بعد أن حمل أوكتاڤ بسنتين اسم أوغُسْت Auguste الإلهي، وبعد أن رسخ نظامه الدكتاتوري، فإن أميراً بربرياً كان قد ربّاه تقريبا، هو ابن يوبا الأول، ملك النوميديين الذي كان قيْصر قد احتجز مملكته وأخذ أسرته للأسْر. هذا الأمير قد أبان عن قيمته بجانب الإمبراطور في الحملة ضد الكَنْتَبْريّين Cantabres. ثم في سنة 25 ق.م، قرر أوغست بإلهام لم يكن منتظراً ولمعت فيه عبقريته، أن يرفع على رأس يوبا الثاني تاج موريطانيا، انتظارا لاستلحاقها بالإمبراطورية في المستقبل. فكلف هذا الشاب الذي عمّر 25 عاما، أن يكمل في نطاق السلام الروماني، «تربية» المغرب والجزائر كلها الموجودة بين مَلْوية والوادي الكبير. إذ كان رأيه الحصيف يرى أن تمدين أحد الشعوب هو أضمن وسيلة لربح ذلك الشعب من غير عملية للشرطة. ولا يكون الاستيلاء على الأراضي راسخا ودائما إلا إذا سبقه الاستيلاء على القلوب :

Nullum imperium tutum nisi benevolentia munitum (Népos, Dio 5).

ولهذا فما كان أوغُسْت ليستطيع، وهو ينجز هذا العمل، أن يختار أحسن عامل من يوبا الثاني. إن هذا الأمير البربري كان يحمل إلى الموريين في شخصه مثالا حيا يُعْدي، كأنه تركيب للعناصر المكونة لحضارة ذلك العهد التي تَمثلها هو بصفة عجيبة. فطفولته الأولى جرت بالقصر النوميدي، في جوّ «ليبي بونيقي»، حيث كان بوكوس الثاني وبوگود بدورهما يعيشان، ثم نُقل إلى روما في الخامسة من عمره، ليظهر في موكب التمجيد الذي أقامه يولْيوس قيْصر في صيف 46 ق.م، ثم أعتق من عبوديته، ورُبِّي بعناية الدكتاتور. ولم يقع على ما يظهر إهمال أي شيء لجعله في مستوى نخبة الشباب الروماني. ولم يقع فحسب تدريبه على مهنة السلاح، بل لم تَجْر المحاولة لجعله ينسى ما تعلمه في أفريقيا من اللغتين الليبية والبونيقية، ودُفع به لتعلم المؤلفات التي أنتجتها روما وبلاد الإغريق في الآداب والفنون. فقد كانت له الموهبة الفنية التي لجنسه، ولم يلبث أن تَفوّق في جميع التدريبات التي درّبه عليها معلموه، مع تفضيل للغة الإغريقية وآدابها. وقد أتاه هذا التفضيل وكأنه ميراث لديه، لأننا نعلم مقدّما أن أبناء جدّه مَسِّنيسا لم يخشوا من الذهاب إلى أثينا ليتألقوا بها في المباريات الرياضية، أو ليجلبوا منها الفلاسفة الذين كان حضورهم المباغت بسِيرْتا في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م، قد كسا حاشية مَسِبْسا Micipsa العجوز بوقار الأكاديمية. كما أن هذا التفضيل كان يتوافق مع الأذواق التي أبداها الملوك الموريون أيضا. ويظهر ذلك في زواج آخِر ملوك المغرب بوگود بأونُوي Eunoé الإغريقية، ذات الاسم العذب التي جعل لُطفُها سْويطون Suétone يسجّل اسمها في لائحة المطاردات الغرامية ليولْيوس قيصر. وتضاعف ذلك أيضا عندما تزوج يوبا بإرادة أوغست في سنة 19 ق.م بالخطيبة التي كانت معيّنة له منذ عدة سنين، وهي إغريقية رومانية

من مصر. إنها الفتاة كيلوباترة سلِيني Cléopatre Séléné المولودة بالإسكندرية سنة 34 ق.م، من ارتباط أَنْطوان وكيلوباترة الكبيرة. وبعد الموت المأساوي لوالدَيْها، تلقّتها أوكتافيا Octavie أخت الإمبراطور، أرملة أنطوان في بيتها. وبه شبّت مع أَنْطونيا Antonia أختها من أبيها، التي ستكون في المستقبل أمّاً لجيرْمانيكوس Germanicus وكْلود Claude. وأخيرا تحول من مشاغل تنظيم حكومته واستراح من نزوة رحلاته التي قادته بموافقة أوغُست حتى إلى شواطئ الفُرات، ثم استراح بعد تطليقه لـكَلْفيرا Glaphyra، التي بعد وفاة سِليني ارتكب خطأ الزواج بها في قَپادوقْيا Cappadoce. وقد استطاع يوبا إرضاء هذا الميل التفضيلي – بقدر ما سمحت له عائداته المالية العظيمة – لمسراته التي لم يكن يميل لغيرها. فقد أنفق الذهب ليستجلب ويحيط نفسه بطائفة من المفكرين والفنانين الإغريق، من نحّاتين أغنوا مجموعاته بإبداعاتهم وتقليداتهم، ومن علماء يجوبون العالم ليزينوا خزانته بالمخطوطات النادرة، إن لم يُدخلوا فيها عن خطأ أو جشع مزيّفات قيّمة مثل بحوث فيتاغوراس Pythagore، ومن قرّاء وكتّاب يساعدونه في إشباع نهمه للمعرفة، وفي التأليف بالإغريقية لكتبه التي لا تحصى في التاريخ، والتاريخ الطبيعي والفلسفة والفيلولوجيا (فقه اللغة) والجغرافيا بتكديسها المضحك الذي رواه الكتّاب من پْلين Pline إلى إيلْيان Elien، ومن إيلْيان إلى البيزنطيين وأجيال من الجمّاعين الآخرين. الأمر الذي رشح متوَّجنا الموسوعي إلى أن تنبهر به الأعصر العتيقة في سذاجة. والحق أن الشراهة التي أصابت يوبا الثاني، مع الترّهات التي تبتلعها ثم تقيئها عدة مرات (مثلا عن منابع نهر النيل التي يَفترض أنها في أراضي دولته، أو عن ديانة الفِيَلة وعشقها الإنساني)، فهي تحدث التخمة، وتكسوه اليوم بازدراء لا يمحى. ولكنها إذا أُرجعت لعصرها ولبلده، في

عصر فيه أنصار الدراسات السامية يقلون يوما عن يوم، وفي بلد مكثت فيه دائما تلك الدراسات أجنبية، فالعلم الجامح ليوبا الثاني، مهما كان متجردا من أي نقد، فإنه يزيح السخرية، بل إنه بالحماسة التي تحركه يصل إلى شيء من العظمة.

وعلى كل حال فإنها أكسبته فائدة عاجلة، وكذلك فبالأبّهة التي تحيطه بها، وبالاندماج الشخصي الصادق الذي تشهد به بوضوح، فإنها سهلت المهمة التي كان أوغُسْت Auguste قد كلفه بها لدى المورِيين. ولم يكن أحد ليستطيع فهمهم أحسن منه، لأن هذا النوميدي المتفنن كان بربريا مثلهم، وكان مهيأ أكثر من غيره لجذبهم في غير رجّة إلى دائرة روما، وذلك بأن يوطّن في مملكته الفيحاء كل أشكال حضارة البحر الأبيض المتوسط التي ليس منها ما يجعله غير مُبال، والتي له اعتياد بأسماها.

ولم يهمل أن يدعو لها حتى رعاياه في الغرب الأبعد. فبصحبة طبيبه أوفُرْب Euphorbe جاب الأقسام الأشد مناعة في المغرب، ودرس فيها الحيوان والنبات وشجع الإنتاج. وفيها أحيى المتجر الفينيقي في تَموزيگا Tamusiga بموگادور (الصويرة). وفي الجزر الصغيرة التي تحمي الموقع، أنشأ مصبغاته التي جعلت البرْفير الجيتولي Pourpre ممدوحا عند شعراء عصر أوغُسْت. وأكثر من ذلك أيضا، فإنه هيأ سفنا كثيرة وجهزها لكي يكلف بعضا منها ببحوث علمية حقيقية. إذ لاشك أن رعاياه حدثوه عن ليكْسوس Lixus الذي لم يستطع الأقدمون أن يمخروه، حتى قيرْني Cerné في وادي الذهب Rio de Oro. ودون توقف في جزر كناريا فقد ساعد ماليا في التعرف على الأرخبيل الذي بسبب بُعده أصبح مقرا خرافيا للنفوس الخيّرة بالجزر السعيدة Îles Fortunées.

وبالتأكيد فإنه بهذه الرحلة البحرية قد جدد العلاقات التي كانت البحرية البونيقية تحافظ عليها سريا مع الجزر. وقد ترك لنا عن أقربها وصفا نَقَله پْلين Pline باختصار، وهو ليس مما يستهان به. فالوصف لا يساعد فحسب على معرفتها واحدة بعد الأخرى، فبالفعل إن نينـْگـواريا Ninguaria مع طينريف Ténérife، وكَبْرارْيا Capraria مع فويرْتفِنْتورا Fuerteventura وبْلوفْياريْا Pluviaria مع لَنْزَروت Lanzarote، والصغيرتين جيرونْيايْ Juroniae مع الجزيرتين الصغيرتين المجاوريتين للَنْزَروت، وكَنارْيا Canaria مع كناريا الكبرى پَلْماس Las Palmas الغارقة دائماً في خضرة أشجارها السامقة، وهي لا تزال تفتخر بالاستفادة من أجناس كلابها، كما أنه وصف يخبرنا بدقة عن المسافة التي تفصل جزر كناريا عن موگدور (الصويرة) وعن الاتجاهات المتتابعة، والمضطربة ظاهرياً، التي يجب على السفن الشراعية أن تسير عليها من موگَدور إلى كناريا، سيرا مع انحراف التيارات. ومع أن پْلين Pline قد قرأ النقيض عند يوبا الذي بالطبع لم يكن يهتم أكثر من القرطاجيين بذكر كل مصادره، فيجوز التفكير في أن هذه الرحلة كانت في رأي الملك الحصيف ترمي لغاية أخرى غير الاكتشاف الجغرافي البسيط، وأنها كانت مرتبطة بسياسة الإثراء التي طُبِّقت في كل مكان، ونجاحها لا يبدو مشكوكا فيه بالمغرب.

فبالغرب Gharbe وقع اكتشاف أغنى كنوزه من العملة. ولا داعي إلا لإقامة قصيرة في وليلي Volubilis، لمعاينة الازدهار الذي أعطاه لهذه الحِلّة التي يكشف اسمها عن المواضي البربرية، وبأسماء بونيقية مثل اسمِ شوفيط Sufète كذلك، فإنه حباها بمؤسسات بلدية شبيهة بالتي نمت في ظل السلام الروماني في آسيا، في عهد الضيادقَة Diadoques، وفي بلاد الإغريق وإيطاليا وفي أوربا الغربية. وأثبت فيها واحدة من بلدان

إقامته. إذ أن واحداً على الأقل من الأعمدة الأيونيّة Ioniques التي كانت فيها تزخرف فيما مضى جناحَ الأعمدة Péristyle، وكان حين إصلاح مسكنه في القرن الثالث للميلاد مشرفا، فيحتمل إذن أنه يعرفنا بالموقع فيها. وأخيرا فقد زانها بأمتعة فاخرة، وصلت شظاياها إلينا من تماثيل تامة ونصفية تبهرنا بكثرتها وجمالها من المرمر أو البرنز، تقع فيها أنظارنا على أصفى لوامع الفن الإغريقي الروماني. وما كان يوبا الثاني دون رعونة أو دون خطر لينشر هذه الروعة أمام رعاياه، لو لم يوافق ازدهارهم كمالياته بتزويدها بمساهماتهم، ومسامحتهم إياه بسبب الرفاهية التي ينعمون بها في ظلال بلاطه.

وفي نفس الحين الذي كان فيه الملك يسمو بمستواهم المعيشي، فإنه كان ينجح في تغييرهم أخلاقيا. فالنوميديون، الذين منذ عهد مَسّنيسا على الأقل، كانوا لا شك في هذه النقطة وفي كثير غيرها قد جددوا، مستوحين الأمثلة التي تعرضها عليهم المَلَكيات الهلِّنيسْتيّة، فقد تعودوا أن يؤدوا لملوكهم الأهالي نفس التشريفات التي كانت الأرباب تطلبها من عُبّادها. فلم يتردد يوبا الثاني مطلقا في أن ينقل عند الموريين هذه العادة التي اصطبغت بها نفوسهم، إلى حد أن العبادة التي تعلموا أداءها له قد دامت بعده، وكانت آثارها لا تزال موجودة، حسب شهادة الشاعر پْرودَنْس Prudence عند اقتراب القرن الرابع بجهة طنجة.

فالملك لما ربط رعاياه بالتعبد له نال ولاء لا يمكن أن ينتقضوه أبدا. وفي نفس الحين كان يوجه أفكارهم إلى الاتجاه الذي يتجه نحوه آنذاك عالم البحر الأبيض المتوسط. وذلك ليس فحسب لأنه كان يبذل قصارى جهوده لتبرير العبادة التي يريد أن تؤدّى له عن طريق النسب

الذي أقامه، وفيه كانت سلسلة أنسابه تصعد شيئا فشيئا إلى أن تصل لهرْكول Hercule، البطل الإغريقي الذي تَمَثَّله الليبيون الفينيقيون في مَلْقَارْت Melkart. بل إن تبرير هذا الانتساب يجعلهم مستعدين ليتقبلوا عن رضى عبادة هؤلاء المنحدرين من مارْس Mars، وڤينوس Vénus، وكانوا هم اليوليّين Jules في الأسرة الإمبراطورية، الذين يرتبط هو بهم عن طريق الانتساب الرمزي لعتقه بالقياصرة وبالأسماء المشتقة من أسمائهم، كما في حالته المدنية الرومانية. فهو كايوس يولْيوس يوبا Caius Julius Juba. وقد سمّى مدينة إقامته يول Iol (شَرْشال) باسم قيْصرية Caesarea كما لو كان يجعلها في صيانة الإسم المقدس لسيّده. وأكثر من ذلك أيضا، فلكيلا يسيء أحد الظن بتقواه، فإنه أقام بها معبدا لأوغُسْت. ولكن ليس لنا من سبب لنفرض أنه تخلى في الغرب عن العبادات التي كان يبديها بشرق دولته، والتي كانت في كل مكان تُشرك ربوبيته هو بالربوبية البعيدة للإمبراطور البالغة القداسة. فالموريون، من أقصى بلادهم الواسعة إلى أقصاها، كان يمكن لهم أن يشكّوا في أن سيدهم لم يكن سوى أداة بيد سيّد روما وسيّد كل الناس. لقد سبق لهم أن قبلوا أن هذا الأخير هو ربّ. فكانوا يقدسونه لهذه الصفة في آن واحد تقليدا لملكهم. وذلك على غرار المثل الذي بمستوطنات قدماء المحاربين، التي هي غير خاضعة لسلطة يوبا، كما في الوسط مثل إيكوزْيوم Icosium (مدينة الجزائر) بضمها إلى إسبانيا القريبة، وكما بالشرق لتبعيتها ربما للقناصل والمنتدبين Legats بإفريقيا نفسها، وكـ زيليس Zilis (أزيلا، أصيلة) بالمغرب بربطها بسلطات ولاية البيتيك Bétique. ولكنها كانت تثير أمامهم الصور العديدة للمدينة المثلى، وتذيع ببريقها الحرمة الدينية للإمبراطورية الكونية العظمى التي كانت روما تنفخ فيها روحها الوطنية. فطوال 49 سنة التي امتد فيها مُلك يوبا

الثاني – من 25 ق.م إلى 23 م – وأثناء 17 سنة التي تلت في حكم ابنه الوحيد بْطُلمي Ptolémée، فالسياسة التي دشنها أوغُسْت واستمر العمل بها إلى سنة 40 م على يد من خلفوه في الحكم، قد أعطت كل نتائجها. فأثناء هذه الثلاثة الأرباع من القرن مكثت موريطانيا هادئة ووفية، إلى حد أنها لم تكن بحاجة إلى أن تدعو إليها الفيالق لضمان الأمن أو لاسترجاعه، بل إنها استطاعت في مناسبتين، أي في سنة 5 وسنة 18م، أن تساعد هي بوحدات جيشها وقيادة أمرائها في المعركة ولايات أفريقيا. وتحت غطاء استقلالها الإسمي فقد نشرت وعمّقت هي رُومَنَتها تلقائيا.

الاحتلال الرومـاني

كانت الحكمة تقتضي بترك الزمان ينهي عمله والاحتفاظ إلى أبعد حد ممكن بحماية كانت تمكن روما من أن تزاول في موريطانيا سيادتها في خفاء، وأن تجني فوائدها من غير أن تتحمل النفقات أو المساوئ. لكن إذا كان دم أوغسْت يجري في عروق كَليـگـولا Caligula، فإن هذا الأخير لم يرث حكمته. كان منتشيا بشبابه وبعظمة السلطة التي تغمره، فلم يعتبر المدى ولا العراقل. وفي تلهف جنوني، كان يغتر بأنه وحده سيعبر بسرعة جميع المراحل التي ستؤدي إلى الحكم الفردي في الدولة السفلى Bas-Empire، وأن يحقق في بضعة أشهر عملا يتطلب عونا طوال قرون. ولم يكن يرضى بالخصوص بالتغييرات البطيئة التي اعتمد عليها من حكموا قبله لجعل موريطانيا تذوب بصفة لا شعورية في وحدة العالم الروماني. وبعد ما داهن بطُلِمي واستدعى هذا العم على الطريقة البروطونية – كانا معا منحدرين من أنطوان المثلث Triumvir – استدعاه ليتمم به مجموعة الملوك التي ألفها في مدينة ليون Lyon ليكوّنوا موكبه المجيد وليبهر الغاليين. واهتاج ضده، إذ فجأة قلق تعاظمه الجافل من الترف الذي كان الموري يبديه، فيخفي ثراه هو. وفي نفس الحين التهب فيه جشعه للثروات الفاحشة التي تبدو من خلال الأرجوان ومن كل هذه الأحجار الكريمة التي ليس إلا أن يمد اليد لينالها. وفجأة وسط الهتافات التي كانت تحيي ضيفه في ملعب ملتقى النهرين، الذي بعد مرور مائة وخمسة وثلاثين عاما سيقع فيه تعذيب بْلانْدين Blandine وبوثين Pothin، فأخذه كأنه عدو، وأمر بذبحه. وبهذه الفورة من الجنون فقدت موريطانيا

في آن واحد ملكها واستقلالها. وكليگولا قبل أن يقع اغتياله هو، أعلن أنها ولاية رومانية، سنة 40 للميلاد.

ولكن شتّان ما بين التصريحات والحقائق. ذلك أن كلود Claude الذي خلفه، كان لابد له من ثلاث سنين ليحقق عمليا إرادته العنيفة، ولإخضاع القبائل التي أثارها ضد الاحتلال وزير Vizir الملك القتيل، وهو عتيقه أيدمون Aedmon. والمتأكد تقريبا هو أن الثورة التي نسقها مثيروها بمهارة مع حركة الموسلاميين Musulames النوميديين، قد اقتصرت على موريطانيا الغربية أي على المغرب. فقد تكوّن جيش للحملة شارك فيه فيلقان اثنان من الثلاثة التي كانت مستقرة في أسبانيا، والفيلق العاشر المزدوج Xe Gémina، والفيلق الرابع المقدوني Macédonica IV. وهذه كانت آنذاك يجند لها نصف رجالها بالموقع نفسه وبإيطاليا، والنصف الآخر بگوليا النرْبونية Gaule narbonnaise. وكانت هذه تضم الربع من الگوليّين في مجموع رجالها. وليس من قبيل الصدفة أن النقوش الإفريقية تطلعنا في شواهد القبور على ذكري أحد الغاليين الذي تسارع إلى موريطانيا ليقاتل بها في ظل النسر الروماني، فهو أحد الليْنْگونيين Lingon وقد أقبر في إحدى قواعد الحملة بمقاطعة وهران، والثاني أحد التولوزيين وهو دفين بوَليلي. وأياً ما كان الأمر، إذا أضفنا كما هي العادة لمجموع جنود الفيالق عددا مماثلا من الجنود المساعدين، فالجيش الذي جنّد لهذه المناسبة، كان عدده على الأكثر عشرين ألف رجل. لكن يجب اعتبار المصاعب في نقل هذا الجيش بالبحر، ومصاعب تموينه الذي استنجد فيه – إذا صدقنا دْيون كاسْيوس Dion Cassius – حتى بالأسطول التجاري لبريطانيا Bretagne وذلك لمعرفة أهمية المجهود الإمبراطوري، وفداحة التضحيات التي جلبها معه.

وعلى الأقل فإن هذه التضحيات لم تكن دون جدوى. ومنذ سنة 41 م، فإن المنتدب Légat للولاية الجديدة بموريطانيا وهو من الرتبة القنصلية Consulaire، ذو مهارة اسمه مركوس ليكينيوس كراسوس فروجي Marcus Licinius Crassus Frugi، قد سحق أهم مجموعة من الثوار وقضى على أيدْمون. وانتصاره هذا جعله على استعداد لقضاء مهمات أخرى في ميادين أخرى. وبسبب نجاحه وقع تعيينه للحرب في بريطانيا التي فيها أكد ما اشتهر به، وقد ترك قيادته التي نقصت قيمتها بسبب انتصاراته نفسها إلى منتدب Légat لم يكن قد تجاوز بعد مستوى القضاء Préture. وهو كايوس سْويطونْيوس باوْلينْيوس Caius Suétonius Paulinius. وهو قائد ذو بأس شديد، عزم على أن يقضي على مصادر الثورة التي كانت لا تزال مشتعلة. فاستعمل قسما من سنة 42 م في تخريب أراضي الأعداء حتى فيما وراء الأطلس الكبير. فقد انطلق من إقليم وهران حيث جمع طوابيره، متجها نحو جهات بَرْكَنْت Berguent وتَنْدرارة Tendrara، واخترق بسيط تَملاّلت Tamlelt، ثم اخترق الأطلس في شرق تَمْغَنْت Tamghent، ودون أن يخشى القمة الثلجية لجبل العياشي Dj. Aïachi الذي يقع على يمينه، والذي كانت به غابات (كثيفة وعميقة) تكسو سفوح المرتفعات، وكانت أنواعها العطرة تخفي لحاءها تحت الفيلجات Bourses الحريرية لليسْروعات الطوافة Chenilles processionnaires، ثم تقدم بجرأة فوق الرمال السوداء والصخور المحترقة (في الگارات Garas) حتى وصل لمنابع الجر Ger (نهر غير Ghir – واد گير). وفي عودته عرف كيف يجعل القيمة لهذه المسيرة في المجهول، التي أثارت مراحلها العشر الجريئة خيال پْلين Pline، ونال جزاءه برتبة قنصل مردف Consulat Suffect منذ سنة 43 م. وفي هذه السنة حل محله كْنايوسْ هُوسيدْيوس جيتا Cnaeus Hosidius Géta من

المستوى البريطوري مثله، وقد نال شرف إلقاء القبض بتخوم الصحراء على آخر رؤساء الموريين الذين لم يكونوا قد خضعوا بعد.

وباندحار صابال Sabal انتهت المعارك الحربية. ولاشك أنها كانت حروبا قاسية كما ادّعى ذلك من شاركوا فيها. ولكن المتأكد هو أن نتيجتها لم تكن مشكوكا فيها أبدا عند الإمبراطور الذي لم يحتج مطلقا سنة عن سنة لتغيير جِنرالاته لو كان خالجته الشكوك في حظوظ جيوشهم وتنفيذ خططهم. وعلى كل حال فمنذ سنة 44 م كان تمهيد موريطانيا بالغ القوة إلى حد أن كلود Claude إستطاع أن يخول حكومتها التي كانت حتى ذلك العهد مخصصة لأشخاص من المستوى السيناتوري وعيّن عليها مطلق شخص من مستوى الفرسان Chevalier، هو مَرْكوس فادْيوس كْلير Marcus Fadius Cler الذي تعرفنا من إهداء اكتشف بِوَليلي أخيرا على اسمه ومنصبه بأنه مفوض يؤدي وظيفة منتدب Procurator pro legato.

المغرب ولاية رومانية

وبقي أمر تنظيمها، فكان ذلك هو عمل السنين الأولى من إمارة كلود. وكانت أساسا ممهورة بعملين : فالولاية الجديدة ابتلعت قبل كل شيء المستوطنات الرومانية التي كانت في المملكة تتمتع بامتياز حقيقي بكونها خارج التراب Privilège d'exterritorialité – أي Romanae Coloniae in provinciae – وبهذا فإن تِنْجي (طنجة) أصبحت لأول مرة مندمجة في موريطانيا. وبعد ذلك بالخصوص فإن الأرض التي كانت موحدة في عهد حكم يوبا الثاني وبْطُلِمي قد قسمت، ربما في سنة 46م، إلى حكومتين، كان مجرى مَلْوِية يحدد خط الفصل بينهما، مثلما حدهما فيما مضى في مملكتين. والقسم الذي كون من قبل موريطانيا بوكوس الثاني Bocchus II شرقا، خضع لحاكم برتبة مفوض Procurateur، نزل بقصر قيصرية Cesarée، وقد سمي هذا القسم موريطانيا القريبة Citérieure، قبل أن تحمل اسمها «القيصرية» من اسم عاصمتها. أما موريطانيا بوگود القديمة "Mauritania Bogutiana" التي اندمجت فيها مستوطنات أوكتاف Octave وأحدثت بها وحدة جسدت المغرب مقدما، وأطلق عليها على الأقل إلى عهد قِسْباسْيان Vaspasien اسم موريطانيا القاصية Ultérieure، ثم غيرت تسميتها بعد ذلك بقليل باسم موريطانيا الطنجية Mauritanie Tingitane الذي احتفظت به بعد. ولكن يجب أن لا يدفع بنا اللفظ الجديد إلى الوهم، إذ أن الإقامة المعتادة للحاكم الذي نصب على رأسها قد بقيت طوال عهد الإمبراطورية هي مدينة وَلِيلي Volubilis، في مواجهة قبائل الأطلس المتوسط غير الخاضعة أو التي

كان خضوعها غير تام. وكما نعلم من مطالعة المذكرة التي خصصتُها لعاصمة المغرب العتيق، فإن الحاكم الإمبراطوري لم يتعب نفسه لإيجاد مسكن، وببساطة سكن (بالمقر الملكي régia) الذي قد ملكه فيها كل من يوبا الثاني وبطلمي، والذي لم تَضِع بعدُ جميع آثاره.

وكان الحاكمان الاثنان يحملان نفس اللقب، وينحدر كل منهما من صفوف مستوى الفرسان. وإمرتها في الأحوال المعتادة لا تقع إلا على جيش للاحتلال لا تمثَّل فيه الفيالق Légions. غير أن النطاق المزدوج الذي تشمله سلطتهما لم يكن نطاقا جامدا دائما، ففي مناسبات مختلفة تخليا معا، إما أمام مفوض Procurateur وحيد، يماثل بهذه المناسبة منتدبا Légat، سلطته تجمّع في واحد دوائر اختصاصاتهما، مثلما جرى مع مَرْكيوس توربو Marcius Turbo الذي سيكون واليا قضائيا لِهادْرِيان Hadrien. وإما أمام منتدب استعير من المستوى السيناتوري كما جرى في عهد ڤِسْباسْيان Vespasien مع سِكْستوس سَنْتِيوس كَيْكيلْيانوس Sextus Sentius Caecilianus، وكما جرى في عهد أنطونان Antonin مع أوتيدوس هُنوراتوس Utedus Honoratus. وفي هذه الحالة إذن، لم تكن فصائل الفيالق تأتي لتقوية مكونات جيش الاحتلال فحسب، بل إن الموريطانيتين معا – Utraque Mauretania – لا تكوّنان سوى واحدة من المحيط إلى الوادي الكبير، من الرباط إلى جيجْلي. وإن السهولة التي بمجرد إشارة من روما، تنفصم بها أو تعاد وحدة موريطانيا من هذه الجهة أو تلك لنهر مَلْوية، لتبرهن على ليونة التنظيم الروماني، وعلى التعادل الذي به تتناسق حول حدود غير ثابتة النظم والمناهج التي تتغير في كل حين. ولكن يجب على الخصوص الاعتراف بأنها يستحيل تصورها إذا كان الاتصال القارّي الذي تفرضه، والذي وهبته لها

الطبيعة بممر تازة Taza – قبل خط سكة الحديد طنجة إلى تونس، التي تمر بطريق السلطان – قد كان يصعد تاريخيا إليها على الأقل، وكان دائما محط اهتمام وعناية القيادة الإمبراطورية.

إننا لأول وهلة، ننبهر بالفوائد التي تجنيها الإمبراطورية من الاحتلال. قبل كل شيء فالمناطق «النافعة» التي وقع عليها اختيار القياصرة، قد تكاثر فيها السكان الرومانيون. ولو أن نقوش المغرب العتيق ليست الآن غنية بما يكفي لتزويدنا بالمعطيات الإحصائية التي قد تمكّن من متابعة تطوراتها خطوة خطوة. ولكنها منذ الآن كثيرة لإقناعنا بالتقدم السريع المتحقق. إذ منذ الثلث الأول للقرن الميلادي الثاني، فإن العديد من قدماء المحاربين كانوا قد نالوا بها قطعا أرضية، كما يتضح ذلك من البراءات العسكرية المكتشفة بلا انقطاع في بَنَاسة Banasa وَوَلِيلي. وهذه الأخيرة ورد عليها المهاجرون من جميع أنحاء الإمبراطورية : من غاليين رومانيين gallo-Romains مثل إيمِلْيا سِكْستِينا Aemilia Sextina، وأصلها من ڤيينا Vienne، وبها وقع تشريفها، ومن سوريين من أهل فينيقيا المتمسكين بذكرى وطنهم القديم، إذ يدعون أنفسهم سوريين فينيقيين Syrophoenix، وحتى من العرب الذين نقلوا آلهتهم معهم، وهي مَسَاف Masaf وثيانْدريوس Théandrios. وقائمة الأصدقاء Amici الذين اكتتبوا في سَلا Sala (الرباط) لإقامة تمثال لِمرْكوس سولْبِيكْيوس فيلِكْس Marcus Sulpicius Felix تذكرنا أسماؤها وألقابها بإسبانيا وإيطاليا، لا بأفريقيا. ثم إن أناقة إنشاءاتهم اللاتانية تؤكد شهادة أسمائهم. وفي نفس الحين الذي كانت فيه الولاية تعطي الأراضي لقدماء جنود الإمبراطور المسرّحين من الخدمة العسكرية، فإنها – وهي الولاية المحدثة أخيرا في القاصية الغربية لأفريقيا

الشمالية – قد جذبت إليها تجار المهربات الذين انكبوا في كل زمان ودائما على الثروات العذراء بالأراضي الجديدة.

والذي لاشك فيه، هو أن النشاط في موريطانيا الطنجية قد تلقى آنذاك دفعاً جديدا. فكل الزراعات التي أدخلها إليها البونيقيون أو شجعوا عليها، والتي استمر ازدهارها في عهد الملوك المورِيين قد زاد نماؤها. والقمح الذي يظهر أحيانا منفردا وأحيانا مصاحبا لعناقيد الدوالي على النقود الملكية لِتنْجي (طنجة) وزيليس (أصيلة)، وليكسوس (تْشمّش) وبَناسة وبابّا Babba صار يزرع على أراضي بقيت حتى ذلك الوقت بوراً، وينتج بمقادير ضخمة ليكفي الفروض السنوية Annone. فيغني العديد من المصدرين. واشتهرت به موريطانيا بأنها أحد مخازن الشعب الروماني. فبأمر من الأباطرة، ومن هادْرِيان Hadrien على الخصوص، فإن نفس الأراضي الإفريقية التي آخذها سالوست Salluste على فقدان الأشجار بها، قد اكتست، ليس فحسب بحقول الزيتون الذي اسمه في اللاتانية أوليا Olea، وحدث فيه إبدال حرفي إلى آليو Aleo كما سمعه الأب دوفوكو De Faucauld على شفاه الطوارق في أهْگار Ahggar، بل اكتست بكل أنواع الغروس النافعة. فالألفاظ التي من أصل لاتاني، ونعثر عليها بين «الألفاظ البربرية الدالة على الأشجار، وذات الفواكه منها على الخصوص، تبين أنه إذا كانت قرطاجة قد أدخلت إلى أفريقيا غراسة بعض الأنواع، فمما لاشك فيه أن روما قد وطّنت من بينها، أو تعلمت استثمار عدد كبير من أثْمنها». وحتى النباتات البقلية التي راجع في شأنها پْلين Pline علماء النباتات فأكدوا له نموها التلقائي في موريطانيا، كالفول Fèves الذي يطلق عليه اليوم في البربرية لفظ (إيباوَنْ Ibaouen)، الذي يرجع إلى (فابا Faba) اللاتاني. ويسوغ لنا أن

نطلق على المغرب المديح الذي مدح به هانْري باصّي Henri Basset روما بأنها «حولت أفريقيا الشمالية إلى هذه الحديقة الواسعة التي كان جمالها في عهد المؤرخين العرب لا يزال حيا في ذاكرة الناس». والرومانيون، وهم ورثة قرطاجة في المغرب، كما في الجزائر وفي تونس، قد عرفوا كيف يستثمرون أحسن استثمار هذا الميراث، ولربما مع نوايا كثيرة الكبرياء أحيانا، ودون شفقة على أراض يستنزفونها إذا لم يهملوها مطلقا، ومن غير اعتبار للرجال الذين اشتدوا في إخضاعهم لمصالحهم.

لقد استثمروا الأرض التي استولوا عليها دون أن يهتموا بالأهالي، ولم يعتبروا سوى احتياجاتهم. وعلى وجه المثال فإن واحدا من أحسن أعمالهم المتأكدة هو الطراد الذي قاموا به للوحوش الضارية التي كانت تعيث في المغرب العتيق، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ليريحوا السكان من خطر مرعب، بل إنما لتزويد ملاعبهم بحيوانات الصيد، ومتاجرهم بالفراء، وإذا نظموا القضاء على الفِيَلة التي كانت قطعانها تعيث في زمن پْلين Pline في ضاحية سَلا، فإنما ليبيعوا عاجها بأغلى الأثمان. وقد اندفعوا في هذا مع كثير من الشراسة الشديدة، إلى حد أنهم أشبهوا البخيل الذي قتل الدجاجة ذات البيض الذهبي، وانتهوا بالقضاء على النوع نفسه. وحسب شهادة ثيمسْتيوس Thémistius فإنها اندثرت نهائيا في القرن الرابع. وبعد ذلك بثلاثمائة سنة، فإن إيزيدور الإشبيلي Isidore de Séville لا يورد ذكراها إلا متحسراً : «كانت موريطانيا الطنجية فيما مضى مليئة بالفِيَلة، واليوم فالهند وحدها تنتجها». وفي قطعهم للغابات المغربية، فإن الرومانيين أبدوا شراهة مماثلة في الشرور. فقد قطعوا على الخصوص لنجارتهم الدقيقة (لفيتنتهم Ebénisterie) الأكثر قيمة، مقادير من شجر العرعار إلى حد أنه

لو اجتمع أيضا في روما في عهد هادْريان Hadrien طائفة تجار العرعار Negotiantes Citriarii، لما ذكر السِّتْروس Citrus مطلقا أي العرعار كما في النصوص المتأخرة عن بداية القرن الثالث. وبالتأكيد فإن غابات العرعار بموريطانيا الطنجية قد أصيبت بما أصيبت به غابات الونْشَريس Ouarsenis التي سبق أن خربت في نهاية القرن الميلادي الأول.

ومثل ذلك حدث في مضمار تربية الماشية. فالرومانيون لم يفكروا إلا في أنفسهم، فيما يناسبهم ويوافق أذواقهم، مثلا عندما عمموا بالمغرب تربية الخنزير الذي جاء به الإغريق من قرطاجة تبعا لعبادة الربَّتَيْن ديمتير Déméter وابنتها (أي ثيسْموفورِسْ Thesmophores) وكانتا توجبان نحر الخنزير لهما، ولكن لحمه كان مبغوضا عند البربر كما عند الفينيقيين. وكذلك لم يكن الرومانيون يهتمون إلا بميزانهم التجاري، وبالأرباح من صادراتهم، حيث لا يقفون أمام إهمال الأهالي للسمك، فسارعوا إلى إحياء المصايد البونيقية التي على المحيط، وإلى إنشاء معامل جديدة للتمليح بِليكْسوس.

ولكنهم، أوصدوا على الخصوص منشآتهم الاستغلالية في الحدود الضيقة، التي، حبّاً في السلامة، خطوها «لمستوطناتهم السكنية». ففي جنوب سلا (شالة الرباط) يظهر أنهم تركوا للإهمال أو للضياع المتاجر التي كان البونيقيون قد أنشأوها على المحيط. وقد هجروا حقول النخيل التي كانت بين نهر فوت Fut، أي وادي تَنْسيفْت Tensift والأطلس. وبالتأكيد فإنهم تخلوا عن النزول في جزر كناريا Canaries التي زراتها سفن يوبا الثاني، وتخلوا ربما عن أن يأخذوا لأنفسهم مصبغات الأرجُوان Pourpre التي كان الملوك قد أنشأوها في جزر موگادور Mogador. وختاما فإنهم، لقدرتهم على الحصول في جهات أخرى وبأقل

خطر، على المعادن الثمينة فقد تخلوا عن عروق معادن الفضة في الشِّعب العالي لِدَرْعَة، وعن الطرق المؤدية إلى ذهب السودان. وكل هذه النقط، فإن نشاطهم فيها يبدي تراجعا عما كانت عليه أيام سابقيهم. ولهذا فإن محاولتهم في الاستيطان به لم تنجح بقدر ما قد كانوا يتمنون.

ولم تجذبهم إليه الاقتناءات الأرضية بحد ذاتها، بل إن ما أغراهم فيها هو ثروات التربة، والإمكانيات الاستيطانية التي تعرضها على مُعمِّريهم، وعلى أحسن الفروض أيضا، فإنهم لم يكونوا يبحثون عنها إلا حيث (وبشرط أن) تكلفهم أقل مما تعود به عليهم. ولربما أنهم بالمغرب، أكثر مما في غيره بأفريقيا، قد طبقوا فيما استولوا عليه سياسة الاقتصاد في القوات، كما حصروا احتلالهم في المناطق النافعة التي فضلوا الحفاظ عليها دون تضحيات فائقة في الأموال والرجال. وطرقهم من طنجة إلى آدْميرْكورْيوس Admercurios (الدّشيرة) جنوبي سَلا (الرباط)، وإلى توكُلوسيدا Tocolosida، على بعد فرسخ جنوبي وَليلي Volubilis تبين بالأقاصي الجنوبية لخطوطها، الحد الذي فرضوه طوعا لممتلكاتهم الرسمية. وأبعد من ذلك، لقد كان يحدث لهم أن يقيموا بسرعة بعض المراكز للتغطية، ولكن جهات المناطق المدنية التي كانوا يتحملون مسؤولية إدارتها لم تتعدّ أبدا ذلك الحد، وولايتهم في موريطانيا الطنجية، إنما غطت بالتقريب نصف المغرب السلطاني. وصحيح أنها في حدودها هذه، قد اشتملت على الأجزاء الأشد غنى، والتي حسنتها حياطة البحرين لها، والتي يكون الدفاع عنها – نتيجة لذلك – غير باهظ الثمن. وفي الحقب الاعتيادية، كما في 109 للميلاد، أنقصت حاميتها إلى ثلاثة أجنحة ailes من الخيالة وإلى ستّ فِرَق

Cohortes من المشاة، أي إلى خمسة أو ستة آلاف رجل، فيهم ألفان من الفرسان، فكانت هذه الحامية بالغة الضعف. فكانت بالتقريب في الميزانية العامة للإمبراطورية وفي الترتيب الحربي لجيوشها، كما لو أن إحلال الحكم المباشر محل الحماية قد أحدث تأثيرات واضحة.

ولكن الرجال لا يحصدون أبدا إلا بمقدار ما يزرعون. فروما لما اقتصدت في نفقاتها وجهودها بالمغرب، فإنها حتما قد أضعفت عملها به.

ومن غير شك، فإنها لكي تعوّض عن القلة العددية لجيشها للاحتلال، قد اعتمدت على سرعة الوحدات التي كانت تكوّن هذا الجيش، والتي تسرع بها شبكة الطرق التي نشرتها لهذه الغاية. وبضميمة الطريقين المتوازيتين من الشمال للجنوب، اللتين سبق أن جرى وصفهما، والطريق المستعرضة التي قوّتها في القرن الثالث بسور وحاجز مانع Vallum لا يزال يُرى على بعد 6 كيلومترات من سلا، والذي بواسطة ممر تازة، كان يربط الساحل المحيطي بمنطقة وهران في موريطانيا القيصرية، وقد اطمأنت بالخصوص إلى السلوك الذي قررته، والذي مفاده تقوية أعداد السكان بمستوطناتها، وذلك بالإبقاء فيها على أكثر ما يمكن من الجنود الذين تسرّحهم من الخدمة العسكرية. وفي نفس الحين كانت تترك لمختلف القبائل المورية، المتجمعة حول رؤسائها (شيوخها) أراضي الرعي التي خولتها لهم، وكانت راضية عن حجزهم بها في استقلال واسع.

ولكن في عهد الإمبراطورية العليا، فإن هذه السياسة التي ابتعدت عن كل اقتحام حقيقي، كان لابد أن تظهر غير ناجعة. وبالمغرب، فإن روما القياصرة لم تُرَوْمِنْ مطلقا إلا من سبق لهم أن كانوا رومانيين، وذلك إما لأنهم نالوا الجنسية بعد أن أدوا بالتدقيق واجبات الطاعة

العسكرية، وإما لأن ولاءهم لروما، الناتج عن ولاء ملوكهم، أفضى بهم إلى أن يصيروا رومانيين، عقب احتلال خاطروا فيه بحياتهم أولاً ضد آيدمون Aedmon، وبعد ذلك في جيش هوسيدْيوس جيتا Hosidius geta ضدّ صَبال Sabal[2]. وأكيدا، فإننا إذا زرنا خرائب بَناسَة وَوَليلي، فسنجد بها أشكال العمارة، وكتابات النقائش كما في بقية العالم الروماني Orbis romanus : من تماثيل يمكن القول إنها مطابقة للقواعد في ابتذالها، وتماثيل للمعبودات أو لشخصيات رومانية، ومن فسيفساء كالتي زودتنا بها أفريقيا الشمالية كلها وإسبانيا وغاليا، ومباني الكابِتول، والبازِليكات القضائية، وأقواس النصر التي تشبه غيرها، وإهداءات لِجوبِتير Jupiter، وللنصر، وللآلهة المشرقية، مكتوبة مثلما كتبت في مكان آخر، ومن قواعد التشريف المقامة كالمعتاد لقياصرة، أو لحكام، أو لفلامينات (كهان) عبادات الولاية أو البلدية، أو لمجرد القضاة المحليين. ويجب أن لا نقع في الخطإ : إذ أن بَناسَة هي مستوطنة قديمة أنشأهما أوكتاف Octave وقد تعاقب بها أفواج بعد أفواج من قدماء المحاربين. أما وَليلي، وهي مدينة إقامة يوبا الثاني، فإنها بتأثير ملكي، قد تملأت عميقا بالثقافة الرومانية إلى حد أن شوفيطها Sufète مَرْكوس ڤَلِرْيوس سيڤروس Marcus Valérius Severus قد انتصب قائدا على جيش من الگوم goum المجندين من بين سكانها لمحاربة الثورة. وفي سنة 44 م استحقت المدينة الدخول عن جدارة في المواطنة الرومانية بأكرم الشروط التي استطاع كلود Claude أن يهبها لها، وهي الجماعة البلدية Municipe بكامل الحقوق التي يتسجل بها المواطنون مباشرة في إحدى قبائل (المدينة Urbs) فينالون جميعا امتيازات المستوطنة المنبثقة هي عنها، من غير التزام بتقليد نموذجها القانوني، ولا بإخضاعها للنظم التي كانت مرتبطة بها. وعمليا فإن رَوْمَنَة هذين المركزين بالمغرب

العتيق قد سبقت الاستيلاء الروماني عوض أن تتولد عنه. أما في غيرهما فيبدو أنها لم تقع إلا ببطء مقلق.

في قائمة المدن التي ذكرها پْلين Pline في عهد قِسْباسْيان Vespasienفالمغرب (إذا كان لابد من السكوت عن طنجة الَتي اختلط اسمها باسم طِنْجَنْترا Tingentera الإسبانية) لا يوجد به سوى مدينة أهلية واحدة، ارتفعت بعد سنة 40 إلى رتبة مستوطنة. وهي ليكسوس Lixus، ولربما يكون من المحتمل أن هذه الترقية المعزوة إلى مبادرة كْلود، تكون قد تقررت في نفس الحين مع التي لوليلي ولنفس الأسباب. أما سلا التي ذُكِرت كمستوطنة في لوائح القرن الثالث، فلعلها انتظرت عهد حكم تْراجانَ Trajan (98-117)م لتحصل على صفة جماعة بلدية ذات قانون لاتاني Municipe de droit latin. والمتأكد هو أنها حافظت على رتبتها هذه في التبعية Subalterne في عهد أنْطونان التّقي Antonin le pieux (138-161م). وعلاوة على ذلك فالمسيّرون الذين هم على رأسها آنذاك، عوضا من أن يذكروا بحالتهم المدنية الوسط الأهلي الذي يبدو أنهم لا ينحدرون منه، فإنهم يشبهون إلى حد الالتباس رجال أعمال تسابقوا حتى شواطئ المحيط ليوسعوا امتيازاتهم في الأراضي، أو تجارتهم بالجملة في القمح أو العاج، وأن يقوموا باستثمار أموالهم. وفي سلا نشاهد حركة للهجرة، لا لمحاولة الإدماج. وعلى الاكتشافات الجديدة أن تثبت أو تنفي لموقع آخر الأثر الذي يلوح هنا من وثائقنا الحاضرة.

ويسوغ التأكيد، منذ الآن، أن روما قد كان تمسّكها بالمغرب في عهد حكومتها، أقل مما تمسكت به في عهد الملوك الذين كانت تحميهم. ففي عهد يوبا الثاني كان السلام الروماني مخيما تقريبا بدون انقطاع.

ولا هوادة فيه على هذه الموريطانيا وعلى الأخرى. وبعد الاحتلال كان السلام دائما مهزوزا ومضطربا في الغالب. وعلى هذا الاهتزاز لدينا البرهان القاطع في تذكار المعاهدات التي كان الحكام الرومانيون قد اضطروا في وَليلي لعقدها وتجديدها مع الأمير Principes ثم مع ملك Rex الباواريّين Bavares والبَكْواتيين Baquates، في عهد مارْك أوريلْ Marc-Aurel وفي عهد سيڤير ألكْساندر Sévère Alexandre. ومرتين في عهد بروبوس Probus. أما عن الاضطرابات التي جلبت الحرب إلى موريطانيا، فهي واضحة، ليس فحسب من تاريخ أوغست d'Auguste أو من بوزانْياس Pausanias اللذين يتحدثان عن ثورات شديدة في عهد هادريان Hadrien وعهد أنطونان التّقي Antonin le pieux، بل إنها تتضح في النقائش المكتشفة حديثا إلى حد ما، والتي تُرينا إما تقوية جيش الاحتلال، حيث يظهر التعيين ليس لمجرد منتدبين Procurateurs، بل لمنتدبين يؤدون وظيفة منوبين Légats مؤهلين. وذلك بأن ضم إلى وصفهم الاعتيادي بكونهم منوبون Prolegato، أنهم صاروا بصفة استثنائية يستلمون فصائل من جنود الفيالق أي يستلمون وحدة القيادة التي تكونت بسرعة ضد الأهالي، وذلك بإدماج الموريطانيتين معا في يد منوب واحد.

وفي هذه الظروف، ومع الاضطراب الدائم، ومع هذا الانعدام للأمن في كل جهة، فمن الطبيعي أن ديوكلتيان Dioclétien، حينما انتبه إلى أنه لن يستطيع الدفاع عن جبهة الإمبراطورية إلا بالتقصير من الجبهة فإنه لم يتردد في التخلي سنة 283 م عن نصف الموريطانيتين للأقدار. وبصفة خاصة لم يحتفظ من الطنْجية سوى بقسم صغير من المنطقة، وأمر بضمّه إلى أبْرَشية إسبانيا. وهو الموجود بين المحيط ونهر اللكّوس والبحر الأبيض المتوسط، وهو المطابق اليوم لمنطقة النفوذ الأسباني. ولكن علينا أن لا نخطئ فنقرر أن إفلاس روما يؤرخ له

بقراره. إنه من دون أن يعلم قد تراجع تراجع انتصار، ولكن بعودة مباغتة للحظ انتبه لها گوتييه E. F. Gautier قبل سنة 1928، ولم تتأكد إلا بقراءة شواهد القبور المسيحية بِوَليلي، إذ أن تراجع نهاية القرن الثالث قد أطلق الإشارة بالنهضة لحضارة روما في هذا المغرب الذي تنسحب منه الإمبراطورية الرومانية. ولكن بقيت به في أعماق النفوس المسيحية التي نشرها أكثر مما حاربها، وأعاد المورِيين لأنفسهم ولإيمانهم، بعد غياب روما. فامتثلوا بحُرية لحياتها، مثلما بعد غياب قرطاجة عادوا للبونيقية Punixises. والحقيقة هي أن سموّ الروح التي تحرك الحضارات هو أشد قوة من الأسلحة لترسيخ تلك الحضارات ولنشرها بين الناس.

المغرب البونيقي

1

الفينيـقيون والإغـريق :
تـاريخ وأسـاطير

من القرن 11 إلى القرن 5 ق.م

تـأسيس ليـكْسوس Lixus

أثناء حقبة طويلة ترجع بدايتها إلى الألف الثالثة، ولم تنته إلا بالبحرية القرطاجية في القرن الثاني قبل الميلاد، فإن الفينيقيين – واسمهم فْوينيكْس Foinikes بالإغريقية وبْوِيني Poeni في اللاتانية، أي البونيقيون Puniques – الذين كانوا محصورين جدا في القطعة الترابية الضيقة الموجودة بين الساحل السوري وسلسلة جبال لبنان، والذين لكيلا يجعلوا مستقبلهم فوق الأمواج، فإنهم أشرفوا عليها من فوق معاقلهم أو من أعماق موانئهم : أوغاريت Ugarit (رأس الشمرة)، جبل Gebel (جبيل أي ببلوس) سيدون Sidon (صيدا) تير Tyr (صور)، وأخيرا قرطاجة، أي صور الجديدة فيما وراء السدرتين. وقد أدوا في البحر الأبيض المتوسط دور (عابري البحار) الذي، قريبا منا، آل على وجه المحيطات إلى المقاطعات المتحدة Provinces unies. والفينيقيون قد أبانوا مثلهم كيف ينبثق شعب كبير من دويلات صغيرة. وقد كانوا

أسعد منها لأنهم طوال مدة سطوتهم بالتقريب، كانوا قادرين على أن ينحوا عن طريقهم مزاحمة مزاحميهم. وبعد انهيار السيادة البحرية الإقْريطِشية crétoise (القرن الخامس عشر ق.م) وقبل الانتصار الروماني، فإنهم نالوا وحافظوا على سيادتهم البحرية، بإبحار لا يعرف راحة على السفن التي كانت غاباتهم من الأرز تزوّدهم بخشب بناء السفن. ولا يهملون أياً من الزبناء مهما ابتعدوا، أو كانوا من خلفهم. فيتبادلون من غير توقف في المنسوجات الرقيقة، والأرجوان، والخزف، والزجاجيات، والحلى المنقوشة في الذهب والفضة المصنوعة بالمشرق، مقابل الصوف والعبيد والسبائك والتِّبر الذي كان ينتج في الغرب. وقد عرفوا بالخصوص كيف يستحقون ذلك، لا بأهمية منتجاتهم التي بقيت دائما تافهة كمّاً وكيفاً، ولكن بطاقة جهدهم المستميت، وبجرأة تبصر فكرهم في الأعمال، وبعمق العبقرية التجارية التي تكفي برهانا عليها الكتابة الأبجدية التي ابتكروها منذ القرن الثالث عشر ق.م، فكانت أداة غريبة في سمسراتهم، إذ حملوها معهم إلى كل الشواطئ التي تحل بها قواربهم، فتساعد بقوة كبيرة الفكر الإنساني وتدفع بالمدنية للتقدم. وإن أول مرتبة في خدماتهم، التي أسدوها، يجب أن نذكر فيها وقت اكتشاف المغرب بالمعنى الذي به اكتشف كريسْتوف كُلومْب أمريكا، وبفضل النعم التي من دون تفيكر قد أغدقتها عليه تجارتهم، فهم بصفة من الصفات قد نبهوه لنفسه.

ويرجع ظهورهم بالمغرب إلى نهاية الألف الثانية ق.م. ولكنه لم يعط نتائجه كلها إلا بعد ستمائة سنة، عندما بلغت «صور الجديدة»، أي صور الإفريقية التي هي قرطاجة كامل نمو قوتها.

وهناك رواية لايسوغ لنا الشك في صحتها، تقرب فعلا في الزمن تأسيس ثلاث مستوطنات كبيرة لِصُور في الغرب. فحول سنة 1110ق.م،

بأقصى الهضبة الإيبيرية قادس Gadès، وعلى الأصح گدير Gadir (أي الغوطة L'enclos)، إذ أن الفينيقيين قد خيموا على جزيرة بالجنوب الشرقي لمصب نهر البايتيس Baetis أي الوادي الكبير. بهذا الموقع البديع الذي لا تزال به حتى اليوم مدينة كاديكس Cadix الأسبانية. وحول 1101 ق.م في تونس، أوتيكا Utique (عوتيق أي العتيقة l'Ancienne ؟)، على جزيرة ربطتها بالقارة التحولات التي حصلت في مجرى نهر مجردة، بموقع قوي، على المجاز البحري الذي يربط حوضي البحر الأبيض المتوسط، فكان بالغ البعد من النهر حتى لا ينسدّ برسوباته، وبالغ القرب منه لكي يستخدم الطريق التي يفتحها شعبه نحو الداخل. وأخيرا فبالمغرب، في تاريخ لم يصلنا، ولكنه لا يبتعد كثيرا عن التاريخين السابقين، فإن لِكْس Liks، لِكْسُس Lixos أو كما في اللاتانية ليكسوس Lixus – وهي اليوم تْشَمِّش– ليست على ساحل البحر، ولكن أبعد منه بأربعة كيلومترات، على بسيط صغير مطل على وادي اللكّوس، موافق جدا للصحة ويسهل الدفا ع عنه أكثر من المستنقعات المحيطة به، وينتعش في الصيف بالنسائم المحيطية، وتتناثر به أشجار بَلّوط الفلّين chêne-Liège بين الكتل الخربة لقواعد سوره.

أما كون ليكسوس أكثر قدما من قرطاجة، وكونها تدين بالوجود لاتسا ع صور فمتأكد بأن بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax في «طوافه Périple»، وكان يكتب حول 335 ق.م، قد ذكر بصراحة أن ليكسوس هي مدينة فينيقية. ويتأكد كذلك من شظايا النقوش السامية التي جمعت من فوق تربتها، والتي تذكّرنا بالكتابة القديمة للنصوص ذات الأصل السوري، أكثر مما تذكرنا بالنقوش القرطاجية نفسها. أما عن افتراض كون تأسيس ليكسوس يرجع لنفس عهد تأسيس قادِسْ وأوتيكا، فذلك الافتراض ينال تأكيدا مزدوجا من التاريخ ومن الجغرافيا. فالجغرافيا

تضع كلاً من ليكْسوس وقادِس على الساحل الأسباني والأخرى على الساحل الإفريقي، على بعد متساو من مضيق جبل طارق كمنشأتين متناظرتين في مجموعة واحدة، وأوتيكا كأنها ميناء توقف في طريق عودة البحارة الصوريين إلى قواعدهم تبعا للتيار البحري المتجه من الغرب للشرق في البحر الأبيض المتوسط ويساير شمال أفريقيا. والتاريخ من جانبه يعطي لأوتيكا عهد مَعْبدها لأشْمون - أبولون Eschmoun-Apollon ويعطي لقادس تاريخ معبد ملْقارْت - هِرْكول Melqart-Hercule. وقد احتفظ لنا في أحد الفصول من پْلين Pline بذكرى معبد مُكرّس كذلك لهركول الفينيقي مِلْقارْت، الذي كان اللكسيتيون Lexites قد أقاموه بمسفلة أسوارهم، على بعد 300 متر فحسب من المحيط، بجزيرة صغيرة بمصب وادي اللكّوس. وكانوا يكسونه بأقدمية أكثر إجلالا مما يفتخر به هركول قادس. وبالتأكيد، فإن پْلين لا يروي مطلقا - من قوله هو - دعوى يكتفي بروايتها - Ut - ferunt ولكنه مع ذلك لا ينكرها. ومن الواضح أنها دعوى لم تُقل إلا لكون المنشآت التي ارتبط في الأصل بها هذه البنايات الدينية قد كانت بشكل ملموس متعاصرة.

ولقد تساءل المعاصرون هل الفينيقيون بانتشارهم، لم يريدوا الانتقام من تخريب الآخيين Achéens لمواقعهم في البحر الإيجي ؟ ولكن اكْصيل ردّ على ذلك بأنه لم يثبت أنهم ملكوا بالبحر الإيجي متاجر سكتت عنها الأشعار الهوميروسية Homériques سكوتا مطلقا. وعلى النقيض فالثابت بروايات الإليادة والأوديسة أنهم تلاءموا مع الفتوحات الهيلينية، وأنهم أثناء الثلث الأول من الألف الأولى قبل الميلاد قد صانوا عن التدهور تجارتهم بالبحر الأبيض المتوسط الشرقي.

والقدماء الذين انبهروا في أعماق الماضي، من إقامة المستوطنات الفينيقية على ضفاف المحيط، اجتهدوا من جانبهم في فهم ذلك، ولكن يجب أن نعترف بأنهم لم يبلغوا الفهم. فَسالوسْت Salluste وهو لبيب جدا، يتأمل عادة الدوافع الإنسانية، أورد في فصل غامض الخلافات الأهلية التي كانت تحرك الفينيقيين، وفي فصل آخر ذكر حبّهم للسيطرة، وحبهم للمغامرة، حباً توافق مع احتياجهم للتنقيص من السكان الذين كانوا يزدحمون عندهم. وكذلك فإن جُسْتان Justin وكَـنْتكورْس Quinte Curce، وديودور لم يذكروا إلا هذه الضرورة. وترْتولْيان Tertullien بدوره قد ذكرها بكلام قاس لا يستر شكّه في أَخباره. وإذا صدقناه، فالفينيقيون بهجراتهم الدورية قد قاءوا على أفريقيا الفاضلَ من كثرتهم. ولكن هذه التأويلات البسيطة لا يمكن أن ترضينا. لأننا إذَا فرضنا أنها توضح هجرة الأسراب الفينيقية في حد ذاتها، فهي مع ذلك لا توضح لنا الأسباب التي دفعت لهذا الجانب وذاك من المحيط، بالأسراب الطائرة إلى بعيد من نقطة انطلاقها. فالمنشآت التي تذكرها للفينيقيين النصوصُ الأدبية في شرق أفريقيا الشمالية: هيبودْيارْهيتوس Hippo Diarrhytus التي قعدت على ضفة بحيرة بِنْزَرت، وهيبو Hippo التي نمت في حماية جبل إيدوغ Edough عند مصب نهر سيبوس Seybouse، وهَدْروميت Hadrumete بجنوب خليج الحمّامات، ولبْتيس Leptis بين السدْرَتين Les deux Syrtes، كلها مواقع تقدم لنا على أنها متأخرة عن قدومهم إلى أوتيكا، وهي تدور كلها حول أوتيكا. وأوتيكا نفسها في مبدإها لم تكن سوى مرحلة لِصُور في طريق قادس وليكْسوس. لكن من يقول لنا لماذا ظهرت ليكسوس وقادس، بالطرفَ الآخر للعالم ؟ إن نظام الاستعمار الفينيقي بالغرب مرتبط بوجودهما، وهذا الاستعمار هو المفتاح الظاهر لسر البناء الذي بدئ فيه، والذي يكسوه رداء من السر الذي لا نستطيع أن نفتحه إلا بالتخمين.

إن قادس وليكسوس، بادئ الرأي، تتصلان وتتعارضان كمحطتين تكمل إحداهما الأخرى، مجعولتين لرقابة خط السير المزدوج المحيطي الذي يسير عليه الفينيقيون عندما يغادرون مضيق جبل طارق. فيسيرون مع الساحل طوال الهضبة الإيبيرية، أو يلتفون من حول أفريقيا الشمالية. وعند التأمل، فإن التهور الذي اتخذوه عندما رموا إلى هنا بركائز استعمارهم، والسر الذي حافظوا به على مقاصدهم، والاحتياطات التي أحاطوا بها الطريقين الذاهبتين من هذه المتاجر البعيدة، إن كل ذلك ليدل على القيمة التي كانوا يعلقونها على مواقع احتكارهم. وظاهر أنهم لم يواجهوا كل هذه المخاطر، ولم يتخذوا كل هذه التأمينات إلا لكونهم يؤملون ربحا طائلا، هو أعظم الاستفادات التي تعودوها من قبل والتي حققوها بتجارتهم في المعادن الثمينة. لقد كانت هذه هي نزعتهم الباطنية الأولى. وقد كشف السيد دوصّو M. Dussaud بمناسبة شعر اكتشف في أطلال رأْس الشّمْرة «مولد الآلهة اللطيفة والجميلة»، أي كشف عن حب الذهب الذي سبق أن سيطر عليهم في أوگاريث Ugarit. وأكد بصواب، أن الرحلات الفينيقية إلى كنوز بلاد أوفير Ophir التي بيَّنتها التوراة، ليست سوى عودة إلى التقليد الذي شرع فيه منذ ألف سنة مضت قبل ذلك، وعليه كانت تستند ثروتهم، وتتجه قوافلهم خلال ما بين النهرين حتى الخليج الفارسي، وإلى ما وراء البحر الأحمر حتى ساحل صوفالا Sofala نحو فضّة أرض بَكْتريان Bactriane ونحو ذهب بلاد العرب والموزمبيق Mozambique. وأرادوا بعد ذلك أن يذيعوا في أراضي جديدة التجارة التي أصبحوا سادتها، وعندما أوصلهم استغلالهم إلى الأراضي التي على ضفاف المحيط، والتي يصلها الذهب والفضة، فإنهم لم يتوانوا عن بذل أي جرأة ليحتفظوا باستغلالهما.

من هنا على ما يبدو تولّدت ليكْسوس وقادس. أما عن قادس فالرأي الجاري اليوم، هو أن الفينيقيين قد أرسوا بها، وأقاموا مؤسسة دائمة لتنظيم سوق الذهب التي فتحوها مع أهل طَرْطِسوس Tartessos المالكين لمناجم هُويلْفا Huelva وسيرّا مورينا Sierra Morena. ولا داعي لتأكيد ذلك، ولكن في عهد كانت فيه الفضة، كما يقول صاحب «كتاب الملوك»، قليلة القيمة إلى حد كبير بالنسبة للذهب. فالمنطقة اجتذبت الفينيقيين بمدخراتها من المعدن الأصفر الذي تعرضه عليهم في نفس الحين. ومثل ذلك، إن لم يكن أكثر، ما تمني به العروق المعدنية التي في طَرْسيس Tharsis. فالذي دفع بهم إلى بيتيكا Bétique هو حب اقتناء الشذرات التي يجري بها الوادي الكبير.

ولكن في أفريقيا، على الوجه المحيطي الآخر، فإن البلاد الخلفية قد كشفت أمام نهمهم عن آمال جذّابة. وحسب ما أرى، فليس هناك شك في كونهم أقاموا في ليكسوس لينشروا منها على هواهم شبكة التجارات والرحلات التي كانت دورياً تأتيها بذهب السودان وفضة الأطلس المغربي. وكما سنرى بعد قليل، فإن تجارة الذهب السوداني، كانت تجري في القرن الخامس قبل الميلاد، بتدقيق حسب الطرق الساذجة التي كان الأوربيون منذ خمسين سنة لا يزالون يستخدمونها مع المنقّبين على الذهب في السينغال. وإن بساطة الطفولة التي كانت المبادلات تكتسي بها، وهي ثابتة طوال ألفَيْن ونصف من السنين، لتدفعنا لما قبل هيرودوت Hérodote الذي هو أول من وصفها، فننسب جهازها إلى الفينيقيين الذين سبق بستمائة سنة أن ثبتوا في مرحلة ليكْسوس مغامرتهم العجيبة. وكذلك فإنهم نظموا في ليكسوس المخزن entrepôt الذي يخزنون به المقادير التي حصلوا عليها من المعدن. كما جعلوها قاعدة ينطلقون منها للتنقيب في معادن الفضة بالأطلس،

ولمحادثة الأهالي الذين يملكونها. ومن قبل أرْيوسْط Arioste الإسْتَجيري وفي مدة لا نستطيع تقديرها، فإنه قد نقل عن إغريقي آخر، لا نعرف إلا اسمه وهو بْروماثوس الساموسي Promathos de Samos الذي حكى لنا أن نهر النيل يأخذ أحد منابعه في جبل الفضة الذي به ثلوج عندما تذوب فإنها تضخمه، وفي نفس الحين تكون نهرا آخر، هو كْريمِتيس Chrémétès الذي يصب في المحيط. ومنذ زمن طويل عرفنا أن جبل الفضة هو الأطلس الكبير الذي جعل فيه پْلين Pline بعد يوبا Juba وفِتْروف Vitruve كذلك أحد منابع النيل، كما عرفنا في كريمتيس χρεμετης?– وادي دَرْعة الذي ذكره پْلين باسم Flumen Darat، وفِتْروف ذكَره باسم دوريس Dyris وأشركه بالنيل، كأنه بجانبه يأتي من السلسلة الأطلنتيكية. وبعد أرْيوسْط Arioste بخمسة قرون نجد بصيغ مختلفة نفس المشهد الطبيعي المخطط باشتراك مماثل. وبْطُلِمي يسجل دائما في الأطلس المغربي وجود ορος Καφας الذي ينطلق منه نهر درادوس Δαραδος . لكن رغما عن المظاهر الكلامية، فإن هذه البيانات لا تثير حقيقة أخرى. فاسم نهر درادوس الذي بقي مع بعض التحريف في وادْ دْرَا Oued-Drâ كما عند البَكْري، وواد دَرْعَة Oued Draa في الخرائط العصرية، هو بغير شك من أصل سامي. إذ توجد صيغته في أسماء أحد أنهار سورية الكِرْهيسيّة Kyrrhestique أي نهر داردَكْس Daradax، واسم لمدينة في الخليج العربي داردَة Darada. ولعل ترجمة إغريقية تقريبية إلى حد ما تكون قد أدخلت في اللفظ الذي أورده أريوسط Arioste وهو كْريمِتس Chrémétès الذي يذكرنا جذره بفعل χρηματιζειν أي : اغتنى فيكون معناه النهر المربح. وعلى العكس فإن بْطُلمي Ptolémée قد حافظ لنا بالصيغة السامية البينة اللفظ الذي كان الفينيقيون يستعملونه للدلالة على الأطلس المغربي. وإذا كانت

مخطوطات بطلمي تحمل Καφας، الذي لا معنى له، فإن تصويبا واضحا اقترحه مولَّر Müller بإبدال السين σ محل الفاء φ وبذلك نعيد للفظ Κασαφ معنى الفضة الذي كان له في الفينيقية. وهذا يفضي بنا إلى التسمية المجازية لجبل الفضة التي كان الأطلس الكبير يحملها في أرصاد Météologie أرسْطو، وكذلك عند بْروماتوس الساموسي Promathos de Samos.

وهذه المزدوجات مفيدة، إذ بها فإن أسماء المواقع في الإغريقية–الفينيقية توضح الجغرافية وتلوح للتاريخ. فهي تعرفنا أن المنطقة التي كان يشرف عليها الأطلس الكبير ويخترقها وادي دَرْعة كانت منذ أقدم العصور العتيقة مشهورة بمناجمها الذهبية Placers، وبنفس المناسبة توحي لنا أن الفينيقيين استفادوا منها بثمانية عشر قرنا قبل سلاطين سِجِلّماسة الذين – على قول البكْري – كانوا يأخذون خمس معادن دَرْعة.

وبهذا تنكشف النوايا التي قادت الفينيقيين إلى ليكسوس وإلى قادس في نفس الحين. لقد كانوا فيهما يمسكون بمفاتيح الجنات الذهبية Eldorado. ولا يحسن في هذه الظروف التنقيص من الأهمية التي حازتها ليكسوس في المجال العام لاقتصادهم، في العهد الذي كانت فيه فينيقيا تبيع لزبنائها المشرقيين الذهب والفضة اللذين يتطلع ثرفهم لهما، واللذين تطفح أحمالها بهما. وحيث في أوروشليم كان سليمان حليفاً لِحيرام Hiram مَلِك صُور «كان شجر الأرز أكثر من الجميز Sycomores في الأرياف، والذهب والفضة كانا كذلك منتشرين كالأحجار» في الظرق وفي الوهاد[3]. ومع ذلك فلا يجب أن نبالغ في تأثير مؤسستهم في ليكسوس على الأرض المغربية التي أقاموها فيها

عن عمد. وبدون شك فإنها لما جعلت الأهالي الهمجيين تقريبا على اتصال مفاجئ بشعب مزود ببحرية قوية متمتع بالخيرات، ومتألق بالذكاء، فلابد أنها أشعرتهم برجّة الصدمة النفسانية، وفتحت أعينهم على مشاهد إنسانية غير معروفة، وعلى مفهوم لحضارة عالية. ولكن لقد كانت ليكسوس متوحدة على رَبْوتها باللكّوس، وكانت جدا قليلة السكان، وخاضعة خضوعا كليا لشكل عجيب من التجارة التي لم تكن تطلب منها سوى علاقات متقطعة وعابرة مع سكان يتباعدون، فلم تستطع منذ ذلك الحين أن تؤثر تأثيرا عميقا على الرجال الذين كانوا يحيطون بها. بل، وليس متأكدا أنها في وحدتها وعوزها السكاني قد قاومت ضغطهم إلى الأبد. والمماثلة التي رأيناها بين بداياتها وبدايات قادس – (التي كانت مرتبطة بها بنوع من التبعية في التراتب) – قد تحكمت على الأرجح في تتابع مقاديرهما. وكما أن قادس التي منها كان يُصدّر المهاجرون والمساعدات إلى ليكسوس قد تضعضعت بضربات أهل طرطسوس، فإن ليكسوس اضطرت أن تضعف تحت وطأة هجمات الليبيين. ألم يذكر إراطوسْتين Eratosthène أن هؤلاء الليبيين قد خربوا ثلاثمائة مستوطنة كان الصوريون قد أسسوها بالمغرب؟ ولم يوجد أحد – حتى سْترابون Strabon الذي استقى منه هذا العدد ليشك في قيمته – لم يوجد أحد يأخذ هذه المبالغات مأخذ الجد. وباستثناء تِنْجي Tingi وثْرانْكي Thrinké، وملِيسّا Melissa التي ذكرها هيكاتي Hecatée لم يوجد مطلقا من ذكر أن بالمغرب قبل القرن الخامس ق.م مدينة فينيقية كبيرة بجانب ليكسوس. ولكن يخشى أن تكون ليكسوس قد لحقها مصاب أخواتها الخياليات، أو أن تكون على الأقل سريعا ما حُكم عليها أن تعيش مغمورة خلف سيران Murailles أكْرُبولِها. وكذلك فمثلما لم نعثر في قادس على أثر سبق القرن السابع ق.م، لم نعثر كذلك في الخرائب

البونيقية في ليكسوس إلا على عاديات ترجع لآخر مرحلة من تاريخ قرطاجة. وقول الأركيولوجية قول واضح. فقد كان لابد من عون قرطاجة، لابد من قوات وسياسة قرطاجة لإخصاب عمل الفينيقيين في الغرب. على أن ليكسوس مادامت ليست سوى وكالة تجارية نبتت في غير بيئتها، فهي محطة بمكنها ربما أن تغنيهم بالمغرب، ولا شيء أكثر من ذلك. ولإثراء المغرب، ولاستعماره، كان لابد لهم أن ينتظروا حتى تجمّع قرطاجة شعبا وافر العدد، ذا رفاهية لتكون في شمال تونس الحالية دولة ذات حجم متوسط، ولكنها ذات حيوية خطيرة، وذات بنية بالغة القوة، إلى حد أنها تحملت دون وهن ثقل الإمبراطورية البحرية التي أخضعوا لها البحر الأبيض المتوسط الغربي بطريقه وجُزره والمستوطنات العديدة التي أسسوها بكثرة في إسبانيا، وعلى جميع شواطئ أفريقيا الشمالية وحتى على المحيط.

الإمبراطورية البونيقية واحتكاراتها

وحتى إذا قبلنا عن هذا التأسيس الخرافي التاريخي المعتاد (814-813 ق.م) فإن قرناً من الزمان قد مر قبل أن يتأكد وجود الفينيقيين من المخلفات التي جمعت في أطلال قرطاجة. ومر أكثر من ثلاثة قرون قبل أن يمكّن نمو مدينتهم، لا أن تفرض قانونها على الأَفْري Afri، أي على الليبيين الذين لبثت حتى ذلك العهد متمسكة بأرضهم بكراء، بل لتحيط البحر الأبيض المتوسط الغربي بنطاق من مستوطناتها: في صِقلّية، وسَرْدانية، والبالِيار، والأندلس، وعلى جميع سواحل أفريقيا الشمالية. وإذ ذاك، وحينذاك فحسب، فإن جمهورية الأرستقراطيين التجار القرطاجيين قد أكملت أدوات سيادتها وحققت تجميع القوة التي – حتى اندحار حَنيبَعْل – لم تفتأ تعظم. وبلغت من الشدة في القرن الخامس ق م، لتزاوج قوات الفُرس ضد الهيلينية Hellénisme. وهي في الختام قادرة في القرن الثالث على أن تزاحم روما على الإمبراطورية العالمية. ولا داعي للتحدث من جديد عن تاريخ كتب فيه اكْصيل رائعة تعجز الغير أن يكتبها. وإنما المقصود هنا هو إظهار ما يهم المغرب من ذلك التاريخ ويهيئ لمستقبله.

إن قرطاجة لم تنتصب بمدخل الحوض الغربي للبحر الداخلي إلا لتسيطر به للبونيقيين، أي للفينيقيين على السيادة النهائية غير المتنازع فيها. فكانت من وقت باكر مدفوعة لأن تنزل بالمغرب بسبب الضرورة الملازمة لعلة وجودها، ولأن تضع يدها على مضيق جبل طارق، الباب

الذي كان آنذاك بالبحر الأبيض المتوسط ينفتح على الخارج. ولم يعجزها ذلك. بحيث في القرن الخامس قبل الميلاد، ابتدأت رحلة حنّون Hannon بهذه الجملة : «القرطاجيون قرروا أن قائدهم البحري Amiral يتجاوز أعمدة هرَقْل وينشئ فيما بعدها مدناً قرطاجية...». ومهما يكن الرأي في تعريف أعمدة هرقل، سواء أكانت أعمدة البرنز Airain العالية بثماني أذرع (3.60م) وكانت تزين معبد قادس، أم كانت هي القمتين القائمتين في هذا الجانب وذاك بالمجاز الذي به يتصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط، فقمة أوربا بجبل كالْبي Calpé (جبل طارق) وقمة أفريقيا بجبل أبيلا Abyla قرب سَبْتَة أي (جبل آشو Acho بالشمال الشرقي لهذه المدينة، أو جبل القرود Mont aux singes بالجنوب الغربي)، فإن التعابير الآمرة التي توضح مهمة حَنّون تفرض حتما أن قرطاجة تدّعي على مرأى ومسمع الجميع أنها تسيطر على الممر بسيادة. ومن الواضح أن جهودها كانت في الحقبة السابقة قد رمت إلى الاحتفاظ لنفسها بالوصول إليه.

إننا نعلم العناية الفائقة التي استعملتها دائما في منع كل ما عدا رايتها أن تبحر في المجال الذي يحدده المرتفع الجميل Le beau promontoire أي (رأس سيدي علي المكّي) بأفريقيا، ومَسْتيا Mastia (رأس بالوس C. Palos بإسبانيا، وأعمدة هرقل أي مضيق جبل طارق بين أفريقيا وإسبانيا. فلهذه الغاية الأساسية، نراها دائما تمزج حروبها وسياستها بمقدار عجيب من الليونة والقوة، بمناوبة بين القسوة والعفو. فبعد صراع طويل، تركت القورينيين Cyrénéens يتقدمون نحوها حتى أضرحة فيلين Philènes، ربما إلى مُكْتار Mouktar بمجرد ما تعهدوا أن لا يتقدموا إلى أبعد من ذلك. وعوض أن تتدفع باستفاداتها أو انتقامها، فقد قبلت شروط مدينة مَرْسيلية، التي كان الأتروريون Etrusques

يوقفونها، بمجرد ما تخلت بالساحل الإيبيري عن أن تتعدى روزاس Rosas وأمبورياس Ampurias نحو الجنوب. وعندما ظن داريوس Darius ظنا مفيدا مرتين أنه يحجز إغريق صقلية في جزيرتهم بتهديد هذا التدخل، وبخليط غريب من الاهتمامات العصرية والمفاوضات العتيقة، فإنه يردّ الاعتبار للباربار، وهو الفارسي حليف الساميين ضد الإغريق، سيظهر بوجه إنسانية عليا، بفرضه على البونيقيين، قبل أن يتفارض معهم، أن يقلعوا عن أكلهم القذر وقرابينهم الإنسانية. فانتهزت قرطاجة هذه الفرصة لتصد خطر توسع سرَقوسة Syracuse الإغريقية، ولتواجه جيلون Gélon في معركة قاسية. ولما اندحرت، في هيميرا Himère، أوقفت منذ سنة 480 ق.م نفقات عمليتها الحربية، ووهبت في سلام مرتجل وبلا حياء إلى جيلون جميع الترضيات التي كان يطلبها، لأن الطاغية السِّرَقوسي من جانبه وافق على أن يتخلى لها في تقسيم لصقلية على السواحل الغربية التي كانت تنطلق منها خطوطها البحرية نحو الغرب. وتفاهمت مع الأتروريين Etrusques بجعل كُرْسيكا بين حملاتهم وحملاتها هي. ولما حل الرومانيون محل الأتروريين على الساحل الترهيني Tyrrhénien، حاولت عدة مرات أن تصل معهم إلى توازن يصون كل عمليات عبورها، وعوض قبول قطع هذا العبور، فإنها دخلت في الدوامة الجهنمية (للحروب البونيقية). وكانت مواقفها المتغيرة تعبر عن عزيمة لا تلين. بحيث إن الاتفاقيات التي وقعتها، والحروب التي ابتليت بها أو أثارتها هي كلها تعبّر عن فكرها العميق ومصالحها الدائمة، والمتأكد هو أنها ما بين حروبها وخارج معاهداتها قد عمدت – كأجدادها الصوريين فيما مضى – إلى التخويف بمراقبتها البحرية وإلى عنف قرصنتها لتخضع العالم لأوامر الحظر التي تتوقف عليها ثروة أسواقها.

وينصحنا سترابون Strabon قائلا : «يجب أن لا ننسى أن القرطاجيين كانوا دون رحمة يغرقون كل سفينة أجنبية يلاقونها في جهاتهم متجهة إما إلى جزيرة سردانية وإما إلى أعمدة هرقل. وفي هذا نفسه ما يفسر كيف أن جل المعلومات عن المناطق الغربية من الأرض، قلما يصح الاعتماد عليها». وهذه الشرطة الدائمة لم تكن لتسير دون خطر، فكانت تحكم على المكلفين بها بمتاعب المطاردة الدائمة، وبالخطر المتكرر بالاقتحامات. والجرأة لم تكن تنقص أصحاب السفن البونيقيين الذين كانوا يفتخرون في النقل بسفنهم المستديرة الشكل Ronds، كما سيفتخر من بعدهم أمراء البحر amiraux البونيقيون بسفنهم الخمسية quinquérèmes اللطيفة. ولاطمئنانهم إلى عناية حكومتهم، فإنهم كانوا يفضلون القضاء على أنفسهم، على أن يخونوا واجبهم، وأن يسمحوا لسفن مزاحميهم أن تقتحم المنطقة الممنوعة. والحكاية مشهورة عن ربان تلك السفينة التي تقوم بالرحلات البعيدة، وأصله من قادس القرطاجية، وكان عقب الحرب البونيقية الثانية قد أبصر أثناء إحدى رحلاته، سفينة رومانية وهي تتجه في اطمئنان إلى أعمدة هرقل. ولم يكن للبونيقي أي حق في تفتيشها. وحيث قد كان فاقدا لكل حماية عسكرية، ولم تكن له وسيلة ليسد الطريق في وجهها، فإنه بكل جرأة واحتيال قد بدا وكأنه يتهرب من أمامها حتى جعلها تطارده وجرّها إلى صخور البحر حيث تحطم الخصمان. وماذا عليه من تحطيم حمولته التي سيعوضه عنها مالاً مجلس شيوخ قرطاجة عند عودته ؟ لقد أدى مهمته المفترضة، وأوقف المزاحمة عند الأعتاب الممنوعة. وهكذا، فإن قرطاجة لما انطوت على نفسها بجرحها المميت، ولم تَعُدْ تحتفظ ولو بظلّ عظمتها، كانت لا تزال تبدو قادرة بفضل مبادرة بحارتها على ضرب من

يتجرأ على التعدي على نواهيها القديمة. وإنا لنفهم كيف أنها إبّان عزتها قد أوهنت بسرعة عزم أشد الناس مهارة عن أن يخالفوا تلك النواهي.

وفوق ذلك، فإن كل الأسلحة كانت حسنة لديها للوصول إلى أهدافها، ولم تهمل سلاح دعاية منظمة بحصافة. فقد خضع بحارتها لأمر تَوارثوه أباً عن جدّ، وكانوا قد تلقوه من أفواه الصُّوريين : فيحكون دائما عن رحلاتهم البحرية حكايات فيها الأسى وأوصاف الهلع، فَحيملْكون Himilcon بعد عودته من رحلته العظيمة إلى جزر الويسْتريمْنِد Oestrymnides، (التي هي ويسّانت Ouessant وجُزرها الصغيرة، لا جزر السورْلانگ Sorlingues)، لم يتوقف عن ذكر المصاعب والأخطار التي لقيها، والقيعان القليلة العمق التي كاد يرتطم فيها، وحقول الطحالب التي عانى عناء كبيرا ليتخلص منها، والضباب الذي سار فيه سير الأعمى، ثم توقفات الهواء المفاجئة التي كانت تشلّ حركاته. فإذا كانت هذه هي تقارير أمراء البحر، فيمكننا أن نتخيل المجاملة التي كان صداها هو تفاخر البحارة الذين لا ينسون أبدا في أحاديثهم عن السواحل التي يريدون الانفراد بالتردد عليها، فيزرعونها بالعراقل التي لا سبيل للتغلب عليها، وبالوحوش المخيفة وبالسكان غير الإنسانيين. بحيث إن قراصنة قرطاجة كانوا في إذاعتهم للأساطير، بدون أن يتناقضوا، يُقوّون الهلع الذي توحي به رحلاتهم، ويعرفون كيف يمنعون بقية الناس عن بِحار صُور – Tyria maria – أي عن السواحل المغربية وعن المضيق الذي تكونه هذه السواحل عند اقترابها من الساحل الإيبيري والمحيط الذي كان يحدها بعد أعمدة هرَقْل.

وعملياً، فمن القرن السابع إلى نهاية الثالث ق.م، فإن هذه السواحل لم يمر بها الأجانب إلا معهم أو بإذنهم. فبِبَحّارة فينيقيين أو

بونيقيين – وفي هذا الوقت كانوا يكوّنون وحدة – ما بين سنة 610 و595ق.م، كان ضباط الفرْعون نَخاوْ Nechao، الذين انطلقوا من عمق البحر الأحمر وأنجزوا الطواف الكامل حول أفريقيا ثم عادوا لسايْس Saïs بمصر مارّين بجبل طارق، وعلى غرار ذلك فإن الفُرْس بين 478 وسنة 465 ق.م حاولوا بدورهم القيام بهذا الطواف البحري. وإنا لنعلم ظروف ذلك، وهي أن سيتالْكيس Citalcès ابن أخت دارْيوس Darius كان قد أفسد بنت زوبير Zopyre حاكم بابل Babylone، فاستحق لجريمته من الملك الحاكم وهو ابن عمه خِرْشيش Xerxès الحكم بالإعدام، ولكن لتوسلات أمه تحوّل الحكم عليهِ إلى الخدمات الشاقة المتكونة في أن يعيد في الاتجاه المعاكس رحلة نخاو Nechao. وسرعان ما هبط مصر واكترى بها سفنا عليها مثل سفن نخاو بحارة فينيقيون، أخذهم من سايس Saïs بكثير من السهولة، لأن مصر آنذاك كانت قسما من الإمبراطورية الإخمينية Achéménide كما أن مدينة صور Tyr كانت تابعة. وبصحبتهم ساير سواحل المغرب وَعَبر مضيق جبل طارق واستمر في السير بعض الوقت نحو الجنوب، وفجأة، أمام سيرّاليون Sierra Léone تولى عن مسيرته وعاد إلى بلاط سوسان Suse، وفيها وقع قتله بالخازوق، لأنه لم يؤد الشرط المفروض في العفو عنه ولم يبرر تخليه.

ويبقى العمل الفائق الذي أعجب به الناس طوال العصور العتيقة، أي عمل البحارين المرسيليّين اللذين اكتسبا الخلود : رحلة بيثْياس Pythéas الذي أنجز أكثر من 20.000 كيلومتر سار فيها عبر المضيق إلى الأرموريك Armorique والكُرْنُواي Cornouailles لأرض القصدير Etain ثم نحو السِّلْتيك La Celtique والإلب l'Elbe وإلى النّرويج Norvège، قاصية العالم المسكون – Ultima Thule – أرض الكهْرمان Ambre. والثانية رحلة

أوثِمين Euthymène، وهي أقل إشراقا وسعدا. فقد اتجه اتجاها معارضا، وعلى الأكثر لم ينزل إلى أسفل من مصب نهر السينغال. وكلتاهما تقع بين 328 و321 ق.م، حول آخر حياة أرسْطو Aristote الذي قرأ رحلة أوثِمين، ولكنه لم يجد الوقت ليرجع إلى رحلة بيتياس. وكما رأى ذلك جولِيان Jullian إنهما نصّان من مؤلف مزدوج كتب تمجيد اللإسكندر. فقد كانت قرطاجة آنذاك تعيش أياما سوداء، وخطوة بعد خطوة، فإن انتصارات روما بإيطاليا انتزعت منها العون الأتروري التقليدي (348 ق.م). ونزول تيموليون Timoléon بصقلية، ألزمها خوض حرب منهكة، جعلت لها حدا منذ أول انفراج (338 ق.م)، وعلى الخصوص فإن سقوط مدينة صور (332 ق.م) الذي جاء ليوضح قوة وطموح وعبقرية الإسكندر. فلم يكن من همها أن تجلب على نفسها صواعق ملك مقدونيا Macédoine. ويحتمل أنها كانت عالمة بالمشاريع التي تعزى لبطل الهيلينية Hellénisme، الذي لم يكن يرمي إلى غير تهديمها هي بعد تهديم أمّها صُور، لذلك احتاطت بقوة شديدة من أن تعطيه سببا لمهاجمتها. وأعطت لبيتْياس Pythéas ولأُوثِمين الرخصة التي ما كانا ليحلما بطلبها منها في وقت آخر. ونحن متأكدون أن بيتياس الذي استراح بقادس قبل الوصول للمحيط، قد حصل على موافقة البونيقيين على خطته. والمظنون تبعا لذلك أنهم زودوا المكتشفين الإغريقيين بالمرشدين الضروريين. وقرطاجة المحتاطة عادة قد رضيت بمأساتها، وأعانت لمرة واحدة في العمل الكريه الذي لم تكن قادرة على منعه. كانت تعين، وفي نفس الحين كانت على ما يبدو تعرقل في السر. إذ أن إخفاق أوثِمين Euthymène إذا قارناه بنجاح بيتياس Pythéas، فهو دون شك راجع إلى قلة الاستجابة التي وجدها لديها. فقرطاجة تركت بيتياس يتعرف على أراضي الشمال التي يأتيها منها الكهْرمان Ambre

والقصدير. وعلى النقيض يحتمل أنها اجتهدت في إيقاف أوثمين في مكان معلوم، كما فعلت من قبل بِستالْكيس Sitalces، على الطريق المؤدية إلى بلاد الذهب. وعلى كل فإنها تصرفت فيما بعد بطريقة جعلت هذا المرسيلي وذاك لا يأتي بعدهما مقلّد. ولكن بموت الإسكندر، واضمحلال خطر الغزو المقدوني، عادت قرطاجة فأقامت حراسة شديدة أمام المضيق، حول المغرب وعلى طول السواحل المحيطية. وما دامت بحْريتها موجودة فإنها احتجزت هذه الأراضي بغير رجعة، بينما الإغريق الممنوعون، لم يستطيعوا سوى أن يرددوا بألم الأبيات النيمية Neméennes[4]، التي نظمها الشاعر بَنْدار Pindare بين 478 و470 ق.م، إذ قال : «ليس ميسورا أن تندفع أمام أعمدة هرقل نحو البحر الذي لا يوصل إليه». و «لا يمكن عبور قادس، فوراءها الظلمات».

ولكن الإغريق لم يعتبروا أنهم قد غلبوا على أمرهم. بحيث إنهم لما أبعدوا عن الحقيقة، التجأوا إلى الخيال. وعندما يئسوا إلى الأبد من أن يزوروا بأنفسهم المضيق والمغرب (وبحره الخارجي) فإنهم أخفوا غمهم تحت ستار براق من أوهامهم. ذلك أنهم لما منعوا من أن يبعثوا إلى هناك سفنهم ورجالهم، فقد أجالوا هناك الأعمال المجيدة لأبطالهم ومعجزات آلهتهم.

المغرب البونيقي في الأساطير الإغريقية

منذ أربعين سنة، فإن فيكتور بيرارد Victor Bérard قد انتبه بإحساس عبقري إلى أن حول أواسط القرن التاسع ق.م، فإن مرويات الأوديسَّة قد طرزت تغييراتها على أصول فينيقية. وإننا حتى إذا لم نكن مستعدين لنسلم له بأولية الافتراض، وحتى إذا شككنا في أن يكون شعراء العهد الهوميري Homérique قد اجتهدوا فنقلوا في أشعارهم معلومات عن رحلة كان أهل صُور Tyr قد جدوا في إخفائها حتى لا تصل إلى أيد أجنبية، وحتى إذا رفضنا بعضا من (المزدوجات) السامية والهيلينية التي تَنبه العالم فيكتور لتلاعبها في أسماء الأمكنة بالملحمة، فإن نظريته المعروضة تبقى مشتملة على جانب منير من الحقيقة. وحسب رأيي المتواضع، فإن صدى الشائعات التي حملها بحّارة صَيْدا Sidon وصور Tyr تعكسها في رنين عميق وجميل أكثرية فصول مغامرة أوليس Ulysse.

فمنذ بداية القصيد على الخصوص نجد أننا انتقلنا إلى الأرض المغربية بالصلاة التي رنّمتها أثينا Athéna لصالح أوليس Ulysse، لهذا الرجل الحكيم الذي فدحه الحظ بعيدا عن ذويه، ولا يفتأ يتألم في جزيرة تحيط بها التيارات، «على هذه السرّة بالبحار، على هذه الأرض ذات الأشجار، حيث تسكن الإلهة بنت أطْلَس، هذه الروح الشريرة التي تعرف من جميع البحار مهاويها، وتسهر وحدها على الأعمدة العالية التي تصون السماء بعيدة عن الأرض». كَليبْسو Calypso هو اسمها، «تمسك

هنا التعيس أسيرا». وبأمر من زيوس Zeus، طار إليها هِرْميس Hermès ليفكّ الأسير. فوجد الإلهة في بيتها بالمغارة التي جعلتها مسكنا لها، ومن حولها «غابة أطلعت أشجارها السامقة القوية... وعلى حافة القبة دالية في عنفوانها تنشر أغصانها، مزدهرة بالعناقيد، وتتجاور أربع عيون، إحداها بجانب الأخرى، تصب نميرها المعين، ثم تتجه المياه إلى سهول ناعمة خضراء بالبقدونس والبنفسج». إن فيكتور بيرارد V. Berard وهو المنقب الأثري والجغرافي والعالم باللغتين الإغريقية والعبرانية، والبصير ذو النظرات الفاحصة، والمجادل الحصيف الدقيق، قد أنعم النظر في كل شيء وفهم كل شيء وتعرف على كل شيء. ففي أطْلس أبي كَليبْسو تَعرَّف على الروح التي توسوس في جبل القرود الذي تُخفي قمته السحب دائما. وتعرّف في جزيرة كليبسو على الترجمة الإغريقية للتعبير السامي : إي صبْانْيا I-Spania الذي بقي حياً في صبغة لاتانية على الساحل المقابل، ومعناه جزيرة الخفاء، ووجد جزيرة البقدونس (المعدنوس)، ووقع نظره إما بالجزيرة أو بالأرض المحيطة بها مباشرة بين البحر وجبل القرود، فرأى المغارة التي تكنها والأشجار التي تظللها والدوالي التي كانت تحليها، وحتى العيون الأربع المتجاورة والمتباعدة التي تبترد بها.

وبالتأكيد فإن هذا الإيضاح لم يقنع أبدا جميع الناس. فبعضهم لم يستسلم لكل هذا التدقيق عند ناظم كان إبداعه الشعري محدودا لفقره عند العثور في الإيقاع على ألفاظ يكون قد جمل بها الجفاء الحقيقي لفرد متنقل بين الموانئ Portulant مشكوك فيه[5]. وآخرون بجهلهم للغات السامية يقفون مترددين أمام اشتقاقات لغوية لم يسلّم بها جميع المتخصصين. وختاما، فإن البعض يعلنون بطلان الرأي الذي بمقتضاه، كان هوميريوس Homère، كَهيرودوت Hérodote بعده بثلاثة قرون قد جعل الأطلس في جبل القرود، لأن التشابه الذي يورده ينقلب ضده.

وصحيح فعلا، أن هيرودوت يصف الأطلس كما وصفه هوميروس كجبل منعزل : «بالغ العلوّ، كما يقال، بحيث تستحيل رؤية القمة التي لا تفارقها السحب لا أثناء الصيف ولا في الشتاء». ولكنه في نفس الحين يعرف أو يظن أنه يعلم أن هذا الجبل بليبيا واقع في أرض الأطَرَنْطيّين Atarantes، بداخل البلاد، في منطقة الحرارة الشديدة المتصلة بالصحراء. ومع ذلك فإذا استعملنا التعابير العامة للقضية، فإننا نجد أن فيكتور بيرارد V. Berard لم يخطئ سوى في كونه قد أصاب جيدا، وإذا سلمنا بكل واحد من التعرضات التي يثيرها منهجه، فإن هذا المنهج سيبقى بعد ذلك، ربما ليس على شكل نظرية ليس فيها صدوع، لكن بقوة شعور حتمي.

ولنعد مثلا إلى موضوع الأطلس. فلاشك أن هوميروس وهيرودوت لم يعرف أيٌّ منهما «أدْرار Adrar» الأطَرَنْطيين Atrantes، أي «جبل الجبليّين» بليبيا إلا بطريق غير مباشرة، بواسطة الفينيقيين. وكذلك فمن الواضح أن هذا الاسم الذي يسهل إلباسه صيغة إغريقية بواحد من التعابير التقريبية التي تربط بعضا ببعض كلاّ من أسماء المواقع toponymies المتعاقبة، هذا الاسم يقدم نفسه هو لمقارنته بعمود السماء الذي بسبب خطإ اشتقاقي قديم، فإن الإغريق شخصوه في العملاق أطلس Atlas، وقالوا فيما مضى إنها جبال أرْكاديا Arcadie، ومرة أخرى في مرتفع بِسرنيكا Cyrénaïque، وختاما، لاشك في أن كل جبال ليبيا تستطيع أن تدّعي أن اسمها أدرار كما أن لفظ أطلس يتفق كذلك مع السلسلة في مجموعها، هذه السلسلة الظهرية Dorsale التي تابع هيرودوت وهمياً تسلسل رباها من السدرتين حتى المحيط، وكل قمة تتدرج بها على الخصوص، مثل تلك التي تقوم على بعد عشرة أيام من الگرامنطيين حسب قول هيرودوت أو التي تطل إما على البحر الأبيض المتوسط، أو على المحيط الموصوف بأنه أطلنتيكي. وطبعا فإن وجود

الأطلس الإفريقي بكل مكان يجعلنا مبدئيا في حيرة الاختيار. ولكن مما لا شك فيه أن نصَّ هوميروس يلزمنا بإسكان كَليبْسو Calypso بالبحر الأبيض المتوسط بجوار أبيها أطلس، وهذا الأخير على إحدى القمم التي من الجانب الليبي تسد أحواز المضيق. وفوق هذا، فأين إذن سوى بالمغرب نكتشف «هذه الأرض ذات الأشجار»، التي عرفها الإغريق من خلال هذر الفينيقيين ؟ وأين هذه الأرض بأشجار العرعار ذي العود الثمين، الذي قبل أن يُغني تجارة الرومانيين بموريطانيا، فإنه قد كان يحترق ويعطر مغارة كليبسو ؟

وبالتأكيد فنحو المضيق «عقد هيرْميس Hermès نعاله الربانية المطرزة بالذهب»، ليرتمي من أعماق الأفق اللازوردي، ولا ينحط إلا بالقرب من مخبإ أوليس Ulysse في أبعد مكان بالعالم.

في هوميروس لا تزال هذه الأرض القاصية مستورة بالغمائم، «والأعمدة السماوية العالية» التي تسد بها الآفاق لا تزال دائما مجهولة. ولكن بقدر ما كانت الأرستقراطية البحرية الفينيقية، بسبب تحريك الوصاية القرطاجية لها، قد رسخت قوتها، فإننا نجد الإغريق يأتنسون ويوضحون هذه الطبوغرافيا الوهمية.

فالربّ الشمسي «السيد ملْقارت Melqart هو ربّ صُور»، هكذا سماه نذران deux ex-voto ، من مالْطة أهديا إليه، وهو يحتل في زون Panthéon مدينة صُور Tyr موقعَ الشرف. ويملك بها معبداً زاره هيرودوت، وقد ملأته بهباتها التقوى الشديدة للمؤمنين به، وأشدها ندرة في التجميل مكونة من عمودين باهرين، أحدهما من ذهب خالص، والثاني من زُمرّد يلمع بالليل. وفي صُور تعرّف الإغريق عليه، وشخصوه في هيرَكليس–هِرْكول Herakles-Hercule، ربما بسبب الأساطير التي

يرويها عنه عبّاده، وبالتأكيد بسبب هجرات دينيه إلى جميع المناطق التي يظهر فيها الصوريون. ذلك أن هؤلاء كانوا عندما يهاجرون، يحملون معهم عبادتهم المفضلة، وكان أول أعمالهم هو أن يغرسوا هذه العبادة في المواطن التي يبنون فيها مدنهم. هذا هو ما فعلوه – كما سبق أن قلناه – في قادِس وليكْسوس، وفي قرطاجة بعد ذلك، إذ أن مؤسِّستها ديدون Didon، كانت تُعتبر أرملة الراهب الأكبر لـمِلْقارت صُور، ولم تتخل أبدا عن إيمانها بالرب الوطني، إذ كانت كل سَنة تبعث له سفارة تحمل الهدايا، وفي كل سنة تقدم له على ترابها ذبيحة قربان إنساني. وطبيعي، والبونيقيون لهم السيادة على المضيق، أن يكرسوه لِمِلْقارت، وتكون الصوى Amers، وهي معالم مقدسة أو جبال نحتتها الطَبيعة، تشير له لعرض البحر وتفرض هذه القرابة Parrainage. فكانت أعمدة «ملْقارت»، هي التي جعلها الإغريق أعمدة «هيركليس» أي أعمدة هِرْكَول = Hercule هِرَقْل.

إن الألفاظ تمتلك قوة لا تقهر، وما أنْ أُلْقي على هذه النواحي باسم هِرْكول حتى جرّ معه موكب الأساطير التي كوّن منها الإغريق خرافته. ففي القرن الخامس ق.م، الذي كانت فيه قوة قرطاجة تسيطر على بلدان الغرب، كانت الميثولوجيا اليونانية قد ملأت هذه الأراضي بالمجد الخارق للعادة لابن زيوس Zeus وأَلْكمين Alcmène. وللبداية، فإن أعمدة السماء التي يصفها هوميروس، من غير أن يبيّنها أيضا، قد وقع عزوها «لأعماله» وشخّصت في القمم المحيطة بالمضيق. وحول سنة 476 ق.م يعلمنا بَنْدار Pindare أن هركول قد حطم السلسلة المتصلة التي كان المضيق يربط بين قممها التي هي الآن منفصلة. وبهذه الفتحة الإلهية، التي فتحها في الكتلة الجبلية، فإنه قد زوّج مياه المحيط بمياه البحر

الأبيض المتوسط. وفوق ذلك فالشاعر يكشف عن نوايا الإله الذي لم يقم «أعمدته» إلا ليرسم حدا لرحلاته البحرية، وفي نفس المكان الذي اضطر عند رجوعه أن يجعل فيه حدا للأرض.

ولكن بَنْدار Pindare ما ذكر هذه الذكرى حتى التفت متأسفا على مشهد يمنع منه جنسه : «ولكن، يا روحي، إلى أي مرتفع أجنبي قد جئت وأضللت سفينتي ؟».

ولكن المشهد يطارده على الأقل، ومواطنوه لا يمكن أن يبعدوا عنه أحلامهم. فمن المنطق السليم، أن هرْكول ما كان ليقوم بعمله الجبار، دون أن ينزل بالشاطئين معا للمضيق الذي أنشأه، وإن ميثولوجيا الإغريق المنطقية مع نفسها، قد قسمت بين الشاطئين العمل الشاغر للبطل، وتابعت بفكر حزين أثر خطواته في الأندلس والمغرب.

ومنذ القرن التاسع ق.م تغنى الشاعر هيزْيود Hésiode بجرأة هركول الذي أراح الدنيا من راعي الأبقار الكريه جيريون Géryon وأتى إلى تيرونْث Tyrinthe بالقطيع الذي أخذه منه بالقوة. ولكنه لم يبيّن موقع الحكاية التي جرت دون تحديد خلف (نهر) محيط، هو نفسه غير مبيّن، في جزيرة إريثي Erythie. وكان هيكاتي Hécatée في نهاية القرن السادس ق.م لا يزال يبحث عنها في شواطئ بحر اليونان في عرض الإبير Epire، حتى لا يبتعد كثيرا لاشك عن تِيرَنْث Tyrinthe. بينما هيلّينيون آخرون يظنون أنهم يعلمون كيف جرت الأشياء وأين جرت. ذلك أن في موسطة القرن السادس، كان سْتيسكور الهيمري Stésichore d'Himère قد استخدم بما لاشك فيه حكايات جيرانه البونيقيين الصقليين، فنظم ملحمة الْجيرْيونيد Géryonide، وبها أطوار صراع هركول ضد جيرْيون كانت تجري في ميدان آخر، في أرض طَرْطِسوس

Tartessos، بجزيرة مجاورة لمصب نهر بايتيس Baetis (الوادي الكبير)، كما لو أن هيركليس ليس فحسب مجانساً لِملْقارتْ بل إنه مرادف له، فأراد أن يطهر معبده من وجود بغيض، وهكذا انتشرت صيغة الشاعر الصقلي بسرعة إلى حد أن حول سنة 490 ق.م، كان فيرِسيد اللّيروسي Phérécyde de Léros رأى أنه قادر على إيضاح أن إيرثي Erythie التي ذكرها هيزْيود، والتي كانت ترعى بها ثيران جيرْيون، كانت تختلط بجزيرة صغيرة بعيدة عن قادس بفرسخ واحد فحسب، وكان نباتها الجاف يملك خاصية إسْمان القطعان بسرعة عجيبة.

وبعد أن جذب معبد ملْقارت هيرْكول بقادس، كان حتما أن المعبد الذي على طول العهود العتَيقة كان يملكه ربَّ صُور في ليكسوس، أن تجري به كذلك إحدى مراحل البطل الإغريقي. وعلى غرار قادس فإن هيركول قد لمع بانتصاره على جيرْيون Géryon. وكان لابد له في ليكْسوس أن يقهر عَدواً مخالفا لجيرْيون، ولكنه مرعب مثله. إنه هو أَنْطي Antée، ومعنى اسمه أنْطيوس Ανταιος أي الخصم وكان يعدّه لهذه المعركة القاسية.

وليس ذلك لأن أَنْطي من البداية قد ظهر بوجه الشرير الذي تحسن معاقبته. فهو عند بَنْدار Pindare ملك بليبيا. ولكن الشاعر أدخل تغييرا ليس فحسب على طبيعة الشخص، بل حتى على موقع مملكته. ففي النشيد التاسع من أشعار Pythique الذي كتب حول سنة 474 ق.م في مدح أحد القورينيين Cyrénéen، كان أَنْطي مَلِكاً على إراسا Irasa، وهي مقاطعة منسية من المرْمَريك Marmarique. وهيرودوت اعتمادا على مخبرين مهوسين قد مدح جمال ليلها. وهو لم يرها وجعلها حسب أقوالهم بين أَزيريس Aziris (تمين Temmin) وقورينة Cyrène. أما أنطي

صاحب إراسا، فهو صهر ألِكْسيداموس Aléxidamos القوريني Cyrénéen، فكان سلوكه سلوك شيخ حليم، همه الوحيد هو أن يزوج زواجا حسنا ابنتَه التي كان «يطمع فيها مجموع نخبة أفراد عائلتها، ومعهم نخبة عديدة من الأجانب». ورأيناه ينظم سباقا بين الخاطبين، ويجعل «العذراء ذات الشعور الذهبية» على الخط الذي جعله حدا، وصرح «أنها يتزوجها» مَنْ «يكون أول من يصل لمس ثيابها». وفي الأناشيد الإستمية الرابعة[6] IV^{è} Isthmique التي بتاريخ غير أكيد والمهداة لبطل من مدينة ثيبة (ثيبي Thébain) فتتغير النظرة، إذ يرسم أنطي بأنه قاسٍ جبّار يمنع على الأجانب الدخول إلى أراضيه، والعقاب هو أنهم يُقتلون في مبارزة خاصة، وهو نفسه يهب رؤوسهم المقطوعة لتزيين معبد بوسيدون Poséidon. وللقضاء على هذه الهمجية فإن هِرْكول قد انطلق مسرعا من ثيبة Thèbes القَدْمِسيّة [7] Cadméenne إلى مَسكن أَنْطي في إحدى جهات ليبيا التي اكتفى الشاعر بَنْدار بوصفها غنية بالقمح. أما الكاتب السكولياست Le Scholiaste فيدّعي أن جهة إراسا Irasa دائما هي المعنية، ولكنه أخطأ لاشك، أولاً لأنه لا يوجد من يمدح حصائد المرْمَريك Marmarique التي لم يتحدث عليها هيرودوت نفسه أبدا. ثم إذا كانت عبادة أبولون Apollon متأكدة الوجود بها، فإن أي أحد لم يذكر أبدا بها معبدا لبوسيدون Poséidon متوّجاً برؤوس بشرية. وأخيرا فإن بَنْدار من نشيد لآخر لم يستطع إيقاع مثل هذا التحول للملك الليبي إلا بعد أن أجرى تغييرا في الأمكنة التي تولى فيها الملك. وعمليا فإن التغيير قد سهل على الشاعر، لأنه دفع بمملكة أنطي إلى أبعد من قورينة Cyrène. ولهذا فمجرى النص ينقلنا من أقصى شرق ليبيا إلى أقصى غربها، إلى النهاية التي قررها الأرباب الخالدون، والتي وصلها هركول قبل أن «يلتحق بالأولمب» و«بعد أن ارتاد

جميع جهات الأرض، ومهّد طريق الرحالة البحريين». إذن فإن مجرى كل العلامات تتفق لإقناعنا، أن أسطورة أَنْطي قد شكلت في القرن الخامس صيغتها بأرض أفريقيا. وفي هذا العهد رأينا التفاصيل تتضح عن معركة كان فيها أنْطي لا يُقهر لو أبقى قدميه حتى النهاية متصلتين بالأرض، ولم تنته لمصلحة هركول إلا بصراع، جسما لجسم، رفع فيه البطل عن الأرض عدوّه وخنقه. وفي نفس الحين فالصراع استقر بغرب ليبيا، في منطقة مشهورة بخصبها، عند الموريين، عند ما كانت قرطاجة في نفس الحقبة تذيع ديانة بوسيدون، ليس بالقرب من مدينة تِنْجي (طنجة) كما جرى الظن كثيرا تبعا لما ذكره بلوتارك Plutarque، أي المدينة التي التقى المؤرخون الرسميون القدماء بنسبة إنشائها إلى أنطي، وإنما إلى ما أكده پْلين Pline وسْترابون Strabon، ولما اقترحه مِيلاَ Méla في أرض ليكسوس المدينة الفينيقية القديمة، التي نقودها تحمل كتابات بونيقية وسنبلة من القمح علامة على ثرائها. فهنا كان أنطي كما قيل عادة قد أقام قصره – régia – وقام بآخر صراع له – Certamen Cum Hercule – وأدرج بمدفن، متناسب مع قامته الجبارة، تحت ربوة طولها 60 ذراعا. كان الكيكيرونيون Ciceroni يشيرون إليه بافتخار في العهد الروماني، وكان ربما غير بعيد من معبد هركول الذي انتصر هو عليه.

وفوق هذا، فليكسوس تدين لشعر الإغريق بذيوع فائق للصيت. وحيث إن الموقع يقع حسب أنظارهم في مجلى عميق البعد، حتى لكأنه يمس العالم الآخر، فإنهم نقلوا إليه أسمى عمل قام به هركول في حياته. وعن نهاية هذه الحياة لدينا صيغتان مختلفتان جدا. فأما التي تكونت في ثيبة Thèbes، فهركول يموت على محرقة Bûcher أُويتا Oeta، يعذبه

حُبّ ديجَنير Déjanire وانتقام مزاحمه نيسّوس Nessus. أما الصيغة الأخرى فإنها على النقيض قد تكونت عند الدوريّين Doréens في البِلوبُنيز Péloponnèse وهركول الذي وصل إلى أداء «خدماته»، قد نال فجأة ثمن أتعابه، وجوزي على بطولته وعلى حسناته بأن حضر بين الآلهة في مأدبة الخلود. ولكنه لم ينل هذا الترسيم إلا بعد أن اجتاز آخر تجربة، ونجح في أن يُحمل إلى الأولمبْ، الذي سيفتح بابه بهذا الطلّسم، التفاحات الذهبية من شجرة السعادة التي يحرسها التنّين لاضون Ladon بحديقة الهيسْبِريد Hespérides. وفي آخر مرحلة من التطور المتناسق للقصة، فَحَوْل لِيكسوس أشاعت الأسطورة النداوة المنعشة لظلالها الساحرة.

في الأصل كانت الأسطورة mythe تأبى أن تتجسد بتمركز واضح جدا، فكانت تنطبق على معاني الأسماء التي تستعملها : كالإسم العام للهسْبِريد، و«بنات المساء» أو الإسم الخاص لكل واحدة منهن، ممن ذكرهن هيزْيود في القرن التاسع ق.م : مثل إيگْلي Aiglé (المنيرة)، إريثْيا Erythéia (الحمراء)، هيسْبِريتوسا Hespéréthousa (معتادة الليل)، والتي كانت جهاراً ترنم برنينها المسيرة الظاهرة للشمس من منتصف النهار (القيلولة) حتى الغروب، بحيث إنها (أي الأسطورة) بزمن طويل لم تتجاوز هذه الإيحاءات اللفظية، فاكتفت بأن تعرض – من حيث التعريف –أن الهِسْبريد تسكن في منطقة غامضة، كما يقول عنها أيضا مِمْنِرْم Mimnerme بالقرن السابع وسْتيزِكور Stésichore في النصف الأول من القرن السادس، بها الشمس تتلف نفسها كل يوم في الأمواج لكي تعود إلى الوجود كل صباح غد، ولكن كان حتما تبعا لذلك أن الفردوس Eden الذي تتغنى به أصواتها الجلية، ينتقل مع أفق الإغريق، وفي المائة من السنين التي تلت بعدُ، شاهدنا التنقل الحتمي الذي دفع بهذا وذاك حتى المغرب.

ففي النصف الثاني من القرن السادسن كان الدوريون Doréensفي قورينة Cyrène قد طالبوا نظرا للمجاورة المباشرة لمنطقتهم بالحضور المزدوج لِهِرْكول واللهسبريد. وحسب قولهم فإن هؤلاء (الهسبريد) كنّ يقمن غربي مدينتهم التي تحد بيرِنيكي Bereniké (بنغازي) في واحدة من الجزر الصغيرة ببحيرة تْريتون Lac Triton، أي بالسدرتين. وبالفعل فأمام هذا الأرخبيل التافه، بالزاوية الشمالية لسدرة الكبرى كان ينصب بعد تلويه خلال الرمال وادٍ كانوا يسمّونه لاثونLathon أو لاضون Ladon. وكانت هذه الجزر حتى عهد سترابون تُدعى جزر الهسبريد، مثلما كانت بيرنيكي في أول الأمر، حيث إن القورينيين Cyrénéens كانوا يذهبون إليها، فكانت بتلميح مبشر تدعى أوهسْبِرداي Euhesperidai. هذه الألفاظ إذا شرحناها شرحا صحيحا، فإنما تكون ترجمة للأوضاع الغربية للأماكن التي تنطبق عليها، غير أن كبرياء القورينيينCyrénéens كان بدون شك يستمد منها تأكيد يقينهم بمجاورة البستان ذي التفاح الذهبي الذي يحرسه الثعبان المرعب. ولكنهم سرعان ما اضطروا للتخلي عن ذلك. ففي السنين الأولى من القرن الخامس، كان دوريوس الإسْبَرطي Dorieus le Spartiate، الذي شجعوا حملته، قد تقدم بسلاحه على طول الساحل حتى مصب نهر كينبس Cynips (واد أوكيري حاليا O.Oukkiré) بين السدرتين، على 18 كيلومترا فحسب من مدينة لبتيس الفينيقية. فغضبت قرطاجة من هذه الجرأة وقررت عقابها : وبعد صراع دام ثلاث سنين، بقيت سيدة على الأرض، وأرغمت دوريوس على ركوب سفنه راجعا، وهو يهدم كل منشآتها، ويترك أمامها الفراغ حيثما مر. ولو أن دوريوس نجح، فنجاحه بسيطرته على «بحيرة تريتون»، وبتجريد السدرتين من سرهما، فإنه يطرد شبح الهسبريد من الجزر التي تحمل نفس الإسم، وكان القورينيون Cyrenéens يتبجحون بأنهم تلاقوا به هناك.

ولكن إخفاقه الذي استغله القرطاجيون قضى نهائيا على تخيلاتهم. فقرطاجة – لا هم – هي التي من الآن فصاعدا تملك باب الغرب. ومن ذلك الحين أرغمت الأسطورة على الهجرة من نواحي منطقتهم إلى أقصى منطقتها هي. وعندما أصبح مسلّما – حسب قول بْسودو سيلَكْس Pseudo-Sylax – أن ليبيا كلها هي دون اعتراض ملك للبونيقيين (من جزر هسْبِريد، ومن سَدْرة إلى أعمدة هركول)، فإن القصة رجعت أدراجها في ليبيا لغاية أعمدة هرقل.

وفوق هذا، فهناك صيغة كانت تعدّ الأسطورة لهذا الانزلاق نحو الأرض المغربية. ويجب أن لا نعتقد أن شعراء وفناني أرض الإغريق قد كانوا فعلا متفقين على الطريقة التي بها حصل هركول على تفاحات الذهب، التي نراه على وعاءين أتيكيِّين Attiques من القرن الخامس يقدمها لمجمع آلهة الأولمب، فحسب البعض، فإن البطل اقتحم بشخصه المأوى المقدس، وقتل الثعبان لاضون الذي قد أنيم سابقا بالشراب الذي سقته الهسْبريد المتواطئات، ثم إنه إما استلم التفاح من يد إحداهن، وإما أنه جنى الفاكهة السحرية بيده من شجرة الحياة. وحسب الآخرين، فإن هركول على النقيض لم يَجْن مباشرة، فإما أن أطلس حامل السماء، وهو عدوّه قد سبقه إلى البستان، وهركول اضطر أن يستعيد بحد السيف منه التفاحات الذهبية، وإما أنه وفاقا معه على مشروعه فإن أطلس ذهب عند الهسبريد، لحساب حليفه. وأثناء ذلك كان هركول يحمل عبء القبة السماوية. في القرن السادس كانت الصيغة الأولى هي التي ظهرت على صندوق كيبْسيلوس Kypselos المعروض في معبد هيرا Héra في أولمبية Olympie، وفي القرن الخامس انتصرت الصيغة الثانية في أولمبية نفسها، لأن إحدى الواجهات المنحوتة بمعبد زيوس Zeus، قد مثلت أطلس وهو يقدم ثلاث تفاحات إلى هركول وهو يحمل السماء، كما أن

بَنايْنوس Panainos أخا فيدْياس Phidias، في زخرفته للدربوز الذي يحيط بعرش أبي الآلهة والناس، كان قد رسم جنبا لجنب كلاّ من أطلس وهو ينثني تحت عبئه الفادح وهركول الذي أتى ينوي مساعدته. ففي زمان كانت فيه التأملات في الحياة الأخرى توجه التيارات الأسطورية، وكان البحث يجري بقوة عن جرر السعداء، إما في الأثير حيث الموتى يتنسّمون حياة الكواكب حسب تعاليم الفيثاغوريين Pythagoriciens، وإما فيما وراء المحيط الذي يغسل أفريقيا، وفيه غرقت الأطْلَنْتيد Atlantide الوهمية كما في رواية أفلاطون، فليس عجيبا أن تكون الصيغة التي تجعل أطلس معارضا لهركول قد تخلت في الأخير للصيغة التي جمعتهما في ودّ. لأن هذه في انسجامها مع رمزية الفلاسفة، تبرر البطل الذي لم يستحق السماء إلا بعد أن حملها. ولكن من الجانب الذي يعنينا، فإنهما تتساويان وتفترضان معا تدخل أطلس. فإنهما تفرضان كذلك أن نبحث بجانبه عن بستان الهسبريد. لكن إذا كان حمّال Poetefaix العالم، وأصله من القمم الأركادية Arcadiennes، قد أتى دون شك في القرن السادس خلف معمّري قورينة Cyrène، ليحتل مرتفعا في سدرة الكبرى، فإنه في القرن الخامس قد هجر هذا المسكن الآخر إلى السلسلة الليبية التي تحمل اسمه أطلس، وتتسلسل إلى الجنوب الغربي حتى المحيط المسمى نظرا لهذا باسم الأطلنتيكي Atlantique (الأطلسي)، وإلى الشمال الشرقي حتى جبال المضيق الذي كان قد عبره غالب جيريون Géryon ليمر من قادس إلى إفرقيا. ونتائج هذا التشخيص الجديد لأطلس لم يطل انتظارها، فبفضلها وجدت أسطورة هركول بالمغرب صيغتها الأخيرة وآخر مأوى لها. وعلى غرار انتصار البطل على أنطي، فإن انتصاره على الموت قد جرى في ظلال أقدس معبد كان للفينيقيين الصوريين وقرطاجة بالمغرب، مكرّسا لِهِرْكولِهِم، أي معبد مِلْقارْت في ليكسوس Ibi Hesperidum horti.

حقيقة أن پْلين Pline وهو يكرر لقرائه هذه التأكيدات التي مرت عليها قبل ذلك خمسة قرون فإنه لم يكن غفلا بها. فبينه وبين الرواية الأصلية قد انحشرت السيطرة الرومانية التي قد أحلت محل العاصمة البونيقية القديمة، مستوطنة تافهة من لدن الإمبراطور كلود Claude، ومكنت جميع الناس من الذهاب إلى ليكسوس المدينة الصغيرة المُتَلَيْتِنَة Latinisée ليعانوا في نفس المكان الوقاحة التافهة للحكايات التي تدور من حولها. فسخر من التناقض بين الادعاءات العظيمة لماضيها وبين تفاهة حقيقة الحاضر، ويهز كتفيه أمام سذاجة الرجال الذين بلغت بهم البلادة ليروا في انعطافات وادي اللكوس تثنيات الثعبان لاضون، وليروا من خلال أشجار الزيتون البري المتناثرة بالموقع بقايا النباتات الفردوسية لحدائق الهسبريد. وغضب من الأكاذيب التي لا تصدق، والتي أذاعها الإغريق عن ليكسوس وعن وادي لكوس. ولكن سخرياته وغضباته يظهر لي أنها كانت في غير وقتها، وأن هذا الفكر القوي كان ذا ذكاء أجوف، وذاكرة محدودة. إنه لم يحس بالجمال الحقيقي، الذي التَقطتْه نظرات خالدة – حتى ولو تجاوزت الحد في التفخيم، أو كانت خيالا محضا – فهي قادرة على أن تنشر ذلك الجمال على أبسط المشاهد الطبيعية. إنه لم يفهم قوة الروايات الأليمة (الدرامات) التي قد جرى لعبها في هذه المناطق البعيدة، وتتضمنها كل هذه الأوهام البطولية. فالمعركة التي خاضها الرجال ليوسعوا مدى عملهم، وليبعدوا حدود معرفتهم، المعركة ضد الطبيعة، وهياج الأمواج، ورمل الصحارى، وشراسة الوحوش الضارية، المعركة التي خاضها الإغريق ضد صور وقرطاجة، والتي – لما غلبهم تفوق البحرية البونيقية فيها – فإنهم نادوا عبقريتهم المبدعة للانتقام المثالي لاندحارهم المادي، فاستولوا لمجالهم الشعري وإلى الأبد على غرب أفريقيا الذي طردوا عنه.

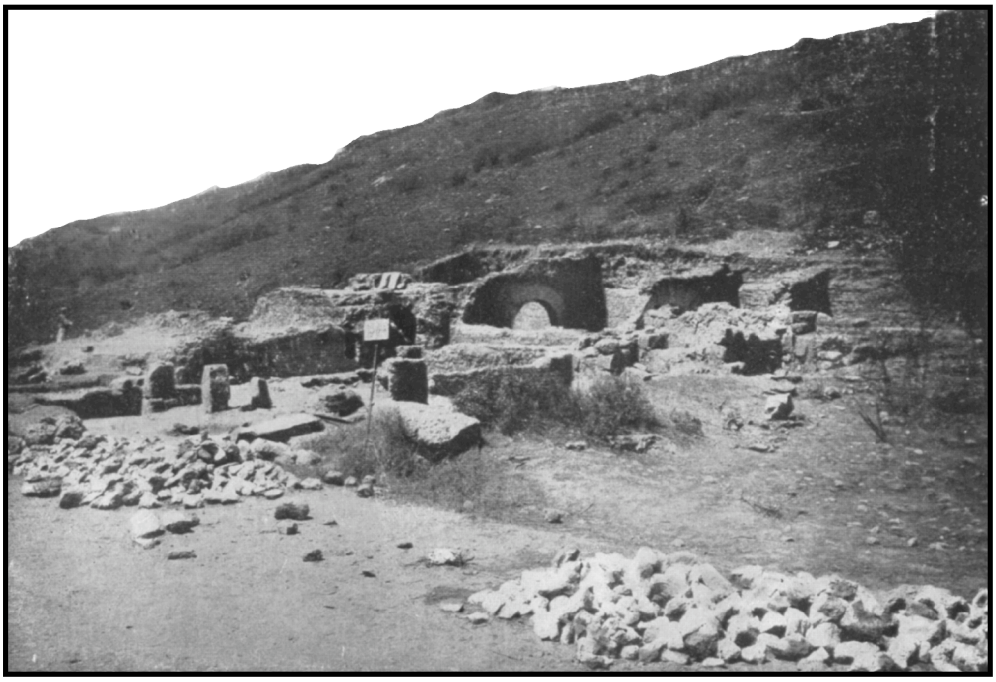

ما بقي من ليكسوس الرومانية

وختاما، فإنه على الخصوص قد نسي أن هذه البلاد قد دخلت في نفس الحين في التاريخ البونيقي وفي الأسطورة اليونانية، ولجهله أن هذه تعكس شيئا ما من الأخرى، فهو قد أنكر القيمة الحقيقية للعمل الذي أنجزته قرطاجة بالمغرب، العمل الذي يتراءى من خلال السراب الميثولوجي. ولنحاول الآن أن نقيس ذلك. ولربما أننا – أثناء عملنا – سننعش حول ليكسوس بعض الإشعاع الذهبي الذي يشع من البستان الخرافي للهسبريد.

2

المغرب، السوق البونيقية للذهب

(القرن 5 إلى القرن 2 ق.م)

رحلة حَنّون وأسرارها الخاطئة

في أواسط القرن الخامس ق.م نجحت الأسرة العظيمة للماگونيين Magonides أن تنقل إلى قرطاجة قوة صُور Tyr، وأن تتمم السيطرة البونيقية على غرب البحر الأبيض المتوسط. وكانت الجمهورية القرطاجية، التي منذ ثلاثة أجيال وهي تأخذه ملوكها أو شوفيتاتها Sufètes من هذه الأسرة، قد استطاعت حول سنة 460 ق.م، بعد سلسلة غامضة من المعارك ضد النوميديين والموريين أن تُخضع بدقة لسيادتها الأَفْرِيّين Afri الذين كانت قد حلت على ترابهم بالكراء، وأن تنظم بين السدرتين Les Syrthes ورأس بوقَرْعون Cap Bougaroun، دولة استطاعت بقوتها أن تعوّض عن الصغار، وصار كل التراب خاضعا لحقها في الملكية العالية. وأثناء القرن السابق كانت تتردد على الساحل الإفريقي، من رأس بوقرعون C. Bougaroun إلى رأس سْبَرْتل Cap Spartel، أي المنطقة التي تسميها وثائقنا باسم ميطاگونيون Métagonion، وكانت قد نطقتها بنطاق من مستوطناتها المنشأة سوية إما بالجُزُر القريبة من الأرض اليابسة، فتكون مصونة عن هجمات الأهالي مثل يومِنْيوم Iominium

(تيـگـْزيرْت) وإكُزيم Icosim أي إيكوزيوم (الـجزائر Icosium) ويول Iol (قيصرية أي شَرْشال)، وإما على مرتفعات، يكتـشفها البحارة من بعيد بعرض البحر، فيكون الدفاع عنها سهلا بالمضيق الذي يربطها ببقية القارة، وتكون ربوتها متجهة نحو الشرق فتصونهم عن الرياح وعن التيارات الغالبة. وذلك مثل جميع المدن التي لها اسم سامي يبدأ بكلمة روس Rus (بالعربية رأس ras) وله في الفرنسية معنى (Cap) : روسْكاد Rusicade (Philippeville)، روسازو Rusazu (Port Guédon)، روسبزير Rusippisir (Taksebt)، روسُكُورو Rusuccuru (Dellys)، روسْگـوَنْيَاي Rusguniae (Matifou). وفي النصف الثاني من القرن السادس ق.م، كانت لها السيادة على الباليار حيث ميناء ماهون Port-Mahon يحتفظ حتى أيامنا هذه بذكرى مؤسسه البعيد. وزادت لحسابها هي في قوة قادس بالأندلس، ثم صانتها من جهة الشرق بحلولها في سَرْدانية في نهاية القرن السادس، ثم بعد سنة 480، بترسيخ قدمها الذي قبله الإغريق أنفسهم بغرب صقلية. وإذ ذاك عزمت على أن تستعيد لمصلحتها هي تيارات المبادلات التي كانت قادس قد جمعتها فيما مضى. وكان ذلك حول 450 ق.م هو العمل الذي قام حفيدَا ماگون، وهما حيملْكون Himilcon الذي سار بحرا حتى إرْلَنْدة عند شعب الهيميّين Les Hiemi، وإلى النّرْويج، وهي ثول Thule عند الشعراء اللاتانيين، وكان قصده لاشك إنعاش أسواق الفضة في إسبانيا والقصدير في الكُرْنُواي Cornouailles والكَهْرَمان في مصب نهر الإلب. وحنّون Hannon الذي حسب علمنا هو أول من أدخل المغرب في إمبراطورية وطنه ليفتح للبونيقيين السبيل الوحيد للذهب التي سلكها أجدادهما بالغرب. وكانت عظمة دوره لا يزال صداها يرنّ بعد موته بستة قرون. وهذا ديون كْريسُوسطوم Dion Chrysostome، في خطاب له يعجب من كونه بفضله

«فإن القرطاجيين قد تغيروا من أنهم صوريون Tyriens كما كانوا إلى ليبيين، وأنهم حازوا ثروات عديدة، وأسواقا كثيرة من الموانئ والسفن الثلاثيات المجاديف Trirèmes، وسيطروا إلى بعيد على الأرض وعلى البحر». وعن عمله بالمغرب، فإن ذكراه قد عبرت الأعصر حتى وصلت إلينا في : رحلة حنّون Périple d'Hannon.

إن كل الأعصر العتيقة منذ إيفور Ephore حول 350 ق.م قد قرأت وتأملت الصيغة التي من عهد باكر جدا كانت متداولة في العالم الإغريقي عن التقرير الذي كان حنّون قد كتبه بعد عودته من الرحلة التي بأمر من الجمهورية قد قام بها (خارج أعمدة هرقل (هركول) ليؤسس على الساحل المحيطي مدنا جديدة ليبيّة فينيقية Libyphéniciennes)، أي يسكنها فينيقيو أفريقيا. وكان النص مهدى إلى الإله الذي بارك عمله، وكان معروضا بعنايته هو في نقيشة كانت تزيّن معبد بَعْل–ساتورن Baal-Saturne في قرطاجة. ومما يؤسف له، إذا صح أن يوبا الثاني استطاع حول عهد الميلاد، أن يطالع في خزانته نسخة من الأصل البونيقي، فإن هذه النسخة الأخيرة قد ضاعت بعد ذلك، بحيث إننا لا نعرفه إلا من خلال الترجمة الإغريقية التي أجريت له، ولها مخطوطتان إحداهما في هيْدِلْبِرْ Heidelberg والأخرى منحدرة من هذه وهي بلندن. وقد وصلتا إلينا مشوهتين. وكما هي الرحلة في فصولها الثمانية عشر (18) كتبها كاتب ذو أسلوب صاف، يفرّ من تكرار الألفاظ، ويحرص على الرشاقة، فرحلة حنّون تقدم لاشك أجمل وثيقة يمكن أن يستفيد منها موضوعنا. فكأنها عقد ميلاد للتاريخ المغربي. ولكن المؤسف هو أن هذه الوثيقة التي تبتدئ بجفاف التقارير الإدارية، وتنتهي على النغمات المثيرة لحكاية تروى، لا بريق لها، لا بالتناسق ولا بالاحتمال. ومَنْ بدا له أن يضع على الخريطة المعلومات التي تملؤها وتبدو بها واضحة

فسيجني مما يتعبه أكثر مما يسره. فمنذ العصور العتيقة سابقا لقيت من الحذر بقدر ما لقيته من الشهرة. فهذا أيلْيوس أرِسْتيد Aélius Aristide بالقرن الثاني ق م تنبه إلى غرائبها. ومن قبل فإن پْلين الأكبر Pline l'Ancien، قد سخر من أكثر ما ترويه وقال إنه خرافات. وفي عصرنا فإننا نكوّن خزانة من البحوث التي خصصت للرحلة. ولكن الكتّاب ينقسمون فيما يختص بها إلى عدة آراء. فالبعض منهم مثل طوكسيي Tauxier قد صرح منذ ستين سنة[8] بأنها نسيج من الأكاذيب والأخطاء المزرية. أما غيره الكثير فيأخذون الرحلة بحرفيتها، مثل مَرْسي Marcy، وينكبون على كل عنصر منها، وينتهون بكثير من المهارة إلى أن يجدوا بها في خاتمة بحوثهم الجادة تبريرا في الحقيقة. واگْصيل Gsell نفسه في تعليقه الرائع علما وصدقا قد استفرغ كتلة الفروض المعروضة والنظريات التي قيلت في الموضوع، واجتهد في التعرف على المواقع – مَوْقعا موقعا – المذكورة في الرحلة. فهو بالتأكيد لم يمتنع أحيانا عن إصلاح نصوص المخطوطات ليوفق بينها وبين الطبوغرافيا، ولا أن يذكرنا أحيانا بالتغيرات التي حدثت في الطبيعة ليحتفظ بنص المخطوطات. ولكنه في العمق كان مقتنعا ليس فحسب بأصالة النص الذي لم ينكره أبدا أي عالم، بل وعلى الخصوص، بصدق الرحلة، لسبب بسيط هو أنه كان «يستحيل على حنّون أن يعرض في واحد من أسمى معابد قرطاجة رواية يستطيع مَن صاحبوه فيها من مواطنيه أن يعلنوا زيفها». وإذا كانت دراستها لا تنتهي تفصيلا إلى جميع مواقع السيد مَرْسي M. Marcy، فإنها تنطلق من نفس المبدإ، وتعتمد في الأساس على تقدير قيمة الوثيقة، أو على الأقل على صدق صاحبها.

وأعترف أني أقلّ تفاؤلا. ويبدو لي أن الملاحظات التي قالها گوتْييه E. F. Gautier حول هذا الموضوع، وكأنه يتلاعب، في واحد من

أعماله التي كانت آخر ما خرج عن قلمه، وفيه أعطانا مرة أخرى مثلا على أن الحصافة والواقعية يجب أن تحمينا من التسرع كلَّ مؤرخ على استعداد لاستعمال مواد الرحلة. حقا، إنها الحقيقة الرسمية عن سفره، وهي ما أثبته حنّون Hannon في معبد بَعْل حَمّون. ولكن قبل كل شيء، إن الحقيقة الرسمية، خصوصا عندما تنبعث من أوليغَرْشِية مرتابة واستبدادية كحكومة قرطاجة، ليست هي الحقيقة باختصار. وبالأسف، هناك عدة سبل في الرواية عن مهمة طويلة جدا لبترها، من غير تحريفها إلى حد تهييج ذاكرة الشهود لإثارة التكذيبات. وفي الأخير على الخصوص، فإن الرحلة التي نقرأها، لا تعطينا حتى الصيغة الرسمية لاستعمال البونيقيين، بل إنما هي صياغة Adaptation فحسب مهيأة للعالم الإغريقي. ومُقدماً، حين نتذكر السرية التي تغلّف فيها السياسة القرطاجية مراميها، وتكتم إمارة البحرية القرطاجية فيها سبل مسيراتها، فإننا نشك أن كاتب الصيغة، أيا ما كانت جنسيته، يكون قد نال الإذن في أن يكشف للأجنبي جميع ما كان حنّون في كبرياء رئاسته قد رواه لمواطنيه ليلهب وطنيتهم وليعظُم هو في أنظارهم. وبالفعل فإننا في كلمة بسيطة لأرْيان Arrien نقع على البرهان بأن النص الإغريقي للرحلة به نقصان يحتمل أنه لم يُصب النص البونيقي. وأن أرْيان Arrien هو الوحيد فعلا الذي زودنا بثلاث معلومات ثمينة هي : أولاً عن اتجاهين، أحدهما نحو الشرق وهذا يتطابق حتما مع المسافة الموجودة بين رأس النخيل Cap des Palmes وقمّة الكامِرون Pic de Cameroun، والثاني، الذي يتممه نحو الجنوب من الكامِرون إلى قرن الجنوب Corne du Sud (جون البيافرة ؟) حيث تقف رحلة حنّون. ثم مدة عامة من 35 يوما في الإبحار، معدودة من أعمدة هرقل إلى رأس النخيل Cap des Palmes.ويمكن أن نشك في المصدر الذي استقى منه أريان معلوماته

الدقيقة هذه، وهو إرَتوسْتين Eratosthène على رأْي اكْصيل، أو يوبا الثاني الذي على غرار أريان Arrien قد كتب فيما بعد بالإغريقية. ولكن هذا المصدر هو نفسه لا يمكن أن ينحدر إلا من النص الأصلي أو من شرح بونيقي معاصر. ونتيجة لذلك فالرحلة التي بين أيدينا ليست سوى مختصر لما كان حنّون قد كتبه، أي مختصر زائف.

لقد كان القرطاجيون بالتأكيد يريدون أن يبهروا الأجنبي بالإعجاب لمنجزاتهم البحرية، ولكنهم لا يوافقون مطلقا من أجل ذلك على أن يسهلوا له المنافسة. ومن هنا كانت أخطاؤهم المدبّرة في الرحلة الإغريقية: فبأخطاء في الأيام، أي في المسافات، وأخطاء في تغييرات الاتجاه البالغ الوضوح، وذلك هو ما كان لابد منه بالضبط لخلط السبل، فهم إذن لم يسمحوا بترجمة رحلة حنّون إلا بشرط أن تبقى فعلا غير صالحة للاستعمال، بحيث نحن متأكدون من الوقوع في مضلة إذا اعتبرناها وصفا للسواحل القديمة Portulans، لأنها نسقت لقصد معارض. فكتابات وصف السواحل Portulans، كانت تستخدم لتعليم قارئيها وإرشادهم. أما الترجمة الإغريقية لرحلة حنّون – فعلى غرار الرحلة الأصلية، ولو بدرجة أقل – لم تقصد سوى إضلال قرائها. إذن فقبل الاعتماد على معطياتها المضللة ودون تناسي مصالح الاحتكارات البونيقية، والمواربات التي كان القرطاجيون يفرضونها على كل اللغات، يحسن إذن كشف العراقل التي تخفيها دون شك هذه التوضيحات الواهية وهذه التكتمات المحسوبة.

وبمصادفة عجيبة، فإن الأقسام التي تميل فيها الرواية إلى التوسع في التعبيرات الأدبية وإلى حسن العرض، هي التي تستحق أكثر

الاعتبار، وتضم أكثر الأخبار نفعا. وإليك مثلا الفصلين التاسع(9) والعاشر(10) :

9)– «من هنا مررنا بنهر كبير، وصلنا لبحيرة كبيرة تضم ثلاث جزر أكبر من قيرني Cerné. وذهبنا من هذه الجزر فقطعنا يوما في الإبحار، ووصلنا إلى آخر البحيرة التي كان يشرف عليها جبال عالية جدا، مليئة بالرجال المتوحشين، المكتسين بجلود الحيوانات. وكانوا يرموننا بالحجارة ليمنعونا من النزول».

10)– «من هنا دخلنا في نهر آخر كبير وعريض، مليئ بالتماسيح وبأفراس النهر hippopotames. ثم رجعنا من حيث أتينا، وعدنا إلى قرني Cerné».

إن النص لا ينقصه شيء، لا عداوة المتوحشين، ولا عداء الوحوش الكريهة. فقد نسقت لتشيع الخوف، ولتنحية الأمل في السفر لمن يحاولون المغامرة. وحنّون لم يستخدم طريقة أخرى غير التي استخدمها أخوه حيملْكون الذي برواياته المرعبة، كان يبعد المزاحمين الممكنين عن المياه الخطيرة التي تورط فيها بالمحيط الأطلنتيكي الشمالي. ولكنه إذا اختار هذه التفاصيل الماثلة في ذاكرة جميع بحّارته، فهو لم يبتدعها. وإذا كانت بالغة التميز كي نبادر مع ڤيڤْيان دُسان مَرْتان Vivien de Saint-Martin لنصاحبه في خلجان السينغال وفوق هذا النهر المعروف بتماسيحه وبأفراس النهر، فإنه يبقى غفلا في مخطوطاتنا. غير أن النص الأصلي (الذي وصل صداه إلى پْلين Pline بواسطة بوليب Polybe) ربما كان يدعو فرس النهر بالإسم السامي – بِهِموتْ Behemoth – أي البامْبوتوم Bambotum.

ولنذهب الآن للفصول (16–18) التي بها تنتهي الرواية :

16)– اعترتنا الخشية فابتعدنا مسرعين. وبعد إبحار أربعة أيام، رأينا بالليل الأرض مغطاة باللهيب، وفي الوسط كانت نار تقف، أكبر من الأخريات، وكأنها تصل للكواكب. ولكن أثناء النهار، وقع التعرف على أنه جبل عظيم يسمى عربة الآلهة».

17)– «وانطلاقا من هنا سايرنا مدة ثلاثة أيام جداول من اللهيب. ووصلنا إلى خليج يسمى قرن الجنوب La corne du sud».

18)– «في الداخل العميق كانت جزيرة شبيهة بالأولى، تشتمل على بحيرة، بداخلها كانت توجد جزيرة أخرى مليئة بالرجال المتوحشين. وكانت النسوة أكثر عددا بكثير، وكانت أبدانهن مغطاة بالشعر، وكان المترجمون يسمّونهن بالغوريلات gorilles. فطاردنا بعض الذكور، ولم نلق القبض على أي واحد، لأنهم كانوا يحسنون التسلق، ويدافعون عن أنفسهم بالالتجاء إلى الأعالي)».

وهنا أيضا، إذا كان كل شيء مأساويا، فلا شيء خيالي. وكشهادة عريقة في القدم على صدق حنّون، فإن جلود الأقزام Pygmés التعساء التي جاء بها إلى قرطاجة، وبقيت معلقة على جدران معبد تانيتْ، إلى أن هدمت المدينة بأيدي الرومانيين في تخريبها سنة 146 ق.م. والإثنوغرافيون لا يشكون مطلقا في أنها جلود هؤلاء الأقزام التعساء الذين نلقاهم دائما في الگابون Gabon. أما عن التفجرات النارية التي تكاد تلمس الكواكب، فلا يوجد جغرافي واحد، لا يعرف دون تردد، أن عربة الآلهة التي تنبعث منها النيران هي بُرْكان الكامِرون. وقبل أن يصعد البيض بالقمة إلى أكثر من 4000 متر، فإن الأهالي لا يزالون

يخشون الاقتراب من جوانبه العليا، خوف أن تختطفهم الأرواح. وبلفظ له معنى لم يصب بانحراف منذ عهد حنّون، فإنهم في لهجتهم يسمونه Mongo ma Loba أي جبل الآلهة. لكننا مع الكامرون والگابون في نهاية رحلة حنّون. وعند مصب نهر السينغال لا نزال بعيدين جدا عن المغرب. وإنه أول الأمر لعجب محير أن يكون أحسن ما نعرفه هو آخر الرحلة، وأن أولها هو ما تقل معرفتنا به. ولكن بالتأمل فإن هذا التعارض لن يفاجئنا بعد. فمن بين البلاد التي كانت سفن البيزنطيين تزورها، فإن أبعدها كان طبعا مصونا عن الاتصال بالأجانب ببعد المسافة، ولم يكن هناك ما يعوق البونيقيين عن وصفها كما هي، إذا كانوا قد تعمدوا المخادعة في السواحل الواقعة وسطا. فمع رحلة حنّون ينقلب المثل على نفسه، أي : يخطئ من جاء من قريب[9].

فمن المقدمة، نشعر شعورا غامضا أن كاتب الرحلة يخفي عنا شيئا ما. وحسب قوله، فإن مهمة حنّون اقتصرت فحسب على تأسيس مستوطنات على الساحل المحيطي للمغرب. لكن في الفصل الثامن، نحضر تأسيس قيرني Czrné أي الموقع الأخير الذي ترك به حنّون مستوطنين. ومن هنا فإن مهمة حنّون قد أنجزت. وكان المنتظر أن نراه يرجع على أدراجه، وأن يكتب تقريره. لكن الرحلة تمتد من جديد على عشرة فصول أخرى: فحنّون قد تابع طريقه، والسبيل التي قطعها، عندما كان من موقف لآخر، ينزل الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens الذين كانت تحملهم سفنه، هذه السبيل إذن قد كانت أقل بثلثي العبور الذي استمر يقضيه من غير أن ينشئ مستوطنة ما في أي جهة. فالمسافة تقريبا هي 1700 كيلومتر من الأعمدة إلى قيرني Cerné، بينما هناك على أقل تعبير 5000 كيلومتر من قيرني إلى خليج غينيا Guinée، وفيه في الأخير أمر حنّون بالرجوع. فالمهمة الرسمية التي أنجزها حنّون، لم تكن

إذن سوى قسم، غير الأهم من مهمته الحقيقية. وواضح أن حنّون إذا لم يكذب علينا، فإنه كذلك لم يصارحنا بالحقيقة كلها.

ولقد شك القدماء في هذا القيد الفكري، ورفضوا على العموم تسليمهم بالتأكيد الذي به تفتتح الرحلة. فأما ميلاَ Mela وپْلين Pline فيريان أن حنّون كان مكلفا بالاكتشاف الكلي لأفريقيا، ولكن هذا التأويل مخطئ لاشك. ولو كانت أوامر الحكومة البونيقية صدرت إلى حنّون بأن يعيد بالعكس الطواف حول القارة الإفريقية – كما قام به من قبل الفينيقيون الذين عملوا لخدمة الفرْعَون نخاو Nechao – لأخفق الشوفيط Sufète في ذلك إخفاقا ذريعا، ولما كان قد دخل إلى قرطاجة دخول التمجيد ليخلد مجهوداته في معبد تانيت. وفوق هذا، فآخر كلمة في الرحلة : «إننا لم نتابع الإبحار إلى الأمام»، تدل لمن تأملها على أن حنّون عاد أدراجه في نفس الموقع الذي كان قد حدده.

فمن ناحية أولى، كانت القيادة البونيقية مطلعة فعلا عن طريق تجربة فينيقيي نِخاوْ Nechao. وإذا فرضنا أنها لم تحاول القيام بتجارب أخرى في غفلة من الجميع، فإنها كانت تعلم لابد، ومن مصدر موثوق، ما كان يتطلبه الطواف حول إفريقا في أحسن الظروف المناخية، ويكون حنّون قد خزن المؤن اللازمة. ومن جانب آخر، إنه لو كان ذهب لغيبة طويلة لكان قد حافظ على زمانه حفظا لمؤنه، لكن هذا الاحتياط هو ما أهمله جهارا. وعلى الأقل، فلمرّة واحدة عندما صعد من مصب نهر السينغال إلى قيرني Cerné، لينزل بعد ذلك نحو الجنوب، فإنه بكامل الهدوء حكى عن عودة إلى الوراء جرت على مسافة نحو 700 كيلومتر، التي ستزدوج بعودة سفره من قيرني إلى رأس النخيل Cap des palmes. وفي الافتراض الذي يجعلنا فيه تخمين كل من ميلا Méla وپْلين Pline،

فإن هذه الأسفار جيئة وذهاباً تكون هي أقوى الأخطاء، إذ أن حنّون لم يرض بأن يذكر في تقريره ولو بداية لتبريرها. فقد كان يحس أنه كان على وفاق مع تعليماته، وفي سلام مع ضميره، واطمئنانه كان كافيا ليوضح أنه قدّر حمولته من المؤن ليذهب إلى خليج غينيا Golfe de Guinée، وأن لا يذهب إلا إلى هناك. وببساطة فإنه عاد لما بلغ الهدف الذي حدده لنفسه أو قد حُدد له. وإذا كان مِيلاَ ويْلين قد صادفا الصواب حينما جعلا لرحلته غاية أخرى غير ما فِي نص الرحلة، فإنهما قد غلطا غلطا فادحا حينما ذكرا وجوبا لا يصدق لطواف حول أفريقيا. والذي يظهر من خطئهما معا هو أن السبب المذكور لرحلة حنّون، ولم يسلّم به لا هذا ولا ذاك، هو أنه إن لم يكن السبب الحقيقي، فهو الأهم على الأقل. وأن رِداءَ المستوطنات التي تحدث عنه لم يقع نَشْره بالرحلة إلا ليخفي عنا الشيء الأهم.

على أن محرر الرحلة قد ضخّمها عن قصد، وأراد في نفس الحين أن يفرض علينا ذلك بالأرقام المذكورة في الفصل الأول : «أبْحَر حنّون صحبة 60 سفينة بخمسين مجدافا، بعدد من الرجال والنساء يبلغ نحو 30.000».

والمعاصرون على العموم شكوا في قول يظهر أنه يشتمل على معطيات لا تتوافق، لأن بها كثرة من الناس على سفن قليلة. ولكن عوضا عن اتهام حنّون، فإنهم ألقوا الخطأ الذي يُلقونه على ظهر الناسخين. فالبعض منهم يقترح إصلاح رقم عدد السفن، وعوض 60 سفينة يعرضون 260 منها، كما يقول فيشَر Fischer، أو 360 على رأي إيلينْگ Illing . وآخرون يفضلون التنقيص من عدد المهاجرين عوضا عن تضخيم عدد السفن النقالة، كما يقول إدْوارد مِيرْ Eduard Meyer، واگْصيل Gsell

الذي كتب : «يصعب الاعتقاد بأن 30.000 إنسان قد استطاعوا، زيادة على البحارة، أن يجدوا مكانا على ظهر 60 سفينة، فيجب إذن التسليم بأن أحد الرقمين فيه تحريف، وهو رقم المهاجرين لا رقم عدد السفن». ولقد امتنع اكْصيل طبعا عن تصويب لا يمكن أن يكون إلا حَدساً فحسب. لكن بعض العلماء لم يأخذوا بتحفظه، ومنهم دايْبرِتْز Daebritz مثلا الذي قطع وأحل عدد 3000 محل 30.000. أما گوتييه E.F.Gautier، فإنه لم يشفق «على العلماء الذين يشتغلون على جذاذات الورق»، فيرضى بشكهم البديع، ولكنه لا يكتفي به : «إن أحد الرقمين محرّف، ولِمَ لا، بعد كل شيء، أن لا يكونا معاً محرّفين ؟». إنني لم أعرف سوى السيد مَرْسي M. Marcy الذي كانت له الجرأة على قبول العددين بمجملهما، وفي رأيي إنه قد أصاب.

إذا كانت هناك حقائق يجب أن ينتبه لها الناسخون، فهي التي تدعو إلى كتابة الأرقام التي بها يبتدئ عملهم. وإذا كان من بينها مالا يستطيع حنّون محاولة تحريفه، فهي الأرقام التي يذكرها آخر بحّارته كما يتذكرها هو، والتي يكون من الخطإ الكبير إثارة التناقض حولها. وفي الأخير فإن الرقمين يتناسبان كذلك مع الاحتمالات الحقيقية للتاريخ. ومن جانب آخر فإن العدد الاعتيادي لأحد أساطيل قرطاجة كان هو ستين سفينة. ومن جانب آخر فإن 60 سفينة خمسينية Pentécontores يمكنها عن سعة أن تحمل 30.000 إنسان. وعلى وجه المثال ففي سنة 218ق.م اكتفى القنصل بوبْليوس كُرنيلْيوس سيپْيون – وهو أبو سيپْيون الإفريقي Scipion l'Africain – بستين سفينة خمسية Quinquérèmes لينقل دفعة واحدة من مدينة بيزا Pise إلى مَرْسيلية الفيلقَيْن المزودين بالخيالة، وتصحبه نجدات الحلفاء. وبهذا كله كان يعتقد أنه سيسد عن حَنيبَعْل Hannibal طريق نهر الرّون Rhône، أي بما

يقارب 12.000 مقاتل على الأكثر. وحيث إن الخدمة بواحدة من هذه السفن تفرض مجموعة من البحّارة عددهم 300 رجل، فسيپْيون قد حمل على أسطوله الذي من60 سفينة نحو 30.000 رجل. فالتطابق مع معطيات الرحلة ظاهر. ومع ذلك، فيحسن عدم الأخذ بها سريعا، لأنها إذا حققت حَرْفية نص حنّون فإنها ألغت روحه.

وقد كان حنّون يملك موهبة التصريح بأرقام صحيحة، ينبعث منها الإحساس بالخطأ. وعندما أوضح أن 30.000 فرد الذين ركبوا السفن كانوا رجالا ونساء، وسَكت عن التمييز بين وظائفهم، فإنه كان يوعز لنا – واگْصيل انطلت عليه الحيلة – بأن الأمر هنا لا يعني إلا مجموعة المهاجرين، بينما هذا المجموع الذي يذكره كان يشمل أيضا البحّارة الذين لم يشر إليهم مطلقا. إذ عمليا، كل واحدة من هذه السفن الخمسينية Pentécontores التي عددها 60، تستطيع حمل 300 رجل بحار و200 مستوطن من الذكور والإناث. هذا إذا لم تنعكس الحمولة. وعلى كل، كان يوجد 500 مقعد على سفن مقياس وسعها 40 طنا. وبالتأكيد فإن الضغط كان شديدا، وكان لا يحتمل لو استمر، ولم يخفف حتى الرأس الأخضر أو إلى خليج غينيا. ولكن الضغط تحمّله الرومانيون أثناء الأيام الخمسة التي تطلبها سنة 218 ق.م العبور من بيزا Pise إلى مرسيلية. ولابد أنها كانت مثل ذلك بالنسبة للقرطاجيين، الذين كانت آخر وأبعد مستوطناتهم لا تتعدى 12 يوما عن أعمدة هرقل، خصوصا، وأنهم بعد سفر يومين فحسب، كانوا قد أنزلوا قسما من مجموعة المهاجرين في الأولى تاريخيا من مؤسساتهم الجديدة. فيجب إذن الوثوق بأرقام حنّون، لكن يجب في نفس الحين الاحتياط من المكنونات التي تلوح من صدقها الجاهز. إنها أرقام صحيحة، غير أنها تجذبنا لتأويل غير

صحيح، يبالغ دون مسوغ في قيمة مهمة الاستيطان التي عرضها في الأول الأميرال القرطاجي.

وحسب قوله، فإن هذه المستوطنات كانت سبعاً(7) :

1)– ثيمْيا طيرا Thymiatéria «فوق سهل كبير» (الفصل 2).

2-6) كَريكون طيخوس Karikon Techos، گوطي Gutté، أَكْرا Akra، مليتا Mélitta، أَرَمْبيس Arambys، ذُكرت هكذا على هذا الترتيب، وتقع كلَها جملة «على البحر» من دون أي إيضاح (الفصل 5).

7)– قيرني Cérne «في عمق أحد الخلجان» (فصل 8).

لكن باستثناء المستوطنتين الأولى والأخيرة، فالأخريات كأنها مستوطنات أشباح. فبعد مرور قرن على رحلة حنّون، كان البحارة ينزلون مع الساحل المحيطي، ولا يعثرون منها به إلا على اثنتين من سبع. وبْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax الذي كتب رحلته حول سنة 337 ق.م، لم يجد منها سوى ثيمياطيريا، قبل رأس سولويْس Cap Soloeis، وقيرني بعيدا عنها. ولاشك فبعده ببضع سنين فإن إيفور Ephore الذي كان يشتغل في كتابة تاريخه سنة 334 ق.م، قد أورد ذكر الجدار الكاري Le mur Carien أي كَريكون طيخوس Karikon Teichos. ولكن شهادته المستقاة من الصيغة الإغريقية لرحلة حنّون، لا يمكن أن تمحو الشكوك التي يوحي بها بصفة لا ترد سكوت بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax، والتي يقويها، ليس فحسب الجهل الذي تركنا فيه تقرير الشوفيط Sufète القرطاجي عن عمد فيما يتعلق بالمسافات التي تفصل بين المستوطنات الخمس المسكوت عنها، بل الشك الذي يجعله مخيّماً على موقع كل واحدة منها. والمبالغ فيه بالتأكيد هو أن نستخرج من صمت بْسودو

سيلَكْس برهانا على عدم وجود كَرِكون طيخوس، وگوطي Gutté، وأكْرا Akra وملِيتا Melitta، وأرَمْبيس Arambys، أي المستوطنات التي أنشأها أو جددها حنّون على الأصح. ولكن بكلمة صواب، لابد أن نستنتج أن هذه المستوطنات برغم قيامها على ساحل البحر، فإنها لم تكن تقوم إلا بدور بحري تافه. فكانت إما محطات سرية أو مستوطنات تعمير مهمتها الأساسية زراعية، وأن مُنشئها قد كان همّه هو حصر الساحل الذي «به كانت تترسخ» في العادة «الحضارة في الأوطان الجديدة». فقد نسقها طبعا على ساحل المحيط الذي به تحس أنها مرتبطة فيما بينها، ومتصلة بعاصمتها الأم. وبين مدن حنّون، التي لم تلبث أن أهملت في نظر الإغريق في السير البحري للمغرب القرطاجي، عدا ثيمْياطيريا Thymiatéria التي كانت لا تزال مذكورة في لائحة لِإتْيان البيزنطي Etienne de Byzance كمدينة في ليبيا، وقيرني Cerné التي اعتبرها سْترابون من قبيل الخرافات وإن كان بَنايْتيوس Panaetius وبوليب Polybe قد لَمَحا لها في استكشافهما في سنة 147 ق.م.

هذه الازدواجية في طبيعة منشآت حنّون، تتبع وتفسر في آن واحد الثنائية التي ميزت ازدواج مهمته: فواحدة كانت ظاهرة، وهي ثانوية على الأقل، وقد اهتم بها اهتماما قليلا، واستراح منها في ثلاثة أسطر من روايته، وكانت عن إنشاء أو إنعاش مراكز الحياة البونيقية بالمغرب، والأخرى كانت سرية، وذات أهمية أساسية، كما يستنتج من طول ومن مكايد تقريره. وهي ترتكز على أن يضمن لقرطاجة مراقبة الطريق الأطلنتيكية للذهب، التي كان بونيقيو ليكْسوس يستغلونها زمان سيطرة صُور. ومعلوم أنه اجتهد وعمى علينا، كما تزيف إحدى شركات التعدين على مزاحميها (أنباء منقبيها). ولكن النقد التاريخي الذي تسنده

الحقائق الدائمة للجغرافيا، قادر على أن يكشف عن هذه الحسابات ليظهرها للنور. ومن خلال الحيل الماهرة فإنه يتعرف على الأسرار وعلى الأهداف.

فالحيلة الأولى، وهي ثخينة شيئا ما عن أن تخدعنا : هي أن حنّون يقدم نفسه في رحلته كرائد وقع على المغرب كَنَيْزك من السماء. فبداية روايته منسقة بصفة تبلغنا إلى الوثوق بأنه تسارع دفعة واحدة من قرطاجة خلال المضيق حتى مصب نهر سبو، الموقع الذي بعد اكْصيل Gsell ومَرْسي Marcy أقبلُه كسائر الناس لِلأولى من مُدُنه وهي ثيمْياطيرْيا Thymiatéria. ولم يخطئ فيه القدماء كما أخطأ المعاصرون. إنهم لم ينخدعوا بالبيان الذي أعطي ثلاث مرات في ستة أسطر عن مستوطنات حنّون :

«رواية حنّون... عن المناطق الليبية فيما وراء أعمدة هرقل – استحسن القرطاجيون أن يبحر حنّون خارج أعمدة هرقل، وأن ينشئ مدن الليبيين الفينيقيين Libyphéniciens – بعد أن اجتاز طوال الأعمدة... وسار بحرا خلفها مدة يومين، فإننا أنشأنا مدينة أولى أسميناها ثيمْيا طرْيا...».

إنهم، رغما عن الظواهر المعارضة، قد سلّموا بأن حنّون لما جاء من قرطاجة قد أرسى في قادس، وأنه لم يذهب للمغرب إلا بعد أن أتم فيها تجميع جموعه، وبعد أن أكمل استعداداته، ويحسن اتباعهم في هذه النقطة. وعلى كل حال فأعمدة هرقل تذكّر بمضيق جبل طارق. ولكنها هي نفسها تختلط إما مع الجبال المحيطة بها، أو مع أعمدة معبد قادس التي تجعل عبوره تحت حماية مِلْقارت – هرَقل Melqart-Hercule. وذكرهما في حد ذاته يوحي من غير توضيح بفكرة

الرحلة المتواصلة من قرطاجة حتى ثيمْياطيرْيا، عبر المضيق، وبتوقف في الوسط على المضيق بقادس. أما القدماء فقد أخذوا بالتأويل الثاني الذي تضمنه على ما يحتمل معلومات ضاعت عنا، ويزكيها على كل حال ماضي قادس، والتقاليد الأكيدة لبحرية تجارية بقيت حية بعد انهيار البونيقيين. واختيار القدماء يفرض نفسه، وفي نفس الحين يحذرنا من الخداع الماكر لحنّون. وأيضا يبدو من غير إرادة لتمجيد وطنه وشخصه، بل لخوفه من أن يعطي لمزاحمي قرطاجة مفتاح البحر المحيط، فإنه أغرق في الظلام المساعدات التي كان قد وجدها في قادس. فابتدأ هكذا في التحريفات المزرية بالمساعدة التي صيّرها منكّرة ولا تعرف، وهي مساعدة حاسمة قدمها إليه بالمغرب الأفارقة المنافسون لقادس، أي بونيقيو ليكْسوس.

حنّون واللِّكسِـيون Lixites

لم يستطع حنّون أن يغفل عن ذكر اللكسيين Lixites، ولكنه عاملهم بتلطف بالغ في الخداع إلى حد أن المعاصرين حسبوا أنهم آخرون.

لنفتح الرحلة، لنقرأ في الفصل 6 وما بعده ما يلي :

6)– «ولما ذهبنا من هنا أي من (رأس سولويْس)، وصلنا لنهر كبير هو ليكْسُسْ Lixos الذي يأتي من ليبيا. وعلى شاطئيه، فإن الرحّل اللكسيين كانوا يرعون بعض القطعان. وقد مكثنا بعض الزمان مع هؤلاء الناس الذين أصبحنا لهم أصدقاء».

7)– «وفوقهم كان يعيش الأثيوبيون الذين لا يكرمون الضيف، وكانوا يسكنون أرضا مليئة بالحيوانات الشرسة، وتخترقها جبال عظيمة قيل يخرج منها نهر ليكْسُس Lixos...».

8)– «وأخذنا مترجمِين من اللِّكْسييّن». (ويتلو هذا ذكْرُ الرحلة إلى قيرني Cerné).

إن اگْصيل Gsell قد سار مع مجموعة من سبقوه، وسانده أخيرا مَرْسي Marcy بمعرفته بالاشتقاق اللغوي البربري عن ليكْسُس بأنه النهر الغريني المليئ بالطمْي Limoneux، فعرف دون تردد أن وادي دَرْعَة Oued Draa هو الليكْسُس، وأن اللِّكْسيين Lixites هم البربر الذي كانوا يقيمون في الشِّعب الأسفل لوادي درعة.

فلو أن حنّون عاد للأرض لَحَكَّ يديه فرحاً لا شك، لرؤية العلْمِ الأشد رسوخاً يتعثر في أحبولته، ويسلّم عن احترام له ولتصريحاتهَ الزائفة، بنقله إلى أقصى الجنوب المغربي لنهر لم يتغير اسمه فيما نعلم منذ العهود العتيقة. أي نهر لُكّوس Loukkos، الذي يجري على بعد 1000 كيلومتر إلى الشمال، وسكان هذه المدينة العتيقة الفينيقية ليكْسْ Liks التي أطلالها في تْشمِّشْ Tchemmich قرب العرائش هي الأشد شهرة في المغرب بمنطقة الحماية الأسبانية. إن هذا العمى الجماعي لا غفران فيه، إذ أننا لسنا نعرف فحسب كيف كان يُسمى وادي درعة في الأعصر القديمة : إنه دَرَدوس Darados عند بَطْليموس Ptolémée، ودَرات Darat عند پْلين Pline، الذي حافظت العربية على صيغته. ثم بغض النظر عن رحلة حنّون، لا يوجد أي واحد من الكتّاب القدماء قد قارَبَ بين دَرات Darat وليكْسُسْ Lixos. وكل النصوص التي تذكر ليكْسُس، والتي يُحتجّ بها لإحقاق هذا اللبس البليد، فإنها تعارضه صراحة.

1)– بعد مرور قرن على سفر حنّون، فإن بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax قد ذكر نهر ليكْسُس Lixos، ولكنه جعله بموقعه، جنوبي رأس هـرْميس Cap Hermès، أي رأس الأقواس Ras el Kouas، بين طنجة وأزيلَة Arzila بشمال كَرابيسْ Karabis أي نهر سْبو. وصحيح أن بجنوب رأس سولويْس C. Soleis – الذي يتطابق كما سنرى مع رأس كَنْتان Cap. Cantin – وبشمال قيرني Cerné ، فإن بْسودو سيلَكْس ذكر نهراً آخر، وكنا ننتظر ليكْسُس، ولكن المخطوطة تحمل كْسيون Xiôn. ولكن لابأس، فبجرَّة قلم خفيفة في الكتابة، يسهل أن نَفرض أن ليكْسيون Lixion هي صيغة لليكْسُس Lixos. وليس هناك إلا أسف واحد، هو أن القليل الذي قاله لنَا بْسودو سيلَكْس عن كْسيون Xiôn يتعارض مع هذه التحولات. وعمليا فإن اللكْسيين Lixites هم قوم بيض،

عارض بهم حنّون نفسه (بالأثيوبيين الذين لا يكرمون الضيف). بينما يخبرنا بْسودو سيلَكْس أن ضفاف كسيون xiôn كان يسكنها (أثيوبيون مقدسون)، مقدسون لا شك لأنهم لا يقترب منهم أحد ولا يسهم أحد.

إن التعارض جلي، واگصيل الذي يرفض بأمانة أن يسكت على الأمر، يعلن أنه مستعد على الأكثر للتعرف على كسيون بأنه هو الساقية الحمراء. وهذا الافتراض ممكن وإن كان لا يمكن البرهان عليه. ولكن يكفي أن يتميز كْسيون عن ليكْسُس عند بْسودو سيلَكْس لتكون شهادته أبعد من أن تسوغ لنا صب مياه ليكسس في مجرى درعة.

2)– أما اگصيل فإنه سوغ لنفسه – نظرا لأن الساحل الصحراوي كثير الأسماك أن يستنتج من شركة الصيد، شركة حسب سطرابون كان القادسيون قد كوّنوها مع اللكسيين، ولا تزال مستمرة العمل في نهاية القرن الثاني ق.م، فكرةً مؤداها أن القادسيين كانوا يذهبون للصيد على الشاطئ الذي يصبّ فيه وادي درعة، واستعمل هذا الادعاء لصالح جَعْلِ هذا النهر هو ليكْسُس Lixos. وأعترف أن البرهان يبدو لي لا أساس له. فقبل كل شيء لا يزال موجودا سمك الماء العذب في وادي لُكوس O.Loukkos، كما لا يزال موجودا دائما سمك البحر أمام مصبه. ثم إننا نعلم جيدا، في آن واحد هدف شركة القادسيين واللكْسيين Lixites الذين كانوا يصيدون سمك التونة Thon الذي تُرى صورته على ظهر النقود التي سكّها هؤلاء وأولئك. وكذلك عن الجهات التي، حسب بْسودو أرِسطوط Pseudo-Aristote، كانوا يجدون بها أسماك التونة الضخمة وبمقادير كبيرة، وليس في الجنوب بل في شمال المغرب، على مدى إبحار أربعة أيام غربي مضيق جبل طارق. وختاما، لم يكن سْترابون يجهل أي شيء عن الوضعية الحقيقية للنْكس Links أو ليكْسُس Lixos في نقطة اتصال البحر الأطلنطي بالأبيضَ المتوسط.

3)– وديصّو Dessau، بدوره عرّف ليكْسُس الذي برحلة حنّون بأنه هو وادي درعة. وقد احتج لذلك بفقرة غريبة من بوزانْياس Pausanias، حيث إن هذا الأخير، قد لام لوماً شديدا هيرودوت لأنه سمى الأطلنطيين Atlantes باسم النَّصَمونيين Nasamons، بينما لا يوجد حسب رأيه جغرافي واسع المعرفة، ولا يعرف أن النصمونيين جيران الصحراء بأنهم ليكسيون. وبالطبع فإن نقد بوزانياس Pausanias لا يمكن أن يقبل إلا إذا كانت سيطرته الجغرافية تجعل في القرن الثاني للميلاد اللكسيين Lixites قريبين من الصحراء. ولكن المؤسف هو أن ديصو Desseau لم يرجع إلى نص البيريجت Périégète، فبه يطّلع على أن هؤلاء اللكسيين كان لونهم أسود، وهذا التعريف يمنعنا من خلطهم مع من ذكروا برحلة حنّون، كما سبق أن منعنا من ذلك بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax لنفس السبب، وفيه يقرأ من بعد أن هؤلاء اللكسيين، ما كان لنهر أن يتكون عندهم بسبب الحرارة. وهذه الفقرة لا تساعد طبعا على جعلهم على ضفاف نهر درعة. أغلاط بوزانياس عظيمة وتكشف وتحرّف أحد أوجه الحقيقة التي سنحاول إيضاحها عما قريب. ولكن أياً ما كان التفسير الذي يقترح لبيان أصلها، فواضح أنها تنتهي إلى القضاء على الرأي الذي كان المفروض أنها تؤكده.

إنها في الحقيقة لا تستند إلا على فقرتنا من رحلة حنّون، أو على الأصح تستند على المفهوم الذي يعطى لها عادة، ولم يكن هو الأصح. ولنعد بالفعل، ودون أي حكم مسبق للبحث في النص، فسنتيقن بسرعة، أن شرّاحه قد ضلوا الصواب حتى اليوم. فهل سيقال إنه أنزل نهر ليكسس الذي يتحدث عليه من الأطلس الذي ينبع منه فعلا نهر درعة ؟ إن حنّون بالغ الذكاء، ولا ينزلق في أكذوبة فاضحة. إنه غير ملزم

بالصدق لقرائه، ولا يريد أن يجرهم مع خطواته، ولكنه يريد لنفسه أن لا يعرّضها لشتم المنكرين. إنه يعمي مسالكه، ولا يحب أن يعرّض نفسه للتنقيص الذي تجلبه له أكذوبة يسهل فضحها. وهنا كانت إشارته المزدوجة لمنابع ليكسس. وصحيح جدا أنه كأنما كان عَرَضاً يقترح علينا الأطلس – ولم يذكر اسمه مطلقا – وذلك بأن أحل في مكان شديد البعد (الجبال العظيمة التي يخرج – كما يقال – الليكسس منها). ولكنه لا يدعي أنه هو رب هذه المعلومة. بل يرمي بالمسؤولية على مخبرين مجهولين، وقلما يدعيها لنفسه، إذ من قبل قام هو بإصلاح الخبر الواهن، باعتماده لهذا الخبر الصادق بقدر ما هو غامض، بأن الليكسس Lixos يأتي من ليبيا. وزيادة على ذلك، فالخطوط الواصفة قليلا، التي تتناثر في تقريره، والتي لابد أنها تتطابق مع شعور أصحابه، تتوافق بصفة مرضية مع المشهد الطبيعي لوادي اللكوس Loukkos. وبكلمة واحدة، فإن ما يعرضه في البداية، هي الحقيقة التي لابد أنها قبل كل شيء قد بهرت رجالا متعودين على رؤية الوديان الحجرية في منطقة الأبيض المتوسط، وبرؤية نهر محيطي عظيم[10]. وأحسن من درعة الذي بأسفل المنعطف الذي يحدثه في اتجاه الغرب، فليس له عادة سوى مجرى تحت الأرض، تغطيه في الربيع حقول الشعير. هذا الوصف يليق باللكوس الذي تنبه له أيضا بْسودو سيلَكْس، الذي كان أول من أطلع البحارة القادمين من البحر الداخلي على الوجه الجديد للأنهار العتيقة، بمصبه الذي يصله بالمحيط «بإقامة حاجز مرتفع بعض الشيء». ثم على شواطئ اللكوس، يرينا باختصار مشهدا خلف حدائق مدينة العرائش، تعرض فيه، ليس التماسيح التي على قول پْلين Pline كانت تتمرغ في وحل دَراتْ Darat، بل يرينا القطعان التي ترعى في هذا السهل الذي هو للمراعي. هنا وقع على الخاصية السائدة بموقع ليكسس العتيقة، أي المشهد الذي

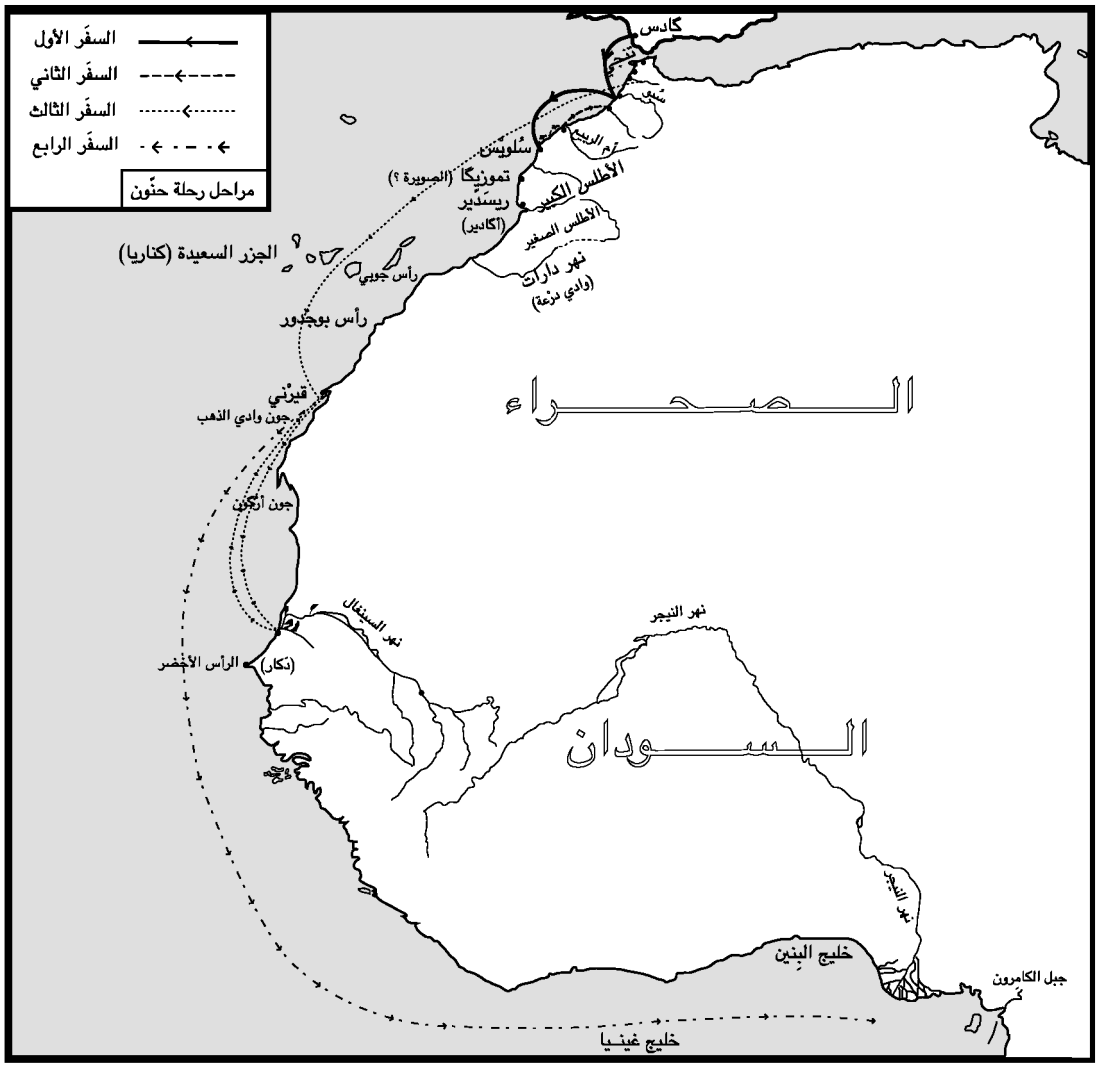
السفَر الأول
السفَر الثاني
السفَر الثالث
السفَر الرابع
مراحل رحلة حنّون
گادس
تنجي
سُلويس
تموزيگا (الصويرة ؟)
ريسَدير
(أگادير)
الأطلس الكبير
الأطلس الصغير
نهر دارات
(وادي درعة)
الجزر السعيدة (كناريا)
رأس جوبي
رأس بوجدور
قيرْني
جون وادي الذهب
جون أرگون
الرأس الأخضر
(دَكار)
نهر السينغال
نهر النيجر
الصحراء
السودان
خليج البِنين
جبل الكامرون
خليج غينيا

رحلة حنّون

تملاه اگْصيل في زياراته لخرائب تْشَمِّشْ، (لأرض صالحة لتربية الماشية). وحنّون لا شك عوض أن يذكر من فوق الأكربول acropole هذه المدينة العتيقة الفينيقية، فإنه عرف اللكسيين Lixites الذين هم مدينون لها باسمهم، وبكلمة يظهر أنها تبعدهم عن أي مدينة أخرى إذ هم: الرجال اللكسيون الذين هم الرحّل. ولكن علينا ان لا ننسى أننا مع ترجمة إغريقية، لأن الإغريق في التورية يسمون دائما النوميديين بالنوماد Nomades أي الرحل. فاللكسيون الواردون في رحلة حنّون، إنما هم نوميديون رعاة، ورعايا لفينيقيي ليكسوس Lixos. واليوم فإن بقايا ليكسوس قد وقع التعرف عليها في مرتفع تْشَمِّشْ، المطلة على اللكوس، على 4 كيلومترات أعلى من مصبه، بينما بالمصب نفسه تقع مدينة العرائش الحالية. وهذه الازدواجية تصعد إلى أبعد عهود التاريخ القديم، لأن بْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax رأى على نهر ليكسس مدينة ليكسوس Lixus الفينيقية. وفي سافلة هذه، على الضفة المقابلة، وبجانب الميناء مدينة تحمل نفس الاسم، غير مجهولة، وآهلة بالليبيين. فحنّون ورفقاؤه عندما نزلوا من عرض البحر اتصلوا بالرعاة الليبيين الذين كانوا يرعون قطعان ليكسوس على ضفاف النهر. ولكن كيف استطاع حنّون أن يقيم بينهم مدة من الزمان لم يقسها، ولكن يظهر أنها كانت طويلة لو لم تكن له هناك مدينة ؟ وعلى الخصوص كيف استطاع أن ينال صداقتهم بإطالة مدة إقامته بينهم، لو لم يتدخل بينه وبينهم العمل الحاضر والخفي لسادة واديهم ؟ وكذلك الأخوة السلالية التي كانت تجمعه بسادتهم بونيقيي ليكسوس تْشَمِّشْ ؟

وواضح أن حنّون قد حاول في آن واحد أن لا يشرك معه الغير في مجده، وفي أن يخفي سريرته بتنكير يفرض إسقاط الإسم، ليخدعنا في

آن واحد عن الحالة التي وجد عليها ليبيا الغربية التي يسيطر عليها الليكسيون، وعن السياسة التي ينوي هو اتباعها فيها. فهو لأول وهلة كأنه يتدخل في المغرب، الذي كأنه أرض جديدة، لم يسبق لأحد من بني جنسه أن دخلها حتى الآن. ولكن هذا الادعاء كان ضخما جدا. ولم يستطع من خلال روايته أن يمنع ظهور الدور الحاسم الذي من قبله هو، ولمدة قرون، كان بونيقيون آخرون قد لعبوه فيه، وبواسطة ذلك الدور قد هيأوا مهمته قبل أن يساعدوه عليها. ويصرح السيد مَرْسي Marcy قائلا: «إذا قرأنا بين سطور رحلته، فلا يفارقنا الشعور بأن القرطاجيين، كانوا مسبقا يعرفون النواحي التي امتدت حملته على طولها». بل وليس القول كافيا. فلنترك جانبا دقة رحلة حنّون، في الاختيار العفوي للمواقع التي نزل بها، والثقة الآمنة التي أنزل بها المستوطنين. فكلها معطيات تتجلى بها ليس عبقريته هو، بل تتجلى المعجزة لو أنه لم يجد بكل مكان مضيفين يلاقونه، ومرشدين ليقودوه. ولنقف عند بعض العناصر الحاسمة التي كان يستحيل عليه السكوت عليها، وكأنما تظهر فيها رغما عنه المساعدات الفينيقية التي أحرزها دون أن يتفضل بتذكرها.

أولاً، هذا من جانبه عمل للتقوى يفترض حضورا طويلا لمواطنيه، إذ نقرأ بالفعل في الفصلين الثالث والرابع من الرحلة الخبر الآتي :

«وبعد ذلك، ونحن متجهون نحو الغرب وصلنا إلى سلويْس Soloeis، المرتفع الليبي المكسو بالأشجار، فأقمنا هناك معبدا لبوسيدون Poseidon وعُدنا للإبحار».

ليس لنا أن ننكر الأمر المحتفى به. فبعد قرن من عهد حنّون، كان المعبد الذي أقامه لا يزال ماثلا، كما شهد بذلك بْسودو سيلَكْس : «انطلاقا من ثيمياطيرْيا Thymiatéria، نصل إلى رأس سُلويْس Cap Soloeis الذي

يتقدم كثيرا في البحر، وكل هذه الجهة من ليبيا هي شهيرة جدا ومقدسة. وبقمة المرتفع ينتصب معبد كبير مُكرّس لِبوسيدون». وعن تعريف رأس سُلويْس بأنه هو رأس كَنْتان C. Cantin مع أن هذا قد كان مكسوا منذ 2400 سنة بالاشجار، وأن هذا لا يرينا اليوم إلا الصخر العريان، فالشك ليس ممكنا. إذ كل شيء يساعد في البرهنة على ذلك. أولاً شكلية الأرض التي يكتسيها سولويس عند سيلكس والتي لا تزال بادية في تقدم رأس كنتان في البحر. ثم وضعيته التي أعفى حنّون نفسه من إيضاحها، في حين أن بْسودو سيلَكْس قد حددها بالتدقيق : «إن الإبحار طوال الشاطئ، من أعمدة هرقل إلى رأس هيرمِسْ Cap Hermès – أي آدْميرْكوري Admercuri = عَيْن بَلّيطا قديماً، شرقي مصب واد الغريفة – يدوم يومين، ومن رأس هيرمس إلى رأس سلويس يتطلب ثلاثة أيام». لكن، وكما أشار اگْصيل لذلك : «فإن رأس كنْتان، الواقع على 570 كيلومترا من مدخل المضيق يستجيب جيدا لهذا البيان». وختاما فهناك علْم أسماء المواقع (الطوبونيميا Toponymie) الذي يأتي لينجد علماء الطوبوغرافيا : والسيد مَرْسي قد أوضح لفظ سُلويْس Soloeis بلفظ ليبي، أوحى به إليه علْمه بالبربرية، أي سُل وَيِّسْ Sul-Wais. (طابع نعلة الفَرس). ولكن مهما قلنا عن هذا الاشتقاق، فإنه لا يوجد مستشرق إلا ويريد أن يضيف له تفسيرا آخر، وأن يقارب بين سلويس في الإغريقية وبين اللفظ السامي سلْعايم Selaim أي صخرة(*)، فيقربه من سلويس Soloeis بصقلية، وسولي Soli بقبرص وسِلسْيا Cilicie، هذه المدن التي احتفظ اسمها في الأرض الهيلينية بهَندام أجنبي. والمتأكد هو أن صوريين Tyriens إما أنهم لأول مرة قد فرضوا لهذا

*) بل سلعايم هي جمع لا مفرد، فهي صخور لا صخرة. المترجم.

المرتفع اسما مأخوذا من لهجتهم، وإما أنهم (فَيْنَقوا) اللفظ الليبي الذي كان يطلق على الموقع قبلهم، وذلك حسب الطريقة التي سيجددها الرومانيون، الذين عندما خلفوا القرطاجيين على المغرب، فإنهم لم يعنوا أنفسهم بترجمة اللفظ الفينيقي، واكتفوا بأن نقلوه في النطق، فقالوا Promuntorium Solis أي مرتفع الشمس. وعلى كل فَسُلْ وَيّسْ Sul Wais، طابع نعلة الفرس، وسلويْس الصخرة، وسُلْ يِسْ Sol (is) الشمس، تعابير اختلفت اختلافات يسيرة باللهجات التي اندمجت فيها بسهولة. إذن فثلاث صيغ تعبيرية لتسمية حقيقة واحدة، هي هذا المرتفع الذي كان پْلين Pline تحت اسم Promuntorium Solis قد جعله جنوبي سلا (الرباط) [11] تحت روسِبيس Rusibis أي (الجديدة مازَگان) وبترجمته إلى Ηλιου οροϛ أي (Solis Mons) ، وجعله بطلمي شمالي نهر فوت Fut (وادي تَنْسيفت) أي بنفس المكان الذي يتطابق مع رأس كنتان. وإذا صح، كما يؤكد ذلك السيد مَرْسي، أن الاسم الحالي كانتي Qanti هو كنتان ويقارن بلفظ في لهجة الطوارق : (گاتيم gatim) الذي معناه طابع نعلة الفرس، فإن اسم الموقع يعود في آخر الصيغ إلى نقطة انطلاقه. ومهما كان الأمر، فإن نتيجتين قد حصلتا الآن، أولاً إن رأس كنتان، بجميع تسمياته العتيقة يتطابق بالتأكيد مع المرتفع الذي تسميه تلك الأسماء بالتتابع، وبعد ذلك نختبر فيه القاعدة التي أبانها فيكتور بيرارد V. Berard والتي بمقتضاها، عوض أن نبحث في نفس اللغة لسيد جديد لأرض ما، عن لفظ يعادل اسم الموقع الذي كان من سبقه قد استعمله في تسمية الأمكنة الخاضعة له، فإن السيد الجديد يدفع باللفظ مباشرة إلى لغته هو بشيء ما من التغيير في المعنى، ولكن يحفظ نبرة الصوت. ولسنا بحاجة لأكثر من ذلك لنؤكد أنه بانطلاقه نحو رأس كنتان، الذي كان منذ أمد يحمل اسما فينيقيا أو مُتَفينقا، وهو

الاسم الذي نطق به بصفة آلية كأنه تعبير مُكرّس، هو سُلويْس فإن حنّون كان يعلم جيدا أنه هناك كان يضع أقدامه على آثار أقدام الصوريين الذين سبقوه.

وعلاوة على ذلك، فالبونيقيون كما لم يكونوا بحاجة إليه ليجعل لهذا الموقع اسما من لهجتهمن فإنهم أيضا لم ينتظروه لينشروا به عبادة بوسيدون Poséidon الذي أدّى وهو مارّ التحيات التي يبقى علينا أن نفهم ظروفها وقيمتها.

عندما يكون إله فينيقي متمثلا لدى الإغريق في إلههم بوسيدون سيّد البحر والفَرس، وكان محل تعظيم خصوصي في قرطاجة، فإن هذه وقائع لا يشك فيها. فمثلا في 480 ق.م في هِميرا، حدث أن الماگوني عَمِلْكار Hamilcar قد فوجئ بمهاجمة خيالة جيلون Gélon له، أثناء قيامه بنَحر القُربان لبوسيدون. وكذلك، في سنة 406 ق.م، فإن البونيقيين، دشنوا حصار أَگْريجَنْت Agrigente بذبح طفل لِكْرنوس Kronos وعدة حيوانات لبوسيدون. وختاما فبعد قرنين من الزمان، في سنة 215 ق.م، أقسم حَنيبَعْل اليمين لما تحالف مع فيليب الخامس Philippe V ملك مقدونيا Macédoine، فكان بوسيدون مرة أخرى مع سبعة آلهة اختيروا لضمان يمينه، على أنه مهما كان تعبد القرطاجيين لهذا البوسيدون دائما، فإننا مع ذلك نجهل عنه المظهر والإسم السامي ونجهل أصله الحقيقي. فحسب فيلون البِبْلوسي Philon de Byblos، كان هو الإله الأكبر في بيرِتوس Berytos أي بيروت. وقبل الصوريين، عَبَد الصّيْدَوِيون Sidoniens زِيوساً (Un Zeus) للبحر، وكان يميل إلى الالتباس به. ولكن عند وصوله من سورية لأفريقيا، استطاع – لينال بسرعة إيمان الليبيين – أن يستعير أكثر من سمة أحد آلهتهم الذي كان يقاربه كثيرا، إلى حد

أن ظهر لهيرودوت أنه إلـههم حقا : «إن الليبيين هم الذين عرّفوا الإغريق ببوسيدون، والليبيون هم وحدهم الذين عرفوا بوسيدون، وهم الذين عبدوا هذا الإله...». في هذه القضية أنكر اكْصيل صدق هيرودوت، وأَعترفُ بقوة دواعيه. ومع ذلك فهو غير متأكد من أن هيرودوت قد أخطأ. وهذه ليست هي المرة الأولى التي في المجال الديني، يكون البونيقيون قد أعطوا الدليل على نعومة تصل إلى حد التلقي. والمعبودان الأكبران في الزون Panthéon القرطاجي تانيت بني بَعْل Tanit Pené-Baal وبَعْل حمّون Baal Hammon قد مزجا بكل تأكيد عناصر مستقاة من المعتقدات الليبية، بالعناصر المتخذة من الديانة الفينيقية. ومسبقا فالنتيجة هي أنه لن يكون عجيبا أن يجد حنّون بغرب المغرب البوسيدون المحلي autochtone الذي عَرَف عنه هيرودوت من القورينيين Cyrénéens أنه موجود بالقاصية الأخرى لأفريقيا، على ضفاف السدْرَتين Syrtes. وبذلك فحنّون قد نشر سيطرته على ليبيا كلها، وعمل وفقا للسياسة التقليدية لبلاده، باحثا بهباته وتكريساته على إرضاء قوة هذا الأجنبي. ومع ذلك فليس هذا سوى افتراض، قد يؤكده الاشتقاق الليبي لِسُلويْس Soloeis إذا رأى علماء اللغة استحسان الأخذ به. وإن كان لا يمكن التحقق منه بالنقوش الصخرية التي تبدي سنابك الأفراس، كما اكتشفها السيد مَرْسي بجهة رأس كنتان، لأن العهد «الحجري الجديد الأسفل – النيوليتي الأسفل Subnéolitique» – الذي يرجعها إليه السيد مرسي يمتد في أفريقيا بين حدّين غير واضحين من هذا الجانب أو ذاك للتاريخ الميلادي. ولكن ما الجدوى، مهما كان موقفنا، في أن نتحيز في هذا الخلاف ؟ وسواء أكان حنّون بالفعل قد نزل في رأس كنتان ليقدم صلواته لبوسيدون الليبي الذي كان هناك مقدسا دائما، وأن يُقر به جهاراً أمام الأهالي عبّاده الذين سريعا ما يكون هذا الإقرار قد هدأهم

وسرهم، أم كان على العكس قد نزل هناك لينشر عقيدة أجداده ويقيم العبادة البونيقية لإله البحر، فإن عمله لا يمكن تصوره دون مساعدة الفينيقيين المتأصلين قبله في المنطقة. ففي الحالة الأولى، يكون مستوطنون من دمه ولغته ودينه، هم الذين أخبروه، بصفات وقوات بوسيدون، أو فلا أقل من إخبارهم له بالإيمان الذي تدين له به القبائل المحلية، ويكونون قد فتحوا مع هذه القبائل مفاوضات أولية ضرورية للأمان في إهداء حنّون. وفي الحالة الثانية فليس إلا هم الذين يكونون أهلا بالسيطرة التي يزاولونها على تلك القبائل، ليحموا عمل حنّون، وليخلدوا حياة منشأته. ثم في الحالتين معا، ليس هناك غيرهم أيضا ليزوّد حنّون بمواد البناء والمهندسين والنحاتين لمعلَمة مزخرفة كما قال بْسودو سيلَكْس «بوجوه الرجال والأسود والدلافين». ودائما هم الذين كانوا قادرين على أن يفرضوا على السكان مثل هذا الاحترام للمعبد العظيم بِسلُويس Soloeis، الذي لم يلبثوا أن تعودوا على القدوم إليه في جماعات لاحتفالات القرابين، والذي بعد مضيّ مائة عام، وبكثرة وفودهم إليه فإنهم حلوا المرتفع الذي أقيم عليه إلى «مكان مقدّس وشهير كثيرا جدا».

وحتى اليوم، إذا كان معبد بوسيدون قد اختفى، فإن جميع الطقوس التي يحتمل أنها كانت تجري به فيما مضى تمجيداً للإله الذي سيطر على الفَرَس والبحر لم تغب، إذ صح – كما أكد ذلك السيد مرسي – أن البربر المسلمين لا يزالون في بعض ليالي السنة يأتون بالخيول الإناث العقيمة آملين أنها تحمل من خيول للنزو Etalons معجزة تنبعث فجأة من أعماق الأمواج. والعمل التقي الذي قام به حنّون، كيفما نظرنا إليه، قد نجح كل النجاح في أنه لم يكن سوى عمل رجل واحد وفي يوم واحد بينما هو عمل لا يعقل وغير مجد لو أنه ابتكره وحده دون تحضير

ولا ضمان. وعمله نظرا لنجاحه يقتضي أن مستوطنات فينيقية وجدت من قبل واستمرت في أحواز سلويس Soloeis، فكانت أمامه لتوطئ له السبيل وتضمن الحياة لعمله بعده.

واليوم هناك ميناءان احتلهما البرتغاليون وحصنوهما أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر، وهما يحيطان برأس كنتان أولهما ميناء آسفي على نحو ثلاثين كيلومترا جنوبا، وعلى نحو مائة كيلومتر ميناء الجديدة (Mazagan) إلى الشمال. وقد كان سلويس في العهود العتيقة واقعا كذلك وسط متجرين Comptoirs لهما اسمان مشتقان من الإغريقية أو الفينيقية يفرضان نقلهما لخارج عهد السيطرة الرومانية، وهما في الجنوب ميزوكَراس Mysokaras التي جعلها بطُلمي بين سُلويْس ونهر الفوت Fut أي وادي تَنْسيفت، فيسوغ القول إنها هي آسفي. وفي الشمال روسيبيس Rusibis التي أبلغنا بطلمي باسمها الحقيقي، وقد جعلها پْلين Pline تقع على 224 ألف (224.000) خطوة أي (331 كيلومتر) من ليكسوس، فيجب إذن جعلها هي الجديدة Mazagan أو في أحوازها المباشرة. ولاشك أن هذه المواقع البونيقية هي أكثر قدما من رحلة حنّون. وفي رأيي فإلى مستوطني ميزوكراس Mysokaras وروسيبيس Rusibis كان حنّون مَديناً بنيّة زيارته إلى سلويس وللدوام القوي للمعبد الذي كرّسه هناك لبوسيدون.

وزيادة على ذلك، فبقراءة جديدة منتبهة لرحلته، نشعر أنه محاط بوجود المستوطنات الفينيقية القديمة التي كانت قد سبقته بالمغرب. بحيث إذا كان النص يعود عمليا في ثلاث مناسبات للفصول الثاني والخامس والثامن أي إلى (المستوطنات) الخاصة بحنّون، فإنه لم يستعمل نفس الفعل في التعريف بها. فمرة لِتيمْياطريا في الفصل الثاني يستعمل فعلا

ماضياً هو – أنشـأنا – الذي يعبّر جزماً عن تـأسيس في فراغ. وفي الفصل الخامس حيث يذكر جنبا لجنب مستوطنات كَريكون طيخوس Karikon Teichos، وگـوطي Gutté، وأكرا Akra، ومِليتا Melitta وأرَمْبيس Arambys، وفي الفصل الثامن المتعلق بقيرني Cerné فإنه يستعمل في صيغة الماضي : تركنا معمّرين جداً. وهو تعبير لا يقل جزما ويفرض فكرة تكملة أضيفت إلى مؤسسات سابقة. ففي تيمياطيريا التي ذهب حنّون إليها من أعمدة هرقل مباشرة في يومين – والتي يجب البحث عن موقعها قرب القنيطرة عند مصب نهر سبو كما قد وافق على ذلك جميع الناس – فإن السوفيط حنّون قد أسس بجميع الجزئيات مستوطنة جديدة تماما، بإنزال كتل من الناس الذين نقلهم على سفنه. وإذا صدّقنا السيد مَرْسي M. Marcy فإنه أطلق عليها ببساطة اسما بالليبية هو الذي كان الأهالي الفطريون الساكنون حول الموقع يطلقونه عليه : أي تومْيا Tumia مصب tärya الشعبة (الوادي)، ولم يكن للإغريق إلا أن يجدوا المثيل في لغتهم، ليستخرجوا بطريقة التورية معنى مفاجئا، أي تيمْيا طيرْيا التي هي المباخر أو المجامر Encensoirs. وحنّون في كل مكان، حتى في قيرني Cerné عمل بوفود المهاجرين الجدد على تقوية المستوطنات الفينيقية التي كانت موجودة من قبل. وسنجتهد فيما بعد لإحلالها على الخريطة. أما الآن فيكفي أن نلاحظ وجودها، وأن نستخرج منه النتائج.

في المستوطنات التي اكتفى حنّون بذكر حقيقتها، فإنه قصد موانئها، ولم يدخل سلميا لأسوارها إلا بفضل الروابط السلالية، والثقافية والدينية التي كانت تربطه بها، وبموجب خضوعها الذي واعدته به. أما المستوطنة الجديدة التي أنشأها بالأرض البكر بمصب سبو (سوبوس Subus)، فواضح أنه ما كان ليقيمها بهذه السهولة، لو لم

تساعده في إقامتها مستوطنات فينيقية أخرى، كانت منذ عهد بعيد مزدهرة وقوية. وحقا فإن حنّون انطلق دون توقف إلى موقع تيمياطيريا التي ستقام استقبالا. فكان لابد من المستوطنين القدامى المقيمين بجوار الموقع ليعينوه له وليهيئوا الأرض. ولكن، لننظر إلى الخريطة حيث لا يصعب علينا أن نتصور من أين قدموا. فإذا لم يكن سوى ثلاثين كيلومترا بين مصب سبو ومصب أبي رقراق الذي بجانبه ترعرت سلا، فهذه المدينة ذات الأصل البونيقي لم تخرج من الظلام إلا مع السيطرة الرومانية، ونحن نجهل كل شيء عن بداياتها البسيطة. وعلى النقيض إذا كان أكثر بقليل من مائة كيلومتر تفصل بين مصب سبو ومصب اللكوس، فإننا نعلم أن مجرى هذا النهر كان منذ خمسة قرون خاضعا للصوريين أهل ليكسوس. ولا يعقل أن حنّون يكون قد أسس بقرب هذا المكان حلة جديدة لإشعاع الحضارة القرطاجية دون اعتراف ومعاونة من لدن أقدم وأسمى المستوطنات التي أقامتها صور بالمغرب. وإذا كان حنّون من قادس لم يقف عند مصب اللكوس، بل اندفع مباشرة إلى سبو، فلأن اللِّكْسيين Lixites الغاضبين من إخباره بمزايا الموقع المختار، كانوا قد سبقوا إلى تمهيد الأرض. وبقدر ما يبدو في الرحلة أن إحداث تيمياطيريا هو أمر عجيب في الدقة والسرعة، بقدر ما يتطلب تدخل اللكسيين المجاورين. وليس هذا كل شيء، فبقدر ما نسبغ عليها من الأهمية، نسلّم بأنها تحمل القلق – إن لم تسيء – إلى اللكسيين لو لم تكن أنشئت في كامل الوفاق معهم، ولكن بعيدا جدا عن الشعور بأي عداء بين اللكسيين وحنّون. وتتابع الرحلة مصرّة على ذكر الصداقة التي أبرمها السوفيط معهم، والتي بمقتضاها اتخذ منهم المترجمين الذين لولاهم لما استطاع أن يتابع رحلته. وهكذا فبدلاً من تضليلات نصّ أُحسن تمويهه، ستتجلى النتائج التي تفرض نفسها من ضياء الأحداث.

فالنتيجة الأولى، هي أن حنّون قد نال في جميع سفره عون اللكسيين Lixites. ولربما أن نفوذهم المنتشر على جميع السواحل المغربية، هو الذي سهّل، بجهوده السريعة، تقوية الاستيطان الفينيقي في كل واحد من الموانئ التي كان يحسن مساندتها وإنعاشها. وبالتأكيد، فإن إخبارهم هو الذي عرفه بالطريق إلى تيمياطيريا المستقبل، وأن خيراتهم هي التي زودته بالمؤن ومواد البناء. وأخيرا، كما سنرى، فإن خبرتهم الطويلة بالبحار البعيدة هي التي أرشدته في البحر المحيط الجنوبي. ولاشك أنهم من مساندتهم الحاسمة قد نالوا من المنافع أقل مما نالته قرطاجة التي – بعد هذا المجهود المركز على التوسع – قد أحلت نهائيا سيطرتها محل سيطرتهم على الساحل المحيطي. ولكن نظرا لأنها لم تحلّها إلا بموافقتهم وبمساعدتهم، فسيطرتها لن تقضي لا على نشاطهم ولا على نفوذهم. وبالفعل فإن ليكسوس تحت السيطرة الجديدة ستحتفظ في البحر المحيط ببحرية ذات نفوذ وتفوّق تجاري وستستمر في إثباتها بالإسم الإلهي : مَقوم شمِّشْ Makom Shemesh، أي مدينة الشمس الذي اتخذته لنفسها على بعَض عُمْلاتها. وستستمر إذن في إثبات السيادة المعنوية التي ضمنتها لها حماية مِلْقارْت طوال ستة قرون، ثم إنها مندمجة في الإمبراطورية البونيقية، ولكنها، وقد استفادت من قوتها، ستعرف الكثير من أجمل الأيام، إلى حد أنها بعد تخريب أمّها قرطاجة بمائة عام فإن كُرْنيلْيوس نيبوس Cornélius Népos الذي يصدق كثيرا الأقوال التي يطن فيها حتى اليوم صدى المبالغات بهذا الحظ السعيد، فكان يتخيلها كمدينة قوية جدا «أكبر حتى من قرطاجة العظيمة».

ولكن هناك نتيجة أخرى تخرج من هذه الحقائق، هي أن مهمة حنّون في المغرب وعلى طول البحر المحيط تكون غير مفهومة لو لم يتوقف

بِليكْسوس، فعلى ضفاف وادي اللكوس، لا على مصب وادي درعة يجب جعل إقامة حنّون وسط اللكسيين كما يشهد لذلك الفصل السادس من رحلته.

وإنه لغريب، وعلى الأقل ممكن التفسير، أن هذا الأمر الواضح قد بقي حتى اليوم مجهولا باستمرار. إن هذا العمى مصدره في آن واحد الوهم الذي تبناه جميع العلماء بدون استثناء، بأن سفر حنّون جرى في رحلته دون تعديل أو تراجع، وحسب اتجاهٍ دون تغيير من الشمال إلى الجنوب، ومصدره ثانية في الخطإ الذي أصروا عليه، باستثناء گوتييه E-F. Gautier، باتباعهم لروايته، وكأنها من مرشد قد كتبت لغايات عملية يقصد بها قراؤها.

ومع هذا، فإن كاتب الرحلة قد نبهّهم إلى هذا الوهم. فعندما نرى في الفصل العاشر، أنّ حنّون، الذي زار خلجان السينغال، كان مفروضا أن يكون قد كتب : «ثم رجعنا أدراجنا وعُدنا إلى قيرْني Cerné»، فهو قد اعترف بتراجع إلى الوراء، ويسوغ لنا أن نتساءل : أَلَمْ يقم بتراجعات أخرى ؟ أما عن الخطإ المعتاد لدى شُرّاح الرحلة، الذين يظنون أنهم قادرون على أن يستعيدوا كليا وجهتها ومواقع وقوفها كما لو أن الجدول الزمني الذي يشتمل عليها، والذي يدّعون الاستنتاج منه لجميع المسافات المقطوعة كأنه قد كان متقنا وكاملا، وليس لدحضها إلا إحصاء الهفوات التي تملأها. فهناك هفوة في الفصل الثالث حول المدة التي تطلبها المسير من تيمْياطيرْيا إلى سلُويس. وهفوة في الفصل الخامس عن المدة التي فرضتها المسيرات أولاً من سلويس إلى كَريكون طيخوس، ثم من كريكون طيخوس إلى گوطي، ثم من گوطي إلى أكْرا، ثم من أكْرا إلى مِليتا وختاماً من مِليتا إلى أرَمْبيس. وكلها مستوطنات تمثل مجموعة ولا

تكوّن سلسلة، ولا يستطاع إدراجها في نسق طبوغرافي صارم إلا بقياس دائر غير مقبول. وفي الختام هناك هفوة في الفصل السادس عن المدة التي تطلبتها المسيرة بين هذه المستوطنات والمواقع المسكوت عنها ونهر ليكْسوس الذي تجري بالفعل عملية التعرف عليه.

ذلك، وهذه الهفوة هي أشد ما يؤسف له منها، وتشتد خطورتها أيضا بالظلام الذي يخيم على الوجهة التي اتجه حنّون إليها لما غادر سُلويس. والفصل الرابع يبدأ فعلا بهذه الكلمات التي كان وضوحها لابد أن يسرّ جميع شرّاحه : «بعدما أقمنا هنا – أي في سُلويس – معبداً لِبوسيدون، أبحرنا في اتجاه الشمس المشرقة». ولكن حيث إنهم لا يشكّون مطلقا في كون حنّون قد تغلغل دائما في الجنوب، فإن هذا التدقيق رمى بهم في آخر المطاف في حيرة قاسية. ويصرّح اكْصيل : «إننا لا نفهم كيف أن الأسطول القرطاجي، بعد ما جاوز سلويس، استطاع أن يسير نحو الشرق مدة نصف يوم، إذ بعد رأس كنتان يميل الساحل إلى جنوب الجنوب الشرقي طوال خمسة عشر كيلومترا على الأكثر، ثم إلى الجنوب، ثم الجنوب الغربي ومن جديد نحو الجنوب. فإذا كانت الرحلة مضبوطة، فالساحل قد تغير كثيراً على حساب البحر، وهذا افتراض مردود بكل تأكيد». نشعر أن اكْصيل لم يمل لهذه النهاية إلا على مضض، وكما يقال لما يئس من الأمر. وبالفعل فلقد رفضها بسخرية الجغرافيون الذين تعضّضهم استحالة العثور في أي مكان يظهر الأرض على تغيّر تكويني في خط السواحل البحرية منذ بداية التاريخ.

ولِينجُوَ من ضرباتهم، فالسيد مَرْسي Marcy الذي كان يتعثر في نفس العرقلة مثل اكْصيل، والذي لم يلامس – مثلَ اكْصيل والذين سبقوا اكْصيل – فكرةَ أن حنّون قد كان بعد كل شيء حرّاً في أن يغيّر

طريقه، وأنه استطاع فعلاً، لما نزل من الشمال إلى سلويس، أن يصعد بعد ذلك من سلويس إلى الشمال، فوقع في متاهة من الظنون. وقد ادّعى أولاً أن «كلمتَي الشرق والغرب المستعملتَيْن» في الرحلة «يمكن أن لا تعبّرا في فكر الكاتب المحرر عن مفهوم دقيق جدا مثل مدلولنا عن الشرق وعن الغرب الجغرافيّيْن، وأن يعنيا المشرق والمغرب الحقيقيّيْن». ثم أنه اعتمد على هذا الإمكان كما لو كان قد تحقق فعلاً، وعلى كون «المشرق والمغرب الحقيقيين يختلفان حسب ميل الشمس على سطح خط الاستواء». واستنتج من ذلك في الحال أنه لكي نفهم حنّون جيدا، علينا أن ندخل في الاعتبار «الحقبة من السنة التي قام هو برحلته فيها». وفي هذا الموضوع فالرحلة بكماء. ولسبب واضح، لأن سفر حنّون بالتوقفات التي أشار الشوفيط إلى البعض منها، ومن غير أن يحدد طولها، فلربما أنها امتدت على عدة فصول من السنة. لكن ذلك السكوت لم يعجز السيد مَرْسي. ألم يُسلّم بأن الفارق بين المشرق الحقيقي والشرق الجغرافي يبلغ أقصاه في 60 درجة في الانقلابين الشمسيين ؟ وبالمغرب «فالشمس تشرق في الانقلاب الصيفي بشرق الشمال الشرقي، كما تشرق بشرق الجنوب الشرقي في الانقلاب الشتائي ؟». وفي هذه الأحوال إذا كان حنّون قد جاوز رأس كنتان حوالي الانقلاب الشتائي فيكون قد ساغ له أن يذكر شروق الشمس ليعين اتجاها يرمي إلى الجنوب Midi. ومن هذا، فالتسليم فعلا بأن هذه هي الحقبة التي جرى فيها إبحاره في هذه النواحي، فالأمر سهل. والسيد مرسي لم يتردد في عبور تلك الخطوات السهلة، لسبب هو أن حنّون صرح أنه سار مبحرا في نهر، عرف أحيانا أنه هو الساقية الحمراء، وأن هذا النهر، ولو بمنسوب مائي قوته واضحة أكثر مما هي عليه اليوم، فإنه ما كان يصلح للملاحة إلا مع أقصى الفيضان الذي لا يزال يحدث له اليوم في شهر ديسمبر.

بالتأكيد، غير أن النهر موضوع الحديث، قد عرّف به على العموم بأنه هو نهر السينغال. واگصيل نفسه الذي يحاول السيد مَرْسي الاعتماد عليه، قد اضطر للموافقة على أنه «يظهر صعبا التخلي عن هذا الرأي»، إلى حد أن السيد مرسي في آخر تحليل له ربط مجموعة الافتراضات بتخمين لم يعطها إلا ضعفه. ولحسن الحظ، فهي جميعا غير ذات جدوى كالافتراض السيء لگصيل. وسواء أكانت هذه أم تلك، فإن نصّ الرحلة إذا أوقعناه على الخريطة يُعفينا منهما معا.

ولننظر للخريطة. فمن نهر سبو إلى رأس كنتان يمتدّ الساحل المغربي يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وحنّون إذن، استمسك تقريبا بهذا التخطيط الدائم، وعند اتجاهه من تيمياطيرْيا، ذات الموقع المتأكد بمصبّ نهر سوبوس (سبو)، إلى سلويس التي موقعها برأس كنتان غير مشكوك فيه، فإنه حقيقة قد أكد في الفصل الثالث أنه توجه إلى الغرب : «وبعد ذلك اتجهنا نحو الغرب، ووصلنا إلى سُلويْس»، ولكن عندما غادر حنّون سُلويْس متجها إلى كريكون طيخوس التي موقعها مجهول، كتب في الفصل الرابع : «فسِرْنا في البحر في اتجاه شروق الشمس»، فلابد أنه استعمل نفس المقاربة كما في الفصل الثالث، وساير نفس الساحل في الاتجاه المعاكس، وأمال مسيرته نحو الجنوب الغربي. فإذا كان في الحالة الأولى عبّر عن الجنوب الغربي بكلمة مغرب، فهو في الحالة الثانية عبّر بكلمة شروق عن الاتجاه المعاكس. وخشية الحكم على لغته بتناقض ممتنع عن كل محاولة للتأويل، فلابد لنا من التسليم بأنه بعد ما أنهى إقامة معبده لبوسيدون، فهو لم يتابع طريقه نحو الجنوب، كما صدق ذلك كل الناس حتى اليوم، بل على العكس قد رجع أدراجه من سولويس إلى الشمال.

وأخيرا إذا بقيت لنا بعض الشكوك في صحة هذا التفسير البسيط جدا، بحجة أن أيّ أحد لم يسبق أن فكر فيه، فإن الشكوك تضمحل إذا تعبنا، ولو قليلا، في ترجمة كلمةٍ توجد في نص الفصل الرابع، وجميع شرّاحه – ولا نستثني منهم حتى اگْصيل – الذين أسرهم ميلهم، قد طرحوها. فالرحلة لا تقول : «بعد أن أقمنا هناك (بسلويس) معبداً لبوسيدون سِرْنا بحراً في اتجاه شروق الشمس ...» بل الأصح هو : «بعد أن أقمنا هناك (بسلويس) معبدا لبوسيدون، عُدْنا إلى الوراء وسِرْنا بحراً إلى شروق الشمس» : وهكذا فكلمة παλιν أي في اتجاه معاكس تمحو كل الصعاب. فحنّون لم يتابع طريقه من سلويس نحو الجنوب، بل في سلويس رجع على أعقابه. وفي شمال سلويس يجب وضع المستوطنات الخمس المذكورة في الفصل الخامس، وليس هذا فحسب، بل كذلك النهر الكبير لِكْسُسْ Lixos الذي رأيناه يُدخله في الفصل السادس بعد أن أنهى إنزال أثقاله من السكان الذين حملهم لكل واحدة من المستوطنات.

ومن ذلك الحين فطريقه تتضح أمامنا، وفي نفس الحين يتجلى تصميمه لأعيننا.

وفي أول الأمر تتضح الجزئية التي طالما حيّرت الناس. فالرحلة تؤكد في فصلها الرابع أن حنّون لما ابتعد عن سلُويس، أي عن رأس كنتان، سار في البحر «نصف يوم» قبل أن يصل إلى بحيرة واقعة غير بعيد من البحر، مغطاة بالقصب الكثير والعالي، حيث ترعى الفِيَلة وحيوانات أخرى كثيرة.

ويضيف في الفصل الموالي أن القرطاجيين لم يعودوا لمهمتهم التوطينية على ساحل المحيط «إلاّ بعد أن تجاوزوا هذه البحيرة، وساروا بحراً طوال يوم واحد».

لكن جنوبي رأس كنتان حتى أگادير، لا نلاقي أي بحيرة بالساحل المحيطي. مما يُخضع اكْصيل لهذا الواقع، ويُسلّم «بافتراض أن البحيرة قد جفّت». ولكن السيد مَرْسي لم يقبل هذا الاندحار. فقام بقياس المسافة التي هي 45 كيلومترا الممتدة بين رأس كنتان والصويرة القديمة Souira Kédima، بمصب وادي تنسيفت Tensift الذي عُرف قديما باسم نهر فوت Fut. وقد اعتبر – وهو على صواب – أن هذه المسافة يمكن أن تتطابق – باستثناء نحو 15 كيلومترا – مع نصف اليوم في السير البحري الذي تحدث عليه حنّون، وانتهى في الأخير إلى أن البحيرة المتحدث عنها هي بالضبط المجرى الأسفل لنهر الفوت الذي كان منسوبُ مياهه أعلى مما عليه اليوم منسوب ماء تنسيفت، وأحدث الفيضان آنذاك. ومع أن تفسيره جادّ، فإنه تعسفي وغير صحيح. فهو مثل اكْصيل لم يعثر على البحيرة التي وُصفت بدقة في الرحلة.

لكن إذا شئنا أن نبحث في الجانب المقابل فسريعا ما سنراها، إذ على بعد 40 كيلومترا شمالي رأس كنتان، تمتد بطول خمسة كيلومترات بركة مائية ضيقة وقليلة العمق، يفصلها عن البحر حاجز رملي رقيق، وفي قاصيته الجنوبية ممر صغير يصلها بالبحر. وبين كثبان الحلبة El-Haleba جنوبا والوَلْجة شمالا، توجد البحيرة التي تتجمع اليوم في أقصاها «نوالات» (أكواخ) قرية القصبة الوليدية. ولقد كفى تقويم الاتجاه الحقيقي لمسيرة حنّون البحرية انطلاقا من سُلويس، للقضاء بضربة واحدة على المشكل الخصوصي الذي جعله الاتجاه العكسي عويصا إلى الأبد.

ومن جهة أخرى إذا بقي مستحيلا أن نعرف بالتأكيد المستوطنات الخمس التي بالفصل الخامس : كَريكون طيخوس، وگوطي، وأكْرا، وملِيتا، وأرَمْبيس، فقد أصبح اليوم سائغا أن نعرف البعض منها. ولاشك أنَ من الخطإ أن نظن أن حنّون كان ملزما، وأنه ارتأى أن يذكرها حسب ترتيب توقفاته. فلأول وهلة، صيغة الفصل تفصح عن سرعة كبيرة، تمنعنا من ملامسة هذا الأمل. وإذا تأملناه عن قرب فهو يتعارض صراحة مع الجهد الذي بذله الكاتب في أن يكدّس في جمع غير واضح المدنَ التي تتابعت أسماؤها للعيان مرتبطة كما اتفق، «بعد ما جاوزنا هذه البحيرة، وسِرْنا بالبحر، تركنا المستوطنين في المدن الواقعة على شاطئ البحر».

وبالغموض المقصود الذي يغلّفها، فإن التحول مع الفصل الموالي يصرفنا بدوره عن ذلك. وبالفعل، فحنّون قد احترس كثيرا كيلا يعلمنا، أن أرَمْبيس Arambys آخر المستوطنات التي ذكرها، كانت هي التي قد انطلق منها إلى مصب الليكسوس. وبعد أن أوردها الواحدة بعد الأخرى، وربطها الواحدة إلى الأخرى بالرابطتين : Τε وχαι ، المكررتين أربع مرات اكتفى بأن يضيف : (χαχειθεν αναχθεντες) وإذا ترجمنا مع اگْصيل حرفيا : «لما ذهبنا من هناك وصلنا للنهر الكبير ليكسوس». فالجملة القريبة من الجملة السابقة الشاملة لمجموع المستوطنات الخمس، لا تنطبق على أرَمْبيس بصفة خاصة، وإنما على المجموعة التي أرمبيس جزء منها. ولكن صيغة أخرى، تبدو ممكنة أيضا. وهي التي تجعل تعبير εχειθεν ليس ظرفا للمكان بل ظرفاً للزمان، فيكون معناه «بعد أن... وليس من هناك. وفي الظروف الراهنة وفي كل الأحوال إذا كان بشمال رأس كنتان يجب دائما أن نبحث على ليكسوسِ الفصلِ السادس، وعلى المستوطنات الخمس المقصودة في الفصل السابق، فإننا لن نستطيع

أبدا في بحوثنا التي أصبحت مجردة عن أي إشارة جغرافية، إلاّ أن نعود إلى أسماء الأمكنة Toponymie وإلى تقاليد الاستيطان الفينيقي.

وعلى ما يبدو فإن أسماء الأماكن تمكّننا سريعا من أن نتعرف دون الوقوع في أخطاء كبيرة على أكرا Akra وگوطي Gutté.

إن أكْرا لفظ يعادل في الإغريقية اللفظ السامي «روس» (Rus) الذي يدخل في تكوين عدة موانئ إفريقية، ومعناه الرأس Cap الذي تجثم خلفه هذه الموانئ. ولكن حسب علمنا لا يوجد بين رأس كنتان ومضيق جبل طارق، إلا مركز بونيقي واحد يبتدئ اسمه بكلمة روس، إنه روسِبيس Rusibis وهو اليوم مدينة الجديدة (مازيغَنْ، Mazagan). ولاشك أن أكْرا تعبّر على طريقته أو على الأقل تبتدئ اسم روسبيس. أما عن گوطي Gutté، فإن السيد مَرْسي قد حاول أن يوضح : أولاً أنها كانت تقع بمصب وادي سُوس، بمحل فونْتي الحالية. ثانياً أنها تذكرنا، إلى حد الالتباس، بمدينة كوطّي Cotté التي كان الفينيقيون قد أسسوها جنوبي رأس كوطيس Cap Cotès المعروف عند الإغريق باسم أمْبِلوسْيا Ampelusia أي رأس الدوالي، واليوم هو رأس سْبَرْتِل Cap Spartel، الذي ربما يكون أخذ اسمه، على غرار الرأس نفسه، من لفظ ليبي يؤدي معنى «الكروم المعرشة». والتعرف على موقعه لا يستند بالتحديد على شيء، فهو اليوم خارج الموضوع، لكون البحث عن هذا الموقع لم يعد ممكنا إلا قبالة وادي سوس، على الجانب الآخر من رأس سْبَرْتِل. ثم إن تقاربه اللغوي واضح مع ذلك. إن گوطي Gutté حسب رأيي يذكرنا كثيرا بكوطي Cotté التي هي في وثائقنا، إلى حد الاختلاط بها.

ولا يتم التسليم بموقع گوطي Gutté بالضواحي الجنوبية لرأس سْبَرْتل، حتى يدعو بسرعة إلى آخر، هو مِليتا Mélitta. فَمِليتا أو مِليسا

Mélissa بالإغريقية معناه النحلة l'abeille. وبالمغرب مستوطنتان ضربتا النحلة شعارا على عُملتهما، هما : روسَدير Rusaddir (المليلية) التي تستبعد لقيامها على البحر الأبيض المتوسط. ومستوطنة أخرى لم تعرّفنا النقود باسمها، ولكن مكتشفاتنا في العُملة تدعونا لجعلها على الساحل المحيطي، بالقسم الشمالي منه، حيث إن استشهادا لِهيكاتي Hécatée يسوّغ لنا أن نجعل به مِليتا Mélitta، بنصف قرن قبل سفر حنّون، أي في نفس الجهة مع گوطي Gutté. فَمِليتا – مليسا لابد أن نلاقيها بالجوار المباشر لگوطي. وبتصويبَ بسيط، أَجِدُها فعلاً بجوارها في جملة لِپْلين Pline كثيرا ما يقع ذكرها، وهي : «أَول مرتفع على المحيط يسميه الإغريق أمْبْلوسْيا Ampelusia. وهناك خلف أعمدة هرقل كانت قديما مِليسا Mélissa وكوطّي Cotté».

ويبقى أرَمْبيس Arambys ، وكَريكون طيخوس Karicon Teichos، ولا مناص عنها من الالتجاء إلى الافتراضات الواهنة. ونظرا لأن الفينيقيين كانوا يفضلون اختيار مواقعهم على المحيط بمصب الأنهار فيه، فإننا نغرى بأن نفرض أن بين ليكسوس Lixus بمصب وادي اللكوس وروسِبيس Rusibis (الجديدة، Mazagan)، ومصب نهر أناتيس Anatis (أم الربيع)، كانوا قد حلّوا كذلك بمصب نهر سَلا (أبو رقراق)، فأرَمْبيس Arambys يكون معناها بالإغريقية «المتجر» الذي سماه الرومانيون باسم سَلا Sala، أخذاً من اسم بونيقي ظاهر للعيان، ولكنه اتخذ في الليبية اسما آخر. أما ميناء كَريكون طيخوس، فإني أفضّل أن أعود إليه مع الرأي الذي قال به قديما ڤيڤْيان دُسان مَرْتان Vivien de Saint-Martinوتيسّو Tissot، وأخذ به مع نقل خفيف إلى الجنوب، قال به مويلر Mueller. فهي تختلط مع المدينة المتماثلة لفظياً، وهي ميسوكْراس

Musokras التي جعلها بطلمي في إحداثيات 7°.20 - 30°.50، ويجعلها، على ساحل المحيط، بين نهر فوت Fut (وادي تنسيفت) وبين رأس سلويس، وبالموقع الذي تقوم اليوم به مدينة آسفي. وربما سيعارضونني، بأنني هنا أخالف طريقتي بنفسي، لأن كَريكون طيخوس، بهذا قد جُعلت جنوبي سُلويس، لا بالشمال مثل المستوطنات الأربع الأخرى التي بالفصل الخامس، غير أن الاعتراض ضعيف كالمسافة الفاصلة بين آسفي ورأس كَنْتان. ففي سُلويس لم يكن حنّون بعيدا عن الموقع المظنون لكَريكون طيخوس إلا بثلاثين كيلومترا. وإذا كان معه مستوطنون يحطهم بها، فمن قبيل الصواب جدا أن يكون انتهز فرصة إقامته الورعة بمرتفع بوسيدون لأداء هذه المهمة. فيجب منطقيا أن نسلّم أنه لم يكن يريد التنقيص من مجموع عملياته المكملة، ولا أن يعنّي نفسه بجزئيتهم، لذلك وببساطة وسهولة ضمّ كريكون طيخوس لقائمة المستوطنات التي بعد مغادرته لسلويس، توجه إلى الشمال ليزيد في عدد السكان. ولكنني لا أصر على هذه التخمينات، فمهما اعتبرت ممكنة، فليس لها إلا قيمة ثانوية ومحلية، وإني لمستعجل للوصول إلى الحقيقة الكبرى التي كشف للنور كنهاية مسيرة حنّون بليكْسوس (اللكوس). فالشوفيط، بعد أن تحرر من واجبه الأسهل الذي لم يكن يدعوه أي داع لإخفائه، والذي هو عبارة أحيانا عن التأسيس وأحيانا عن توسيع المستوطنات الفينيقية بالمغرب، ذهب إلى أقدمها عهداً وأشدها بأساً أي ليكْسوس، قاصدا مهمته الأشد والأكثر سرية، ليهيء مع اللكسيين Lixites الأصدقاء السفرَ البعيد لبلدان الجنوب، وجعل قرطاجة مسيطرة على سوق الذهب الذي كانوا قد نظّموه فيها منذ عهد بعيد.

البحث عن الذهب وعن قيرني

كتب گوتييه E. F. Gautier يقول : «نعلم جيدا أن الذهب موجود بالسودان وعلى ساحل غينيا». والذهب ترك اسمه لساحل الذهب Gold coast، وذهب سيرليون Serra Leone قد ساوى اسمه «عملة الأنگليز التي لا تزال مستعملة، إن لم تكن في الضرب بدار السكة، فعلى الأقل في الحسابات. فجنيه Guinée الحسابات يساوي شيلنگ Shilling زائدا على الإبرة الستيرلنگ Sterling». ومن أفريقيا الغربية الفرنسية إلى الكونگو Congo، فالذهب منتثر بجميع الأراضي التي تظهر فيها الوعنة Latérite على سطح التضاريس المضغوطة في المنبسط Pénéplaine السوداني. وفيه يحفر الباحثون السّود عن الذهب حتى الغرين الذهبي الذي يغسلونه بعد ذلك بتطريقه. ويتجمع على الخصوص في منطقتين تتصلان بينهما بالقناة البديعة لمنعطف نهر النيجر أي غينيا بالضبط في وادي النيجر ورافده الأيسر نهر بينْوي Beniué، وكذلك البامبوك Bambouk الواقع في هذا «المثلث» العريض الذي يمتد بين نهري البافينگ Bafing والفَليمي Falémé. ورأس المثلث يقع في كايْس Kayes حيث المجاري السريعة والشلالات تكوّن حداً «للإبحار بنهر السينغال».

ولم يقع غير ذلك أبدا. فميدان الاستكشاف الذي جرى بالقسم الثاني من رحلة حنّون، منذ دخول الأسطول القرطاجي مياه السينغال، إلى آخر موقف له في قاصية خليج غينيا، يتطابق تطابقا تاما مع (ساحل الذهب La Côte de l'Or). فكان هدفا للبحث عن ثرواته. وهذه

النـتيـجة التي أوحت بها الجغرافيا إلى گـوتْييه E. F. Gautier، ستفرض نفسها علينا نهائيا، عند ما نطمئن إلى الاستمرار بين سينغال الفينيقيين وبين بامْبوك «مستعمرتنا» في دَكار. فنتأكد زيادة على ذلك أن السود ملتقطي الذهب بالسودان لم يغيروا من أعماق التاريخ إلى بداية الأعصر الحديثة طريقتهم البدائية في تجارة التصدير.

تبعاً لرحلة حنّون، فإنـنا نرى الأميرال القـرطاجي الذي انطـلق من قيـرنـي Cerné يدخل المـجرى الشمـالي لنهـر السيـنـغال، في النـهر الصـغير للمَرِنْــوان Marigot des Maringouins، الذي يكون على المحيط مصبا في وقت الفيضان ويصعد معه، «إلى بحيرة تشتمل على ثلاث جزر أكبر من قيرني». وفي أقصى البحيرة (بإبحار يوم) من الأخيرة من بينهن «كانت تشرف عليها مرتـفعات كبيرة» أي، وعلى ما يبدو، وكما شاهد ذلك من قـبل ڤيـڤْيان دُسان مَرْتان Vivien de Saint-Martin، هي بحيرة گِيّير Guier التي بها عدة جزر، وتحدها وتشرف عليها جبال مهمة من ناحية الشرق. وبعد ذلك عاد حنّون على عقبيه، واتجه مبحرا نحو الجنوب، ودخل في «نهر آخر» أي في مجرى السينغال الذي هو «ساعد نهر سان لْوي». والمخطوطات تسمي أول هذين المجريين باسم كريتيس Chrétès، (كذا). وهـو يثير المشاكل. إذ الناشرون يصلـحونه باسم كريميتس Chrémétès، قياسا على التسمية الإغريقية لنهر دَرات Darat كما في أرسْطو. والإصلاح في حد ذاته ممكن الاحتمال، لأن النهر الذي يسقي أراضي الذهب يستحق نفس الوصف بأنه (مُرْبح lucratif)، لأن الهيلينيين Hellènes أطلقوه ربما على النهر الذي كان ينزل من «جبل الفضة». ولكن هذا النهر ليس ضروريا، إذ يحتمل جدا أن ذكر كريتيس، الذي لا يوجد في المخطوطة الأصلية قد أقحمه بعد ذلك في هذه النسخ شارح عِلْمُه بالموضوع قليل.

أما المجرى الثاني لنهر السينغال فقد ذُكر من غير بيان آخر في الرحلة، إما لأن حنّون نسي أن يذكر اسمه، وإما لأن ناسخي الصيغة الإغريقية من نصه قد تركوه. ولكن الوصف الذي أعطي لنا عنه، بأنه «كبير وواسع، ومملوء بالتماسيح وأفراس النهر»، يفرض علينا التسليم بأنه هو نهر «البامْبوتوم Bambotum ذو التماسيح وأفراس النهر» الذي أورد ذكره پْلين Pline، وأحله بموقعه بين أثيوبيي دَرات وبين سلسلة الجبال التي تصعد لقمة ثيون أوخيما Theôn Ochèma أي الكامِرون، ربما حسب أگريبا Agrippa، أَو على الأكثر ربما حسب پوليب Polybe، وبدون شك حسب كاتب قرأ ترجمة رحلة حنّون التي وصلت إلينا نحن. وبوشار Bochart، كما ذكر اگْصيل ذلك، كان قد قارب بذكاء بين اسم البامْبوتوم وبين اللفظ العبراني بهيموت Behemoth الذي يظهر أنه يعني فَرس النهر. وبدوره فإن گوتيه E.F.Gautier قد قارب بكثير من الذكاء أيضا بين الإسم القديم بامْبوتوم Bambotum وبين الإسم الحديث بامْبوك Bambouk أي المنطقة التي اعتبرها الإخباريون العرب على أنها أرض الذهب بامتياز، وبقيت على نفس الحال حتى يومنا هذا. غير أن هاتين المقاربتين لا تمنعان من التسليم، إذا تذكرنا أن سود إمبراطورية مالي قبل اعتناقهم الإسلام في بداية القرن الرابع عشر على يد سيّدهم مَنْسا موسى Mança Moussa، قد كان البامْبوك تابعاً لهم، وأنهم أعطوا لبعض عشائرهم فَرس النهر طوطماً Totem، وأنهم سموا أنفسهم باسم جنس جمعي هو مالي Mali، ومعنَاه فرس النهر في لهجتهم. وهكذا، فمن بامْبوك إلى بامْبوتوم، ومن بامْبوتوم إلى بهيموت فإن سلسلة متتابعة من التقاليد الشفوية تربط إلْدُرادو Eldorado السودان بالأعصر القديمة التي وصلت إليه فيها سفن البونيقيين. وإلى هذه السفن يجب كذلك أن نرجع، وإلى أصل المنهاج التجاري الذي استخدمه السّود طيلة قرون ليبيعوا شذراتهم وتبرهم من الذهب للمتاجرين بأفريقيا الشمالية.

لقد خلّف لنا ياقوت الحمَوي، الإخباري العربي المتوفى في 1229م، قصة عن معاملاتهم مفيدةً جدا بسذاجتها الجذابة. قال : «إن السود في بلدان الذهب كانوا يخشون المثول أمام التجار البيض. فكانوا لا يأتون أمامهم، ولكن عندما يسمعون صوت الطبل يخرجون من مخابئهم وينتظرون دون حركة على بعض المسافة. فيكشف التجار عن بضاعتهم، ثم يبتعدون، فيقترب السود وإذ ذاك يضعون قدرا من التِّبر يُحدد بالنسبة لأهمية السلعة المعروضة، ثم يتراجعون. فيعود التجار ويأخذ كل واحد منهم ما يجده بجانب كومة بضاعته. – وبعد ذلك – يتولون وهم يضربون الطبول إعلاما بذهابهم بعد أن حملوا الذهب وتركوا البضاعة)[12].

وكان گوتيه E.F.Gautier قد استقى هذه الرواية من مونْتِيْ Monteil، فقارنها أولاً (بفصل مَنّسيّ من حكاية السندباد البحري). ثم تنبه فقابلها بنص هيرودوت الذي نبهه الكْصيل إلى قيمته. وهو هذا : «القرطاجيون يحكمون أيضا مالي : يوجد خارج أعمدة هيركليس بلد من ليبيا يسكنه قوم يذهبون عندهم. فينزلون بضاعتهم ويعرضونها بانتظام على الساحل، ثم يعودون إلى سفنهم ويطلقون الدخان ليعلموا الأهالي. وعندما يرون الدخان يقتربون من البحر، ويضعون بجانب البضائع الذهب الذي يعرضونه بدلاً، ثم يتراجعون. فينزل القرطاجيون من جديد إلى الأرض، ويبحثون فيما وضعوه. فإن رأوا أن كمية الذهب تعادل قيمة البضائع فإنهم يحملونها ويبحرون، وإلا فإنهم يعودون لسفنهم وينتظرون، فيعود الأهالي بدورهم ويزيدون من الذهب حتى يرضى القرطاجيون. ولا يتعدى جانب على الجانب الآخر. فلا هؤلاء يمدون اليد للذهب قبل أن تكون كمية الذهب الموضوعة متناسبة مع بضائعهم، ولا أولئك تمتد أيديهم إلى البضائع قبل أن يأخذ القرطاجيون الذهب».

وهكذا فالشهادتان إذا تواجهتا فإنهما تبديان تشابها واضحا. بحيث لا يوجد بينهما سوى فارق واحد، هو قرع الطبول الذي يحل في الأول محل ستار الدخان الصاعد من الثاني، كإعلام بقدوم التجار البيض عند جمّاعي الذهب السّود. وهذا الفارق يكفي في ضمان استقلال كل واحد من النصين. وبعد ذلك فأحدهما يتطابق مع الآخر. ولولا معرفتنا بمصدريهما لأمكن أن نظن أنهما من عصر واحد، في حين أن ستة عشر قرنا على الأقل تفصل بينهما. ستة عشر قرنا أثناءها كانت قوافل الجمالين السائرين بالصحراء، قد حلت محل البعثات البحرية لبحاري الأبيض المتوسط، كما أن سيطرة أرض المغارب Maghreb قد انتقلت مرتين من يد لأخرى، لكن خلال هذه المدة التي من ستة عشر قرنا، وبالرغم عن جميع هذه الاضطرابات، فهناك عادة بقيت دون تغير، وهي : «التجارة البكماء»، التي استمرت تتحكم، وبنفس الحذر الشديد، في المعاملات بالذهب السوداني. وعندما ظهر عند هيرودوت المنهاج الذي كان يستعمل بوثوق ودقة تفترضان عادة قديمة، فقد كان لابد من سلسلة متتابعة وغير محددة من التجارب السعيدة لإعطائه هذا الحبور المأنوس وهذا الانتظام الآلي.

إذ أنه، إذا شككنا في كون مخبري هيرودوت Hérodote حدثوه عن سفر حنّون بصفة خاصة، فالأكيد أنهم طالبوه بالنتائج الدائمة عن ذلك، أي عن وضع قرطاجة ليدها على أسواق الذهب بالسواحل الليبية التي يحدها المحيط الأطلسي. وهيرودوت لم يبيّن لنا مطلقا المواقع الخاصة، وإنما قد علم أنه يوجد في ليبيا، بالخارج، أي فيما وراء أعمدة هرقل ولكنه في نفس الحين كان يعلم بمن له السيادة عليها. إنه لم يعْز العمل والرقابة لا إلى الفينيقيين، ولا إلى الصوريين بل عزا ذلك إلى القرطاجيين. فالقرطاجيون هم الذين ذكر شهادتهم، والقرطاجيون أيضا

هم الذين يجعلهم يقومون بالتعامل مع جمّاعي الذهب. وسيقال إن هذا قليل، ولكنه كاف مع ذلك لتأريخ سفر حنّون ولمعرفة مغزاه العميق.

إن الاستكشاف على المدى البعيد الذي قام به حنّون لسواحل الذهب على الجانب المحيطي لليبيا هو في آن واحد قبل مزاولة النفوذ التجاري الذي يفرض وجوده نصّ المؤرخ الإغريقي، كما أنه متأخر عن استيلاء قرطاجة على السيادة على مضيق جبل طارق، تلك السيادة التي هي نفسها متولدة عن ضم قادس إلى إمبراطوريتها. وبعبارة أخرى إن الرحلة حدثت بين الربع الأول من القرن الخامس ق.م، في العهد الذي فيه كان أهل قادس قد تحرروا من نير طَرْطيسوس Tartessos على يد القرطاجيين، وبين الثلث الأخير من نفس القرن الذي فيه بلغ العلم لهيرودوت. أي إن الرحلة تقع بين 480 و430 ق.م. وبالتالي حول سنة 450، في صدر الحقبة التي حددتُها أنا لها بعد الكثيرين غيري، لأنها تتطابق مع صعود أجيال الماگونيين Magonides للحكم، ومنهم حنّون.

وفي الحين، إن رحلة حنّون المنقولة إلى هذه الحقبة من التاريخ تحمل طبيعتها الحقيقية، التي هي حملة سرية تهدف إلى التمكن من الصوريين الذين بالمغرب، وعلى الخصوص أهل ليكسوس منهم ليدوروا في مدار وطنه، وبمساعدتهم لرفع القوة العددية لمستوطناتهم وازدهار تجارة الذهب التي كانوا قد أقبلوا عليها لحسابهم.

وفوق هذا، ألا يفضي النصّ الإغريقي لرحلة حنّون لشيء آخر لمن يقرأ بين السطور ؟

1)– ففي الفصل الثامن نحن مُخبورون أن حنّون قد أخذ التراجمة من عند اللكْسيين Lixites الأصدقاء وقَصَد معهم قيرني Cerné. وقد

اعترف اگـصيل أن هؤلاء التراجمة قد اختيروا لأنهم كانوا يتـحدثـون لهجة ليبية... ولكنه ما قال بهذا إلاّ سهواً. وواضح فعلا أن القرطاجيين ما كانوا ليتـعبوا في ليكسوس أو في غيرها ليعثروا على رجال قـادرين على متـابعة حديث باللغة الليبية. فقد كانت لغة رعاياهم بإفريقـيا. وأياً ما كان تنوع اللهجات فـإنهم كانوا متـعودين عليها منذ أجيـال. وفوق ذلك ففي الفصل الحادي عشـر يعترف حنّون أنه عندما وصل أمام الرأس الأخضر Cap Vert فوجئ فيه بـأثيوبيين، أي بسود يستعملون لغة غير مفهومة عند اللكْسيين. فهل لهذا من معنى سوى أن اللكسيين قد أعطوا لحنّون اختصاصيين في لهجات بلدان السود التي بسبب الذهب كانوا قد دخلوا في علاقات معها قبله هو، ولكن خارج هذه البلدان تعطل علمهم ؟

2)– بمجرد ما حصل على هؤلاء التراجمة اللكسيين ذهب حنّون قواما صحبتهم إلى قيرني، أو على الأصح إلى جزيرة صغيرة نجهل الإسم الذي كانت تحمله آنذاك، وفيها أنزل لآخر مرة المستوطنين، وفرض لها اسم قيرني Cerné تبعا لاشك لاسم سامي سنعود إليه. وقد أنكر اگْصيل التمييز المعمول به فعلا عند الهيلينيين، أنكره بحجة أنه بالغ الدقة. وأنا قد قلتُ به سابقا، أي التمييز بين الفعل الدال على الإنشاء من العدم لمستوطنة جديدة – والفعل الدال على التقوية بزيادات في سكان مستوطنة قديمة. ولم يذكر مطلقا أي سبب آخر لامتناعه سوى تطبيق التقوية لقيرني، أي هذه المستوطنة المبعدة كثيرا إلى الجنوب «إلى مكان لاشك أن رفقاء حنّون لم يسبقهم غيرهم إليه». ولكننا لا يحق لنا مطلقا أن نغيّر معنى الألفاظ لتصويب النص على فرضياتنا. بل يحسن تغيير افتراضاتنا حسب الألفاظ الموجودة في النصوص. ومن

تلك التي في رحلة حنّون إذا أخذناها بمعناها الاعتيادي، يظهر لأول وهلة أن الأميرال القرطاجي قد اقتاده اللكسيون لهذه الجزيرة، وأنه ترك بها مستوطنين بعدد يفوق الذين سبق له أن أحلهم بها منهمكين في تجارتهم. وأخيرا فإنه لم يغضب من فرض لفظ من اختياره لمنشأتهم القديمة، ومن إيضاح ظروفها الجديدة، وأن يؤكد بهذه الصفة سيطرته على تجارة الذهب التي أسستها الجزيرة لفائدة ليكسوس وأصبحت من ذلك الوقت المركز الأول تحت سيطرة قرطاجة.

لستُ أخفي على نفسي أن هذا الدور المعزو لقيرني قد وقع إنكاره. واگصيل فعلا قد فرضه. وقد كتب : إنه لم يتأكد أن قيرني قد كانت سوقا للذهب، حتى بعد حنّون. «وبْسودو سيلَكْس لم يقل عن ذلك شيئا، والكاتب الوحيد الذي يمكن الاحتجاج به هو باليفاتوس Palaiphatos، وهو ذو قيمة هزيلة». ومهما كانت حجج اگصيل قد ذكرت باختصار كبير، فإنها كالعادة تستحق الاعتبار، ولا يمكن الاستمرار على الرأي الذي تناقضه تلك الحجج إلا إذا سبق أن نحّيت تلك الحجج، واحدة بعد الأخرى.

قبل كل شيء، لنفرض أنه لا توجد وثيقة قديمة تكون قد عزت الدور التجاري الذي أراه أنا لهذه الجزيرة الصغيرة التي يبحث عنها الجميع غير متأكدين باكتشافها، ومع أن أحدا لم يبحث في شمال الساقية الحمراء، فإني أصر على التفكير في أن وجود مستوطنة قرطاجية بعيدة جدا عن القواعد البونيقية الأخرى بالمغرب، لا يمكن تبريره إلا بوجود مصلحة قوية، وداعٍ لا يقاوم كوجود المعدن الأصفر.

ثم إن سكوت بْسودو سيلَكْس على الذهب لا يوحي إليَّ بنفس التأملات كما لِگْصيل. ولنعد إلى قراءة التعليق الذي كتبه هذا القارئ

للرحلة عن قيرني بعد مرور أكثر من مائة عام على رحلة حنّون. قال : «أما عن البلاد التي فيما وراء قيرني فلا يمكن الوصول إليها بسبب المضاحل والوحل والطحالب التي لها سعة سعف النخل. إنها دقيقة من أعلاها وهي تلسع، والتجار [الذين يأتون إلى قيرني] هم فينيقيون. وعندما يأتون إلى قيرني، فإنهم يربطون سفنهم المستديرة ويقيمون بالجزيرة خياما، وينزلون حمولتهم وينقلونها إلى اليابسة على قوارب صغيرة. ويوجد هناك أثيوبيون يجرون معهم المبادلات، ويبادلونهم بضاعتهم بجلود الأيائل والأسود والفهود وبجلود الأفيال أو نيوبها، وبجلود الحيوانات الأليفة. وكان الأثيوبيون يتزينون بالوشم ويشربون في أوعية من العاج وتتحلى نساؤهم بقلائد من العاج، وحتى خيولهم فلها حليات من العاج. والإثيوبيون هم أكبر الناس أجساما ممن عرفنا، بحيث تتجاوز قاماتهم أربع أذرع، وبعضهم يصل حتى لخمس أذرع. وهم أجمل الناس... ومَلِكهم هو أكبرهم جسما، يتقنون الفروسية ويرمون بالحربة والسهم، ويستعملون كذلك الحراب المقوات بالنار. والتجار الفينيقيون يحملون إليهم المرهم والحجرة المصرية[13]، والخزف الأتيكي d'Attique والأواني. وهذه الفخاريات كانت تباع في «أعياد الكونج Conges». والأثيوبيون يأكلون اللحم ويشربون الحليب. ويصنعون كثيرا من الخمر من دواليهم التي يصدرها الفينيقيون. ولهم كذلك مدينة كبيرة تذهب إليها سفن التجار الفينيقيين. ويدّعي البعض من الناس أن هؤلاء الأثيوبيين ينتشرون من هنا حتى مصر من غير انقطاع».

هذا الفصل الملون يمزج بصفة عجيبة الزائف بالحقيقي إلى حد أنه يستحيل أن يكون قد كتب إلا بإملاء واحد من هؤلاء البونيقيين، الذين كان الوصول إلى قيرني مخصوصا بهم، والذين على غرار حنّون فيما مضى كانوا يتخبطون بين حب التفاخر للأجنبي بجرأتهم في البحارة،

وبين خشية إثارة المزاحمين. ولم يكن إلا القرطاجي قادرا على أن يرسم لنا الشكلية الحقيقية لقيرني، لهذه المدينة المكونة من الخيام، هذا السلّم للثروة المنصوب في أقاصي المحيط، فيها لا تتنبه الحياة حقيقة من جديد إلا مع العودة المؤقتة «للسفن المستديرة»، والتي اختفت من الأرض التي كانت تقيم عليها دون أن تخلف بها أثرا. ولم يكن هناك أيضا سوى قرطاجي يمكن أن يوحي بتلويح إلى طريقة المعاملات التي بيّنها لنا هيرودوت بوضوح تام. إذ، مع أنها ذكرت بإجمال في ما حكاه بْسودو سيلَكْس، فإن خطوات المبادلة البكماء نجدها عنده في مرات الذهاب والرجوع للمراكب البونيقية الصغيرة بين الجزيرة والساحل المجاور. وأخيرا لم يكن على الخصوص سوى قرطاجي لتخلّط هكذا وبتوازن الأكاذيب والحقيقة، ولجعلها جميعا تتضافر لإثارة فضول القراء، وإبعادهم عن ترضية فضولهم. إنه يصرفهم عن التفكير في مجاوزة قيرني Cerné بتفضله بتعديد العراقل الخطيرة التي، على قوله، تملأ المحيط الأطلسي فيما وراء هذه الجزيرة العجيبة، وينتزع منهم إرادة الذهاب للرؤية، باللمسات المتعددة التي رسم بها الوجه الخيال للأثيوبيين الذين يحيطون بالجزيرة. فهم كثيرو العدد يمكن أن يضموا في مملكتهم داخلية أفريقيا كلها، وعلى جانب من الحضارة، لأنهم ابتنوا مدنا كبيرة مليئة بخيرات هذه الدنيا، وهم على استعداد للدفاع عنها ضد أي توغل، وذلك بقاماتهم التي لها مِتْران طولاً وبخفة خيالتهم وقوة أسلحتهم.

لكن إذا كان مخبرو بْسودو سيلَكْس البونيقيون لم يخشوا تخيل هذه الجزئيات البعيدة عن الصواب، بما معها من تخطيط سري لإبعاد محاولات البحارة الإغريق عن قيرني، فقد كان بالأحرى يجب عليهم أن يخففوا – في روايتهم الجادة – من البريق الذي يشعّ أمام أعينهم من هذا المتجر في الذهب. فكانوا ملزمين أن يسكتوا عن المادة التي هي

أثمن المواد، وكانت السبب في وجود هذه المنشأة. وفعلا، فإن بحث جُمَل «رحلة سيلَكْس»، التي رتبت بها البضائع التي يفرض أنها لمبادلات قيرني، يؤكد لنا أنهم لم يخطئوا مطلقا. فالخداع يبدو من خلال جردهم المتكرر. فمثلا: من يصدق أن الدالية ازدهرت قديما في الصحراء إلى حد أنها تغذي تجارة التصدير؟ من تبلغ به السذاجة إلى حد التسليم بأن القرطاجيين تحملوا المخاطر بدون جدوى في الذهاب إلى أقصى الدنيا للتزود من جلود النمور أو بنيوب الفيلة، بينما الأفيال والنمور كانت كثيرة على أبوابهم ؟ بينما بعد أربعة قرون من بْسودو سيلَكْس كانت أفريقيا الشمالية تزود بالحيوانات الضارية التي عرفت باسم الأفريقيات Africanae الملاعب الرومانية ؟ والتي في عهد پْلين كانت أحواز نهر الملوية، كأحواز سَلا (الرباط) مليئة بقطعان الفيول ؟ إن هذه الاستكشافات الجميلة قد تجاوزت الحد حقا وفضحت التناسي المقصود الذي شاء به أصحابه الإخفاء.

وأياً ما كان في الحقيقة الموقع الذي يعزى إلى قيرني بين مصب الساقية الحمراء شمالا وجَوْن أرگين Arguin جنوبا، فهما النقطتان اللتان تحير بينهما حتى الآن اختيار العلماء، فلا يمكن إسكان الفيول به، لأن هذه الحيوانات لا تروقها الصحراء التي تقابل الموقع. إنها تطلب الحرارة البليلة التي تجدها في بعض جهات أرض المغارب، وتجدها دائما في أفريقيا الاستوائية. والسود الذين كانوا يترددون على قيرني، حسب سيلكس، وكانوا على قوله يزينون أبدانهم بالحلى الذهبية، وأبدان نسائهم وحتى خيولهم، لا يمكن إذن أن يأتوا من السودان. إذن فسنعترف أن القرطاجيين كانوا يجتذبونهم إلى قيرني، لا ليأخذوا منهم العاج الذي بمستطاعهم أن ينالوه من أرضهم، بل لينالوا الذهب الذي لا يستطيعون التزود منه بكثرة في ليبيا إلا من عند جامعيه بالسينغال

والنيجر. وليتحمل بْسودو سيلَكْس خطأه، بإصراره على ذكر سود ساحل العاج. فهو يسير بنا دون شعور لنفكر في جيرانهم أهل ساحل الذهب Côte de l'or. ومن غير أن يشعر فإن الثرثرات التي حدثه بها البونيقيون تدل على الحقيقة التي يسترها سكوته. وذَهَبُ قيرني يتلألأ رغم الخدع التي أمّل مرشدوه أن يخدعوه بها.

وأخيرا، فإن اگصيل أكيدا قد ارتكب خطأ مزدوجا. وذلك أولاً حينما أنكر أن القدماء باستثناء باليفاتوس Palaiphatos لم يسمعوا أبدا بالكلام عن الذهب في قيرني، وثانياً إذ اعتبر باليفاتوس كشاهد يستحق الإهمال.

ولنعد في البداية إلى هيرودوت، للفصل من كتابه الرابع الذي يسبق مباشرة الفصل الذي به عملية المبادلة البكماء وقد وقع تحليلها بدقة. فهنا أيضا يقف خلف سلطة القرطاجيين، وينطقهم بما يلي :

«يقول القرطاجيون إنه توجد في ناحية الجيزنتيّين Gyzantes جزيرة اسمها قيرونيس Cyraunis طولها يبلغ 200 غلوة Stades ولكنها ضيقة ويوصل إليها من القارة على الأقدام. وهي مليئة بأشجار الزيتون والدالية. ويضيفون أن بهذه الجزيرة بحيرة من الوحل تستخرج منه الفتيات الأهْليات شذرات الذهب بواسطة ريشات الطير المطلية بالقَطِران. ولا أَدري هل هذا حقيقي، وأذكر ما قيل».

إن اگْصيل، وهو منطقي مع نفسه، لا يذكر سوى بالسخرية ملاحظة مونْگو بارك Mungo-Park الذي قال إن بعض النساء السود بأفريقيا الغربية كن يخفين ذخائرهن من الذهب في أنابيب من الريش. ويرمي، كخرافة إلى الرياح، بإشارة هيرودوت لجمع الذهب في قيرونيس Cyraunis. ومن فصل المؤرخ الأغريقي يميل لأن لا يحتفظ إلا بلفظ

قيرونيس، ويجعله لجزيرة في تخوم تْريبوليتانيا Tripolitania وتونس. وبالفعل، ففي هيرودوت، أن الحكاية الغريبة عن جامعي الذهب في قيرونيس تقع في أرض الجيزنتيين Gyzantes، وهم – أنفسهم – يجاورون المكسي Maxyes، غربي بحيرة تريتون Triton، الواقعة على ما يحتمل في سدرة الصغرى. وفوق ذلك، توجد دائما في هذه الأحواز جزيرة كرْكَنّة Kerkenna، التي اسمها اللاتاني كَرْكينة Cercina يشبه كثيرا اسم قيرونيس Cyraunis ليشتق منه. وأخيرا فالمقاييس التي أعطاها لها هيرودوت أي 200 غلوة Stades التي تعطي رقما محددا هو 35 كيلومترا، يتطابق ليس فحسب مع الرقم الذي يمكننا اليوم أن نقيسه في خريطة كركنة Kerkenna، بل إلى رقم 25 ميلا التي حددها پْلين الكبير لطول كركينة Cercina. بحيث إنه لا داعي حسب رأي اگصيل، لتنحية التعرف الذي يتطابق تماما مع الحقيقة.

لذلك لن أرفضها. ولكن أصرّ على حذري من القرطاجيين ومن أقوالهم المتهمة، وأميل إلى الاعتقاد بأنهم زيفوا معلوماتهم مرة أخرى، وأنهم باحتيال قد نقلوا إلى السدرتَيْن، إلى الشبيهة في الإسم تقريبا، أي إلى قيرني المحيطِ، الخاصيات التي لا تليق إلا بهذه. نعم، إذا صح أننا لم نخطئ في موقع بحيرة تْريتون، فقيرونيس تقع في مكان كَرْكَنّة الكبيرة، ولها هيأتها. ولكن هذا وحسب. فهي ليست كجزيرة جَرْبة تخاض حين الجَزْر. وليس بها مغارس الكروم، وصحيح أن بالشمال توجد فيها سبخة قد يسوغ لنا أن نرى فيها بُحيرة الوحل التي ذكرها هيرودوت، ولكن تكوينها الكلكيري يمنع لجميع العصور إمكان استخراج شذرات الذهب منها. فالدوالي والذهب ملك للأثيوبيين الذين بجنوب ليبيا، والذين تحدث لنا عنهم هيرودوت في كتابه الثالث، بألفاظ ردد أكثرها بْسودو سيلَكْس، بالتأكيد عن المصدر البونيقي.

وإذا تذكرنا، فهذا الأخير حَصَرَ لِقيرْني التي تجاور الأثيوبيين الإبحار في المحيط. ويظن هيرودوت كذلك أن إثيوبيا هذه، يجب أن يُنظر إليها كقاصية لأرض مسكونة نحو جهة الغرب. وبالنسبة لبْسودو سيلَكْس، فهؤلاء الأثيوبيون، ذوو خلقة بقامات وجمال فائقين. وكذلك عند هيرودوت هؤلاء الأثيوبيون يعرفون بأنهم أكبر وأجمل وجوها من بقية الرجال. عنده كما عند سيلَكْس يتغذون باللحم والحليب. وعن هيرودوت كما عن سيلَكْس «مَنْ كان أطول من غيره منهم، فإنهم يجعلونه مَلِكاً». وليس سوى اختلافين بين المؤرخ والبحّار اللذين يكمل أحدهما الآخر إلى حد ما. فبْسودو سيلَكْس يعلم أين هي قيرْني تجاه هؤلاء الأثيوبيين، ولكن إذا لذّ له أن يعدد حلياتهم من العاج، فإنه يجهل ثروتهم في الذهب. بينما هيرودوت على العكس منه، يعلم أن منطقة هؤلاء الأثيوبيين تنتج مع الأفيال التي لها جسامة عجيبة، مقادير كبيرة من الذهب، ولكنه يجهل قيرني Cerné ولا يَصِفُ ولا يَعْرِف إلاّ موقعَ قيرونيس Cyraunis. فكل شيء، يجري كما لو أن القرطاجيين، على مسافة قرن من الزمان، الذين عنهم تصدر هذه البيانات المتشاكلة، قد سهروا دائما ليس على تزييف الحقيقة التي كانوا يعرفونها وحدهم، بل إنهم أيضا حينما يرضون أن لا يكذبوا، كانوا يُخْفون عن الأجانب الذين يسألونهم واحداً من العناصر الأساسية للحقيقة : فللواحد إن الذهب أخفاه العاج، وللآخر قيروني تحولت إلى قيرونيس. وعندما يبينون أمام هيرودوت المبادلة البكماء في الذهب، فهم يتحفظون جيدا من تعريفه بالمكان الذي يجري فيه العمل. وخشية أن يجد في اكتشافه، وأن يحاول مواطنوه الذهاب إليه، فإنهم يدسون في الصفحة المجاورة خبر أنه كان يقع في القاصية الأخرى لأفريقيا، قريبا جدا من عاصمتهم. ولكن بالرغم عن مَقدرة اكْصيل فيظهر لي – كما ظهر من قبل لإدْوارد مير E. Meyer – أن قيرونيس

Cyraunis التي يقول بها هيرودوت لا تعطينا سوى صورة متركّبة أو متراكبة في إطار منقول فيه الإسمُ والذهب وحتى عادات قيرْني الحقيقية.

أضف لذلك البرهان بأننا لا يمكن أن ننسق على غير هذا، ولا أن نفهم الفصلين 195 و196 من الكتاب الرابع من هيرودوت، فهو برهان واقع حسب رأيي في شروح أوسْتاشْ Eustache على البريجيز La Périégèse لدونيس Denys. لأن أبيات هذا الأخير أحصت في القرن الأول للميلاد عشائر ليبيا الداخلية بجنوب مصر وقورينة Cyrène[14]. وبعد ذلك ذكروا الجيتوليين Gétules وجيرانهم النِّگْريتيّين Nigrites، ثم يأتي ذكر الفاروسيّين Pharusiens الذين من خلفهم تسكن مجموعة الگَرامَنْطيّين Garamantes. «وفي الماَوي التي تليهم يعيش الأثيوبيون في أقصى القارة الإفريقية لغاية الموقع الذي يتصل فيه بالمحيط في مقابلة قيرْني الناعمة في نهاية العالم».

وإليك أهم التعاليق التي علّق بها أوسْتاش Eustache على هذا البيت الأخير، قال : «قيرْني هي عند البعض جزيرة في المحيط، وهي لا عند آخرين. وهي موضوع خلاف بين من يجعلونها بالمشرق، مثل ليكوفون Lycophon، أو بالغرب، أو مثل دونيس Denys في الجنوب. على أن ليكوفون في فقرة أخرى ذكر فيها جزيرة قيرنياتس Cerneatis التي يظهر أنها ما سميت هكذا إلا مماثلة مع قيرني، يوحي بلفظ خفي بوجود لقيرني Cerné غربية فيما وراء ترْهينيا Tyrrhénie.

ويضيف أوسْتاش قائلا : «أما الأثيوبيون، فهيرودوت حكى لنا أنهم أكبر أجساما وأجمل جميع الناس. وأنهم يأكلون اللحم المطبوخ ويشربون الحليب، وأن الذهب عندهم كثير». فأوسْتاش فَهِم إذن هيرودوت كما أميل أنا إلى تفسيره. وتلقائيا فإنه رَأَب، فيما يتعلق

بقيـرني والأثـيوبيين المحيطين بها، التـقليدَ الذي كسره القرطاجيون عنوة، والذي تتجمع أعضاؤه المتناثرة خلال الكتابين الثالث والرابع من هيرودوت، وفي الفصل 112 من بْسودو سيلَكْس. وطبعا فإنني أوافق أوستاش على حصافته. ولكن حتى لو أنه أخطأ، وكان خطأه المزعوم متولدا عن معلوماته، أو عن أوهامه، فإنه يمنعنا أيضا من أن ندّعي مع اكْصيل أن باليفاتوس Palaiphatos في الأعصر القديمة كلها كان وحده الذي حلم بالذهب في قيرني.

وعلاوة على ذلك، فلا يمكن كذلك أن نَـردَ شهادةَ باليـفاتوس بأنها تـافهة أو مشبوهة. فالنص الذي تحت أيدينا باسم هذا التلميذ لأرسطو، ليس إلا ملخّصاً متأخرا في الزمان عن مقاله (Περι απιστων). وإن مؤلـفه بالتـأكيد في الحالة التي وصل عليها لنا ليس إلا خليطا مشوشا وتطبيـقا تافها للمذهب الإفيميري Evhémérisme ذي الأساطير التي تجمعت فيه[15]. ولكن تفاهة أو عدم الصحة للحكايات القداسية Hagiographiques، لا يصح أن تنال من قوة معلوماته الطبوغرافية التي نثرت بها عن غير قصد. فلا الحكاية التافهة التي يؤلفها باليفاتوس من أسطورة، ولا التأويلات المزرية التي يقترحها، تَسِم بالخطإ البيانات الدقيقة في الجغرافيا التي يربطها بها. وإنني لا أفكر مطلقا في مسامحته على الترهات التي احتج بها باليفاتوس عندما صيّر أسطورة فُرْكيس Phorkys، والـگُـرْگـونات Gorgones وبيرْصي Persée إلى قصة سرقةٍ جرت على حساب ثلاث بنات يتيمات، مخادعات وغادرات وغير محميات. وأوافق أيضا على أنه قد تجاوز حدود السذاجة لما أثبت في بعض جهات من الأرض الليبية تطور حكاية وهمية تماما. ولا يلزم من ذلك أنه لما أدمج قيرني في ميرات ميدوزة [16]، قد أخطأ إذ أكد أن قيرني يوجد بها أثيوبيون، وأن هؤلاء كان ثراؤهم من الذهب عظيما. بل

على العكس، فبقدر ما تشددنا في الحكم على الصيغة التي بها خالف جميع كتاب الأساطير عندما بعث بيرْصي إلى قيرْني، بقدر ما يجب اعتبار الجغرافيا التي يرجع إليها وحدها جليا ضلاله هذا. في الحقيقة إنها كنوز قيرْني، وليس إلا هي التي بسبب الأطماع وبسبب الأحلام التي تثيرها في زمانها، دفعت باليفاتوس إلى مخالفة التقاليد الأخرى، وتوجيه الزورق الصغير لبرصي Persée إلى قيرني.

وفوق ذلك كان باليفاتوس يستوثق من الوثائق بعناية واضحة. فمثلا حين كنّا مع إرَتوسْتين Eratosthène، وإيفور Ephore وبْسودو سيلَكْس وغيرهم من الكتّاب المتأخرين، لا نتلقى إلا صدى غير مباشر ومغايراً إلى حد ما للترجمة الأغريقية لرحلة حنّون، فإن الأكيد هو أن باليفاتوس قد أمسكها بيديه. بل إنه في بعض الأمكنة على الأقل قد نقل منها لفظيا. ولنرجع لرحلة حنّون في الفصل الثامن، لنرى فيه أن رفقاء الشوفيط Sufète كانوا قد استنتجوا من ظروف سيرهم البحري إلى قيرني أن هذه الجزيرة تقع بالبحر المحيط قبالة قرطاجة. ولنفتح الآن الفصل الواحد والثلاثين XXXI لنقرأ فيه هذه الجملة من باليفاتوس مرسومة، وفي وسطها العلامة المؤسفة للمواقع الضائعة Loci desperati. فالقيرينيون الذين هم أثيوبيون جنسا، يسكنون جزيرة قيرني خارج أعمدة هرقل ويستثمرون «القسم من» ليبيا «الواقع» على طول نهر أنون Annon(?) بقبالة قرطاجة.

إن الألفاظ الأخيرة عند باليفاتوس ترديد لفظي للفقرة المطابقة في الرحلة، وذلك واضح. ولكن الأجمل هو أن باليفاتوس Palaiphatos قد تباهى بذلك، وأن أي واحد لم يرد بعد أن يصغي له. والأكيد هو أن الألفاظ غير مفهومة وتتطلب إصلاحا. ولكن الناشرين، الذين كان لديهم

مجهولا نهر أنون Annon قد شطبوا عليه بجرة قلم. وحينما قرأوا اگصيل، فإنهم مثلما فعل فيستا Festa قد أصلحوا، ولكن في التعليق كما لو أن جرأتهم تخيفهم، أي أصلحوا أنّونا Annona بكملة ليزون Λιξον. والتصحيح لم يصب الهدف. إذ الفقرة الأخيرة من باليفاتوس تؤكد لنا أنّونا Annona. والتصحيح عِوَضَ فرضه على الإسم الشخصي لحنّون يجب إيقاعه على الإسم العامَ الذي يميز هذا الاسم الشخصي : أي في محل بوتمون، يحسن طبعا أن نقرأ إما كلمة بوليمارخون التي يكون معناها معادلا تقريبا لمرتبة شوفيط، لقيادة أميرال، وإما لكلمة بيريبْليون الدالة على الطواف بحراً، ولربما تدل – وهو الأفضل – على اللفظ المضاف، بمعنى في رحلته. وأيا ما كان فإن المعنى واضح : «فالقيرْنيون هم أثيوبيون جنسا، يسكنون بجزيرة قيرني خارج أعمدة هرقل، يستثمرون [القسم من] ليبيا [الواقع] تبعا لحنّون الأميرال، [أو تبعا لحنّون في رحلته] قبالة قرطاجة». وقد وقع باليفاتوس على نسخته بالمطابقة، وصدق توثيقه ليلزمنا باحترام بياناته. وليسْخر من شاء من نظرياته الضيقة والساذجة معا في كتاباته عن الأساطير. ولكن يجب كثيرا تحاشي الزراية بمعلوماته الجغرافية المستقاة من أحسن المصادر بما فيها رحلة حنّون. فلدينا الآن بفضلها معلومات عن قيرني، جزيرة المحيط، التي يتردد عليها السود، والتي هي خارج أعمدة هرقل وتوجد قبالة قرطاجة. فبرغم الاحتياطات العديدة للقرطاجيين، فإن إشراقة للحقيقة ستبدد ظلمات الأكاذيب واللمزات التي لبسوها بها، ونحن من الآن متأكدون أن قيرني Cerné كانت تحتوي بالمحيط على متاجرهم في الذهب.

التعـرّف علـى قيـرْني

ذلك أن هذه النتيجة ستتأكد فحسب بمعرفة الموقع المناسب لهذه الجزيرة الصغيرة. إن القرطاجيين كانوا وحدهم يعرفون موضع قيرني. ونعتقد أنهم لم تكن لهم أية رغبة في أن يجروا إليها الآخرين خلفهم. وكل المعلومات التي تسربت إلينا فمصدرها من رحلتهم. ولكن بإرشاداتهم التقريبية المتمططة، وبالمدى الذي تفتحه لشكوكنا، فهي تعبر من جانب البونيقيين على إرادة راسخة في عدم إخبار المزاحمين بموقع مستوطنة فكانوا بها أشد اعتزازا عن أن لا يذكروها، ولكن بسبب وظيفتها الاستثنائية فإنهم كانوا أشد غيرة في تعلقهم بها كي يبعدوا عنها الزيارات الفضولية. فهنا كما في سواها، قال حنّون الكثير لإرضاء نفسه من غير أن يكذب علينا، كما قال القليل لكيلا يدفع بنا في الحقيقة. وعلينا نحن أن نصل لها رغما عنه بمساعدة النتف التي سمحت قصته بمرورها.

وبداية، فبغض النظر عن أيام الإبحار المذكورة في الرحلة، وكذلك بغض النظر عن المسافات التي يحدث له أن يذكرها باختصار، ففيها من أول الأمر بعض المعطيات، التي إن كانت لم تعط أي فائدة للإغريق الذين لم تكن لهم خرائط، وكانوا يجهلون تشكيل الساحل المحيطي الذي لا نهاية له، فإنها تعطي لبحث المعاصرين توجهه واستدلالاته :

1) إنه يعرف قرْني كجزيرة صغيرة، وليس كشبه جزيرة، لأنه قاس مدارها. ومن ثمّ، وقبل الدخول في مناقشة المعارضات التي وجهوها هم

لأنـفسهم، فالشرّاح قد رُفضت ادّعاءاتـهم سواء في ألمانيا مع فيشر Fischer سنة 1893، ومع روگ Ruge سنة 1894 ، ومع إيلينْـگ Illing سنة 1899، وفي فرنسا مع اگْصيل سنة 1913، ومَرْسي Marcy في 1935 الذين كانوا مبتهجين بأنهم اكتشفوا قيرْني في مصب الساقية الحمراء، حيث لا توجد جزيرة كبيرة ولا صغيرة.

2)– إنه يفترض أنها شديدة القرب من القارة، لأن حنّون كان يساير الساحل عند ما رآها. وبهذا تتنحى الأغلوطات التي لم يذكرها مويلر Mueller في نشرته إلا للذكرى، والتي كانت ترمي إلى التعرف على قيرني بجزيرة ماديرا Madère أو في بورْتوسانْتو Porto Santo أو مع إحدى جُزُر كناريا.

3)– إنه يحدد أن حنّون لم يصل إليها إلا بعد أن سار طوال الصحراء، وكما سنرى، ليس سهلا تحديد الصحراء، التي هي كما كتب عنها شيرْمير Schirmer «ليس لها حدود واضحة بسبب عدم وجود تناقض هناك». ولكن الجميع يحدّونها عند الجنوب في نحو مائة كيلومتر شمالي سانْ لْوي Sant-Louis، كما أنه لم يوجد من يصعد بالحد شمالاً إلى أبعد من رأس نونْ Cap Noune ومصبّ وادي دَرْعة Oued-Draa. فيكون إذن من العبث البحث عن قيرْني شمالي دَرْعة أو بجنوب السهوب التي تتقدم السودان.

4)– يضيف أن قيرْني توجد في عمق خليج.

لكن لا يوجد بين وادي دَرْعة والسودان إلا خليجان بهما جُزُر، وهما جون أرْگين Baie d'Arguin الذي قال به بوگَنْڤيل Bougainville، وجون وادي الذهب Rio de Oro الذي فضّل القولَ به كل من مويلر

Mueller في نشراته لرحلة حنّون ولجغرافية بطليموس Ptolémée، وكذلك ڤيڤْيان دُسان مَرْتان Vivien de Saint-Martin وملْتْزر Meltzer. وإني سأنضمّ لرأيهم، لأسباب مخالفة لأسبابهم، وإن كنتُ أراها لا تعارض.

إن وضعية وشكلية جون وادي الذهب هما في الحقيقة الوحيدان المتطابقان مع الدورات ومع مدة الإبحار التي أوصلت إلى قيرني حنّونَ وأسطولَه. والفصل الثامن من الرحلة يبدأ كما يلي : «بعدما أخذنا التراجمة من اللكسيين، فإننا سايرنا ساحل الصحراء في اتجاه الجنوب مدة يومين ثم في اتجاه شروق الشمس Soleil Levant مدة يوم واحد، وإذ ذاك وجدنا قيرني».

يتفق العلماء المعاصرون، وهم على صواب، في تقدير نحو 120 أو 130 كيلومترا لسرعة النهار، ولنحو 110 أو 115 كيلومترا للسرعة الليلية لسفن القرنين الخامس والرابع ق م. وهذه التقديرات هي التي تخرج فعلا من أرقام هيرودوت ومن أرقام بْسودو سيلَكْس. ولكن، عند أكبر العلماء، فالعلم لا يمكن أن ينفع في شيء، لأنهم أصروا دون حق على نقل نهر ليكسوس إلى دَرات Darat، وإلى إطلاقهم من مصب درْعَة المسيرة البحرية التي انتهت بقيرني. وإذ ذاك فلا يمكنهم جميعا إلا أن يضلوا. فالذين يصرون حقا على حبهم العثور على جزيرة في نهاية بحوثهم كان ابتعاد وادي الذهب (800 كيلومتر من وادي دَرْعة) وبالأحرى ابتعاد جون أرگين (1200 كيلومتر عن درعة) قد ألزمهم بتصحيح الأرقام التي يعتمدون عليها. فمثلا جعلوا رقم 12 (اثني عشر) عوض اليومين المذكورين في السير البحري الذي ذكره نص حنّون. وعلى العكس، فالذين يرفضون – وهم لم يخطئوا – تغيير المعطيات التي

يستند عليها بحثهم، هم مرغمون على أن يقفوا بحثهم بمصب الساقية الحمراء التي لا تبعد مسافتها عن درعة إلا 230 كيلومترا، ولكن لا توجد هناك جزيرة. إلى حد أن كل هذه الحسابات البديعة تعبر عن خطئها إما بوهي أسسها وإما بتفاهة نتائجها. بينما هناك وسيلة بسيطة لتلافي العرقلتين اللتين تحطمت عندهما أقوى البراهين. وذلك بإرجاع تْشمِّشْ Tchemmich إلى مكانها على اللكوس Loukkos، وكذلك اللكسيين الذين تذكرهم رحلة حنّون. وبهذا فإننا فيما سبق قد أعدنا لهؤلاء الفينيقيين الذين بالمغرب، النصيب الذي ينوبهم في رحلة الشوفيط القرطاجي. ونذهب الآن لنزيح عن نهر درعة – الذي لا يعنيه من الأمر شيء – بقية الرحلة التي قام بها حنّون صحبة التراجمة الذين أخذهم من اللكسيين.

وماذا يحكي حنّون ؟ إنه قبل الوصول لقيرني، قد سار بحرا، أولاً نحو الجنوب مسايرة للصحراء مدة يومين، وبعد ذلك «بانعكاس نحو شروق الشمس»، أي نحو الشرق والشمال مدة يوم. إن الشوفيط لم يُخْف شيئا ولم يأت بجديد. لكنه بلباقته المعتادة قد اختار نقطة انطلاق –الصحراء – بحيث إنه جذب انتباه قرائه على جذب مسيرته، كما أشار إلى بسالة رجاله البحارة. ولكنه وقد غرق في المساحات الصحراوية التي لا نهاية لها، قد ترك جميع الناس – وليس من بينهم من يسئ الظن بصدقه – في حيرة تتفق مع منهجه ومع غاياته. غير أن توسعنا في التنقيبات وتقدم صناعة الخرائط قد أحبطا خدعته. فالخرائط عن جنوب المغرب لا تظهر بوضوح، دون تثن أو تراجع في اتجاه مستقيم من الشمال للجنوب، إلا ابتداء من رأس بوجدور Cap Bojador. وفي نظر البحارة، من رأس بوجدور فحسب تتراءى الصحراء. ويبدو لهم رأس جوبي Cap Juby وكأنه «أكمة مكسوة بالعكرش». وأبعد من ذلك، أي من رأس بوجدور الوهمي إلى رأس بوجدور الحقيقي فإن الساحل يبقى

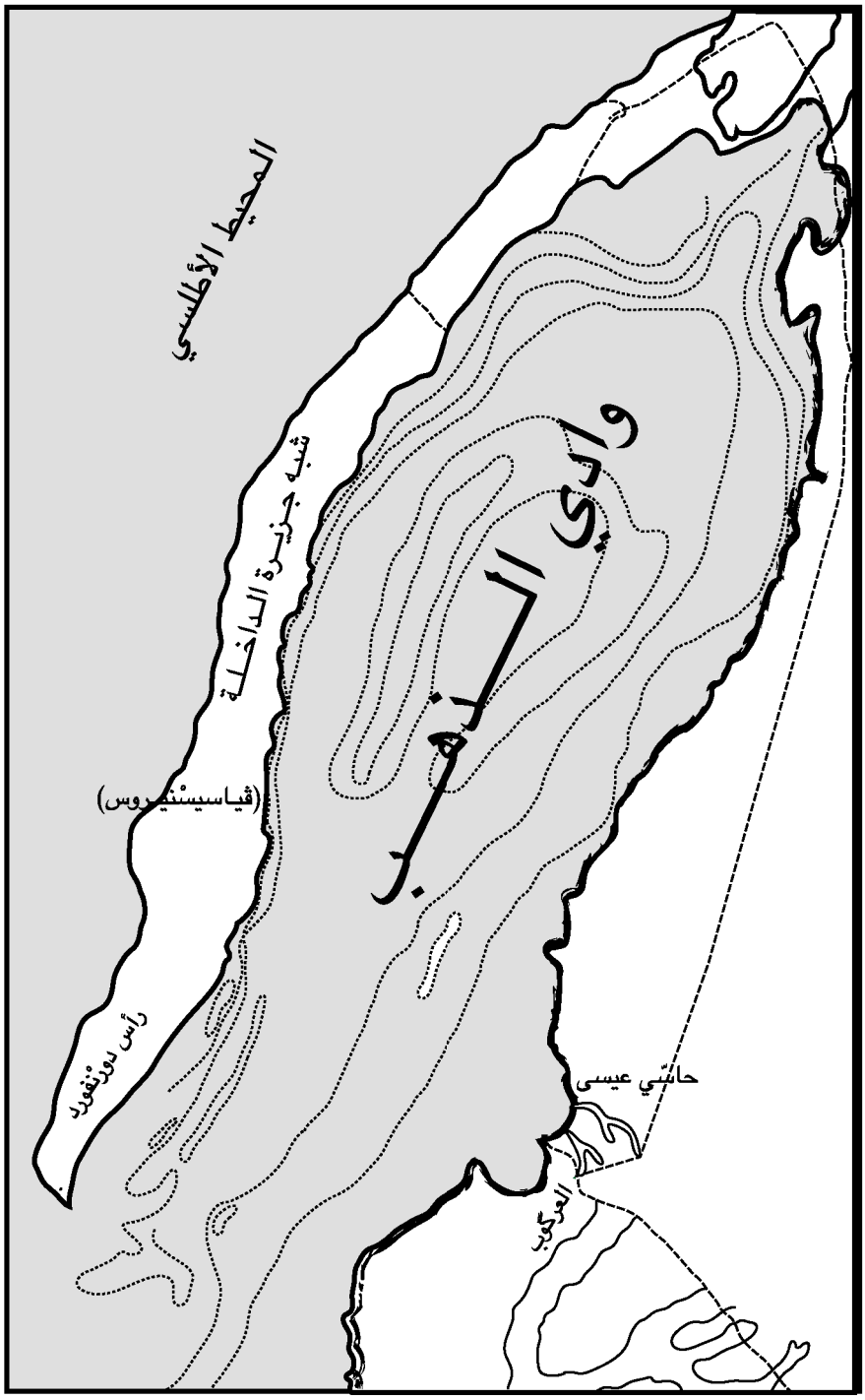

خريطة «ريـو دي أورو» (وادي الذهب 1913)

«ومع تقاطع، مكسواً بالعكرش». وعلى النقيض فإن رأس بوجدور الحقيقي «يبدو بمظهر ركام من الرمل الأحمر»، ومنه تبتدئ تعليماتنا البحرية عن «ساحل الصحراء». وبعده فالأضواء[17] التي تنصب على نحو أربعين كيلومترا جنوبا، وخلفها تظهر الآثار الأخيرة لنباتات بئيسة منتثرة. فليس سوى المهاوي الملتهبة حَراً، والشواطئ الرملية الجهماء. وليس سوى بسائط تضايق باستوائها وتعرض للشمس فراغ وحشتها في بياض. لنتابع قراءة «التعليمات البحرية» Instructions nautiques : على بعد نحو 280 كيلومترا جنوبي رأس بوجدور Cap Bojador تبرز للجنوب، على نحو أربعين كيلومترا أيضا، الساق الدقيقة لشبه جزيرة من أربعة كيلومترات عرضا في قسمها المتسع، و1.800 متر عرضا في قسمها الضيق. وفي نقطة اتصال شبه الجزيرة هذا، الذي يمتد موازيا لساحل القارة، تنتصب صخرة «خيبة الأمل» Rocher de la décepcion، التي سمّاها بهذا الاسم البحّارة الإسبان الذين رأوها من بعيد وحسبوها جزيرة صغيرة، وكان ارتفاعها فوق الرمال المحيطة بها، يكوّن مناراً حسنا للسفن التي في عرض البحر. وبمجرد ما يتعدونها قادمين من الشمال كانوا يرون خلف شبه الجزيرة، ليس فحسب الجون الذي تسدّه غرباً والذي يمتد على 12 كيلومترا عرضا على الأكثر، ويمتد فحسب على 7 كيلومترات بين أشد السواحل قربا، وليس هذا فحسب بل يرون الجزيرة المائدية التي تعلو بعشرين مترا على سطح الماء، وتشرف على القسم الشمالي من الجون. وعلى بعد نحو أربعين كيلومترا جنوبي صخرة «خيبة الأمل» فشبه الجزيرة التي بُنيت بها ڤيلا سيسْنيروس Villa Cisneros (أي مدينة الداخْلة) ينتهي بحدّ دَرْنفورْد Pointe Durnford. وللدخول إلى عُمق الجون، فالسفن لابد لها أن تجوز حدّ دَرْنفورد، وأن تسير بعد ذلك للمشرق وأن تتجه في الختام إلى الشمال

الشرقي وإلى الشمال خلال مضيق مائي عرضه الأولي 900 متر، ثم يتسع شيئا فشيئا، بعمق 3.70 (ثلاثة أمتار وسبعين سنتمترا)، فيمنع الوصول لجل السفن البخارية العصرية، ولكنه كان بالغ الكفاية لكمية مياه سفن حنّون.

فهل أنا وقعتُ في وَهم ؟ لكن قد بدا لي وأنا أتصفح أوراقا من «التعليمات البحرية» Instructions nautiques المخصصة لوادي الذهب، وأراجع الخريطة البحرية 1354 التي توضح تلك الصفحات، أن ظلمات الفصل الثامن من رحلة حنّون تنقشع بقدر ما تتناسق مختلف الجزئيات بسهولة. فيومان من الإبحار في اتجاه الجنوب قد أوصلا القرطاجيين، طوال الصحراء من رأس بوجدور الذي فيه تبتدئ الصحراء، إلى حد درنفورد Pointe Durnford التي بشرقها يتفتح جون (خليج) وادي الذهب، والتي انطلاقا منها غيّر وجهة إبحاره، وصعد مع الممر فوصل في اليوم الثالث للجزيرة التي و جدها في عمق الجون. وحيث أنه يوجد نحو 320 كيلومترا من رأس بوجدور إلى حد دَرْنفورد، ونحو 40 كيلومترا من مدخل الممر المائي إلى الجزيرة وهي في عمق الجون، فيكون قد قطع 360 كيلومترا في ثلاثة أيام، أي بمعدل 120 كيلومترا في اليوم الذي هو نفس العدد لمسيرة عادية. وصحيح أن هذا العدد يتجزأ بصفة غير متساوية : إذ يكون حنّون في اليومين الأولين قد تجاوز بكثير المعدل اليومي، أي 160 كيلومترا عوض 130. واليوم الأخير يكون فيه على العكس قد بلغ الثلث تماما. فيحق لنا أن نعجب من أن هذا البطء من السرعة قد أعقب كل تلك السرعة. غير أن السرعة في البداية تفسر بالرياح النكباء Alizés وبتيار كَنارْيا الذي فيما بين جزر كناريا والرأس الأخضر ينحرف للجنوب أو للجنوب الغربي بسرعة تتراوح من 10 أميال

إلى 35 ميلا، أي (بين 18 كيلومترا ونصف إلى 64 ك و800 متر) في اليوم. أما الإبطاء في الأخير فلا شك أنه أقل مما يبدو إذا كان حنّون قد بلغ الهدف قبل مساء يومه الثالث. ثم إنه يسهل تبريره بعراقل العمليات التي قام بها لمجاوزة حد درنفورد، لتلافي الحاجز الذي يسد الأحواز Barre، وليأخذ دون خطإ الطريق الضيقة للممر المائي الداخلي، وختاما إما بأن يرسي سفنه في المرسى أو أن يجذبها لليابسة على الشواطئ، ثم أن ينزل ليقيم رفقاءه بالجزيرة. وأياً ما كان فإن كلا من التعرفات الأخرى لا تتناسب تناسبا حسنا، مع الظروف العامة للبحرية في العهود العتيقة، ولا مع الظروف الخاصة ببحرية حنّون. فليس في جون أرگين Arguin، إذ أن جزيرة أرگين تحتل المدخل، ولا بالساقية الحمراء حيث لا توجد تراجعات ساحلية ولا جزيرة مثلما في وادي الذهب، إذ هنا يمكن أن نلمس بالأصابع كما يقال أثر عملية الاستدارة التي قام بها حنّون ليتخلى عن الاتجاه نحو الجنوب الذي كان يسير عليه منذ يومين، ويقصد تواً ليس إلى الشرق فحسب، بل بعد ذلك إلى عكس الطريق السابقة، أي إلى الشمال الشرقي والشمال. إن هذه التعابير الواردة في الفصل الثامن تبرز حرفيا تعابير الفقرة من الفصل الرابع، وتدعو حتما إلى تفسير مماثل. فبمجرد ما وقع التعرف عليها بوادي الذهب، فالوصول لقيرني بشمال الجون الذي تحتل عمقه جزيرة صغيرة، يعكس تأكيدا قطعيا لوجهة نظرنا عن الرحلة من رأس كنتان إلى ليكسوس، كما وصفها الفصل الرابع. كما أن وجهة نظرنا هذه تتحقق من التعرف الذي اقترحه علينا الفصل الثامن، والذي يمكن منذ الآن أن نعتبره قد وقعت البرهنة عليه.

وكذلك، مثلما يحدث عادة عندما نحصل على الحقيقة، فإن حججا إضافية تظهر من كل جهة لتقويتها.

فهناك الحجة المنبثقة من البيان الوحيد الذي في نفس الفصل الثامن من رحلة حنّون، وبه سمح لنفسه أن يذكر لنا موقع قيرني، لأنه كان غامضا جدا عن أن يعرّف به، ولأنه لم يظن أن ذلك البيان كان بالتقريب كافيا لتأكيده بعد إثباته. وفي نفس التعابير التي انتسخها باليفاتوس Palaiphatos، فإن حنون قد جعل قيرني قبالة قرطاجة، أي حسب المدّات الزمنية التي تفرضها هذه الرحلات البحرية. فقد اعتبر أن قيرني كانت تقريبا على نفس المسافة من أعمدة هرقل، كما كانت أعمدة هرقل من قرطاجة. وحذراً مِنّي من قياسات تتأثر رغما عنّي بوجهة نظري، فقد طلبتُ من زميلي وصديقي السيد مَرْسيل لَرْنودْ Marcel Larnaude أن يأخذ هو القياسات عوضا عني. وإليك الرسالة التي تفضل ببعثها إليّ في هذا الموضوع : «لقد أجريتُ حسابات على خريطة من 1/5.000.000° للمسافات من قرطاجة إلى قادس Gadix ومن قادس لوادي الذهب. ففي خط مستقيم تعطي قرطاجة – قادس 1600 كيلومتر، ومن قادس – وادي الذهب 1800 كيلومتر. واتّباعا لأهم تثنيات الساحل يجب عدّ 1785كيلومترا من قرطاجة لقادس، ومن قادس لوادي الذهب 1975 كيلومترا». هكذا فالقياسات التي توصل إليها السيد لَرْنودْ Larnaude تكشف فيما يتعلق بالمسافة بين قادس إلى وادي الذهب عن خلاف يزيد بقدر 200 كيلومتر. ولكنه أقل بقدر 400 كيلومتر من القدر الذي سنكون معرَّضين له إذا دفعنا قيرني حتى جون أرگين، وأقل بقدر 200 كيلومتر من الخلاف الذي يقل وينتج عن إحلال قيرني في مصب الساقية الحمراء، خصوصا وأن الفارق الذي تظهره هو ظاهري أكثر مما هو حقيقي. وحنّون لم يكن كاتب خرائط، وهو لم يقس مباشرة لا الفاصل بين قرطاجة والأعمدة، ولا ما بين الأعمدة ووادي الذهب. وإنما استنتج المساواة بينهما من المساواة التي اضطر لجمعها حسابيا لعبورهما معا.

وفعلا يغلب على الظن كثيرا أن في هذه المسافات الطويلة – حين 20 كيلومتر لا تمثل سوى إبحار يوم ونصف – أن يكون حنّون قد قضى هذه العدة من الأيام ليعبر 1600 كيلومتر الفاصلة بين قرطاجة وقادس، كنفس العدة لعبور 1800 كيلومتر الفاصلة بين قادس ووادي الذهب. ويجب أن لا ننسى أن هذه المرحلة الثانية قد سهلت خصوصا ابتداء من الصويرة Mogador بالرياح النكباء Alizé وبتيار جزر كناريا، في حين أن الأول قد عارضه بالتأكيد على طول مداه التيار الذي يتجه من جبل طارق إلى مضيق صقلية.

وبالتأمل فإن حججاً أخرى توجد في المعطيات العديدة المتعلقة بقيرني والظاهرة في رحلة حنّون، التي بلغتنا في آن واحد من الصيغة الإغريقية التي بين أيدينا، وبصفة غير مباشرة من فقرة من كُرْنيلْيوس نيبوس Cornelius Nepos سجّلها پْلين Pline، ومحتواها لا يمكن أن يأتي إلا من نص من الرحلة يكون أكمل مما بين أيدينا.

إن تبعية كُرْنيلْيوس نيبوس لحنّون تظهر في الألفاظ التي، حسب قوله، بها جعل قيرني قبالة قرطاجة. وهي ترجمة واضحة إلى اللاتانية للتعبير الإغريقي (χατ' ευθυ Καρχηδονος) الذي استخدمناه سابقا في إثبات الصلة التي تربط الفصل الواحد والثلاثين (XXXI) من περιαπισιων لباليفاتوس Palaiphatos في الفصل الثامن من الرحلة. غير أنها موصولة برحلة حنّون من نسخة غنية بالمعلومات، أكثر من النسخة التي وصلت إلينا، كما يتضح من الرقمين اللذين ذكرهما نيبوس Nepos من بعد عن قيرني. وأحدهما غير موجود في نص حنّون الذي بين أيدينا، بينما الآخر يناقض العدد المذكور في النص.

إن الأول من هذين الرقمين يبيّن المسافة بين قيرني وساحل القارة الأكثر قرباً (*a continente p. m. [= p(assus) m(ille)]*) – أي ألف خطوة التي تعادل لاشك (8) غلوات Stades من 184.83م، وهي على كل حال تعطي أقل من 1500 متر. ولكن، وهذا اتفاق أقوى من أن يكون عرضيا، إذ أنه تقريبا نفس السعة التي للسان البحري الممتد بين جزيرة وادي الذهب وأقصى الخليج والمنبسط الذي يسد عمق الجون شمالا. وعلى العكس فإن الثاني من هذين الرقمين يظهر لأول وهلة أنه يقيم عرقلتين. إذ أن نيبوس Népos يعطي فعلا ألفي خطوة، أي تقريبا ثلاثة كيلومترات لدائرة جزيرة قيرني *(nom ampliorem circuitu II millia passuum)* بينما الصيغة الإغريقية لرحلة حنّون لا تعطيها سوى خمس غلوات في الدائرة. وكيفما كان المدلول الذي نعطيه للغلوة عند حنّون – 179 مترا، أو 184 مترا أو 213 مترا – فإن خمس غلوات لن تمثل أبدا إلا 895، أو 920، أو 1.165 من أمتارنا. فمن هنا يوجد تناقض، ومهما تخيلنا لحله، فإنه تناقض من البسيط إلى المزدوج بين نصنا من الرحلة وبين الخلاصة التي استخرجها نيبوس من النص الذي بين يديه. وهناك تناقض آخر أهم أيضا وهو بين هذه النصوص وبين الحقيقة. إذ بالفعل، فإن جزيرة وادي الذهب لا تبدي أبدا الشكل الدائري بل إنها تمتد على شكل متوازي الأضلاع غير منتظم، رهيف من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وطوله 3.200 كيلومترات ومائتان، ويختلف عرضه حسب أهمية مخانقه بين 800 متر إلى 1100 متر. فيبدو أننا أمام هذه المشاهدات، ليس لنا من سبيل سوى أن نتخلى عن التعرف على قيرني حنّون بأنها هي جزيرة وادي الذهب، أو أن نُخضع لها النصوص بتصويبات استبدادية. وقد أخذ اگْصيل بالوجه الأول، كما لو أن المقياسين الوحيدين اللذين نتوفر عليهما لا ينفيان بصفة قطعية أيضا

إحلال قيرني في جزيرة أركين التي لها 11 كيلومترا طولا وثلاثة كيلومترات عرضا، وكذلك جزيرته هو بمصب الساقية الحمراء حيث كل مساحة تقاس قد اختفت مع الجزيرة، والتي لتبرير الموضوع قال إنها اضمحلت. أما مويلر Mueller وڤيڤْيان دُسان مَرْتان فقد اختارا الرأي الثاني وصححا حنّون تبعا لكْريسْپوس نيپوس Crispos Népos، وذلك أمر مناقض للمنهج السليم. فعوضا خمس غلوات بخمس عشرة (15)، أي بكيلومترين وستمائة وخمسة وثمانين (2685) مترا على الأقل، أو بثلاثة كيلومترات ومائة وخمسة وثلاثين (3135) مترا على الأكثر. ولكن عملهما لا يبرر حقا إلا باحتياجهما إليه. ولن أسمح لنفسي بجريمة المصادرة على المطلوب Pétition de principe التي هي تركيز افتراض على تصويب يفرض أنه أصبح مسلّما به. وخلافا لمن سبقوني فإني أصر على تعرفي لأنني أستطيع الحفاظ به كذلك على الحقيقة التي يقدمها وعلى النصوص التي تعرّف به. وعوضا عن تعارضهما فإني أنسقهما، ومن تقاربهما أجتهد في استنتاج أن النسخة الأصلية من الرحلة، التي لخصتها صيغتنا الإغريقية، والتي وصل إليها نيبوس بصفة أو بأخرى، قد حددت نطاق قيرني، إذ عرّفت في آن واحد طولها في الكيلومترين أو الثلاثة التي احتفظ بها نيبوس، وسعتُها في الغلوات الخمس التي يمكن تقديرها بثمانمائة إلى ألف ومائة متر (حسب الغلوة التي استعملها حنّون). ونجت من التقطيعات التي في النص الإغريقي. إذ هناك بين القياسات العتيقة وبين التشكيل الطبوغرافي الموجود دائما توافق عجيب يكمّل نظريتي حسابياً. وما لم نلجأ إلى شك كلي، وإلى اعتبار رحلة حنّون كحكاية وهمية، فلابد من الإقرار بأن قيرني التي يتحدث عنها قد اختلطت منذ القدم بجزيرة جون وادي الذهب.

ولكن بمجرد ما نقدم هذا التعريف كحقيقة، فإنه يدعونا برغمنا على التساؤل عن الغاية، ولأي احتياج كان فينيقيّو ليكْسوس قد ذهبوا إليها لينشئوا مستوطنة على بعد أكثر من 1500 كيلومتر من مدينتهم ؟ وما هي المصلحة الحيوية التي ضغطت على قرطاجيي حنّون فغامروا بدورهم للذهاب للتعرف عليها ؟ ولتكميلها بفاضل من السكان الذين أنزلوهم فيها ؟

لاشك أن الموقع لحسن الحظ قد وقع اختياره، والأسبانيون الذين يحتلونه اليوم[18] لا ينسون ذكر امتيازاته العديدة. ولنستمع للسيد إنْريكي دَلْمونْتي Enrique d'Almonte يحللها واحدا واحدا. قال : «إن اختيار وادي الذهب كمركز مهم للعمل الإسباني بالمنطقة الساحلية للصحراء، لا يرجع إلى صدفة ولا إلى نزوة، بل إلى تجمع أسباب مترسخة علميا، هي : الوضعية الجغرافية المركزية نسبيا بالنظر لمنطقة محيطية ثروتها السمكية غنية إلى حد عجيب، وسلامة الإرساء بداخل الجون، والسهولة النسبية للوصول إلى إرساء سريع بالقرب من حد دَرْنفورد Durnford، وإمكان الصيد بصفة لا تنقطع بسبب جفاف الهواء طيلة ساعات الشمس، والريح المستمرة والطقس المعتدل، [وستّ آبار بماء عذب منبثة بدائرتها]، وختاما بالملاءمة الصحية للمناخ الذي يسهل التعود السريع للأوربيين». والريح النكباء Alizé تخفف من حرارة شمس الصحراء إلى حد أن شيرْمِر Schirmer قد تنبه لذلك. هذا من جهة، «بينما متوسط الحرارة بالبحر هو من 27° في شمال المدار في اتجاه جزر الأنْتِيّ Antilles، وينزل إلى 20° في نفس خط العرض بالقرب من وادي الذهب». ومن ناحية أخرى فإن المعدل الصيفي بوادي الذهب لا يبدو أنه يتعدى 20° درجة مئوية، إلى حد أن الريح هناك يكون لها تقريبا

حرارة مدينة الجزائر أو ماديرا Madère، وتكون أقل حرارة مما بِقُبرص، وأشد طراوة في شهر يوليوز مما في لِشْبونة ولِيون Lyon. وهذا في خط عرض تْوات Touat والخليج الفارسي.

وسنتفق على أن اللكسيين والقرطاجيين معا لم ينزلوا طلبا لإحدى محطات الاصطياف. فقد استفادوا من الظروف الملائمة التي يقدمها الموقع لمحاولاتهم في الإسكان وهي لم تلزمهم، واليوم فإن خيرات الصيد هي التي تجتذب الإسبان لهذه الضفاف. وفيما مضى كان هناك جانب آخر انجذب له كل من اللكسيين الذين كانوا يجدون صيدا كثيرا بالقرب من مدينتهم، ومن القرطاجيين الذين ما كانوا دون أن يصيبهم الجنون إذا غامروا وأقاموا هنا المصايد ومعامل التمليح. ولقد سبق أن رأينا بْسودو سيلَكْس يعتبر قيرْني سوقاً يأتيها القرطاجيون للمتاجرة مع السّود، وأنه إذا كان كتّابه خدعوه، فأخطأ في موضوع معاملاتهم، فهيرودوت سمع الحديث عن ذلك الموضوع، كما أن أوستاش Eustache من بعد باليفاتوس قد ذكره بصراحة. إن القصد لم يكن السمك الذي لا يهتم به أحد، ولا العاج الذي ألح عليه بْسودو سيلَكْس بانقياد. لا بل إنه الذهب. وفي هذا كان يسوغ لنا أن نتردد أيضا، ما دامت وضعية قيرني لم تتضح. والآن وقد جعلناها في مكانها الحقيقي، فإن آخر شكوكنا ستتبخر، لأن ورود الذهب إلى قيرني يوجد عليه برهان أشد حسما من شهادات الكتاب القدماء. فربما أن شهادة اسم الموقع هي التي تحييها على السواحل التي كانت تنشط بها قديما.

قيرْني ووادي الذهب

إن اسم قيرني Cerné كان له حظ عجيب. وقد سبق أن قلنا إن حنّون اختاره ليؤكد، تحت ستار تسمية رسمية، التغيير الذي أدخلته السيطرة المباشرة لوطنه على وضع المستوطنة اللِّكْسية القديمة. فهذه إن صح التعبير لبست حلّة جديدة وبدت بوجه قرطاجي. وفي هذه الأحوال فأصل لفظ Cerné لا يمكن أن يكون إلا بونيقيا. وسيادة القِسّ شابوت Abbé Chabot الذي تفضل بعلمه فأتى لنجدتي، قد عرفه بذلك مَن أول وهلة كاسم عام. فلفظ ק ר כ يساوي ك ر ن k r n (ق ر ن) وهو موجود في تعريفة أثمان مرسيلية Tarif de Marseille، ويدل على معنى قرن الحيوان، وهو كاسم عَلَم نجده مكتوبا على قسيمة تذكرة (Tessere) صدرت عن مدينة بالساحل السوري، واقعة على بعد نحو أربعة كيلومترات من طرْطوس Tortose، كما توجد مذكورة بالإغريقية عند إتيان البيزنطي Etienne de Byzance بصيغة كارني Καρνη وباللاتانية عند پْلين Pline الذي يسميها كَرْني Carné. وليس من قبيل المحتمل أن يكون حنّون قد فكر في أن يُحْيي في قيرني وادي الذهب، تلك التي كانت بِطُرْطوس Tortose التي لا نعرفها بغير ما ذكرت به. بل على العكس، فإننا نغرى بتقريبها من (القرنين الاثنين) الآخرين الذين ذكرهما بالإغريقية في رحلته، أي قرن الغرب Corne de l'Occident، وقرن الجنوب Corne du sud، بصيغة كيراس Κερας في الحالتين معا، وأن نفترض أن الشوفيط قد ألبس حلّة فينيقية للفظ الأهلي الذي عرفه به أثيوبيو الساحل. وهكذا إذا قورن بالجونين الاثنين اللذين يعبّر عليهما

لفظ قرن الغرب، وقرن الجنوب، فإن اسم قيرني أصبح القرن Corne الذي اكتفى بتسميته هذه، وعدّى النظر عن أي وصف آخر. ولاشك أن تدبير حنّون قد أفضى إلى نتيجة غريبة : فمن ناحية أولى – والقِسّ شابوت Chabot قد أنذرني لذلك – إن لفظ قرن في الفينيقية يصبحه دائما معنى القمة أو الرأس. وذلك مفهوم دائما في بوقَرْنين Bou Kornéin، أي القمة المشرفة على خليج قرطاجة. وتسميته في العربية مشتقة من تسمية بَعْل Baal الذي كان يعبد هناك. بَعْل كَرَنيْسيس، أي سيد (ربّ) الأماكن العليا. ومن ناحية ثانية فالطبيعة تنفي هذا الفهم عن الخلجان التي دخلها حنّون في نهاية رحلته. فحنّون إذن عبر بلفظ له في لغته، بمعنى «رأس Cap» عن لفظ له في لغة الأثيوبيين معنى «خليج Golfe». ولكن هذا فيه التباس يحدث كثيرا في الجغرافيا. ونفهم أن يقع فيه حنّون بوادي الذهب، لو أننا تذكرنا من جهة أخرى – كما سأذكره من بعد – أن القوم السود المعروفين باسم الصيرير Sérères ليس لهم سوى لفظ واحد، هو «كور» Kor للدلالة على نهر، وعلى جون Baie. كما أننا إذا أدخلنا في الاعتبار العادة الراسخة عند بحارة جميع الشعوب بالتعبير على أسماء المواقع التي يلاقونها أثناء رحلاتهم بمطلق أصوات تقريبية، فتتخذ معنى مخالفا تماما للفظ الأصلي. وحسب رأيي فإن «قرن Corne» (Cerné) ليس سوى مثال آخر ينضاف إلى السلسلة الطويلة من الصيغ المخطئة. ولكن أياً ما كان أصلها الاشتقاقي، فيبدو أننا لن نجد مخرجا من هذه الضائقة المفاجئة : وهو أن هذا الإسم قد تغير بصدفة كبيرة إلى لفظ عصري يماثله في الصوت، ودون أن يقبل مع ذلك أي تفسير مفهوم. وإما أنه بحادثة تبقى مع ذلك غريبة، قد ثبت في موقعه حيا بصفة عجيبة جدا.

ولنفتح الخريطة الأسبانية لوادي الذهب التي نشرت سنة 1913، فالجزيرة الجرداء اليوم التي مثلتها بجزيرة Cerné القديمة تحمل في الخريطة اسمين، أحدهما بالعربية : جزيرة مَتْروك Djezira Metruk، والآخر كأنه قشتالي Castillane : إيسْلا هيرني Isla Herne أو Herné. والعالمون بالعربية لا يرون في جزيرة متروك أو على الأصح متروكة (في المؤنث) إلا معنى واحد ممكنا هو : «الجزيرة المهجورة». والتخلي المفهوم من هذه التسمية نفهم منه في مسيرة التاريخ، احتلالا إنسانيا سابقا على الإسلام(*). أما تسميتها باسم Isla Herné فإنها قريبة الشبه جدا بالإسمين الإغريقي واللاتاني Cerné حتى لكأنهما مشتقان منها بل إن الشبه متكامل إلى حد أنه يصبح مضايقا، وهناك كاتبان اتخذا مؤخرا لمتجر Cerné الموقع الذي أقترحه لها أنا. وهما السيدان كاري Cary وَوَرْمِنْگْطون Warmington، وقد حذرانا من الوهم الذي يمكن أن تفتننا به فقالا «بهذه المشابهة لا يحسن استخراج نتيجة ما، إذ ليس متأكدا أن Herné هو اسم أهلي، وليس لفظا اختلقه بحّار عالم». وذلك أيضا كان هو أول ارتياب عرض لفكري، ولكن بعد البحث أستطيع أن أقول إنه لا أساس له.

أولاً إذا كان اختلاق اسم Herné القصد منه الدفاع عن نظرية علمية حول مستوطنة Cerné القرطاجية، فأصحابه يكونون على صواب حين يعرضون اللفظ كما هو، أي الذي يساوي وحده عدة براهين، وذلك

*) ولكن ألا تسوغ قراءتها بالطاء ؟ فتكون لها صيغة مطروق أو مطروقة. وفي الحالتين معا تكون في الفرنسية والإسبانية معا بصيغة Motruk. ولكن في العربية يكون لها معنى معاكس لمتروك أي مهمل أو مهجور، وإنما معناها يكون أنها يزورها الزائرون ويطرقها التجار للمتاجرة مع السود كما قال بسودو سيلكس، أو للذهب كما صرح بذلك أوستاش وباليفاتوس. وعلى هذا فالجزيرة يمكن أن يكون اسمها أيضا جزيرة مطروق أو المطروقة أي l'île visitée. (المترجم).

بأن يطبعوا على خرائطهم للدعاية اسم Cerné وليس Herné. وبعد ذلك، وعلى الخصوص، فإن خرائطهم لا يمكن أن تخرج عن نظرية سابقة لهم. ففي القرن الثامن عشر كان العلماء يبحثون عن Cerné في ماديرا Madère. وفي القرن التاسع عشر كان مْويلّر Mueller في 1856 أول من أحل Cerné في Herné، وذلك في نشره لرحلة حنّون التي ظهرت برأس الجزء الأول من نشرته لكتاب Geographi graeci minores. ولكن ما يقرب من قرن وكتّاب الخرائط الإفريقية قد ذكروا في مكتوباتهم جزيرة اسمها يقرب من اسم Cerné.

والحق أن اكْصيل لم يكن يعرف مثل مْويلّر Mueller سوى الخريطة الهِدْروغرافية Hydrographique الفرنسية التي نشرت سنة 1851 بعناية الأَميرال ريگولْتْ دُجُنويّي Rigault de Genouilly. ولكن بفضل السيد المهندس العام كاثْنود Cathenod ولمساعده المهندس السيد دَمْياني Damiani بتوصية من الأميرال لاكاز Lacaze، فإنهما مكّناني من مجموعة المصلحة الهِدْروغرافية للبحرية، فاستطعتُ أن أصعد إلى النبع وإلى ما ورائه. وبالفعل فالخريطة البحرية الفرنسية التي لها تاريخ 1851، ليست عن وادي الذهب إلا نقلا للخريطة الإنگليزية التي صنعها في 1821 الملازمان ڤيدال Vidal ومودْج Mudge ودَرْنفورد. وقد كان هؤلاء الضباط قد أعطوا من أنفسهم أسماء، حيث إن «حدّ مودْج» Pointe Mudge الذي يسيطر اليوم على مدخل ڤيلا سيسْنِروسْ Villa Cisnéros (أي مدينة الدخلة)، يتلو «حدّ دَرْنفورد» Pointe Durnford الذي ينهي شبه الجزيرة. وإلى أن يزيد لدينا الوضوح، يمكن أن نتساءل هل جزيرة Herné لم تدخل هي أيضا في ذلك بتلاعب من جانبهم، إما بكونهم استعاروا اسم واحد من أصدقائهم الذي قد نُسِي من ذلك العهد، وإما بكونهم أطلقوه على الوطن الصغير لواحد منهم، مثل هيرْنِباي

Hernebay، ذلك الشاطئ الجميل بمصب نهر التاميز Tamise، الذي من الطبيعي أن تمثل صورته الناعمة، مقابل أفق الصحراء التي تحدّ أعمالهم. ومع ذلك فإن تتابع بحوثي سيلغي هذا الحكم المتهور. فإذا كانت جزيرة وادي الذهب لم تظهر في خرائطنا البحرية إلا في 1460، وإذا كانت مرسومة بها دون أي تعريف حتى سنة 1753، التي فيها نشر بُولان Belin «الخريطة المصغرة للسواحل الغربية أفريقيا»، فإنها بعد ذلك بقليل قد خرجت من الغموض، أي بالضبط بإحدى وستين سنة قبل رسوم سنة 1821. والخريطة البحرية الفرنسية التي بأمر الڤيكونْت دُبوشاج Viconte de Bouchage قد حلت سنة 1816 محل خريطة بولان Belin، تمثل بداخل جون «ريو دي أورو Rio de Oro أو وادي الذهب Rivière de l'or الذي اكتشَف في مدخله القبطان كْلاس Glass» جزيرةً سمّاها هرْن Hern. ولقد ظننت أول الأمر أن هناك خطأ مطبعيا. ولكن برجوعي لِلنسخة البريطانية لرسوم القبطان كْلاس المنشورة سنة 1763، رأيتُ بها هذا الضابط يفتخر بأنه في سنة 1760 استكشف في جون وادي الذهب، وأنه فعلاً قد سمى الجزيرة التي فيه باسم Hern جزيرة هرْن بغير e في الأخير. وهذه الكتابة الموجودة في كل من النموذج الأَصلي ونسخته الفرنسية، تزيح فكرة خدعة استُعملت لتبرير وجهة نظر علمية عن قيرني Cerné. ولكن المؤسف هو أنها لم تتضح مع ذلك، بحيث إذا فرضنا أنها لم تتولد عن نزوة للقبطان گلاس، طبقت مقدما بمشابهة كأنها معجزة على الإسم الفينيقي للموقع، فلن يكون لنا الخيار إلا بين تفسيرين : إما أن يكون گلاس قد استمدها من خزانته، أو يكون تلقاها من الأهالي الذين التقى بهم خلال سفره.

ولحسن الحظ فإن گلاس Glass ليس مجهولا، فالآنسة فونْسين Mlle Foncin والسيد پْواندْرون M. Poindron، المكلفان بالحفاظ على

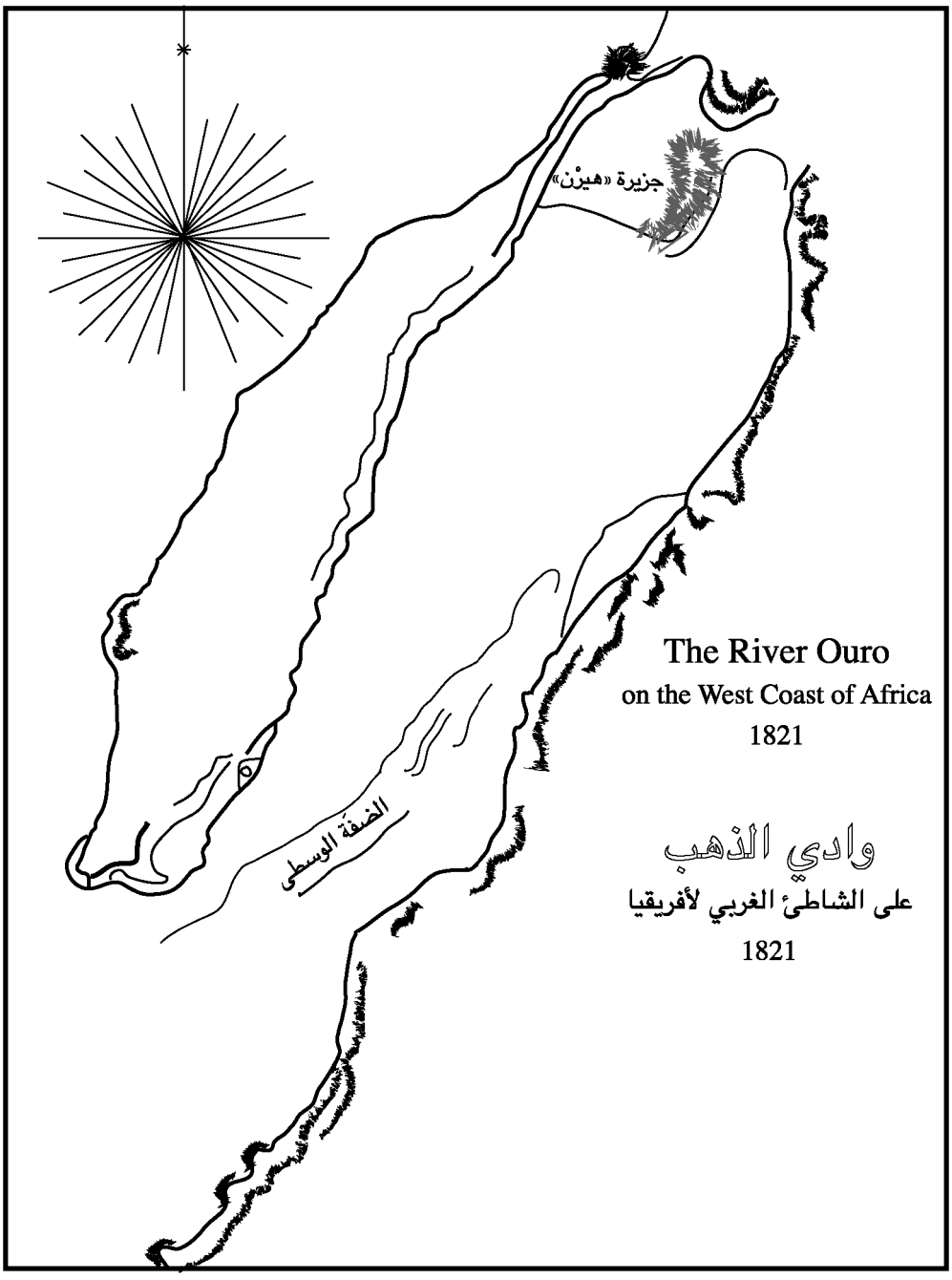
جزيرة «هيرْن»
الضفة الوسطى
The River Ouro
on the West Coast of Africa
1821
وادي الذهب
على الشاطئ الغربي لأفريقيا
1821

المجموعة الجغرافية بالمكتبة الوطنية، قد تفضلا فأنارا بعلمهما سيماء هذا البحار البريطاني الذي هو أديب أكثر مما هو بحّار. كان في 1764 قد نشر في مجلد ضخم من 368 صفحة «تاريخ اكتشاف كَنارْيا والاستيلاء عليها مترجما عن مخطوط باللغة الأسبانية اكتشف مؤخرا في پالْما Palma، مع بحث عن أصول السكان القدامى، ينضاف إليه ملخص عن عاداتهم والتجارة... إلخ»، ولما توفي في السنة الموالية وعمره أربعون سنة، كان يهيء «تاريخا وصفيا لأفريقيا الواقعة بشمال السينغال بين أبيسّينْيا Abyssinie والمحيط». ويظهر أنه لم يجد الوقت لكتابته. ومن جانب آخر لاحظتُ عن الاستكشاف الذي يعلن أنه أول من قام به، أنه كان مسبوقا كما سنرى باستكشافات أخرى. وليس هذا فحسب، بل إنه جرى بإهمال سطحي مؤسف، إذ على الخريطة التي يدّعي المسؤولية فيها سنة 1763، فإن جزيرة هيرْن Hern تسدّ مدخل الجون الذي تحتل عمقه عمليا. فيحتمل إذن أن گلاس قد تمم تجربته الشخصية بمطالعاته الواسعة، وأنه وجد اسم هيرن Hern غير مذكور في الخرائط البحرية حتى وصله هو إما من الأطالس العامة التي تصفّحها وإما في الكتب التي قرأها.

وبالفعل فإن الآنسة فونْسين ذكرت لي أن في سنة 1617 قد نُشِرت بعناية جانْ موكي Jean Mocquet حكايةُ رحلاته إلى أفريقيا وآسيا والهند الشرقية والغربية. وقد تفضّلَت فاستخرجَت لي منها السطور التالية : «وصلنا إذن للجزيرة الصغيرة في وادي الذهب... وهي غير مذكورة في الخريطة، وسمّيناها «جزيرة لاتوش» l'isle de la Touche الذي هو لقب المقدّم عندنا السيد دُلَرْڤِيرْدِيير De la Revardière، فحططنا بها المراسي للإقامة»، ثم أضاف جانْ موكي Jean Mocquet مباشرة : «هذه الجزيرة كانت مليئة بطيور الْغاق Cormorans التي قتلنا الكثير منها

ببندقياتنا النارية harquebuzes. ومن بين هذه الطيور يكون أحدها دائما يعسّ حين تستريح الأخريات مثلما تفعل طيور الكرْكي grues. وكان يعسر علينا كثيرا الاقتراب منها، فكان لابد أن ننبطح على الأرض لنرميها. ولكن منذ أن أصابها بعض الخوف من البنادق لم يعد أكثرها يأتي كما في الماضي». وقد أعجب قرّاء موكي Mocquet كثيرا بهذه الحكاية، ونسو السيد دُلَرْقيرْدييير المعروف بلقب لاتوش. ولم يطلق هذا الاسم على جزيرة وادي الذهب التي استمرت دائما إلى گلاس مجهولة في الخرائط البحرية. وقد دُعيت فيما بعد في الخرائط العامة لأفريقيا إما باسم جزيرة البلشون Île des Hérons عند نيكولاس دُفير Nicolas du Fer (1720-1646)، أو باسم جزيرة أكْسِبِتْروم Insula accipitrum، كما عند هاس Hase من مدينة نورِنْبيرْگ Norenberg (1737)، أو باسم جزيرة الصقور Eperviers كما عند جانْڤي Janvier في باريس في 1760، أو باسم جزيرة البلشون Hérons كما عند لونْشان Longchanps وجانفي في 1754، وعند ڤُگُونْدي Vaugondy في 1756. فهل جزيرة هِرْن Island Hern عند القبطان جورج گلاس G. Glas ليست سوى تحريف لجزيرة طيور الهِرون Hérons أي البلشون التي في الخرائط الفرنسية، واطّلع عليها الرحالة بعد سنة 1760 في راحة عقب عودته إلى إنگلترا ؟

ممكن جدا. وفي هذه الحالة، فالتعرف على هذه الجزيرة بأنها هي قرني Cerné يتأكد مع ذلك بصفة غير مباشرة. إذ بعد تشتت المستوطنة التي أقامها البونيقيون فيها، تُركت قِرْني لطيور الغاق التي سيجدها بها جان موكي Jean Mocquet، والتي كانت تعيث فيها من قبل في القرن الميلادي الأول، عندما كتب پْلين Pline هذه الجملة التي ظلت غامضة حتى اليوم، ولكنها اتضحت منذ الآن. قال : في قرني Cerné الجزيرة الإفريقية في المحيط تأتي الصقور Eperviers من كل أرض الماسيسيليين

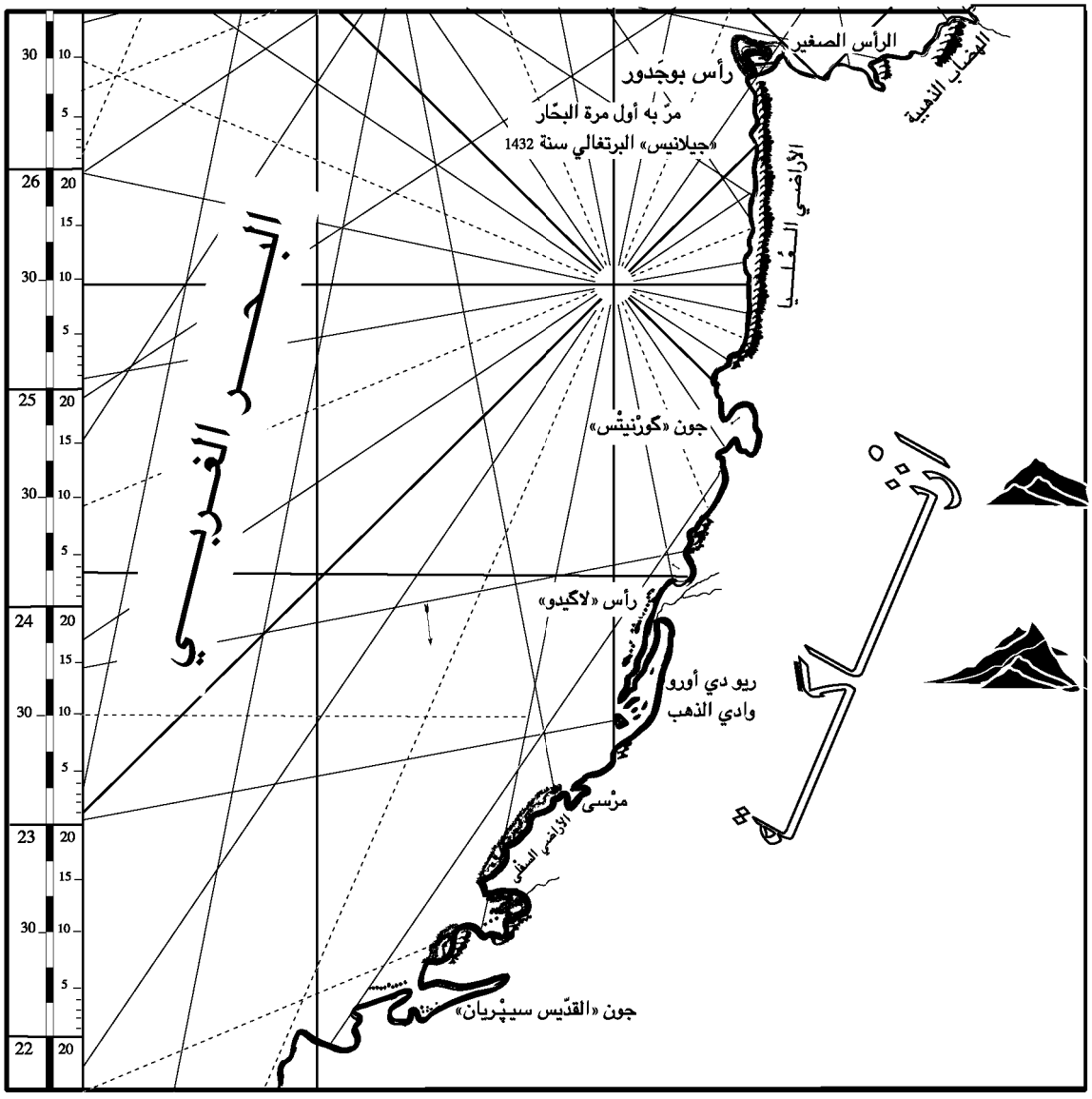

جزء من خريطة «گْلاسْ» Glas (1763-1771)

Masaesylie لكي تبيض في الأرض : *in Insula Africae Cerne, in Oceano, acciptres totius Masaesyliae humi feuficant.*

ومع ذلك فليس الأمر متأكدا، لأنني أعترف أني لا أفهم مطلقا لماذا أن هِرون héron التي ينطق بها هرون heron بالإنـگليزية، ويكون گْـلاس قد استعاض عن هذا اللفظ الذي كان يكفيه استعماله، ليحل محله لفظا غير مفهوم في كلتا اللغتين.

ويبقى مع ذلك احتمال كونه تلقاه بنفس المكان، وأن هذا الإسم المتعب، هرن Hern، يكون بسلسلة من المراحل التي انتقص فيها دون أن يفقد سيماه – وفي تفصيلات أخشى أن تغيب عنا دائما – وهو مرتبط بتاريخ قد فات منذ أربعة وعشرين قرنا.

والحقيقة يمكن أحيانا أن لا تكون من قبيل ما هو محتمل الوقوع. فإذا جرى التعرض بأنه لا يمكن تصور أن بعد مرور أكثر من ألفين من السنين لايزال يُطل شَبَحُ مستوطنة على الأمكنة التي كرسها القرطاجيون لازدهارهم، فسأجيب بأن الأمر غريب، ومع ذلك فهو أكيد على الأقل. وأن الإسم العصري لوادي الذهب Rio de Oro هو تذكار لكنوز قيرني Cerné، وأنه لا يزال ينير هذه السواحل حيث كل أثر عن وجودهم قد انهار مع ذلك.

اسم وادي الذهب Rio de Oro من مولده أُطْلِق ليس على المنخفظ الأرضي الرملي المنفتح بالشمال الشرقي لجزيرة هِرْني Herné، الذي أخطأ المهندسون المائيون Hydrographes سنة 1851 في كتاباتهم الحرفية من الأسبانية للفرنسية، وعبّروا عمدا بكلمة وادي (نهر)، بل إنه أطلق على جميع الجون المحيط. وكلمة Rio de Oro تشمل إداريا منذ ذلك

الحين مجموع الصحراء «الإسبانية»، وقد رمى الجغرافيين في ضائقة قاسية، وكتب ڤيڤْيان دُسان مَرْتان V. de St. Martin قائلا : «إن اسم وادي الذهب Rio de Oro قد أُسيء اختياره للدلالة على هذا الجون حيث لا وادي ولا ذهب». وگـوتْييه E.F. Gautier زاد قائلا : «أطلق الأسبانيون على أرضهم الصحراوية اسم Rio de Oro، ولا أدري هل يعرف الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم الأوربي. أما العرب فيقولون الساقية الحمراء أي المجرى الأحمر La coulée rouge، ولا يذكرون ذهبا مطلقا. إنها أرض العرب المورِيين Arabes Maures، وقبلهم أرض البربر المرابطين الذين لم يكونوا سوداً، بل هم مقاتلون وأصحاب قوافل، لم يقل عنهم فيما أعلم أحد أنهم اعتادوا جمع شذرات الذهب Orpaillage، الأمر الذي لا يزال إلى اليوم واضحا في البامبوك السينغالي Bambouk». وهنا أخالفُ گـوتْييه. فالجغرافي الذي هو غُرّر بالمؤرخ، أو إن تاريخ العصور الوسطى الإسلامية على العكس قد غطى نظره عن الحقب السابقة. وصحيح جدا أن ياقوت (الحَمَوي) (القرن 12 و13م) والمسعودي (القرن 14م) عندهما عملية جمع الذهب هي حيث هي، في البامبوك السينغالي. والإخباريون العرب على عمومهم لم يعرفوا طريقا أخرى للدخول إلى السودان إلا بالطرق البرية. فكانت هناك الطرق التي من أحواز فَمِ نهر النيجر تؤدي إلى وَرْگلة Ouargla وتوزر Tozeur، والطريق التي تنطلق من أحواز السينغال وتمرّ بالوَدان Ouadan وتنتهي عند سِجِلْماسة. فمن هنا كان الجمّالون الشماليون يذهبون ليبحثوا وليأتوا بالمعدن الثمين. وعلى الخصوص القافلة الشهيرة التي خطفت بثروتها الأبصار في الإسلام، فقد كانت سنة 1324م ذاهبة إلى مكة، وكان مَنْسا موسى Mança Moussa ملك مالي على رأسها إلى مصر، وبها 30 حملا بكل واحد ثلاثة قناطير Kintars من مسحوق الذهب (ما يقارب مليون فرنك ذهبا)، فعبرت

الصحراء من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. غير أن هذه الأحداث لا تمنع مطلقا إمكان وجود طرق أخرى، في عهود أخرى.

وعلينا أن نعتبر أن النقل الصحراوي إذا كان ابتداء من القرن الميلادي الثاني قد عرف السرعة بسبب إدخال الجمل إلى أفريقيا الرومانية، فإنها لم تخلقه هي، إذ قبل الجمل مثلا كان هناك الخيول وثيران الگَرامَنْطيين التي تجرّ العربات في صحراء ليبيا. ولكن من الواضح أن الخيول والثيران لا يمكنها النقل على هذه المراحل الطويلة مثل الجمال. ولكن أصحاب القوافل الذين أكرهوا على خدمات الجمل والثور قد بحثوا عن طرق أقل طولا، وهي واضحة للأعين، إذ ليس هناك سوى 450 كيلومترا بسير مستقيم من الْوَدان إلى جون وادي الذهب. ومن الطبيعي أن قوافل تكون قد وجهت إليها، إذا أمكن حملها على السفن. غير أن هناك ما هو أحسن. فلنتأمل خريطة بوڤيل Bovil التي أكملتُها بإرشادات السيد هَنْري لَبوريت Henri La Bouret وهي الموجودة هنا قبل هذا الكلام. فهي تجمع الطريقين المؤديتين إلى أسواق الذهب في القرن العاشر. فواحدة منهما قارية تفضي من سجلْماسة إلى غانة Ghana، حيث تميل في الجنوب الغربي إلى مراكز تجارة الذهب التي تتوالى على طول نهر السينغال في گَدْيارو Gadiaro، ودْياريسّي Diaressi، وسيلاّ Silla ، والتَّكْرور Tekrour. والثانية تنطلق من الجوار المباشر للمحيط، في أَوْليل Aoulil التي كانت ملاحاتها تزود المسافرين بمادة للتبادل، وتصل إلى التكْرور، وسيلاّ، وديارِيسّي، وگَدْيارو بالصعود مع النهر. وانعطاف الطريق الأولى، والمطَاف الذي تفرضه على من يسيرون معها، كل ذلك يبرهن على أنها ارتبطت إلى حد ما بالثانية. وهي أكثر وضوحا من النصوص العربية الراجعة للعهود الموالية. والحقيقة تشير إلى الأقدمية على الطريق الصحراوية التي تتحدث تلك النصوص على المسيرة الساحلية التي توضحها لنا.

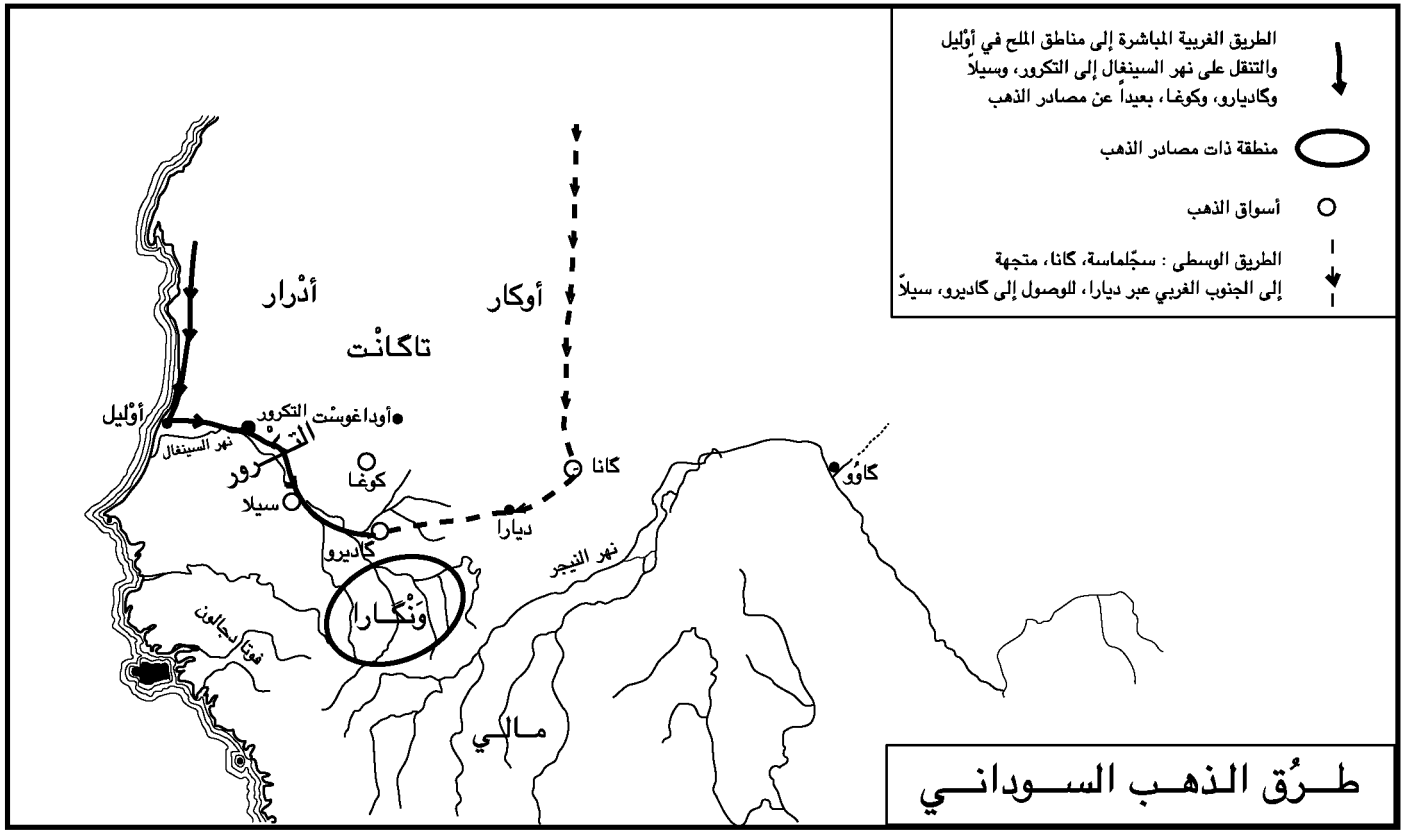
الطريق الغربية المباشرة إلى مناطق الملح في أوْليل
والتنقل على نهر السينغال إلى التكرور، وسيلاً
وكاديارو، وكوغا، بعيداً عن مصادر الذهب
منطقة ذات مصادر الذهب
أسواق الذهب
الطريق الوسطى : سجّلماسة، كانا، متجهة
إلى الجنوب الغربي عبر ديارا، للوصول إلى كاديرو، سيلاً
أدْرار
أوكار
تاكانْت
أوْليل
أوداغوسْت
التكرور
نهر السينغال
التكْرور
كوغا
كانا
سيلا
ديارا
كاوُو
كاديرو
نهر النيجر
وَنْكارا
مالي
طـرُق الـذهـب السـودانـي

هذا، ومهما كانت القساوة التي تُضْفى في الغالب على الفرسان العرب، ومهما كان تخيّلنا للبربر المرابطين، وأنا مَدين للسيد هنري لبوريت H. Labouret الذي نبهني لهذا – فإن تجار الذهب الذين أوقفهم لاشك خوفهم من نضوب معين تجارتهم نضوبا مفاجئا، لم يتجرأوا قطّ على تجاوز الحدود التي عيّنها لهم المنتجون السّود. فلا ابن الفاجي Ibn-el-Fagi (القرن العاشر)، ولا ياقوت (القرن 12 و13)، ولا الإدريسي، ولا المسعودي تحدثوا على أرض الذهب، كما لو يكون قد زارها إخوانهم المسلمون ممن ينقلون عنهم الأخبار. والمدن التي تأتيها وتغادرها القوافل، هي وحدها الموصوفة بمجاملة. أما ما وراءها من أرض تتزود منها تجارتهم فإنها تضيع في ضباب لا تبدو منه سوى خطوط مثيرة وعابثة. فحسب ابن الفاجي إنهم يغرسون فيها الذهب كما يغرس الجَزَر، ويجنى في الفجر عند فيضان نهر السينغال. وحسب المسعودي فإن مروج الذهب تمتد على منطقة غير واضحة ومتجهمة تظللها خيبة الأمل التي هي سحب الجهل. وحسب ياقوت فالمبادلة البكماء في الشذرات ومسحوق الذهب تجري في جهات تقع عند ضفاف نهر السينغال، ولكن خارج حدود المناطق المنتجة. وفي القرن الرابع عشر، فإن مَنْسا موسى سُلطان مالي الذي كان الذهب المدفوع إليه من قبل رعاياه كضريبة يكون لديه أكثر الدخل، وكان يمتنع عن جبايته عندهم، لأنه كان دائما يتصور أن الذهب يبدأ نباته فيها في شهر غشت. وفي القرن الخامس عشر كان أنْطوان مَلْفانت Antoine Malfant يبعث إلى جِنَوَة Gênes من أعماق تْوات Touat رسالة يتأسف فيها على أنه تلقى من الجَمّال الذي كان يرشده جوابا لما سأله عن المواقع التي يجمعون فيها الذهب، إذ قال له : «لقد مكثتُ أربعة عشر عاما عند الزنوج، فلم أر قطّ أحداً يمكن أن يقول لي عن علم صحيح : هذا ما رأيته بنفسي،

وهكذا كان يقع العثور على الذهب ويقع جمعه، ولذلك، فالمظنون أنه يأتي من بعيد». وابتعاد جون وادي الذهب بالنسبة لمراكز الإنتاج لم يُعِق عن تجميع المبادلات به. بل على العكس، إن المسافة والطبيعة كذلك قد هيئا الجون للقيام بدور مزدوج للرحلة وللسوق بين جمّاعي الذهب في بامْبوك الذي لا يوصل إليه وبين التجار الذين ينزلون من الشمال ليجتذبوا إليه الثروات.

وختاما يجب على الخصوص تلافي الخطإ الذي يجعل من طرد السود عن أفريقيا الشمالية إلى السودان تاريخا قديما جدا وبعملية سريعة. ففي القرن التاسع، لم يكن الطرد قد جرى إلا جزئيا. وهناك أحد الرحّل العجيبين، هو اليهودي الْدَاد الدّاني El-Dad. Le Danite الذي حكى بالقيروان أنه عاد من أرض أكلة لحوم البشر anthropophages، وأنه كان في داخل أفريقيا توجد مملكة يهودية «تمتد على 200 يوم من السير»، وسكانها يتحدثون لغة تنتمي إلى الفينيقية، وكانوا يدينون بدين يوشع Josué حتى سنة 837 التي فيها اعتنق ملكهم ثوطان Thoutan دين محمد. إني أشك في آن واحد في وجود هذه المملكة اليهودية الشاسعة كما أشكر في انتماء الداد الملقب بالداني لقبيلة دان Dan التي يَدّعي الانتساب لها. إن العلماء الأشد كفاءة في علم الدراسات السلالية (الإثنوغرافيا)، وعلى رأسهم المأسوف عليه دُلَفوص Delafosse، يميلون إلى دمج الدانيين في هذه الأقوام المنتشرة من سينغامْبيا Sénégambie حتى الدارْفور Darfour. واسم الدانيين يمكن ببساطة أن يأتي – كما تفضلت الآنسة هومْبُرْجي Homburger فأعلمتني – من الصفة دان Dan التي معناها أبيض في عدة لهجات سينغالية. كما أن تلك الأقوام التي تحمل أسماء سلالية متنوعة مثل الْبُلْس Peuls، والْفُتْس Foutes أو الْفُلْبِس Foulbes، يختلفون وسط الزنوج بلون بشرتهم، التي هي دكناء ومائلة إلى الحمرة عوض أن تكون سوداء حقيقة، وحديث الداد El Dad لا نحتفظ

منه سوى بكون مدى انتشارهم في عهده قد كان أكثر سعة، ويصل إلى المحيط. أما ما يخص العهود العتيقة فإننا متأكدون من وجود السود على الساحل المحيطي من الأطلس حتى السينغال. فحنّون في الرحلة يقسم الأرض التي صارت «المغرب» بين اللكْسيين في الشمال والأثيوبيين في الجنوب. وبعد نحو مائة سنة فإن بالَيْفاتوسPalaiphatos وبْسودو سيلَكْس Pseudo-Scylax لا يذكران في قيرني Cerné ولا في أحوازها إلا الأثيوبيين، الزنوج ذوي الوجوه المحروقة. وإذا سلّمنا مع اكْصيل بجعل نهر كسِيون Xion الذي ذكر بْسودو سيلَكْس أنه هو الساقية الحمراء، فَضفافه الجافة عادة كانت مسكونة هي أيضا بالسود، أي الأثيوبيين المقدَّسين. ولكن في عهد الرومان كانت منطقة السود تمتد أيضا إلى أبعد من ذلك نحو الشمال. فَسْطرابون Strabon يرجع بها إلى الحدود الجنوبية لموروسيا Maurusie، وخططها هو بسفح الأطلس الكبير. أما پْلين Pline الذي لاشك أنه استفاد في هذا الموضوع من پوليب Polybe، فإنه يضم في جملة واحدة شعوبا كما لو أنها كانت متراكمة طوال الساحل المحيطي : هي شعب الأثيوبيين الدَّراتيتيّين Daratites أي سود دَراتْ Darat أو وادي دَرْعة Oued Draa، ونهر بامْبوتوم Bambutum الذي سبق أن عرفنا أنه نهر السينغال : (*in ora aethiopas Daratitas, flumen Bambotum*) ويفتح وادي الذهب جونه المضياف في الموسطة نفسها لهذه المنطقة الكبيرة (الأثيوبية). وإن الاستمرار لواضح بين ظروف التعمير وظروف الحياة التي وجدها فيه حنّون في القرن الخامس ق م وبين تلك التي سيزعزعها في القرن العاشر للميلاد إما البربر المرابطون، أو على الأقل العرب الموريون فيما بعد. ولهذا، ولو أن گوتْييه E. F. Gautier سلم ببساطة بالرأي المخالف، فيسوغ أن نسلم مبدئيا بأمر آخر هو أنه إذا كانت أسطورة الإلْدورادو

Eldorado في عهد أصحاب القوافل القاريين قد رسخت في جون جزيرة هِرْني Isla Herné، فلأن ذكريات أصيلة كانت تغذيها هناك. فالمأثورات التي تأخذ عناصرها منها، هي عريقة في القدم عراقة التجارة التي دشنها البونيقيون وتختزن الغلة في مستوطنتهم بقيرني، في انتظار أن تبعث بحرا إلى ليكْسوس على نهر اللّكوس بتلك الحصائد الثمينة لجمّاعي الذهب السودانيين. وإني لقادر اليوم على التأكيد بأن هذه المأثورات قد استمرت دون انقطاع إلى أن ظهر فن الخرائط العصرية.

وإذا رجعنا إلى الوثائق التي جمعها في الموضوع المأسوف عليه ش. دُلَرونْسِيير Ch.de la Roncière، فإن وادي الذهب Rio de oro لم يظهر في مكانه إلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وعلى الخريطة العامة القَطَلونية التي صنعها خايْمي بِرْطران Jaime Bertran في سنة 1482 نجد كلمتَيْ Cauo de Buxaidor وتحتهما كلمتَيْ Rio de Oro. وعلى الخريطة المعاصرة لها تقريبا، وهي التي تملكها خزانة مودين Modène نقرأ أسفل رأسِ (Cabo) مجهولٍ كتابةً خاطئةً هي Olo doro وتصحيحها طبعا هو rio d'oro. وختاما فعلى الخريطة البحرية المتقدمة زمنا بنحو عشرين سنة – وهي التي نجدها في الخزانة الأمْبروسِية Ambrusienne في ميلانو – نجد، ليس فحسب، الجون واقعا جنوبي C(ap) de Buxador، ومرسوما بدون خطإ، وبه جزيرة في وسطه مع الإشارة لقناة مائية قصيرة تنزل عمودية في طرفه الشمالي، بل نقرأ بسهولة فوق هذا النهر الزائف كلمات Punta de oro ومن تحتها rio dell'oro.

هذه التعابير عادت للظهور بعد غيبة طالت عدة قرون ماضية، فذكرت ثلاث مرات بين 1460 و1482، وعادت عن صواب إلى مبادرات

بعض من البرتغاليين الذين بعد أن تجاوزوا رأس بوجَدور منذ 1416 فإنهم شرعوا بين 1433 و1446 في القيام بمجموعة من البعثات على طول الساحل الممتد بين هذا المرتفع ومصب نهر السينغتل. ففي هذه الحقبة، وقبل إقامة الحصن في جون أرگين Baie d'Arguine، حيث أطلال الحصن تشرف حتى اليوم على الأراضي الخالية لأكبر هذه الجزر الثلاث، فإنهم في 1436 توغلوا في الجون الأبعد شمالا ليستكشفوا مداره والجزيرة الداخلية، ثم إنهم – كما عبّر على ذلك دْراپَر Drapper في 1686 – قد فرضوا على «القنال في الأرض» التي تنبعث في مواجهة الجزيرة بقاصية الشمال الشرقي لهذا الجون، اسم Rio de Ouro أو Rio de Oro الذي صار من بعد اسما للجون كله. ويضيف دْراپَرْ Drapper قائلا : «جاءتهم فكرة تسمية هذا المهاد الرملي باسم وادي الذهب بسبب أنه قد اشتريت فيه كمية من الذهب تِبراً من بعض الموريين الذين اعتقلوهم».

وهذه المعلومات الطريفة لها ثمنها، بحيث إذا كانت كافية بحد ذاتها، فإنها على الأقل تفترض أن الأهالي سكان الأحواز القريبة أو البعيدة، كانوا متعودين على القدوم إلى هنا يحملون الذهب، وإذا كانت المعلومة – وهذا هو المحتمل – لا تعبر إلا عن عنصر واحد من بين مجموع الأحداث التي تندمج فيها، فإن تلك الأحداث تبرهن عليه واقعيا.

ولنقارب بين هذه الأحداث باختصار حسب من عاصروها :

1)– في 1433 تقدم البرتغاليون إلى 30 غلوة جنوبي رأس بوجدور، وكانوا يتلقون عن السكان المجاورين معلومات يحملونها إلى قواعدهم.

2)– فسلّموا إلى الأمير هَنْري البحّار Henri le Navigateur المعلومة التي أهمته إلى حد أنه سارع فأمر جيل يانس Gil Eannes أن يجهز

أسطولا يدخل بحّارته في اتصال مع هذه العشائر. وفي سنة 1453 أنزل يانس Eannes فارسَيْن في جون صغير Anse اعتبراه واقعا على بعد 120 غلوة من رأس بوجدور، ولذلك سمي باسم (Angra dos cavallos)، ولم يصل هذان الفارسان لهدفهما إلا جزئيا، إذ واجهتهما جموع مهددة، وقد استطاعا مع ذلك أن ينجوا دون أن يأسرا أحدا.

3)– لم يعتبر الأمير نفسه أنه قد فشل، فأمر أن تعاد المحاولة في السنة الموالية، إذ كان عليها أن تنجح في نفس الجهات. والتعليمات البحرية اليوم تطلق اسم Baie Cavallo على الجون الصغير الموجود في رأس إيلْباوْ Pointe Elbow والذي ينفتح بنحو عشرين كيلومترا على «صخرة خيبة الأمل» Décepcion في المكان الذي رُسم به خليج (olfo)g dei cavallei في خريطة 1460. ولكن الخريطة العالمية التي عن 1482 تحل P(orto) del Cavaliero في Angra quesada التي في تعليماتنا البحرية، على نحو عشرين كيلومترا جنوبي «رأس الصياد» Pointe du pechaur (فيشِرْمان Fischerman بخريطة 1821 الأنگليزية)، التي بمواجهة رأس دَنْفورد Dunford تمنع من الشرق الوصول إلى وادي الذهب، وهي الوضعية التي تتطابق جدا مع الـ 120 غلوة التي يُفترض أنها تفصله عن رأس بوجدور. وأياً ما كانت الجهة التي نختارها، حيث أسطول الأمير هنري يكون أنزل بها شمالا، أو بالأحرى بجنوب الجون، فدائما من حولها جرت مهمتهم. وتكرار المحاولات التي جرت عليها يوضح انجذاب البرتغاليين إليها. وإن موقفهم عندما حصلوا أخيرا على الهدف المحدد لهم سنة 1436، وقاموا في نفس الموقع بإجراء أول عملية للمبادلة في الذهب (التِّبْر tibar) لَشاهِد على افتخارهم وفرحهم الكبير. وقد كتب شارْل دُلَرونْسيير Charles de la Roncière قائلا : «إن الأسارى

السود أو السمر الذين أُسِروا... عند بئر بالجون قد أفشوا لهم طريقة التجارة الصحراوية»، وحيازتهم لهذا السر ملأتهم بفرح كبير، وفي الحال أطلقوا على كل المواقع التي أحرزوا فيها على ذلك، الاسم المتوهج الذي هو وادي الذهب Rio de Oro، والذي سيوافق المستقبل عليه دون أن يفهمه. ولكنه بالنسبة لهم كان يلخص أمانيهم التي ألهبتها دراستهم للماضي. فلقد بدا لهم أنهم أمسكوا أخيرا بنهر الذهب عند وصوله للساحل بعد أن جرى من السودان، وأنهم أجروا الوصل الذي حلم به هَنْري البحّار وهو يتأمل الوثائق المتجمعة في مرقبه بِسَكْرِس Sagres، وأنهم قد أبلغوا للبحر المحيط الذي تخفق عليه أعلامهم ينابيع الثراء التي لِغينْيا ذات الأسرار.

ولننظر إلى الخريطة العامة التي لسنة 1482 فإن صاحبها خايْمي بِرْطران Jayme Bertran، عوض ذكر أسماء المواقع، فإنه بداخل القارة التي يحدها الساحل الممتد بين Cauo de Buxador وRio de Oro قد رسم صورة شيخ بلحية، وعلى رأسه تاج، وبيده اليُسرى صولجان، وكرة في يده اليمنى، وكتب بها اسمه باللاتانية تحت قدميه، وهو الملك «مِلّي» ملك غينيا Rex Almelli d(e) Guynea. ولكي يوضح أحسن توضيح أفكاره عن الجون الذي استولى عليه البرتغاليون، فإن بِرْطران قد كتب بجانب رسمه للساحل بين تعبير Rio de l'Oro وتعبير P(orto) del Cavaliero، وبحروف تضاعف الحروف الأخرى كلمةَ غينْيا Guynea. فواضح بالنسبة إليه أن الغزاة قد أعطوا البرهان الذي تمناه الأمير هَنْري بأن ذهب غينيا كان ينتهي في جون وادي الذهب Rio de Oro.

فهل قد أخطأوا جميعا في استنتاجاتهم المفرطة من حدث عَرَضي؟ وهل سيقال بأمر لا يعني في الحقيقة سوى غزوة نجحت، وعملية سطو

جرت من وادي الذهب على القوافل التي – عن طريق وَدَان، ودَرْعَة، وفَم الحصن – كانت تتهيأ للدخول لأرض المغارب Moghreb، على غرار ما سيفعله البرتغاليون فيما بعد انطلاقا من جون أرگين Arguine، فلو كانت الرواية بكماء لأمكن تأكيد ذلك، ولكن مهما كانت شحيحة ومضطربة في وصولها إلينا، فإنها تساير التصميم الذي سبق أن أملته الجغرافيا على مجهزي السفن القرطاجية. وإن التناسب الذي يربط الإلْدُرادو Eldorado الغيني بالشواطئ القاحلة في وادي الذهب، التي فيها كان فيما مضى يتحكم مستوطنو قيرْني البونيقية، والتي تؤكدها على طريقتها خريطة بِرْطران، والتي عوض الانطلاق من اكتشافات البرتغاليين، فإنها تقدمت عليها وكأنها شرط حتمي في عملياتهم. ومنذ أكثر من قرن كانت تظهر لجميع البحريات المسيحية من الروايات التي يذيعها الرحالة عن الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، ومن المحاولات التي قام بها الميورقيون Majorquins والجنَويون Gênois الذين تنافسوا في إعادة رسم تشكيل القارة الإفريقية. وفي القرن الثالث عشر حكى العربي ابن سعيد مغامرة ابن فاطمة الذي ركب البحر في أرض نون Noun بمصب نهر دَرْعة، فغرقت سفينته عند بربر گدالة Godala الذين تجعل إحدى الخرائط العامة في سنة 1320 لإقامتهم الكبرى جنوبي الساقية الحمراء ثم تنتشر مملكتهم لغاية جنوب جون أرگين. وفي 1348 كتب أحد الفرنْسِسْكانيين franciscain الأسبان في مؤلَّفه كتاب «معرفة الممالك» Libro do conoscimiento de todos los regnos، وحكى أنه ذهب من رأس بْويدير (Cap de Buyder) حيث (المور واليهود خاضعون لملك غينيا)، وأنه «ذهب مع بعض الجمّالين المور الذين يذهبون لحمل الذهب لمملكة غينيا». فمن المحتمل كما كتب لَرونْسيير La Roncière

أن يكون «كاتبنا الفرنْسِسْكاني قد قلب إلى جغرافيةٍ دينامية متحركة الجغرافيةَ الثابتةَ لخريطة الأرض Mappemonde المزينة بالرايات الصغيرة وفيها السعف الأخضر، والأقمار الحمراء، والجبال الدكناء اللون، التي تخفق على الممالك الإفريقية». ولكنه إذا كان وهميا، فتقريره مع ذلك ذو أهمية لأنه يبرهن على أن في زمانه كان «رأس بوجدور» Cap Bojador يعتبر في آن معا كحد لمملكة غينيا وكعلامة بالشاطئ الذي يحل به رجال الشمال الذين يريدون أن يقطفوا أحمال الذهب المبعوثة من الجنوب. وفي 1404 فإن گادِفير دُلَصال Gadifer de la Salle الذي كان يصحبه جانْ دُبيطَنْكور Jean de Béthencourt إلى جزر كناريا أعلن «عزمه على فتح الطريق حتى إلى flum de l'or وربّما للاستيلاء على جزيرة گادِزْ Gadezالتي هي قريبة جدا من flum de l'or».

أولاَ يكون جميلاً جدا التعرف في هذا الـ flum de l'or على وادي الذهب Rio de Oro وفي جزيرة گادِزْ على جزيرة قيرْني حيث الحكم الثنائي Condominium لقادس Gadès وليكسوس ربما حل محل سيادة قرطاجة. ولكن حيث إن ميسْيا دِفيلاديسْتِسْ Mecia de Villadestes في خريطته العامة لسنة 1413 قد سمى بالتأكيد نهر السينغال Riu de l'or وأحل بجوار مصب هذا النهر عدة «جُزر گادز» Gadez لا واحدة منها فحسب، فإنني لن أرتكب خطأ النزول عند الرغبة. والحقيقة هي أن Riu de l'or ينتقل على خرائطنا القديمة، ونحن نسير معه تبعا للمزدوجات التي تنضد جغرافية أفريقيا في العصور الوسطى، وسيفضي بنا في دوران إلى صلب موضوعنا.

وجدير بالملاحظة أن الأسماء التي تخص أكثر شيء تجارة العصور الوسطى في الذهب السوداني، توجد على كل خرائط القرنين

الرابع عشر والخامس عشر في مكانين مختلفين في آن معا. أي في وسط القارة، وفي جوار البحر المحيط بقرب وادي الذهب الحالي.

ذلك مثلا هو ما يخص غينيا التي جعلها خَيْمي بِرْطران Jayme Bertran بين Rio de l'Oro وخليج «del cavaliero »وبخريطة عامة صادرة عن فلورانسا Florence مؤرخة بسنة 1320 نرى فيها بموسطة الصحراء منعطفا لنهر يتجه للشرق ليضيع بالغرب وسط الرمال. وبداخل المنعطف توجد إطارات تحيط بكتابات لاتانية، وفي الوسط اسم غينيا Ganuya. وعلى اليمين كتابة فيها : «هذا النهر يخرج من النيل وبه يوجد كثير من الذهب» (*iste fluvius exit de Nilo, in quo multum aurum repperitur*) (كذا). وعلى خريطة أخرى من فلورانسا لسنة 1351، وأخرى لسنة 1415 نَقلت بوضوح سابقتَها، قُرب أرض گوزولا Gozola أي بجوار Rio de oro، رسمت الإطارات التي نقرأ فيها : «مقاطعة غينيا : Provinc(ia) Ganuya و(هنا يتجمع مسحوق الذهب – aureu(m) (كذا) hic coligitur – وتلك أيضا حالة البامبوك. فعلى خريطة ميسيا دفيلاديستس M. de Viladestes لسنة 1413، حيث كتابتان تذكران به : فوق البحيرة التي ينصب فيها السينغال، قبل أن يأخذ مجرى أفقياً تقريبا يذهب به إلى المحيط، فإننا نقرأ تِنْبُش Tenbuch[19]، من بعده وتحت رأس بْويتير Cap de Buyeter قد رسم بالأحمر والأسود إطار لحصن أو مدينة اسمها إيمْبَنْدوش Imbandouch. وعلى الخريطة القَطَلونية لأبراهام كريسكِس Abraham Cresquies عن سنة 1375، نشاهد داراً عند أقدام العرش الذي يجلس عليه الملك مِلِّي Melli، وتحته كتابة تنبش Tenbuch. ومباشرة بعد الرأس ومدينة بويتير Buyetter ينتصب حصن اسمه أوبَنْدوش Ubanduch. أي في نفس المكان الذي به تذكر خريطة قطلونية متأخرة عن الخريطتين

الأخريين، ومحفوظة في خزانة مودين Modène تذكر (بندوش Benduch). هذه الأسماء سبّبت الحيرة والقلق لشارل دُلَرونْسيير (ولكن ما هو أوبندوش ؟ وما قبيلة گودالا Godala ؟ إنه سر!) أما بالنسبة إليَّ فالسرّ ينكشف في ازدواجية باندوش Banduch مع بامبوك Bambouk مثل ما رأيناه عن غينيا Guinée وGanuya، وكذلك حدث مع Riu de l'or بدوره.

ذلك أنه إذا كان القَطَلوني ميسْيا دُفيلاديسْتس في سنة 1413 قد أنزل Riu de l'or إلى مصب السينغال، فإن مواطنَه أبْرهام كْريسْكس في 1375 رسم سفينة جاكْ فيرير Jacques Ferer – الذي ذهب يوم 10 غشت 1346 Per Mar al Riu de l'or – رسمها على 80 غلوة جنوبي رأس بْويتْدير Cap Buyetder أي أمام خليج وادي الذهب Rio de Oro. وسواء كان نهرا أو جوناً أو على الأصح نهراً وجوناً، فإن Riu de l'Or هو في الحقيقة الطريق التي تسير من هذا إلى ذاك. إذ في أعين جغرافيّي العصور الوسطى، فإن أرض الذهب الإفريقي جميعه تتألف من صورتين متتابعتين، وتنعكسان على قاصِيَتَيْ مداه، أي على المنبع القاري للذهب الذي يضيع مجهولاً في ظلمات الصحراء، وعلى مكان وصوله إلى البحر حيث تتجسد حقيقته في وعي رجال الشمال الذين يمكنهم الإمساك به هناك.

وكذلك فإن رسوم الخرائط القطلونية اجتهدت لتعبر على المظهرين القاري والبحري للتجارة العجيبة. فأبراهام كريسكس مثلا عمل على التقريب بينهما ومعارضتهما جميعا في رسم أهمّ لوحاته. فسلسلة الأطلس المرسومة كسلسلة المرتفعات الرملية التي تحدث عليها هيرودوت، هي متقطعة لتمرّ منها القوافل التي عن طريق «فم الحصن»

تنزل عند ملك جامعي الذهب في البامبوك. وفيها واحد من الطوارق Touareg بلثامه على ذقنه يتقدم ممتطياً جمله أمام الملك الأسْود الجالس على عرشه، وهو يقدم له بيده اليمنى تفاحة ذهبية. ولكن ها هو على المحيط يسير بقلوعه المنتفخة بهبوب الريح النكباء Alizé التي تدفع زورق جاك فيرير. وطبيعي أنَّ في الجنوب الشرقي لرأس بويتدير Buyetder تتجمع الخيام التي قد تصلح لراحة بحّارته، وكمرحلة للجمّالين البربر. وبطرق تختلف ولكنها تتقاطع في جهة وادي الذهب، فإن هؤلاء وأولئك يودّون أو يَصِلون إلى أرض سُود غينيا التي تصعد عاليا نحو الشمال، مثل أرض الأثيوبيين الدرْعَويّين Daratites التي كانت تدخل فيه في الأعصر العتيقة. فعلى هذه المسافات الشاسعة، لم تترك لنا مفاتيح كريسكس Cresques أي بيان نطلبه. ومن ناحية أخرى فَمَنْسا موسَى «سيّد سُود غينيا هو الأشد غنىً ونبلاً في المنطقة، حيث يكثر الذهب الذي يجمع في أراضيه». ومن جانب آخر فإن هذه الأراضي تمتد حتى دَرْعة لأن مَعبر «شِعْب دَرْعة Val du draa هو الذي يدخل منه التجار لأرض سود غينيا»، ثم إن اللفظ الذي كان أولاً غير مفهوم، والذي في مكان Rio de Oro كان مشتركا في قائمة كريسكس وقائمة أشباهه– وهو دانوم Danom – يجب أن يكون معناه : «هنا تبدأ أرض الدانيين Danites»، أي أرض البل Peuls (الفل) الذين هم سُمْر Cuivrés، والذين يبدو أن انتشارهم من بِينْوي la bénoué حتى «رأس بوجدور» قد ساير مجرى الذهب. إن كل شيء كان يسير كما لو أن المسيحية كانت متيقنة أن مسيرة القوافل نحو داخل السودان كانت موازية لتنقل بحري لم يتخلّ كلية عن الميناء الذي سبق أن اكتشفه الفينيقيون. وحتى لو لم يكن في هذا سوى سراب، فإنه على الأقل قد استعاد في مظهرها الحقيقة

التي جسدتها الطبيعة. وبمجرد ما تعزم إحدى البحريات المتجهزة بشمال أفريقيا أو بجنوب أوربا على الاستيلاء على ذهب غينيا بالتنقيص من المخاطرة وباختصار المسافات، فإنها تنطلق نحو الشواطئ التي كانت الأساطيل البونيقية المتحركة بنفس المطامع، والخاضعة لنفس الأسباب، تلقى بها مراسيها وتنزل مستوطنيها.

وبلا شك فإنه لن يستطاع أبدا تقرير ما إذا كانت هذه المماثلات الواضحة ناتجة، على بعد ألف وخمسمائة سنة، من استمرار نشاط متقطع وبطيء، وغير منقطع، أو من يقظة مفاجئة تحت ضغط الاحتياجات المتشابهة، أو هي مجرد ذكرى منبعثة في الحلم من أعماق القرون، كجلجلة الهاوية التي أغرقت مدينة إيس Ys كما تذكر الأسطورة؟ غير أن الواقع هو أن البرتغاليين قد كرروا ولنفس الغايات مسيرةَ البعثات البونيقية، وأنهم اندفعوا نحو Rio de oro بنفس الطريقة التي سار عليها القرطاجيون في الماضي نحو قيرني Cerné، وكأنهم يتجهون نحو الموقع الذي يستجيب بطول ساحل البحر المحيط أحسن استجابة لعاداتهم البحرية، ولشروط المتاجرة البعيدة والخطيرة التي كان عليهم أن يتحملوها. ذلك أن الوصول إليه سهل نسبياً، والطقس محتمل، وهو مزوّد بالماء العذب. ويحميه تداخل جونه من هياج البحر، وبكونه جزيرة من الهجمات. ومع هذا فهو قريب جدا من القارة، يكتنف الأفق ويراقب التهيجات. وبتأمل الخريطة فحسب، يبدو وكأننا نرى الأسطول البونيقي يرسو عند الشاطئ الصخري، الذي نراه فوق مهاد من رمال الركِّية Er-Reguia، ونرى دخان النار التي أوقدوها ليعلنوا عن حضورهم. وعما قريب ستتحرك بين الجزيرة التي يقيمون بها دائما، وبين الساحل

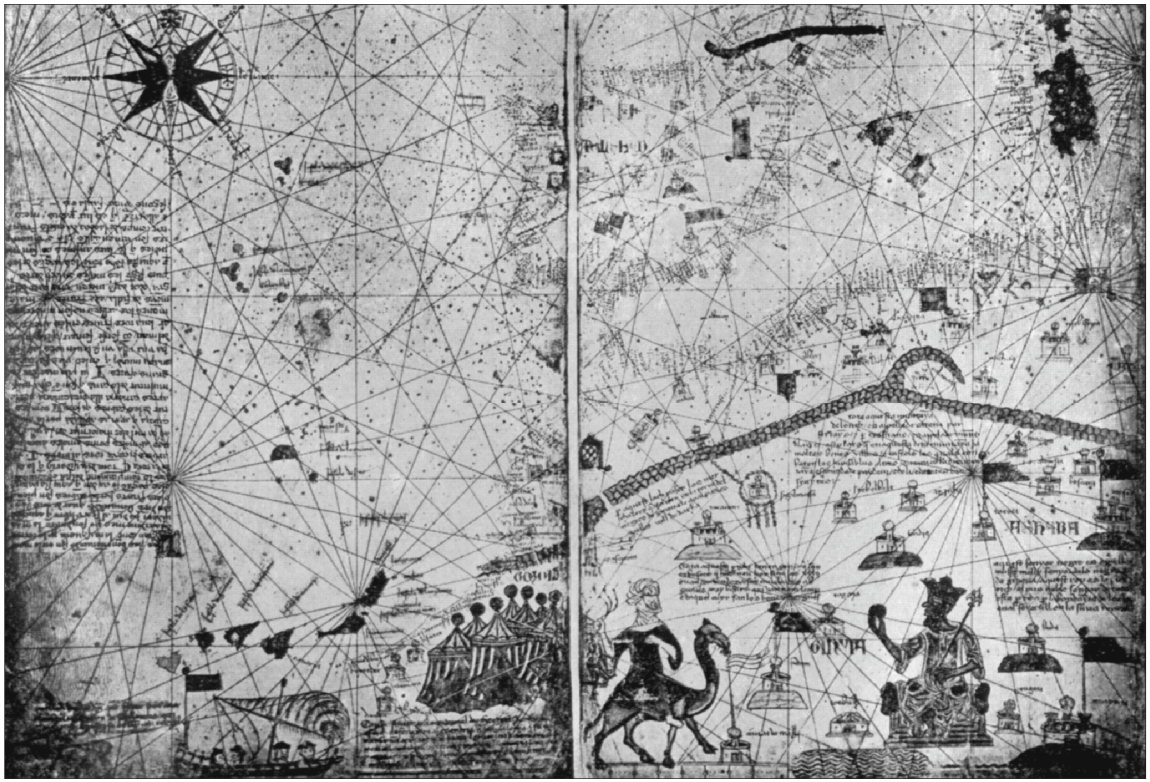

الخريطة العامة لـ گريك Cresques (تفصيل)

المقابل، زوارقهم المثقلة عند الذهاب ببضاعتهم الزهيدة، والمحملة عند الرجوع بزادهم من الذهب. فَنفهَم على الأقل أن اسم وادي الذهب Rio de Oro – بهذه السواحل التي حل فيها الدانيون محل الأثيوبيين الدرْعَويّين Daratites – يردد دائما صدى الإشاعة بوصول الذهب السوداني، إشاعة تذيع به كل سنة، أثناء قرون السيطرة الفينيقية.

حنّون عند السّود

وفوق ذلك فإننا نلمح بين سطور رحلة حنّون الترابط الاقتصادي الذي به كانت عملية جمع الذهب في البامبوك ترتبط بالمتجر البونيقي في قيرني. فبمجرد ما ينزل في الجزيرة، فإن الشوفيط يبادر في ركوب البحر إلى السينغال. ثم إنه بعد أن ينهي عملية التفتيش في هذه الجهة، يعود طبعا إلى قيرني وكأنما يعود إلى ميناء القيد. ثم يرحل بعد ذلك عن قيرني لإبحاره الطويل الذي لا يعْنيني – مثل اكْصيل في هذا – أن أزيح الشكوك عنه ولا أن أعرف المرافئ. وهو الذي سيقوده إلى ما بعد بركان الكامِرون، إلى عمق خليج غينيا. ومن الواضح أن قيرني كانت له مرفأ القَيْد Port d'attache في هذه المنطقة البعيدة. وكان كل شيء يجري كما لو أن حركة منتظمة قد وقعت بين هذه المحطة والخلجان السينغالية. بل إن هذا الشعور المتأكد، بحيث لا يمكن نكرانه، هو الذي في نظر اكْصيل قد منع من التعرف – وإن كان لم يقدر على الإنكار – بأن النهر الذي زاره حنّون عقب مغادرته لقيرني كان هو نهر السينغال. فقد قال : «قد يكون هناك ما يدعو للتسليم بأن حنّون في أول الأمر قد ساير الساحل طوال نحو 1500 كيلومتر حتى مصب السينغال، ثم عاد أدراجه على نفس المسافة سائرا في العكس، ثم يعيد المسيرة للمرة الثالثة. إن هذه الجيئات والروحات مما لا يصدّق». نعم، إذا أصررنا مثل اكْصيل، عقب فيشر Fischer وإيلينگ Illing على ارتكاب الخطإ في إحلال جزيرة وهمية هي قيرني في مصب الساقية الحمراء. ولكن عند ما ننقل موقع قيرني Cerné إلى خط عرض جزيرة هِرْني Herné في وادي الذهب Rio de Oro،

فإن التعرض يسقط بالمسافة التي تنقص بالنصف. إذ ليس هناك شيء يتوقع من هنا إلى خليج المرانْـگوان Maringouins، سوى خمسة أو حتى أربعة أيام للمسيرة التي – في اتجاه واحد على الأقل – كان يساعدها عاملان هما الرياح النكباء وتيار كناريا. والرحلة من قيرني إلى حدود البامبوك تستعيد حتما، ليس فحسب مصداقيتها التي يريدون تجريدها منها، ولكن بدل المفاجأة، فإن السهولة التي كان البونيقيون ينجزونها بها في الاتجاهين تظهر كعلامة على رحلة معتادة. ومن غير الإعلان عن ذلك صراحة، فإن نص رحلة حنّون يوحي بأنه كانت توجد بين قيرني والسينغال علاقة تبادل في الذهاب والإياب، تربط عادة أقاصي خط بحري نظم فيما قبل.

وعلى النقيض، ففيما وراء قيرني، كما فهم ذلك اگْصيل جيدا، فإن حنّون لم يُنزل المستوطنين في مكان ما. وكذلك، فخلف نهر السينغال، لم يعد سفره سوى تعرف على طول ساحل، لم يكن ليغامر فيه بهدوئه الجريئ المنبعث من نصه، لو لم يكن قد وقع استكشافه من قبل. ولكنه رجع منه بحديث مضمر بأن لا يعود إليه. وعودته إلى قيرني بعد زيارته للسينغال تبدي تقطعا في آن واحد في نسيج روايته، وفي تصور عمليته. فإلى هنا، كانت قصته منضدة بإشارات غامضة. وتخلخلها المقصود كان وحده يمنع من أن تكون مفيدة. وعلى النقيض فإن هذه المعطيات مفقودة نهائيا من بقية الرحلة. والجملة الأخيرة من الفصل العاشر تعلن بجفاء العودة (لقاعدة قيرني). والجملة الأولى من الفصل الحادي عشر تبتدئ بكلمات : «من هنا سِرْنا بحراً في اتجاه الجنوب طوال اثني عشر يوما مسايرين للساحل». ومن بعد، لغاية السطر الأخير من فصله الثامن عشر والأخير، فالصيغة الإغريقية من الرحلة، إذا كانت مليئة بالمشاهد المثيرة والحكايات المؤسية، فإنها لا تشتمل مطلقا على أية إشارة عن

التوجه. ونتذكر أنه لولا جملة قالها أرْيان Arrien، وشرحتُها من قبل، وهي آيتية إما من النص الأصلي، وإما من مؤلف بونيقي كان هذا النص به مشروحا، لولا ذلك لجهلنا أيضا أن حنّون بعد مسيرة بالبحر من الشمال للجنوب طوال 35 يوما من مضيق جبل طارق، أي مدة 22 يوما من قيرني، قد انحرف نحو الشرق انطلاقا من مرتفع لم يذكره، ولكنّه لا يمكن أن يكون سوى «رأس السعف» Cap des Palmes. وسكوته هذا، لا يسهل التعرف على توقفاته. وبعد مجاوزة كاكوليما Kakoulima الذي انتصب علوّه أمام حنّون مدة 12 يوما عقب مغادرته لقيرني، خارج الكامرون الذي يوجد علوه وهيجان بركانه في عربة الآلهة Char des Dieux ولا يوجد إلا هناك، فإنّني أحترسُ عن أن أقترح أياً منها. غير أن هذا السكوت هو مع ذلك معبر بطريقته، ويترجم دون شك التغير الذي حصل في طبيعة البعثة القرطاجية. فهي من قبل قد جرت على طرق معتادة للمرور، حيث التغييرات في الاتجاه كانت مألوفة عند السفن البونيقية. ولكن الآن فهي تجري طوال ساحل، بعض مظاهره مخيفة أو عجيبة، من طبول السود (طام طام) إلى لهيب أحد البراكين. فقد ضرب مخيلاتهم، ولكن تفاصيل خط الساحل مَكثَت غير مهمة عندهم، لأنهم كانوا يؤملون أن لا يروها من بعد أبدا. وبمقارنة قسمَيْ رواية الشوفيط، قبل قيرني وبعدها، يظهر أنه إذا كان حنّون قد عمل لغاية قيرني وامتدادها القاري، أي إلى حوض نهر السينغال، وفي النطاق الذي تعوده رفقاؤه في السياسة التجارية لوطنه، فعلى العكس، إنه لم يتابع سفره خارج السبل الموطأة، إلا بصفته مستكشفا وطالباً لأخبار تكميلية.

ليس لأنه كان أول فينيقي قد غامر إلى بعيد جدا. فاللِّكْسيون بالتأكيد قد سبقوه إلى الگابون Gabon وإلى السينغال. وبدون شك فإنه، لولا التراجمة الذين زودوه بهم، ما كان يستطيع أن يعرف أن

الكامرون كان يسمى «عربة الآلهة» وهو أول من يعترف أن تراجمته اللكسيين هم الذين علّموه كيف كانت تسمى المصبات المعروفة باسم «قرْن الغرب» Corne de l'occident و«قرن الجنوب» Corne du Sud، وهذه الغوريلات ذوات الشعر التي نرى فيها اليوم ليس قردات بل نساء الأقزام. وتحت الدثار الإغريقي الذي ألبسته ترجمتنا لرحلة حنّون، فإن هذه التسميات لا يمكن تفسيرها إلا بطريقتين، فإما أن يكون اللكسيون المترجمون قد أطلقوها أثناء أسفار سابقة، وإما أنهم استخدموا في نفس الحين وحولوا إلى الفينيقية التعابير التي تلقوها أمام حنّون من أفواه الأهالي. وهذا الافتراض الثاني يفرض نفسه إذا صح في لهجة البل Peuls والْوُلوف Ouolofs أن كلمتي گور – يي gôr-yi معناهما «هم رجال» وفي لهجة الصيريريّين Sérères أن كلمة كور Kor تعني على السواء الأنهار والخلجان والمصبات، وفي لغة الدوالاي Doualae المستخدمة على ضفاف نهر الووري Wouri، غير بعيد من البركان، فجبل الكامرون يُدعى دائماً مونگومالوبا Mongo Ma loba أي جبل الآلهة. فيكون اللكسيون قد قاموا بترجمة اللفظيْن الأولين بلفظين صارا في الإغريقية γοριλλαι وχεραϛ على التوالي. ولكنهم جدوا فترجموا جلال اللفظ الثالث بالاستعارة الموازية التي نجدها في «عربة الآلهة» Char des Dieux. وعلى جميع الحالات، فنحن متأكدون أن سفناً يركبها لِكْسيون قد سبق لها أن وصلت لهذه الجهات، إذ كان يوجد على سُفن حَنّون لكسيون قادرون على أن يفهموا بسهولة لهجات السكان. ولهذه الملاحظة قيمة كبيرة. لأن وجود جماعة من التراجمة اللكسيين على سفن الشوفيط يبرهن على الانتشار وعلى قِدَم علاقات ليكْسوس مع أجداد السود الذين يسكنون اليوم أفريقيا الغربية وخليج غينيا. وإن كثرة هؤلاء التراجمة لا ترجع فعلا إلى إرادة حنّون في مقارنة قدرتهم في استخدام

لهجة واحدة، بل إنه حقا لما أخبره اللكسيون اضطر للاحتياط حتى يتخاطب مع السود في عدة من اللهجات. ولكن يلاحظ أنهم – والحالة هذه – بعد أن أدوا مهمتهم على أحسن وجه في السودان، وبعد أن أظهروا قدرتهم على أدائها كذلك بصفة حسنة عند اقتراب الكامرون، فإنهم ضعفوا خلال ذلك. فعلى خمسة أيام من قيرني على نهر السينغال، وعلى خمسة وعشرين يوما من قيرني في خليج غينيا، كان السود يتخاطبون بلهجة مفهومة لدى تراجمة حنّون. لكن على اثني عشر يوما من قيرني، «إلا إذا كان ذلك بمجرى سانْ لوي»، فالسود سيطر عليهم الخوف عند اقتراب البونيقيين. فاستعملوا لهجة غير مفهومة حتى عند اللكسيين الذين كانوا مع الشوفيط. ولنسأل أحد الجغرافيين مثل گوتييه E. F. Gautier الذي لم يلبث أن أوضح هذا الأمر المتخالف، ولو أنه لم يقصد ذلك. فجامعو الذهب بأفريقيا المدارية لم يكن الاتصال بهم ممكنا إلا من «طريقَين عظيمين للتغلغل، وهما باب بِنْوي La Benoué وطريق السينغال». والتراجمة اللكسيون كانوا يعرفون اللهجات المستعملة بمدخلي القارة السوداء، ولم يكونوا يعرفون غير ذلك، لأنهم لم يكونوا بحاجة، لا لتعلم لهجات أخرى، ولا حتى إلى الدخول في علاقات مع الأهالي الوسطاء. وقدراتهم اللغوية المصوغة فحسب على التخصصات التجارية لوطنهم، لم يقع نموها ولم تظهر إلا في البلاد النافعة لتجارتهم الذهبية.

وهكذا تتضح السبل التي انفتحت أمام حنون. فلقد قام ببعثته – كما شعر بذلك گوتييه – ليضمن لقرطاجة السيادة على ذهب السودان. فاعتمد على تجربة اللكسيين الذين سبق لهم أن اكتشفوا واستثمروا هذا المنبع منذ قرون. وحاول بمساعدتهم، وبجعل خطاه أول الأمر تتقفى خطاهم، ليوسع على الأقل زبناءهم، إن لم يمكن توسيع مدى استكشافهم. وإذا صدقنا رواية رحلته، فإنه قد أخفق في المحاولات

التي كانت أخطارها تزيد مع المسافات، وكان نجاحها لا يساوي النفقات. وزنوج سيرّالْيون Sierra Leone أو ليبيرْيا Libéria الذين لم يروا أبدا أسطولا فينيقيا قد هربوا لما رأوه. وزنوج «قرن الغرب» Corne d'Occident بضجيج طبولهم وصنوجهم، أوْحوا بالحذر إلى بحّارته الذين كانوا سعداء جدا بطاعتهم للعرّافين الذين أشاروا عليه بالابتعاد. وثوران الكامرون أثار مخاوفهم قبل أن يرهب قراءه. فلم يسر إلى أبعد من ذلك، وبعد أن أَسَر في شمال الگابون Gabon ثلاثة أقزام إناث، حشى اثنتين منهن بالقش لتُعلّقا كغنيمة مريعة بجدار معبد تانيت بقرطاجة، ثم أمر بالعودة. ولاشك أنه إذ ذاك اتخذ قراره. ففي الذهاب قوى قاعدة ليكسوس القديمة في قيرني بمجموعة من المستوطنين، وفي الرجوع قواها بحصر دائرة عملها في السكان الذين يسهل الوصول إليهم وإلى عملية جمع الذهب orpaillage في البامْبوتوم Bambotum الذي ندعوه اليوم البامْبوك Bambouk، وهو الأقرب مسافة.

وهكذا فكإشارة إلى المستقبل، أي نهاية القرن الخامس عشر للميلاد، الذي سيتحقق فيه سيطرة البحرية البرتغالية، قفزاً على قوافل العرب، وبانحصار الإمبراطورية الرومانية في البحر الأبيض المتوسط، فإنّ جزيرة قيرني الصغيرة، الغارقة في جون Rio de Oro وادي الذهب، قد أكد حنّون لها مهمتها التي عينها لها اللكسيون. وهي أن تخزن في طريق المغرب البونيقي كمية الذهب الذي وقع جمعه بأيدي زنوج الفاليمي La Falémé والسينغال. وعلى طول نحو ألف سنة قامت بهذه الوظيفة بحظوظ مختلفة، ولكن باستمرار رسم بها إلى الأبد ذكرى المواقع التي فرضت حظها، في أدمغة الأهالي الذين أشركتهم فيها طبعا لمدة طويلة. وذلك أولاً بمبادرة الصوريين Tyriens أهل ليكسوس لاشك، بعد بضعة أجيال فحسب من تأسيس مدينتهم التي كان البحث عن المعادن الثمينة

على الساحل المحيطي هو سبب وجودها. وبإرادة حنّون بعد ذلك، الذي علّمته جولاته الخاصة، فجمع فيها القوة وحدد لها توسعها. وأخيرا حتى عقب تحطيم قوة قرطاجة التي كانت تحميها من سنة 460 إلى 146 ق.م، وبفضل الجرأة الحصيفة لبعض القراصنة البونيقيين، الذين بلغوا من الدهاء إلى حد أن أخفوا عن روما بعد انتصارها السر الذي عاش آباؤهم، وهم يصونونه بجهد بالغ، مجازفين بحياتهم وما يملكون، صونا لنشاط لم يكن الرومانيون ليتخلوا عن الغضب من وجوده، ومن مصادرة فوائده، لو شكّوا أن انتصارهم لم يكن ضربة قاضية.

نهاية الذهب البونيقي

أما عن استمرار التجارة بعد 146 ق.م، فلدينا عن ذلك شهادتان متعاصرتان تقريبا.

من ناحية، فإن كايْليوس أنْتِباتير Caelius Antipater الذي كتب في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م، يذكر أنه التقى بتاجر، سار بحرا لتجارته من إسبانيا إلى أثيوبيا : *vidisse se qui navigasset ex hispania aethiopiam commercii gratia*. وحيث إنه يستحيل التفكير بأن هذا الفرد المجهول قد أعاد معكوساً الطواف الذي قام به بحّارة نَخاوْ Nechao، فأثيوبيا التي يفتخر بأنه قد زارها لا يمكن أن تكون إلا أَرض الأثيوبيين الدراتيتاي Daratitae الذين كانوا يسكنون ليبيا بين دَراتْ (نهر درعة Daraa) والبامْبوتوم Bambotum (نهر السينغال). فمعهم لا يمكن أن تكون التجارة التي يتعاطاها سوى الذهب السوداني. ومع أن كايليوس أنتباتير Caelius Antipater قد سكت عن جنسيته عند ركوبه البحر في إسبانيا، فلابد أنه واحد من هؤلاء البونيقيين بِقادِس الذين كانت أساطيلهم تلتحق تحت سمع وأنظار الرومانيين بأساطيلَ بونيقيّي ليكسوس في مياه المحيط المغربي.

ومن جهة أخرى فإن بوسدونْيوس دَبامي Posidonios d'Apamée في النصف الأول من القرن الأول ق.م، قد أورد في كتابه عن البحر المحيط أو في تاريخه ترجمة حياة أحد المغامرين، هو أودُكْس دُسيزيك Eudoxe de Cyzique، وقد وصلت إلينا مختصرة بقلم سْترابون. وهذا

الشخص كان مجهولا ولكنه نال حظوة عند الملوك اللاّجـيّين Lagides في نهاية القرن الثاني، وهم : بطلمي الثامن Ptolémée VIII، وإقْرِجيت الثاني Evergète II، وفيسْكون Physcon وأرملته كيلوبترا Cléopâtre. فقد كلف أول الأمر باستكشاف الهند ونال وسائل القيام بمهمته، غير أن الرياح المعاكسة قد صدّته نحو أثيوبيا الإفريقية. فاصطدم فيها بِسُود نال مصالحتهم حين قاسمهم قمحَه وخمره وتينَه، ونال منهم مقابل ذلك مرشدين وتراجمة أنجز بواسطتهم قاموسا للهجاتهم. وزيادة على ذلك تلقى عندهم كسارة لمقدم سفينة، وقد نحت عليه في الخشب صورة لِفَرس. ولما عاد إلى الإسكندرية أخذ يجول بذلك الحطام على أرصفة المِيناء حتى أخبره بعض البحارة أن ذلك هو شعار المراكب التي كان يركبها أهل قادس Gadès بإسبانيا، عندما يذهبون للصيد في عرض ليكْسُس Lixos على الساحل المغربي. من ذلك الحين لم يرتح أودُكْس Eudox حتى جهز سفينة، قادته عن طريق ديكايْرشِيا Decaerchia (أي ميناء بوزول Pouzzoles) ومَساليا Massalia (مرسيلية) إلى قادس. ومن هنا نشر القلوع ليصل للهند دائرا مع أفريقيا. فدفعته الرياح المواتية التي كانت تهب دون انقطاع. فنزل إلى الجنوب حتى أحد المرتفعات الذي كان سكانه سوداً، ويتكلمون اللغة التي كان يملك معجمها. وإذ ذاك عاد أدراجه، وبعدما توقف في جزيرة خالية بدا له أنها مزودة كثيرا بالخشب والماء، نزل عند الموريين الذين ترسخ استقلالهم بسبب اندحار البونيقيين، فتوجه برّاً إلى بلاط ملكهم بوخوس Bocchus ورجاه أن يحتسب لنفسه ما بقي من السفر الموقوف، ثم تنبه إلى أن أصدقاء الأمير البربري لا يبدون الموافقة على خططه إلا ليجرّوه إلى أحبولة ليقتلوه أثناء الطريق. ففر بغتة إلى الطرف الآخر من أرض المغارب،

للولاية الرومانية بأفريقيا، راجيا الحماية التي تمكنه من أن يرى ثانية الجزيرة التي كان يحلو له أن يقول إنه اكتشفها، ويشعر بالحنين إليها.

هنا تنحصر مغامرات أودُكْس دُسيزيك Eudoxe de Cyzique ويبتدئ النقد المفترس الذي مزق به سترابون الرواية التي بلّغها له پوسِدونْيوس «الذي له مقامة سامية بين الفلاسفة». وبالطبع يحسن التنبه لِلأخطاء العظيمة التي في القصة. ولكنني أرى أن الادعاءات والاحتيالات التي تملؤها لا تمنع مطلقا من استخدام أساس متين وصادق فيها. وإني أسلّم مثلا أن من البلادة افتراض وصول حُطام لِكْسِيّ لوحده من الرأس الأخضر Cap vert إلى رأس گَرْدافْوي Cap Gardafui، بعد أن يكون قد اجتاز رأس الرجاء الصالح Cap de Bonne-Espérance. وأفهم جيدا وسريعا الاستفادة المادية لأودُكْس وهو يعرضها على أرصفة الإسكندرية ليبرهن على أقواله وليؤثر في بعض المقرضين المتمنّعين. ولكن أكاذيبه كانت تقع على ظروف ما عثر عليه، ولا تنال مطلقا حقيقة الحدث المروي: فالوجود في قادس Gadès في نهاية القرن الثاني ق.م لمراكب مخصصة للإبحار بالمحيط مع السفن اللكْسية المعروفة باسم گڤال Cavales أي الخيول بسبب الشعار الذي يعلو مُقَدّمها، هي شهيرة حتى في مصر بقوة بحّارتها وسعة مدى عملها. وكذلك، إذا قل تصديقنا في أن بوخوس قد شاء قتل أودُكْس وأن لا يتركه يذهب عند الرومانيين، فإننا نفهم أن يكون أودكس قد التجأ لهذه الحيلة لينال من مضيفيه بأوتيكا في أفريقيا البرُقُنْصولية، الاعتمادات المالية التي كان أنهى صرفها في مصر، وكان الموريون قد امتنعوا عن تجديدها له. ولا يمكن تفسير إلحاحه على نفس الإبحار لولا الإغراء بالربح الذي، عن خطإ أو صواب، قد منّى نفسه به. وكذلك إذا ترددنا في التصديق بأن أودُكْس قد اتسع وقته في رحلته الخائبة إلى الهند، لينجز بساحل أرض الصوماليين معجما يمكن

استعماله على ساحل أفريقيا الغربية الفرنسية، فمن الواضح أن ادِّعاءه يقع على المعرفة التي حصلت له باللهجات التي من نفس النوع، وأن هذه المعاجم ما كانت لتؤلف في البلاد الإفريقية التي على المحيط شرقا إلا بواسطة البونيقيين. وأيضا إذا كانت الجزيرة التي تغنَّى بها أودكس قد اشتملت بعنايته هو على الخشب المفقود بوادي الذهب، فيفترض أنه لم يُزيّنها بهذه الزينة الخيالية إلا ليحسن إخفاء ما يجتذبه حقيقة. وعلى كل فإن الوضعية التي عينها لها تتفق مع وضعية هيرْني Herné، آخر جزيرة – والوحيدة – التي تظهر لأنظار بحّار يأتي من الجنوب، قبل أن يدخل في مياه المنطقة التي كانت فيما مضى راجعة إلى موريطانيا بوخوس Bochus مثلما هي راجعة اليوم للمغرب. وباختصار، بينما سترابون قد غضب عن حق من الاحتيالات التي ابتدعها أودكس مدحاً لنفسه، ولفائدة استعطائه طبعا، فإن پوسِدُنْيوس دِيامي Posidonios d'Apamée العظيم، لا يُلام أبدا على كونه تلقى الحقائق الموضوعية التي صلحت إطارا لهذه التمثيلية. ومهما لُمْنا على التبجحات والتزييف عند أودُكْس دُسيزيك، فإن أكاذيبه نفسها تؤكد لنا التاريخ والجغرافية اللذين تقدمهما لنا. وباستثناء شخصيته هو، المضطربة كثيرا، وبغض النظر عن كوارثه المشكوك فيها جدا، فإنها تقنعنا أن اللكْسِيّين في زمانه، كانوا تحت راية قادس أو رايتهم يعملون جاهدين ليخلُدوا على الأقل بمجهودات منعزلة وعابرة، واحدا من أجمل النشاطات لبحريتهم التجارية، وأنهم أحيانا لا يزالون يذهبون – بفضل استمرار الرياح النكباء Alizés التي سرّ أودكس لما شعر بمحاسنها – ويحاولون الوقوف عند الجزيرة القفراء اليوم في وادي الذهب، وهم يؤملون أملاً غير أكيد أن يشاهدوا فيها مثلما شاهدوا فيما مضى بمستوطنتهم في قيرني Cerné وصول أحمال الذهب. وفي الأخير فإن بعضا من الإغريق المحتالين مثل

أودُكْس دسيزيك والمطلعين على حِيَلهم، والمأخوذين بمطامحهم ما كانوا يرجون أن يعملوا أحسن مما فعلوه.

غير أن هذه كانت آخر الشرارات من وهج كان ينطفئ. فالبونيقيون كانوا أقاموا حراسة قاسية حول قيرني التي جعلوها منذ عهد حنّون تحت سيطرتهم. وكأنهم أسفوا على أن الشوفيط قد قال الكثير عن الجزيرة الغريبة، فأضلّوا بتقارير جديدة الأهمية التي قد تثيرها لدى الأجانب. فكان ذلك أداة بسيطة لدعاية لم تكن صادقة، ونجد صداها في هيرودوت وعند بْسودو سيلَكْس. فالأول قد بحث عن قيرني في شمال سَدْرة الصغرى Petite Syrte في سيرونيس Cyraunis. والثاني ذكر العاج كمادة ثمينة يقع بها التبادل فيها، وأكد أن ما بعد قيرني فالعبور منه مستحيل بسبب المضاحل والوحَل والعلق. لقد أَبْعَدت قوة قرطاجة عن قيرني Cerné المسافرين الذين لم يكونوا مواطنين، أو حلفاء أو رعايا لقرطاجة. وانهيار قرطاجة سيؤدي مع الزمان إلى التوقف عن أي سفر.

لم يكد سِپْيون إيميلْيان Scipion Emilien يقيم الحصار على العاصمة البونيقية، التي حوصرت تماما وفُصلت عن مراكزها القريبة والبعيدة، حتى أراد أن يطلع مباشرة على أحوالها. ولهذه الغاية، فإنه منذ ربيع سنة 147 ق.م أسند لاثنين من الإغريق من حاشيته، هما الفيلسوف پَنايْتيوس Panaetios والمؤرخ پوليب Polybe، بأسطول روماني، وكلفهما بمهمة استكشاف السواحل الإفريقية المحيطية بهذا الأسطول. وقد غابت عنا رواية رحلتهما التي لم تكن مما يذاع. فإن بوليب قد أودع منها أقساما في الكتاب الرابع والعشرين XXIV من تاريخه الذي ضاع، غير أن پْلين Pline كان قد سجلها في جذاذاته، وبهذه الواسطة، فإن بعضها قد وصل إلينا. ففي الكتاب الخامس من

كتابه «التاريخ الطبيعي»، حرر پْلين عن بوليب ثلاث لوائح يتمم بعضها بعضاً بالطبع. أولاها عن الأنهر المغربية التي تنصب في المحيط من أعمدة هرقل إلى البامْبوتوم (نهر السينغال) بإدماجه. ثانيتها عن الشعوب المتتابعة من الشمال للجنوب على هذا الساحل حتى الأثيوبيين الدَّراتيتيين Ethiopiens Daratites وبإدْماجهم كذلك. ثالثها عن المراكز التجارية Comptoirs التي أقامها به الفينيقيون، والتي آخرها فيما وراء سُلويْس Soloeis (رأس كَنْتان)، أي ميناء روسدّير Rusaddir (أي موگَدور، الصويرة، حسب اگصيل، وأگادير أكثر احتمالا)، ولا ذكر لقيرني في هذه الفقرة. غير أنه في فصل من كتابه السادس، حيث يعلن پْلين استناده على بوليب، فإن قيرني قد جُعلت على ثماني غلوات Stades أي على ميل واحد من القارة، بأقصى موريطانيا، وبالتدقيق أمام الأطلس. فإذا كانت المسافة المعترضة هكذا بين الجزيرة والساحل صحيحة الذكر، فالوضعية التي جعلت لها في مواجهة الأطلس، والتي سيستند إليها بطلمي أيضا في إحداثياته الجغرافية، لا يمكن اعتبارها سوى خطإ واضح وكبير، نظرا لعدم وجود أي جزيرة مواجهة في آن معا للأطلس الصغير ولا للأطلس الكبير. وبالتأكيد فإن بوليب ما كان ليقع في هذا الخطإ، لو أنه توجه على الأقل إلى نهر دَرات Darat أي دَرْعة كما يود أن يجعلنا نصدقه. ولكنه ارتكب الخطأ الطفيف الذي يرتكبه الرحّل الذين هم كتّاب في آن واحد – مثل شاتوبْريان Chateaubriand في أميريكا – إذ كتب رواية أطول من رحلته، وخلف لنا دون حياء ثمرة تجربته الشخصية. ومن بعد روسدّير Rusaddir لم يكن سوى خلاصة قراءاته، مضافة إلى الأحاديث التي سمعها على ظهر سفينته. والمتأكد هو أن أثقاله أو أثقال رفقائه كانت تضم ترجمة إغريقية لرحلة حنّون، فبها وكذلك بالذكريات التي احتفظ بها، توسع في وصفه. وإلا فإن مسيرته إلى «قرن الغرب» Corne d'occident،

الذي أخطأ فيه مع ذلك – إن صح أن قلمه هو الذي جعل هذا الخليج ربوة – كمسيرته إلى عربة الآلهة Char des Dieux الذي لم يتعب پْلين نفسه في ترجمة اسمه إلى اللاتانية عن الإغريقية لما نقله عن بوليب، فقال : Theon Ochema.

وما زاد على ذلك، فالمتضح هو أنه سأل اللكسيين الذين استخدم منهم بحّارته. ومنهم كذلك عرف أن المسافة بين مصب نهر أناتيس Anatis (أي نهر أم الربيع) وبين ليكسوس Lixus هي 205 أميال، كما أن 234 ميلا هي مسافة ما بين ليكسوس وروسِبيس Rusibis (الجديدة). واعتمادا على أخبارهم جعل أمام الأطلس قيرني Cerné التي لم يكن ليراها لو أنه نزل لعين المكان. فالبرهان إذن قد قام في آن واحد على الاستخفاف الذي اتخذه بوليب بواجباته في مهمته، وعلى الخداع المقصود للبحّارة الذين كانوا يصاحبونه. فاللكسون الذين اختارهم مرشدين أعفوه من أن يَعرِف بنفسه وضعية جزيرة كانوا يأملون أن يبقوا، إذا ما اندحرت قرطاجة، وحدهم عارفين الطريق إليها والاستفادة من فوائدها. كما أنهم كلفوا أنفسهم التعريف بها بدمجهم لعناصر متباعدة، مزجوا فيها بدهاء بعض الحقائق كابتعاد قيرني عن أقرب أرض مجاورة، وبالخطإ الأساسي في موقع هذا الساحل، خطأ يجعل كل تدقيق لمعطياتهم الأخرى عبثا باطلا.

ولربما أنهم بعد ذلك ببضع سنين قد حاولوا أن يعبّروا عن ابتهاجهم بخداعهم حينما تمنوا عقب تحطيم قرطاجة أن عدم مبالاة الرومانيين بهذه المناطق المربحة والبعيدة ستحيي لصالهم اختصاصهم بالبحرية التجارية على البحر المحيط الليبي. ولكن كان من المحتم أن تنقلب حساباتهم ضدهم. فلاشك – وليكسوس قد تحررت

من السيطرة البونيقية – أن تحتفظ على الأقل، إلى قيام حكم القياصرة الأولين، بنوع من النفوذ الخصوصي لها على سواحل المحيط الأطلنطي الجنوبي. وعندما تعلّق الأمر بِأَگْريبا Agrippa بإدخال الساحل المغربي في خريطة العالم الروماني Orbis romanus، فمن ليكسوس انطلق قياسه. وفيما بعد، في عهد تيبير Tiber، فإن سترابون ذكر ميناء ليكسوس بأنه نقطة الاتصال بين البحرين الأبيض المتوسط والمحيط. وعدّ من مدينة ليكسوس المراحل التي تفضي عن طريق البر إلى تخوم السود Nigrites، على ثلاثين يوما من السير من أسوارها. وختاما ففي عهد ڤسْباسْيان Vespasien، فإن پْلين الكبير Pline l'Ancien يرى دائما أن ليكَسوس هي النهاية المفروضة لجميع الطرق البحرية أو القارية للقسم الغربي من ليبيا الذي صار هو المغرب، سواء منها الطرق المؤدية إلى بابّا babba، وبَناسا Banasa، ومنها إلى وليلي Volubilis، أو الطرق التي تؤمن المواصلات على المحيط إلى مصب سُبوبوس Sububus (نهر سبو) وأبعد منه إلى ميناء سَلاَ Sala (شالة – الرباط) بمصب النهر الذي يحمل نفس الاسم، وهو (بورَگْراگْ). ولكن أثناء هذه الحقبة التي لم تتحرر فيها ليكسوس من سيطرة قرطاجة إلا لتقع في قبضة الملوك الموريين حلفاء روما أي أتباعها، ثم تحت سيطرة الأباطرة من بعد، فإننا سنخطئ إذا عزونا للأسبقية التي كانت لا تزال، بين المستوطنات البونيقية القديمة، تحتفظ بقيمتها الاقتصادية التي كانت لها سابقا. وإن العظمة التي يكسوها بها كُرْنيلْيوس نِبوس Cornelius Nepos، لم تعد بشهادة پْلين سوى مبالغة خادعة لماضٍ انتهى كلية. فلقد كانت تدين بازدهارها الأول إلى بطولة الفينيقيين. الذين تجرأوا فأقاموها بعيدا جدا، وإلى جرأة بحارة صور الذين كان علمهم يخفق فوق مؤسساتها. ولقد زادت في ذلك الازدهار بعد حملة حنّون اعتمادا على أساطيل

قرطاجة التي أصبحت هي عاصمتها الحامية. فبفضل هذه القوات المهيبة استطاعت أن تبادئ ثم ترسخ تجارتها مع السود المنتجين للذهب. ولقد انهارت يوم فقد تلك القوات. وبالفعل كان يفترض وجود مركز أمامي لنقله، ووجود مستوطنة دائمة تكون في نفس الحين محطة ومخزنا وحامية. وبدورها فإن هذه المستوطنة المقامة على جزيرة قيرني الصغيرة المنعزلة، قد فرضت، لكي تحيى، التواصل بخط بحري مستمر، ولانتظام التموين في أوقات معلومة، وللإسراع عند كل إنذار بالمساعدة البحرية التي تتوقف عليها في الأخير سلامة رجالها ومخزوناتها وتعاملاتها. إن كل هذه الشروط قد قضي عليها بسبب انتصار إيميليان Emilien المسبب للعقم، ثم إن ليكسوس، وقد انطوت على نفسها، صارت محكوما عليها عاجلا أو آجلا بالتخلي عن قيرني، محكوما عليها عاجلا أو آجلا أن لا يكون لها مع السود جامعي الذهب سوى علاقات متقطعة وفردية. وعوضا عن عهد التجارة العادية، وعن مجهزين للسفن تساندهم سياسة إمبراطورية، فقد حل محلها تجارة المغامرات السرية والقراصنة. فتوقف ذهب البامبوك عن التدخل في اقتصاد العالم الروماني، ووقع نسيان طريق قيرني بسرعة، حتى إن سترابون كان يحيل وجودها على الشك. والقدماء الذين كانوا من بعده يصرّون على التصديق بها قد أضاعوا السبيل.

فَبْطُلمي Ptolémée بعد پْلين Pline جعلها حيث لا يجب أن تكون. وأحد كتّاب پْلين الذي نفتقد معرفة شخصيته مع الأسف لا يذكر على ضفافها المقفرة سوى الطيور الجارحة التي تكسوها ببيضها. ونرى عودة ازدهار الحكايات الخيالية التي سبق أن أذاعها البونيقيون حينما كانوا يضللون هيرودوت نحو جهة سيرونيس Cyraunis. وإيفور Ephore إلى جهة الخليج الفارسي. أما بوزانياس Pausanias فيخلط بين

اللكْسيين والنّصَمونيين Nasamons، في انتظار أن يأتي شعراء الإمبراطورية السفلى الذين لا يذكرون اسم قيرني إلا ليطلقوه مقابل اسم «تولي» Thulé، ليعبروا به دون أي تعريف دقيق، وإنما لمطلق الرمز على نهاية الكون عند الجنوب، كما يدل اسم تولي Thulé على رسمه عند الشمال :

Libyes ubi litora cerne…

Aethiopum populos adit ultima cerne.

أو تأويلا حرفيا أيضا لجملة مقلوبة المعنى، للكاتب ليكوفْرون Lycophron، ويجعلونها، كما فعل الشاعر نُنّوس Nonnos[20] في قاصية المشرق حيث ينتبه الفجر في هذه المنطقة الرائعة بين سماء وأرض يعلو فيهما جلال زِيوس Zeus.

ودائما فإن الجهل بالجغرافيا يوقظ إبداع أصحاب الأساطير. وهنا كما في غير هذا المكان فإن الأسطورة اقتحمت المجال الذي تخلى عنه العلم والعمل. وَذَهَبُ قيرني لما تنحى عن الجريان بين الناس، فإنه استعاد عظمته في أعمال الأبطال والآلهة. وكانت رحلة حنّون قد ذكرت ثلاث جزر غربية، كل واحدة منهن تتغلغل بين سواحل أحد الخلجان: حيث جزيرة القرن حقيقة l'Île de la Corne أي قيرني Cerné، وجزيرة قرن الغرب l'Île de la corne d'occident، وجزيرة قرن الجنوب l'Île de la corne du sud التي فيها أسَرَ القرطاجيون الغوريلات "gorillai" التي قيل عنها إنها هي الگُرْگونات Gorgones، في تاريخ لا نستطيع تحديده، ولكنه يجب أن يكون بعيدا، لأنه كان سابقا على περι απισιων للأديب باليفاتوس Palaiphatos. فحسب هذا الذي كان معاصرا لأرِسْطو فإن

الـگرگـونـات الثـلاث، وهـن سْثـينـو Sthéno ، وأورْيـالـى Euryalé، وميـدوز Méduse كـانـت قـد قـررت عـنـد مـوت أبـيـهـن فـورْكـيـس Phorkys أن تـقـسـم بـيـنـهـن الـجـزر الـثـلاث الـتـي كَـوّنـت مـمـلـكـة أبـيـهـن، وأن تـمـتـلـك دوريـا كـل واحـدة مـنـهـن الـتـمـثـال الـذهـبـي الـذي صـنـعـه أهـل قـيـرنـي أيـام ثـرائـهـم لـلإلـهـة أثـيـنـا، وكـان الـتـمـثـال قـد أثـار طـمـع بـيـرْصـي Persée فـاسـتـولـى عـلـيـه بـالـقـوة بـعـد أن قـطـع رأس ميـدوز Méduse. وعـلـى غـرار ذلـك فـإن خـيـال الـشـعـراء قـد زيـن بـالازدهـار الـخـالـد لـحـدائـق الـهـسـبـريـد Hespérides ضـفـة نـهـر الـلـكـوس الـذي طـالـمـا صـعـدت مـعـه إلـى لـيـكـسـوس الـسـفـن الـعـائـدة مـن قـيـرنـي بـأحـمـال مـن وادي الـذهـب. ومـثـل هـذه الـسـفـن فـإن سـفـيـنـة بـيـرصـي Persée أرسـت فـيـهـا فـي طـريـق عـودتـه، وقـد جـرب هـذا الـبـطـل لأول مـرة قـوة غـنـيـمـتـه الـبـشـعـة. فـجـمّـد خـصـمَـه أطـلـس صـخـراً، وصـيّـره جـبـلاً بـعـرضـه لـرأس الـگـرگـونـة. هـكـذا انـتـهـت فـي مـواقـع بـدايـتـهـا دورة أسـطـوريـة سـايـرت فـيـهـا الأوهـام سـبـل الـتـاريـخ. وبـفـضـلـهـا عـلـى الأقـل اسـتـطـاع الـلـكـسـيـون أن يـتـعـزّوا عـن تـحـطـيـم مـتـجـرهـم وعـن فـقـدان ثـرواتـه، بـنـقـل إلـى لـغـة الأسـاطـيـر، يـعـجـب مـنـه پْـلـيـن ويـغـضـب لـعـظـمـة مـاضـيـهـم، وبـالـتـذكـيـر – عـلـى ألـسـن بـلـغـائـهـم Ciceroni – بـالـذكـرى الـتـي لا تـصـدق لـوجـود الـتـفـاحـات الـذهـبـيـة الإلـهـيـة فـي أرض وحـلـة، حـزيـنـة وجـرداء تـتـراءى دائـمـا مـن أسـوارهـم الـقـديـمـة.

مغرب الرومانيين

1

وَليلي مدينة إقامة يوبا والحكّام الرومانيين

إنها الحِلْية المباغتة والماجدة للتنقيبات الأثرية بِوَليلي Volubilis، التي أمر بها المارشال الْيوطي في غمرة الحرب وتابعها بنشاط منذ 1916برئاسة السيد لْوي شاتُلان Louis Chatelain. والآثار التي قدمتها الكشوف لنا، هي : أولاً رأسٌ من المرمر، لها تعبير قوي، لشاب بذقن قصير، يمط الشفتين في بعض الازدراء. له جبين واضح، ويختفي منه قسم تحت خصلات الشعر التي تغطي في نعومةٍ إحداها الأخرى. ثم على الخصوص البرُنْزِيات التي كل منها له أهمية وقيمة، كالكلب الذي يعوي بشراسة، والذي عند اكتشافه سنة 1916 أثار إعجابا ربما فيه بعض التزيد. وكان تشكيله الذي لا يزال يُرى في مؤخرته يدفعنا إلى اليقين بأنه كان يزين إحدى السقايات بمدخل أحد المنازل الثرية، وهو منتعش حركة وحياة. ورأس البغلة المزيّنة بشريط العناقيد التي كانت سابقا تزيّن قائمة فراش، وتدخل، كما رأى عن صواب السيد پيگانْيول Piganiol، في الزينات المعلقة على الأفرشة العتيقة التي يطلق عليها پْلين اسم أفرشة ديلوصْ Lits de Délos أي lecti Deliaci. ومنها الفتى الفارس l’éphèbe cavalier، وهو تقليد بالغ الإتقان للفن الإغريقي، وظن كثير من

الناس، وقت اكتشافه، أنهم يرون فيه أثرا أصيلا لمدرسة پوليكْليت Polyclète. وكذلك تمثال الفتى المتوّج بإكليل الغار الديونيسي dionysiaque الذي لم يَنْسه من رأَوه. فالفنان شكّله تقريبا في جسامة طبيعية، واقفا عاريا، وفي انثناء متناسق لجسمه، حيث الرجْل اليمنى قد كانت على الأرض بوضوح، والفخذ اليسرى متراجعة تراجعا خفيفا إلى الجانب وإلى الخلف ولا تمس الأرض إلا برؤوس الأصابع، وتؤدي الحركة التي ترسمها الذراع اليمنى التي كانت تنزل مبتعدة كما لو كانت تهدي الزهرة التي تمسكها اليد التي كانت مضمومة قليلا. لاريب أن ذلك كان أجمل البرنزيات العتيقة التي ترجع لمجموعة فرنسية(*). ولولا أن الغوص بحرا بالمهدية التونسية لم يجعل تونس تحتفظ لنفسها بحطام السفينة المحملة بأمر سيلاّ Sylla لتنقل الغنائم من الأتيك Attique إلى إيطاليا، لولا ذلك، لكان متحف وَليلي هو الوحيد بجميع الشمال الإفريقي الذي يتحفنا بمجموعة من روائع المنقوشات الفنية القديمة. وبجميع أرض المغارب لا توجد سوى شَرْشال التي انفرج لنا ترابها عن تماثيل موثوق بصحتها الكلاسيكية والمؤثرة. كما يجب أن نلاحظ أن تماثيل شرشال التي أُنجز أجملها في العهد الأوغُسطي، هي نسخ من المرمر لأصول من البرنز، أما تماثيل وليلي فقد وصلت إلينا في نفس المعدن الذي أنجزت فيه. لكن بينما أجمل تماثيل شرشال تؤرخ على الخصوص بالعهد الأوغسطي، فلهذا العهد ترجع دون شك جميع تماثيل وليلي التي وصفناها.

ويمكن أن نحتار في افتراضات للتعرف على الأصل الذي أراد تمثيله الرأس المرمري : فالطريقة التي أنجز بها الشعر تمثل إلى حد

*) فرنسية (؟).

الالتباس الخصلات التي نبصرها في عدة تماثيل نصفية لأوغسط Auguste نفسه، فتعطي للرأس تاريخه. والكلب بدوره لن يشوه مجموعة الحيوانات التي بمتحف نابولي Naples، حيث المؤنسة أو المتوحشة منها. فإن الثدييات والطيور، مهما كانت أصولها، هركولانية herculanaise أو بومبية Pompéienne، فهي تقدم هذه الخاصية المشتركة بينها، وهي أنها استخدمت لتصبّ من أفواهها في فسقيات أو أحواض الماء الذي يأتيها من أقواس المياه. ومجموعة الأعلوقات appliques البرنزية التي تعلو الأفرشة الديلوصية licti delici – وكان رأس البغلة المزينة بشريط العناقيد قسما منها – قد بدأت تظهر في القرن الثالث قبل الميلاد، وكثرت في نهاية الثاني وبداية الأول، عند ما حملت السفينة حمولة المهدية التي أعاد إلينا البحر بقاياها. ثم توقف هذا النوع في مجرى القرن الأول للميلاد في هرْكولانوم Herculanum. وفارسُ وَليلي يفوق في قوة صنعه جذع التمثال البوليكليتي polyclétéen الذي بشرشال. ولا شك أنه ومثله قد جرت هندمته في واحد من تلك المصانع التي عرفت الشهرة بروما حول نهاية الجمهورية وبداية عهد الإمبراطورية، مستوحية أمثلة خرجت من مدرسة أرگوص Argos ما بين 470 و460 قبل الميلاد. أما الفتى البهي الجميل المتوّج بإكليل الغار، الذي جمع بتوفيق بين الاتجاهات والأساليب، فيشهد، برسوخ مذهب بوليكليت Polyclète بوفاء صادق للمنهج الأتيكي Attique. وهو شديد الاقتراب من إيدولينو الفلورنسي Idolino de Florence ولحمالات المصابيح في Via dell'Abondanza في بومبيي، وذلك ما لم ترجع مثلها إلى ما حول عهد الميلاد (إما قليلا قبله أو بعده)، أي إلى قلب عهد أوغسط الذي اتسع فيه ذوق التقليدات الحرة للفن القديم للتماثيل الإغريقية، وللمصانع الهيلينية التي حلت آنذاك في إيطاليا، ولإذاعتها على العالم الروماني.

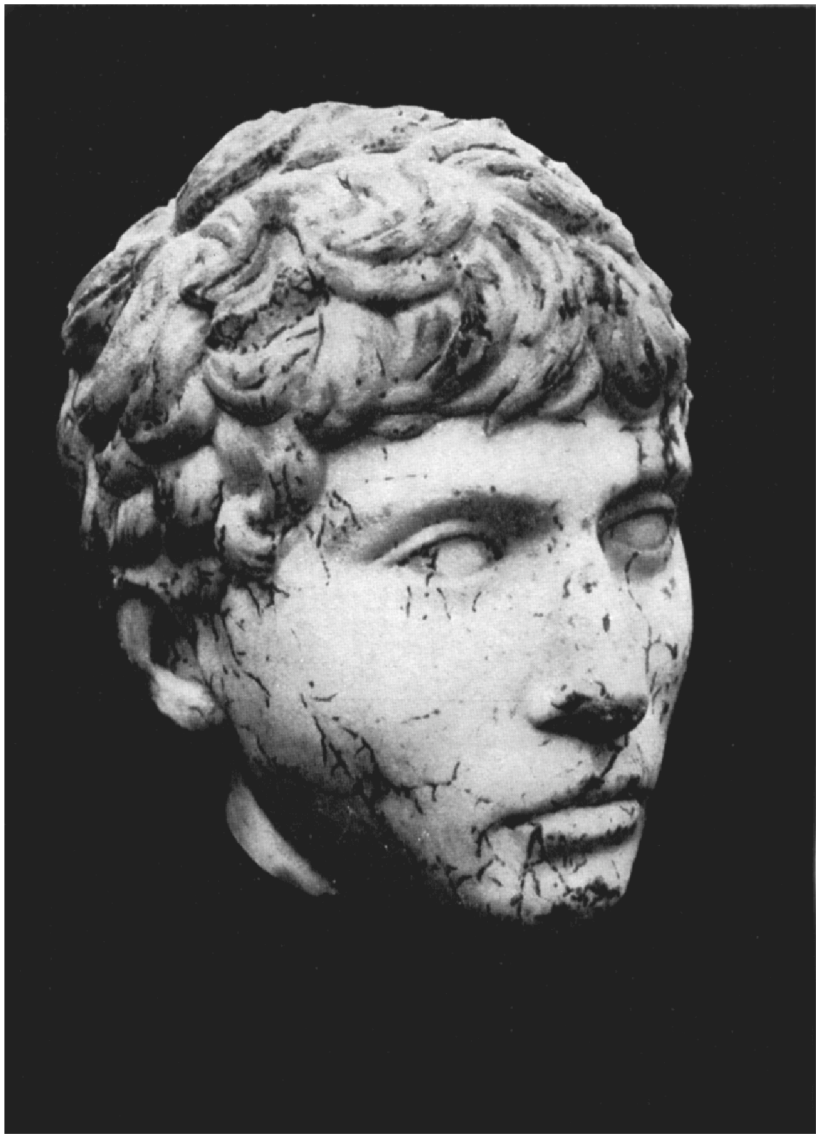

وَليلي : رأس من الـمرمر



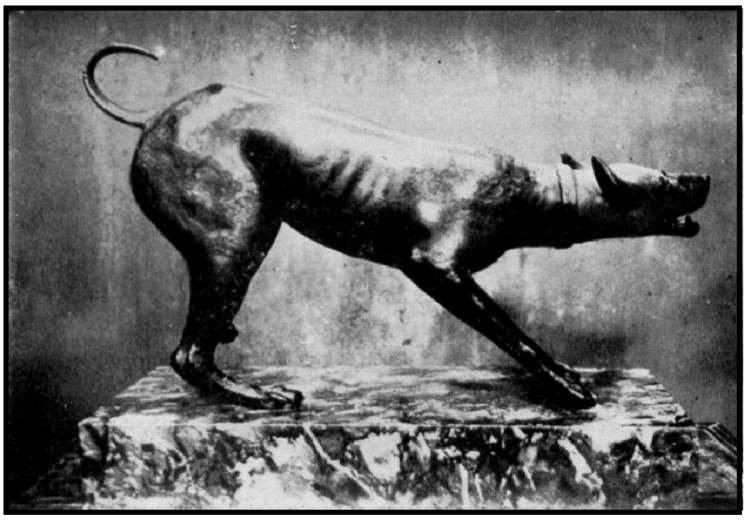

وَليلي : في الأعلى رأس البغلة، وفي الأسفل تمثال الكلب

هكذا فكل العلامات الأركيولوجية تتفق على إيضاح أن التماثيل التي تبهرنا في وليلي قد جاءتها قبل سيطرة الإمبراطورية على موريطانيا. إذن فإذا كانت القيمة الفائقة للآثار المكتشفة في شرشال لا يمكن تفسيرها إلا بعمل يوبا الثاني «الأمير المزهو، ورجل الذوق، المتمليء بالهيلينية والمتفهم الحصيف»، فبالأحرى يجب علينا أن نعزو لعمله الشخصي الجمال البديع الذي أضاء حول عهد الميلاد في عمق البادية المغربية مدينة وليلي. وهذه النتيجة لا أتردد في ذكرها، خصوصا، حسب رأيي الذي سأورد البرهان عليه هنا، وهو أن وليلي كانت فيما مضى بمساواة مع يول – قيصرية Iol-Caesarea، أي شرشال القديمة مدينة إقامة (Regia) الملك يوبا الثاني.

❖ ❖ ❖

فيما يخص مدينة يول – قيْصرية فالمتأكد هو أنها استخدمت عاصمة ليوبا الثاني وأنه جمّلها. وسأكتفي بذكر وترجمة المعلومات التي صدرت حول هذا الموضوع عن مصادرنا. فسترابون أولاً في الكتاب (السابع عشر، 3، 12-3،12، XVII) يقول : «على هذا الساحل توجد مدينة اسمها يول Iol، رمّمها يوبا [الثاني] أبو بطلمي، وسمّاها قيصرية Caesarea، ولها ميناء، وبجانب هذا الميناء جزيرة صغيرة».

ثم پومْبنْيوس ميلاّ Pomponius Mella (كـ 1، 6، 30) الذي قال : «يول كانت دار إقامة ملكية ليوبا [الثاني] : (*Iol Iubae regia fuit*).

وثمّ پْلين الكبير Pline l'Ancien («التاريخ الطبيعي»، كـ 5، 20) القائل : (قيصرية، يول قديما، دار إقامة ملكية ليوبا [الثاني] : (*Caesarea… antea… Iol, Iubae regia*).

وأخيراً أوتْروب Eutrope (10,7) قال : كان أوغُست August قد توفق كثيرا في أن يجتذب رضى البابار، حتى إن ملوكا، أصدقاء للشعب الروماني أنشأوا على شرفه مدنا سُمّيت باسمه (باسمه قيصر)، قيصرية، مثل قيصرية موريطانيا على يد الملك يوبا [الثاني] : (*sicut in Mauretania a rege Iuba*).

وبالطبع تنقصنا عن مدينة وليلي شهادة كهذه، بل ولأول وهلة فإن المعلومة الوحيدة المتعلقة بموضعها عند أقدم الكتاب الذين تحدثوا عليها، يبدو أنها تنحي عنها هذا النوع من الوصف. وبالفعل فإن پومْبونْيوس ميلاّ يذكرها من غير أن يميزها عن الحلل Bourgades التي يسردها معها، ولا يلحّ إلا على عدم أهميتها. فهو يكتب قائلا : «هذه المدن لا تعتبر ضخمة إلا بالمقارنة مع مدن أخرى صغيرة بداخل البلاد، مثل جيلْدا Gilda، وَليلي Volubilis، بِسْكيانا Pisciana، وبالقرب من البحر سَلاَ Sala وليكْسوس lixus على النهر الذي بنفس الإسم. (*Quarum urbium, ut inter parvas opulentissimae habentur : procul a mari Gilda, Volubilis, Pisciana, propius autem Sala et Lixus flumini Lixo proximus*). ولكن، لنعد إلى نفس نص پومْبونْيوس ميلاّ عن يول–قيصرية. فسرعان ما سنلاحظ أنه لا يُعجب بها كثيراً، إذ يقول : «يول مدينة خاملة الذكر فيما مضى، ومهمة الآن بسبب كونها دار إقامة ملكية ليوبا، وبسبب تسميتها قيصرية. (*Iol ad mare aliquando ignobilis, nunc, quia Iubae regia fuit et quod Caesarea vocitatur, inlustris*). أمّا السببان اللذان ذكرهما ميلاّ لرفعتها، فالأول منهما لا عبرة له – كما سنرى بعد – لأن يول كانت عاصمة لمن سبقوا يوبا الثاني. والثاني وحده هو الذي نتمسك به : ففي أعين الرومانيين، يول

أخرجت من ظلماتها بنور الاسم القيصري الذي سمّيت به *oppidum celeberrimum Caesarea* كما يعترف بذلك پْلين الكبير. فلو لم تتخل عن اسمها القديم لتتخذ هذا الأخير، لما كان سترابون يذكرها باحترام، ولا ميلا كان يراها أحق بالتقدير من وليلي. على أن هذه الحلة وتلك قد عرّفهما پْلين تعريفا عاريا عن التمجيد فقال :oppidum caesarea وVolubilis oppidum. فلا يمكن إذن أن نستخلص من مؤلفينا أية حجة للإنكار. وإذا هم قد سكتوا عن كون وليلي كانت لها وظيفة عاصمة مثل قيصرية، فإن الأحداث التي يؤكدونها ستتكفل هي بإيضاحها ببلاغة.

يلاحظ اصْطِفان اگْصيل «أن أول المهمات لكل رئيس جديد لدولة بربرية هي أن يؤسِس عاصمته هو، أو عواصمه. إذ غالبا ما يكون له عدة عواصم. فيقيمها في مدن موجودة من قبل، أو إنه ينشئها، إما بكبرياء رجل حديث النعمة يريد إخفاء الماضي، وإما لأسباب عسكرية أو اقتصادية. ومن هنا كانت هذه السلسلة المتتابعة من العواصم التي يقدمها لنا تاريخ بلاد البربر». وأكررُ بدوري أنه تتابع وتكرار، بحيث نعدّ اليوم بالمغرب ثلاث أو أربع مدن ملكية، هي الرباط، وفاس، ومكناس، ومراكش. وأثناء حرب حنيبعل كانت مملكة الماسيسيليين Masaesyle للملك سيفَكْس Syphax لها عاصمتان، واحدة بالغرب هي سيگا Siga بالقرب من مصب وادي تَفْنا Tafna، وبالشرق مدينة سِرْتا Cirta التي ستدعى من بعد باسم قُسنْطينة. وبعد ذلك بمائة عام كان يوغَرْطة له قصر في تهالة زيادة على قصره الذي بسِرْتا. وفي مملكة نوميديا، كان الذين تولوا الملك بعد يوبا الأول لهم الخِيار، ليس بين سِرْتا، وزاما ريجْيا بل بين بُلاّريجْيا Bulla Regia، وثيميدا ريجْيا Thimida regia، وهيپو ريجْيوس Hippo Regius. أما ابنه يوبا الثاني فلم تَكْفه ريجْيا واحدة، إذ في موريطانيا العريضة التي مكّنه منها أوغست سنة 25 ق.م،

كان يملك على الأقل مدينتين ملكيتين، لأنها كانت في الحقيقة مكونة من التاجين الذين شاء الإنعام الإمبراطوري أن يوحدهما على رأسه مؤقتا، وإن كان الاختلاف يستجيب جيدا للظروف الجغرافية قبل أن يفرض نفسه على توزيع القوات الإسلامية. وبمجرد موت بطلمي Ptolémée ابن يوبا الثاني، وإغلاق القوسين بانتهاء المملكة الأهلية المستقلة، فإنها عادت للظهور بالتقسيم الروماني للولايتين الموريطانيتين أي تاج بوكوس الثاني Bocchus II في موريطانيا الشرقية بين مصب مُلوشا Mulucha (نهر مَلْوِية) ومصبّ أمْبساگا Ampsaga (الوادي الكبير) بالشمال الغربي لقسنطينية، وتاج بوگود في موريطانيا الغربية من البحر المحيط إلى مصب ملوشا.

وبين هاتين المملكتين اللتين كانتا فيما مضى متميزتين، وهما الآن ممتزجتان تحت سيادة يوبا الثاني، فلا شيء يسوغ لنا أن نفترض بأنه أقبل على التمييز، ففضّل واحدة هي الشرقية، وأهمل الآخرى التي هي الغربية. وإذا كنا عمليا ندري أنه أغدق إنعاماته على قيصرية، فإننا أيضا على علم بالأهمية التي كانت توحي بها له أراضيه الغربية، ونعلم النشاط الذي قام به فيها. فمثلا عندما أراد أن يخلق لنفسه نَسباً إلهيا، ففي الغرب بين حدائق الهسْپريد في ليكْسوس، وترْس أَنْطي Antée في تنْجي، قد ذهب ليحوز عناوين نُبله الميثولوجي، فاكتشف أن له جدّاً يُدعى صوفَكْس Sophax، الذي هو ابن الليبية تِنْجي Tingi، أرملة أنْطي، التي حملت به من هرْكول لما عبر البطل أراضي الغرب. ومن بعد، ففي كتاباته التي لا تحصى، فإنه حدثنا، بالتقريب خصوصا عن ممتلكاته الغربية، أي عن الليمون Citrons الذي ظنه في أشجار الهسْپريد، وعن الأوفُرْب (الفَرْبيون) Euphorbe الذي يُقطف من ربى الأطلس، وعن الأفيال التي قطعانها تعيث في قرب سَلاَ، وعن منابع نهر النيل التي

جعلها يوبا الساذج في جبال الجنوب المغربي، وعن جزر كناريا التي أرسل لاكتشافها بعثة انطلقت من الجزر الفرفيرية Îles purpuraires، أي من الجزر الصغيرة التي بموگادور. وختاما فإنه في هذه الجزيرة قد أنشأ مصبغاته التي كانت في نهاية القرن الأول قبل الميلاد تبعث إلى روما بالنسيج الأرجواني الذي كان يشتد عليه طلب الأغنياء، والذي أكثر مَدْحَه الشعراء، ومنذ سنة 12 ق.م مدحه الشاعر هوراس Horace قائلا :

Argentum, vestes Gaetulo murice tinctas

Sunt qui non habeant, est qui non curat habere.

(Horace, Epitre, II, 2, 181-182)

كما مدحه أوڤيد Ovide بعده ببضع سنين قائلا :

Dat tenues tunicas Gaetulo murice tinctas (Ovide, Fastes, II, 319).

وعلى العموم فإن أراضي الغرب فوق ذلك تساوي أراضي الشرق، كما وافق على ذلك پومپونيوس ميلاّ : «إن الساحل الخارجي لموريطانيا، في الزاوية القاصية لأفريقيا التي تنتهي برأس، تقدم نفس الخيرات [كالمنطقة الشرقية] ولكن بكمية أقل. ومع هذا، فهذه التربة هي أغنى أيضا وأشد خصبا، بحيث إنها تنتج بكثرة كبيرة عدة أنواع من الزروع، وليس فحسب عندما نزرعها، بل إن بعضا منها ينتج بكثرة حتى ولو لم نقم بزراعتها :

فالمغرب تحت حكم يوبا الثاني لم يكن أقل ازدهارا من الجزائر الغربية. من الكنزين اللذين أخفيا في عهده، فإن الذي كان في رأس الجِنّة Cap Djinet بشرق مدينة الجزائر كان يضم 25 قطعة. وكنز الغرب

(بشمال أو بجنوب سبو ؟ لأننا لا ندري بالضبط)، كان يضم 6000 قطعة. والنتيجة هي أنه، إذا حدثت في عهد يوبا اضطرابات، يتزعزع فيها الأمن في قسمي المملكة، ففي القسم الغربي – حين يتساوى الخوف – يمكن إخفاء الكنز العظيم. وبينهما كان واجب يوبا ومصلحته أن يمسك بالميزان في تعادل. فيكون هنا وكأنه خَلَف لبوكوس الثاني، وهناك كممثل لبوگود. وإذا سكن أحدهما فهو لم يستطع الاستغناء عن الإقامة في الآخر. وعن صواب أو خطإ، فإن ما رواه پْلين من أن الملك نفسه هو الذي اكتشف الأوفُرْب (الفرْبيون) Euphorbe الذي خصص له أحد بحوثه، لا يمكن فهمه إلا إذا كان يوبا قد مر بالجبال المغربية حيث ينبت هذا الدواء الغريب. وكذلك فإن كلمة پْلين عن مصابغ الجزر الأرجوانية Îles purpuraires قد كتبت بطريقة توضح أن يوبا لم يؤسسها إلا بعد أن تيقن بعين المكان من الحظوظ الموعودة لهذه الصناعة : *Insulas… a Iuba repertas in quibus Gaetulicam purpuram tingere instituerat*. وفوق ذلك، فإن إقامته بالغرب تستجيب للتشريف الذي وهبه له القادسيون Gaditains عندما اختاروه لمنصب دومْڤِير Duumvir (الرجل الثاني) في بلديتهم، مثلما أن وجوده بالشرق توافقَ مع التمجيد الذي أسبغه عليه ديكُرْيونات Décurions قَرْطَجَنّة Carthagène، حين دعوه لاعتلاء نفس المرتبة في مستوطنتهم. فكان موزَّع الاهتمام – وذلك أمر طبيعي– بين دولتيه. ونحن نعلم بالشرق مقامه في يول – قيصرية، وما علينا إلا أن نتبصر لنرى على الخريطة المقام الذي يتضح أنه كان يقابله في الغرب.

❖ ❖ ❖

بالشرق في يول–قيصرية اكتفى يوبا بأن يحل بعد بوكوس الثاني. فكما يذكر صولان Solin قائلا : «قيصرية كانت فيما مضى المدينة الملكية لبوكوس : *Bocchi prius regia*». وفي الغرب علينا أن نسلم بأن يوبا قد استولى على مقام – ريجيا – بوگود. ولكن لابد أن ننحي بسرعة الرأي الجاري الذي هو أن إقامة بوگود كانت في تِنْجي (طنجة). فاگصيل الذي لم يستطع الابتعاد عنها، يعترف مع ذلك بأنها غير مؤكدة (بأي شهادة مباشرة). وهذا القول غير كاف، لأنها مستبعدة ببعض الشهادات التي لدينا.

إن بلوتارك Plutarque يحكي في كتابته عن حياة سِرْطورْيوس Sertoriusأن هذا المغامر النابه قد حمله القراصنة القيليقيون Ciliciens سنة 82 ق.م الذين أبرم معهم اتفاقا مؤقتا من إسبانيا إلى أفريقيا. وكان القيليقيون يريدون أن يبيعوا مساعدتهم المسلحة إلى أحد الموريين، الذي هو أَسْكاليس Ascalis ابن إيفْتاس Iphtas الذي كان آنذاك يعمل لإخماد ثورة رعاياه. وكان سيلا Sylla قد بعث إليه لهذه الغاية نجدة رومانية بقيادة شخص يدعى باكْيانوس Paccianus. وبمجرد النزول من البحر فإن سرطوريوس تخلى عن حلفائه العابرين، ووالى الثائرين ضد القليقيين، وانتصر على باكيانوس، واستولى على تِنْجي (طنجة) التي كان أسْكاليس قد التجأ إليها. فأقام سرطوريوس فيها بضعة أشهر، وقبل مغادرتها إلى إسبانيا كملك كريم وشديد القوة، أعاد إلى المغلوبين ثرواتهم ومناصبهم وأنظمتهم ومدنهم.

إن هذا القسم الأخير من الجملة يفترض أن تِنْجي كانت آنذاك مركزا لدولة مزودة بنظام حر. لأن أسكاليس ابن إيفتاس يقدمه لنا بلوتارك في بقية الفصل، وكأنه يريد أن يستعيد ليديه مملكة الموريين،

وفوق ذلك، كان في عملياته مساندا من قِبَل سيلاّ Sylla الذي لا نجهل أبدا روابطه مع صهر يوغرطة، بوكوس الأول. وقد جرى افتراض هو أن أسْكاليس، بعد إيفْتاس قد حل محل هذا الأخير ملكا على موريطانيا. واگْصيل يميل بالأحرى لهذا التأويل الذي لا تخفى مع ذلك هشاشته. إذ يظن أنه عثر في فقرة غامضة من تاريخ سالوسْت Salluste، بصيغة محرّفة هي لبتاسـ (تا) – Leptas (ta) –. وقد عرفه سالوست نفسه بأنه ملك Rex. وفيما يخصني لا أستطيع القول بهذا الافتراض، أولاً لما يفرضه من مبالغة في القطع بالأسرة المالكة. أي ثلاثة ملوك على الأقل لموريطانيا الموحدة لمدة ثلاث وعشرين سنة بين 105و82 ق.م، وهم : بوكوس الأول، وإيفْتاس وأسْكاليس. ثمّ الخصوص بسبب يَقيننا بأن يوكوس الأول كان لا يزال حيا في سنة 93 ق.م، عندما بعث لصديقه سيلا Sylla الحيوانات المفترسة التي قام هذا الأخير بعرضها في نفس السنة في المسرح المدرّج (الأمْفيتْياتر). وكذلك في سنة 91 ق.م عندما اشترى ضمير م. ليڤيوس دْروسوس M.Livius Drusus، ولم يكن قد مات في سنة 80 ق.م عندما وقع تسليم هِيارْباس Hiarbas إلى پومْپي Pompée على يد بوگود ابن ملك المورِيين بوكوس (الأول). وذلك بشهادة پول أوروز Paul Orose الذي نقل عن تيتْ ليڤ Tite-Live : *Pompeius Hier(b)am Numidiae regem persecutus fugientemque a Bogude, Bocchi Maurorum regis filio, spoliari omnibus Copiis fecit*. والنتيجة كما قد حاولت أن أبينها في غير هذا المكان، هي أنه لا داعي للتمديد الموريطاني المتتابع للملوك الأهالي أكثر من سلسلتهم النوميدية. ففي الأرباع الثلاثة الأولى من القرن الأول ق.م في نوميديا، لم يتولّ الملك سوى هيمْبسال Hiempsal وابنه يوبا الأول، كما في موريطانيا لم يتولّ الملك سوى بوكوس الأول، وبعد التقسيم إلى

دولتين كان بوكوس الثاني ملكا على القسم الشرقي وبوگود Bogud على القسم الغربي. إذن والحالة هذه، فإن بلوتارك Plutarque وكذلك سالوسْت Salluste – إذا صح مع ذلك أن الفقرة الناجية من تخريمات كتابه «التواريخ» Histoires هي متعلقة بنفس الحقبة – يكونان إما قد رفعا رئيس الأهالي في تنجي فجعلاه ملكاً مستقلا، وإما أنهما خلطا بين متأمّر صغير Regulus وبين ملك Rex، أي ذكروا (قايد) بأنه سلطان. لقد حكم أسكاليس ابن إيفتاس، إما لحسابه هو، تحت السيادة الفعلية أو الاسمية لبوكوس الأول على منطقة تنجي التي قد ترسخت جانبا، بسبب وضعيتها البحرية عن بقية مملكة موريطانيا منذ ذلك بالفعل.

ويُشكّ شكاً بالغا في أن تكون قد عادت وذابت فيها في السنين التي تلت. فعند ما انقسمت موريطانيا بموت بوكوس الأول (حول سنة 70 ق.م) بين بوكوس الثاني وبين بوگود، فلا شيء يسوغ لنا الاعتقاد بأن القسم المخصص لهذا الأخير قد كان متضمنا لِتنْجي. بل على النقيض كما سنرى. عندما استلهم بوگود شرا بميله ضَد أوكتاف (سنة 39 ق.م)، و(سواء بأمر أنطوان أو بعمله الشخصي هو) نزل إسبانيا «حيث فعل شرا كثيرا وتألم هو أيضا كثيرا من ذلك»، فإن حوليات ديون كاسيوس Dion Cassius تخبرنا ببساطة أنه «في أرضه» أي في أفريقيا، معارَضة لإسبانيا التي كان آنذاك يحارب فيها، «فأهل منطقة تنْجي ثاروا ضده. وبعد اندحاراته لم يستطع العودة إلى مملكته، فالتجأ إلى جوار أنطوان بالمشرق حيث مات سنة 31 ق.م. وسرعان ما استولى بوكوس على مملكته، فوافق له أوكتاف على تملكها، وحافظ عليها تامة إلى وفاته سنة 33 ق.م. ولكن مع ذلك هناك استثناء واحد، – كما يقول ديون كاسْيوس – هو أن حق المواطنة الرومانية droit de cité romaine قد أعطي لأهل تِنْجي (طنجة)، وحررهم بفعل الواقع من سيطرته عليهم.

وكما نرى، فإن كل شيء كان يجري كما لو أن منطقة تِنْجي في جميع هذه القصة قد حافظت دائما، تجاه موريطانيا التي تشاركها ترابياً، على قانون خاص وتقليد في الاستقلال. بحيث في عهد بوكوس الأول (105–70 ق.م) كان لها أميرها الذي لم يكن هو الملك. وفي عهد بوگود (70–38 ق.م) امتنعت على المَلِك، بثورة أغلقت في وجهه المضيق الذي كانت تتحكم في المرور به، عن الرجوع إلى مملكته الإفريقية. وفي عهد بوكوس الثاني (38–33 ق.م) أخرجت رسميا من سلطته. وباختصار فإن تِنْجي كانت ولغاية 38 ق.م مركزاً للثورة على الملك وليس لإقامته بها. وصارت بعد 38 ق.م مستوطنة رومانية. وبهذه الصفة، وما دامت موريطانيا لم تستول عليها الإمبراطورية بعد، فَتِنْجي تكون مرتبطة بإسبانيا مثلما ستكون عليه بدورها ما بين 33 إلَى 25 ق.م مستوطنة لقدماء المحاربين التي تقتطع من ترابها بأمر أوكتاف : *regum dicioni exampta et iura in Baeticam petere iussa* حسب الصيغة المستعملة عند پْلين الكبير لإحداهن. فينتج عن ذلك أن تنجي حتى إذا كانت بظن غير أكيد دار إقامة لبوكوس الأول (105-70 ق.م) ولبوگود (70-38 ق.م)، فيوبا الثاني عند إحياء الدولة تحت صولجانه هو، يكون على كل حال قد تخلى عنها، لأنها بقيت أجنبية عن دولته، وبحث لنفسه عن عاصمة أخرى في الغرب. بعد هذا العرض، لا يبقى علينا إلا أن نختار من بين مدن البلاد التي صارت هي المغرب، وجرى التنازل عنها آنذاك لسيادته الكاملة.

من بين المدن التي رأى ميلاّ Mela أنها تستحق الذكر مدينة زيليس Zilis (أصيلة) وبابّا كَمْبِسْتريس Babba Campestris، وريغة Righaعلى وادي بهت (؟) وبَناسة (سيدي علي بوجنون) قد نحيت لأنها

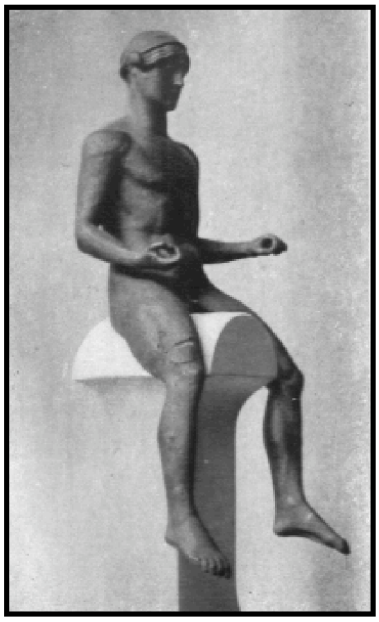

الفتى الفارس

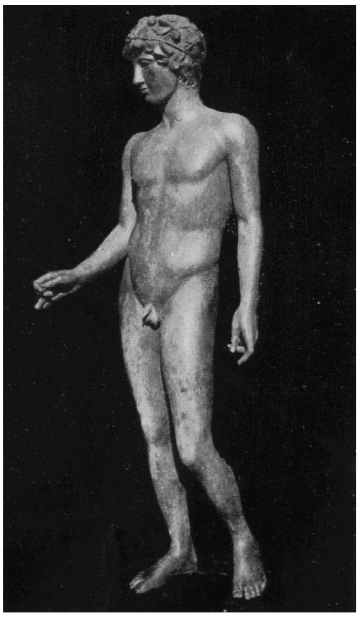

الفتى المتوّج بالغار

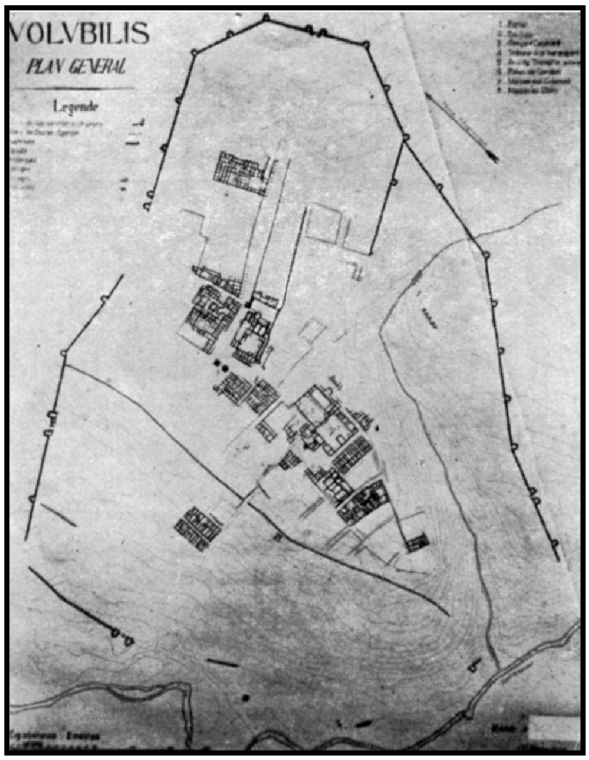

وَليلي: تصميم عام

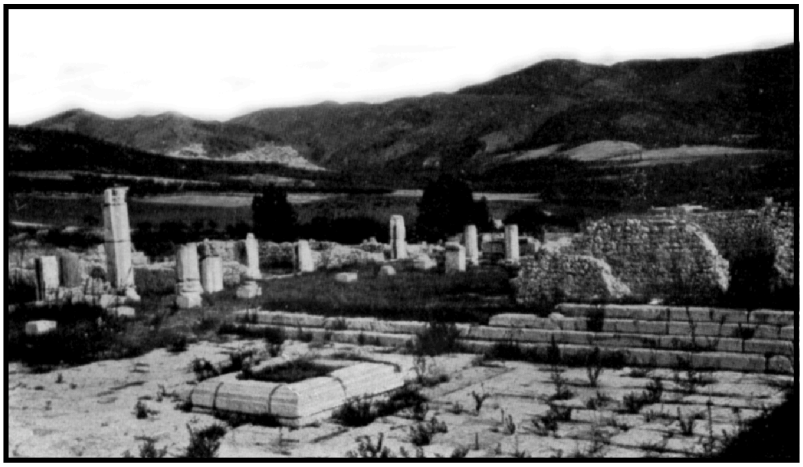

وَليلي: منظر عام

كانت مستوطنات. أما جيلْدا Gilda وبسْكيانا Pisciana فالصمت قد حط على حظهما. فلم يبق سوى سَلاَ (شالة Chella) التي لا يستحيل أن يكون يوبا قد توقف بها قديما في ذهابه للبحث عن الأوفرب Euphorbe أو الأفيال، وليكسوس (تْشَمِّشْ) حيث عمل أحد أطرزة نقوده، وَوَلِيلي. وإني لا أنكر أن الملك في بعض الأحيان قد أقام بالمدينتين الأوليين من هذه المدن. ولكنني أدعي أن وليلي قد كانت بالفعل وبالاسم عاصمة ليوبا.

❖ ❖ ❖

إن أولى العلامات لهذه الحقيقة ثابتة بالموقع الوسط لِوَليلي الواقعة – كما سجّل ذلك پْلين – على بُعد متساو من البحرين اللذين يحدّان موريطانيا الغربية : *Volubile oppidum tamtumdem a mari utroque distans*. وباعتراف هذا العالم فإن وَليلي تبدو للكاتبين عنها، وكأنها سرّة المغرب الروماني.

وعلامة ثانية تبدو لنا من الدور الذي قامت به وليلي في البداية نفسها للاحتلال الروماني، وفي ثورة أيْدِمون Aedemon لسنة 40 وما بعدها في التاريخ الميلادي. إذن فهذه المدينة التي كانت من قبل منظمة حسب الطريقة البونيقية، إذ كان على رأسها رجال برتبة شوفيط Sufètes، وكانت نقطة ارتكاز للجنرالات الرومانيين، قد كانت عاصمة للنظام وسط الفوضى المحيطة. وبهذه الصفة وكعطية جزاء فإنها نالت من كلود Claude – كما تخبرنا النقائش بذلك – حق المواطنة الرومانية مع رتبة بلدية municipe لمواطنيها. الأمر الذي يجعلها مماثلة فعلا للمستوطنتين الأخريين اللتين أسسهما هذا الأمير ليس بِليكْسوس فحسب بل حتى بقيصرية نفسها.

وعلامة ثالثة، ناتجة عن الكثرة النسبية للنقائش الإغريقية المكتشفة بوَليلي، بحيث إننا إذا استثنينا النقيشة التي على منارة مدينة القصر بالموقع العتيق لأُبِدومْ نوڤوم oppidum Novum، فإن جميع ما اكتشف منها حتى اليوم بالمغرب قد كان من وليلي. وهي جميعا ستّ نقائش. وهو عدد ضئيل في حد ذاته، ولكنه كثير بالمقارنة مع انعدام بقية النقوش المغربية. وهو على كل حال كاف لإحداث مماثلة إضافية بين وليلي وقيصرية. ويلاحظ اگْصيل قائلاً : «بعد قرطاجة، فَشَرشال هي الموقع الذي أعطى أكثر النقوش الإغريقة بشمال أفريقيا. وأكثرها راجع للعهد الروماني، وغيرها لا يمكن التأريخ له. ولكن اثنتين منها على الأقل قد وقع نقشهما قبل استيلاء الإمبراطورية... فقد كان يوبا يفضل إحاطة نفسه برجال من أصل هيليني : كالطبيب أوفُرْب Euphorbe والممثل ليونتيوس Leonteus... وسكرتارين يساعدونه في تهيئة كتاباته، ومهندسين ومثّالين وفنانين آخرين وقع استدعاؤهم للعمل في العمارات التي كان يزين بها عاصمته...». وإذا كان الملك لم يقرر اتخاذ اللغة الإغريقية رسميا كما فعلت الملكة كيلوبترا سِلِيني Cleopatre Séléné «فإنها كانت بالتأكيد هي لغته المفضلة. لقد تعلمها بروما، إذ حسب العادة آنذاك فإنه نال تربية هيلينية ورومانية. وفي بلاطه كان الحديث في الأكثر يجري بالإغريقية». كل هذه الآراء التي هي لـگْصيل، آراء ممتازة مطبقة في قيصرية. ولكنها ليست أقل صلاحية لوليلي. «بحيث إذا كانت الإغريقية فيهما ذات حظوة في عهود الأباطرة، فلأنها على ما يظهر كانت كذلك في السابق في عهد الملوك».

وختاما هناك افتراض يميل إلى التأكيد، وهو وأنه : بعد تحويل المملكة إلى ولاية، وانفصال الموريطانيتين، فوليلي بالتانْجيتان كمدينة

قيصرية في القيصرية قد استمرت دار سكنى الوالي الروماني الذي خلف الملوك الأهالي.

❖ ❖ ❖

وإني لأعلم أني هنا أصادم اليقين المنتشر لدى العموم، الذي بمقتضاه إن موريطانيا الطنْجية لم تكن لها عاصمة أخرى غير تِنْجي المدينة التي أعطتها اسمها في الأخير مثلما أعطت قيصرية اسمها لموريطانيا القيصرية. واگصيل متيقن من هذا حتى إنه ليستنتج منه أن تنجي كانت عاصمة ملكية. وقد صدّقه مركارت Marquardt في كتابه الذي ستمر عليه مائة سنة عما قريب. وهو أساسي دائما، كما أن السيد كانْيا Cagnat قال به جهرا. فقد أكد قائلا : «إن إقامة والي التنجيتان، كانت هي مدينة طنجة التي بها النقيشة الوحيدة المهمة حقيقة، والمتعلقة بأحد الولاة. وهي قاعدة تشريف منقوشة بأموال متنفذي جيش الاحتلال». وسيكون اليوم مُحالاً إثبات هذا القول مع أسبابه. لأن نحوا من خمسة عشر نقشا مغربيا متعلقا بولاة التنجيتان قد ظهرت للنور، وكلها قد خرجب من تراب وليلي، وتلزمنا بإعادة النظر في الحكم الذي كان مسموحا به لما قيل إنه نهائي.

بحيث إن أربعة نصوص، على ما أعلم، هي وحدها التي ترجع إلى المرور بتنجي لوالي التنجيتان أو حاشيته. وعلى كل حال فإن هذه النصوص غير مجدية في الموضوع الذي يشغلنا.

وهي : أولاً، النقش الذي ذكره السيد كانْيا Cagnat في جملته التي أوردتُها آنفاً (في C.I.L.VIII برقم 9990 وفي بِسْنيي Besnier برقم 5 صفحة 10). إنها القاعدة التشريفية المقامة في تنجي على يد متنفذي

exacti الجيش exercitus لرئيسهم في موريطانيا الطنجية پ. بيسْيوسْ بِتْوينْيانوس P. Besius Betuinianus. وحيث إن المتنفذين كانوا ضباطا صغارا Sous-officiers تابعين للقيادة العليا لوالي الولاية، فوجود المتنفذين في تنجي يدعو إلى وجود الحاكم نفسه. ولكن صيغة هذا النص عند تأملها، تزيح فكرة أن الوجود كان دائما. وبالفعل فإن الحياة العملية Cursus لِبتْوينْيانوس Betuinianus قد كتبت بالطريقة التصاعدية. بحيث إن هذا الفَارس الروماني يبدو أنه قد ضم إلى ولايته بموريطانيا الطنجية قيادة أوربية. فبعد أن أدى فروضه الثلاثة في الخيالة كقائد للفرقة الريتية الأولى Cohors 1ere Raetorum وبالفيلق العاشر المزدوج پيَا الوثيق Legion Xe Gemina Pia Fidelis، وكان قائدا على الجناح الدرْداني Ala Dardanorum، وأدار بالتتابع ولاية نقدية، وولاية الضرائب في بيتيكا، وولاية جباية الجزء العشريني من الميراث، ثم بعد ذلك وقع تعيينه والياً نائباً في موريطانيا الطنجية – *Proc(uratori) xx hered (itatum), proc(utatori) pro(legato) provinc(iae) Mauritaniae tingitanae*. وبهذه الصفة وسّمه تْراجان Trajan بالأوسمة العسكرية جزاء له على خدماته في الحرب الداسية *donis donato ab im(eratore) Traiano Aug (usto) Bello Dacico : Corona murali, vallari, hastis pur(is), vexillo argent(eo)*. ولا يهم أن يتعلق الأمر بالحرب الداسية الأولى (102-101ق.م) والحرب الداسية الثانية (107-105ق.م)، إذ أن بيسْيوس هذا لم يعيّن من بعد في وظيفة ما. وشارك في الحملة على داسْيا Dacie [21] بصفته والياً بالنيابة في موريطانيا الطنجية على رأس المتطوعين من جيش ولايته، الذين أخذهم إلى أوربا والحرب على أشدها ضد ضيسِبال Decebale. فينتج أن قاعدة تنجي قد كرّسها له بعد عودته الرفقاء بجيشه من المقاتلين Exercitus أثناء عودتهم بها إلى موريطانيا الطنجية. ومكان

إقامة القاعدة لا يفرض مطلقا النتائج التي وقع استنتاجها عنها بسرعة. فمدينة طنجة لم يقع اختيارها لإقامة هذا المعلم التاريخي لأنها العاصمة القارة للحكومة. ولربما أنها كذلك أقيمت في تنجي لأنها الميناء الذي منه عاد جنود بيسْيوس من حرب داسْيا Dacie إلى الحاميات بولايته. وهذا الإهداء يفهم جيدا إذا كان صادرا عن جيش أثناء نقله أكثر من كونه من جيش مقيم بجانب قائده في معسكره[22].

ثانياً : شاهِد القبر المنقوش بطنجة لأحد فرسان فصيلة من الجناح الفلاوي Ala Flavia، الموصوف فوق ذلك بأنه فارس، *ex sing(u) laribus d (is) m(anibus) [Antonius Proclinus / eq(ues) ex vexilatione(sic) Alae Flaviae ex / singularibus (sic). (C.I.L., VIII, 21.814 : Besnier, n°8, P.12).* ونحن نعلم أن السنْگُلارس Singulares كانوا يكوّنون فرقة حرس قادة الجيوش. ودَفْن واحد من هؤلاء السنگلارس في تنجي برهان على أنه حين وفاته، فإن حرس الوالي والوالي نفسه بالطبع، قد كانوا موجودين بتنجي (طنجة). ولا يمكن لهذا السبب، وبالصيغة التي وصلتنا بها أن نجعلهم يقيمون فيها. والمتوفى ليس إلا واحدا من السنگلارس الذين أخذوا عرضا، ليس من وحدة عسكرية مقيمة في تنجي، بل من Vexillatio أي من فصيلة للخيالة المؤقتة المأخوذة من وحدة، هي الجناح الفلاوي Ala Flavia، الذي عن صواب جعله السيد كانْيا Cagnat في الوقت المعتاد راجعا لجيش احتلال نوميديا.

ثالثاً : شاهدٌ لقبر فارس من جناح الحَمويين Hamii الذي دفنه بطنجة أخوه الذي هو نفسه عسكري، ذو منصب رفيع Principalis في جماعات العمل (*C.I.L, VIII, 21814 a , Besnier n°9, P.13*) وهذه الصفة تدعو إلى التأمل. فهي تعني إما أن هذا المتميز بمنصب رفيع كان من

ضمن رجال الـ Comitatus أي جيش كومس Comes التنجيتان، الذي لم يثبت وجوده إلا بعد سنة 324 للميلاد. وفي هذه الحالة، فالوثيقة التي تضمنته تكون راجعة للحقبة التي كانت فيها موريطانيا مرتبطة منذ الإصلاح العام الجاري سنة 285 بـأبْرَشية إسبانيا، فكان إذن من الطبيعي أن رئيسها العسكري في الإمبراطورية السفلى Bas-Empire، أو الكومس Comes، ينقل مركز قيادته لأقرب مكان من قواعده الإيبيرية. وإما أن الوثيقة متقدمة زمنا على إنشاء جيش كومس التنجيتان. غير أن صفة Principalis(in c)omitatus agens سيكون معناها أن العسكري المتصف بها قد كان من ضمن الحرس لأحد البريسِسْ Praeses في أحد تنقلاته. وفي هذه الحالة لا مبالغة إذا قيل إن الوَثيقة تفقد قوتها البرهانية، فيما يتعلق بالإقامة المعتادة، في عهد الإمبراطورية العليا لوالي موريطانيا الطنجية، وبالفعل فالوثيقة لا تعارض أي شيء إلا عن طنجة.

رابعاً : الإشارة الوردة في قصة استشهاد سانْكتوس مَرْكِلوس Sanctus Marcellus – بوجود الحاكم في تنجي الذي قام باعتقاله : *in civitate Tingitana procurante Fortunata praeside (Acta sincera, de Ruinart, P.312)* – وحيث إن هذا الهَجْيوغرافي (أي المتكلم على الأحبار والقديسين) يرجع إلى بداية الاضطهاد في عهد ديوكْلِتيان Diocletien، وحيث إنه تبعا لذلك متأخر عن الارتباط الذي ربطت به سنة 285 للميلاد موريطانيا الطنجية بـأبرشية إسبانيا، فتنطبق عليه نفس الأحكام، مثل الـ Comitatus Tingitanae، ويبقى غير صالح ليدلنا على الظروف التي كانت تعمل فيها حكومة الولاية في عهد الإمبراطورية العليا، عندما كانت الموريطانيتان متضامنتين، إحداهما مع الأخرى قليلا أو كثيرا وتكونان جزءاً لا يتجزأ – هذه كتلك – من أفريقيا الرومانية.

هكذا وبتأمل رصين، فلا أحد من النصوص المذكورة أو التي قد نحاول ذكرها لصالح تِنْجي (طنجة) يتضمن المعنى الذي أعطي له حتى اليوم. وحتى اسم التنجيتان Tingitane نفسه الذي وقع فرضه على موريطانيا الغربية، والذي لأول وهلة قد بهر المؤرخين كثيرا، فإنه لمن تأمل ليس نهائيا.

❖ ❖ ❖

وقبل الانضمام إلى الإمبراطورية لم تكن هذه التسمية تطلق عليها، بل إن موريطانيا الغربية المبينة عند الرومانيين بأنها القاصية Extuma، كانت تحمل اسم الملك الذي تخضع له، مثل الأخرى الشرقية بحيث :

namque diu [mauretaniae] regum nomina obtinuere, est Bogutiana appellaretur extuma, itemque Bocchi quae nunc caesariensis.

وبعد الاحتلال بمدة طويلة، فإن هذه التسمية «تَنْجيتانا» Tingitana لم تذكر إلا بهامش المدونات الرسمية. ولنذكر في البداية، أن بعد الانفصال الأولي فالولايتان الموريطانيتان، قد حدث أكثر من مرة أن وقعتا متجمعتين معا تحت قيادة لنفس الوالي الذي من رتبة الفرسان – كَمَرْكِيوس توربو Marcius Turbo في عهد هادْرِيان مثلا – أو لنفس المنوب legat من الرتبة السِّناتورية Sénatorial – مثل أوتيدْيوس هونوراتوس Uttedius Honoratus الذي كلف في عهد أنطونان التَّقي Antonin le pieux بالقرار الذي أصدره ديكوريونس Décurions سلا لصالح الوالي مَرْكوس سليبكيوس فيلِكْس M. S. Felix. ثم لنلاحظ بعد ذلك أن هذا الانفصال لم يحدث في الحال. وآخر ملك للموريطانيتين المتجمعتين هو بطلمي ابن يوبا الثاني الذي قد غاب عن الوجود في سنة 40م. ومن سنة 40 ينطلق التاريخ المشترك – تشهد بذلك النقائش

المسيحية بوليلي – بكل من التنجيتان وبالقيصيرية. لكن، ولو أن پْلين يبدو وكأنه يقول في فقرة – كثيرا ما ذكرت – في «التاريخ الطبيعي»، وهي أن تقسيم المملكة إلى ولايتين قد صاحب الهجوم القاسي لكَليگولا Caligula. فمما لاشك فيه أن هذا الكلام الذي مع ذلك يبدو أنه نَسيه، يتعارض مع تكذيب الأحداث له. إذ في سنة 40-41م مع مَرْكوس لكينْيوس كْراسوس فْروجي M. L. C. Frugi، وفي 41-42م مع كَيوس سَوْيطونْيوس باوْلينْيوس C. S. Paulinius، وفي 42-43م مع كْنايوس هوسيدْيوس جيتا Cn. H. Geta فإن الموريطانيتين معاً كانتا واحدة دائما. وأكثر من ذلك أن پومْبونْيوس ميلاَ لم يكن آنذاك يميز بينهما، فيبدأ وصفه لأفريقيا قائلا : «انطلاقا من المحيط *hinc in nostrum mare pergentibus laeva hispania, Mauretania dextra est : primae partes, illa europae haec Africae*».

على أن جغرافية ميلاَ يبدو أنها نشرت حول 46م، وكتبت على كل حال بعد انتصار كلود Claude على البْروطونيين Bretons في ربيع سنة 44 م، لأنه يمجده بتعابير فيها ادعاء متكلف : «هو ذا أعظم الأمراء يفتح بروطونيا Bretagne[23]، المغلقة حتى وصل هو، ثم انتصر على أمم ليس أنها لم تقهر فحسب بل إنها غير معروفة أيضا، وهو يحمل لينشر في تمجيده براهين أعماله الخارقة للعادة». فواضح من هذا أن تقسيم الموريطانيتين لم يكن بعد عملا ناجزا في سنة 44م. فقد كانتا خاضعتين لنفس القائد الروماني، وكما يبين ذلك أحد الإهداءات لكْلود، الذي أظهره السيد لْوي شاتْلان M. Louis chatelain للنور في سنة 1924، وهو ما سأعود له بعد قليل. فإنه يظهر لنا : م. فادْيوس كيلير M. Fadius Celer موصوفا بأنه : *Proc(urator) Aug(usti) pro legato* في وَليلي.

فالتـقسيم بين موريطانيا القيصرية والطنجية لم تذكره النقائش قبل عهد تراجان Trajan. ولكنه مذكور في النصوص التي فيها صفاتهما المميـزة قليلة جدا أو هـي أوصـاف جـديدة لم يقـع اختصـارهـا بعد. فالتقسيم يظهر ولكنه غفل في الأدب، أولاً عند تاسيت Tacite الذي يشير فـي تاريـخه للموريطـانية وللأخرى، وعند پْلين الذي حـول 75م يذكرهمـا بصيغة الجمع (أي بالتثنية في العربية). ويرجع كما يؤكد ذلك دِيون كَسْيوس لعـهد كْلود ربما لسنـة مراقبته 47-48م. ولربما بعد 46 م، وبالتأكيد بعد سنة 44م. ولكن التقسيم غالبا ما كانت تقطعه تجميعات مؤقتة. ولم يقع إنجازه بالبساطة التي يحكيها دِيون قائلاً : «قَسم كلود Claude إلى شقين رعاياه المورِيين : الذين كانوا من جهة تنجي، والذين كانوا من جهة القيصرية وهما المدينتان اللتان أخذت الولايـتان منهما اسميهما. وأخضعهم، هؤلاء وأولئك، لحاكمين من طائفة الفرسان. وعلى العموم، فمؤرخنا الذي من القرن الثالث للميلاد لم يخطئ مطلقا، ولكنه استعمل لغة عصره. وكلمته المختصرة يجب، عن القرن الأول على الأقل، أن تعدل وتكمل. أما فيما يخص المورِيين بجهة قيصرية، فلا أسهل من : أن قيصرية كانت مدينة أهلية، يسهل على كلود Claudes أن يرفعها بإحدى التفاتاته الحسنة إلى رتبة مستوطنة رومانية شرفية. أما من جانب تنجي فلم يكن هناك موريون، إذ منذ سحب تنجي من سلطة الملك سنة 38ق.م، فإن المواطنين بمنطقتها من قدماء الفيالق أو مناصري الغالبين في الحروب الأهلية قد كانوا مواطنين رومانيين. ومن هنا، فموريطانيا الشرقية تتطابق تماما مع المملكة القديمة لبوكوس الثاني، وموريطانيا الغربية اضطرت لأن تستعيد إلى المملكة القديمة لبوگـود المستوطنات الفعلية التي هي بابّا Babba، وبناسا Banasa،

وزيليس Zilis وتنجي Tingi التي كان أوكتاف قد فصلها عنها. فكانت في الأصل مكونة من قسمين، قسم للغرباء Pérégrine أي موريطانيا الخارجية Extérieure، والقسم الآخر روماني هو منطقة طنجة. وبعد ذلك فالإضافة الرومانية لكلمة تَنْجيتان أو تنجيتاني Tingitanie ثم اختصرت، كانت على غرار موريطانيا القيصرية، بها حصل الاسم على الدلالة لكل الولاية. غير أن الأمر لم يكن هكذا قديما. وشهادة النقش تتفق هنا مع المنطق.

ونحن نذكر قاعدة التمثال التي عثر عليها بطنجة، ونشرها المرحوم هيرون دُڤيلْفوص Héron de Villefosse في 1887 في مجلة الأركيولوجيا، وبقيت تصويباتها غير مؤكدة :

I

PROVINCIAE NO

VLTERIORIS TIN

POPVLVS TI

STATVAM SVA IMP

فالأمر هنا يتعلق بإهداء في تمثال أقيم لحاكم الولاية –provinciae– أقامه شعب تنجي :

POPVLVS TIngitanus

STATVAM SVA IMPensa posuit

وتتمات هذين السطرين الأخيرين تشترك في الوضوح، وتؤكد دون شك بالتأخير المقصود للسطر ما قبل الأخير أن النص قد فقد عشرة

أحرف على اليمين. كما أن الضياع في أعلى الحجرة يتركنا في حيرة عن لقب الحاكم وعن التعرف على الولاية التي كان يحكمها. وكان الناشر الأول قد افترض أن الوثيقة تؤرخ بعهد الإمبراطور مارْك أوريل Marc-Aurèle، الذي كان فيه الموريون يزعجون بيتيكا Bétique فمرت هذه الولاية (بيتيكا) من الاختصاصات السناتورية إلى سلطة الإمبراطور المباشرة. واستنتج من ظنونه لهذه النتيجة أن التنجيتان كانت في هذه الحقبة مرتبطة بالولاية الإمبراطورية الجديدة في إسبانيا ابتداء من سنة 285م في عهد ديوكْليتْيان. فكان إذن يقرأ : [leg(ato) Aug(usti) pr (aetore)] provinciae nov[ae Hispaniae] Ulterioris Tin[gitanae].

ولكن يؤسفنا، أن الرواية بكماء فيما يتعلق بهذا التجميع لولايتي إسبانيا وإفريقيا. وليس هذا فحسب، بل إن البرهان الذي يستند عليه هيرون دُفَيلْفوص Héron de villefosse بالخصوص يعتمد على خطإ في التوقيت الزماني المستند هو نفسه إلى خطإ في القراءة. فنقيشة مالقة Malaga التي استخلص منها ذكر ولاية بإسبانيا موصوفة بكونها قديمة Vetus، وتفترض بالفعل وجود ولاية جديدة Provincia nova، لا تحمل صفة Veteris قديمة كما اعتقد ذلك، وإنما تحمل صفة ulteris أي الخلفية أو البعيدة. وهي غلطة ممن نقش الحجرة عوض ulterioris أي الأشد بعدا، أو البعيدة جدا. وزيادة على ذلك فإنها لا ترجع لعهد حكم مارك أوريل Marc-Aurèle، بل لعهد أنطونان التقي Antonin le Pieux الذي عندنا من عهده عدة شهادات، وآخرها التنويب Legatio المخول إلى أوتيدْيوس هونوراتوس Uttedius Honoratus الذي بقاعدة تمثال مركوس سولْبيكْيوس فِليكْس M. Sulpicius Felix بِسَلاَ. وهي تضم التنجيتان لا إلى إسبانيا، بل تضمها لموريطانيا القيصرية.



نقيشة مَرْكوس ڤاليرْيوس سيڤير

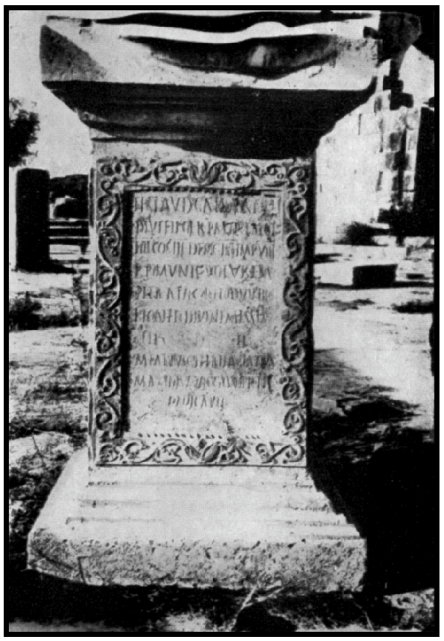

نقيشة مَرْكوس فادْيوس كيلير

وفي هذه الحالة فإن البقايا المشكوك فيها التي أوردها هيرون دُڤيلْفوصْ H. de Villefosse تسقط من ذاتها، ويحسن أن نقرأ ببساطة : *proc(uratori) Aug(usti)] pr(o) leg(ato) provinciae nov[ae Mauretaniae] Ulterioris Tin[gitanaeque]*، بل وأحسن من ذلك أن نقرأ : [Mauretaniae] Ulterioris Ting[itaniaeque].

وبمجرد ما تعرف بهذه الصفة، فإن شظايا طنجة، عوضا عن النزول إلى عهد حكم مارك أوريل، تصعد إلى بدايات التقسيم في عهد كلود للموريطانيتين، لعهد قريب جدا من هذا الانفصال، لتحتفظ فيه الولايتان الجديدتان بصفة Nova في تسميتهما. وهو ما يؤكد بوضوح التمييز الذي قادنا التفكير لإدخاله بين القسمين غير المتجانسين، اللذين تكونت منهما موريطانيا الغربية، أي موريطانيا البعيدة، وموريطانيا الحقيقية، أي المنطقة المكوّنة بطنجة وحول طنجة من المستوطنات التي أنشأها أوكتاف من 38 إلى 25 ق.م. وكذلك پْلين الذي هو أقدم كاتب عزل موريطانيا الغربية، وذكرها بتسميتين متقابلتين. فهنا تنجيتانيا: (التنجيتانيا لها 170.000 خطوة طولا، أي *Tingitaniae longitudo CLXX millia passum*). وهناك inferior Mauretania : فالنيل له منبعه في أحد جبال موريطانيا السفلى : *Nilus originem in monte inferioris Maurretaniae… habet*. وبالتأكيد فإن هذه الازدواجية الأولية تبدو اليوم بالمغرب في منطقتي النفوذ الفرنسي والنفوذ الأسباني، وكأنها امتداد نهائي. ولابد أنها تركت لها آثارا طوال عهد الإمبراطورية. ويحتمل أن والي موريطانيا الغربية سكن بالتناوب هذا القسم وذاك، اللذين في أول الأمر قد كونا ولايته، مع تكليفه بأن يعين عنه نائبا في القسم الذي يغيب عنه هو شخصيا. وهذا الحاكم النائب Subprocurator،

الذي يقل وجوده في غير هذا الموقع، قد تأكد وجوده هنا بالنقائش التي من عهد تراجان. والأرض الرومانية المحددة في تِنْجي القديمة، كانت بسبب ولائها وقدم قانونها التوطيني Colonial، هي الأصلح لتكون له دار إقامة. ومع ذلك، وبعد مرور الأيام، عندما قد شمل اسم موريطانيا المملكة القديمة للملك بوگود، فإن والي أوغست August، قد أقام مصالحه ومسكنه في منطقة النفوذ الملكية القديمة.

❖ ❖ ❖

منذ التنقيص من مملكة يوبا الثاني بجعلها ولاية، إلى عهد الإمبراطورية السفلى، وإلى إصلاح ديوكليتْيان سنة 285 م الذي ربط بدون شك التنجيتان إلى أبرشية إسبانيا، وأمر، مضطراً، أن ينسحب إلى الساحل الجنود والموظفون الإمبراطوريون من الداخل، فإن إقامته الاعتيادية لم تفتأ أن تثبت في وليلي، حيث جمع حولها الأجهزة الأساسية لإدارة الولاية.

الجيش أولاً. إن المركز الوحيد للقيادة Praetorium الذي عرّفتنا به النقائش بالمغرب، قد وقع بناؤه بجوار وليلي في عين الشقور Ain-chkour. ونلاقي في الإقامة بالمدن، أو في أبراج صغيرة fortins مانعة من الوصول لها، فرقة الأشْتوروم Cohors Asturum وCall (aecorum). وليس هذا فحسب، بل نلاقي جناحا (ala) لا نعرف اسمه. والقدماء يموتون فوق ترابه أو ينسحبون منه، ونلاقي فصيلة من الـ Brittones، وأحد جنودها أقام هناك في 191 أو 192م معالم عبادة للرب ميثْرا Mitra.

ونلاقي العبادة بعد ذلك بالولاية : فكما أن ما اتضح بشرشال من قاعدة تمثال تشريفي مكرّس لأحد كَهَنة Flamine الولاية، قد أوحى إلى

اكْـصيل أن مـجمع ولاية موريطـانيا القيصـرية *Concilium provinciae Mauretaniae Caesariensis* كان يـعقد بـها اجتماعاته، فكذلك الاكتشاف في وليلي لقاعدتين تشريفيتين، ومكرستين بالفعل إلى أوكراتيا Ocratia وإلى جيرْمـانيلا Germanilla. وهـما امرأتان، الثانية منهما وحدها هـي الموصوفة بـأنها وليلية، ولكنهما معا عُرفتا بأنهما flaminica provinciae، أي كاهـنة بالولاية. وهذا يقنعنا بـأن مجمـع ولاية Concilium provinciae موريطانيا الغربية كان يجتمع في وليلي، كما في عاصمة الولاية.

وأخيرا وبصفة خاصة، شخصيات الحكّام الإمبراطوريين أنفسهم. فمن تنجي لم نقع منهم حتى اليوم إلا على تمثالين لاثنين منهم. الأول هو للمجهول الذي حكم الولاية الجديدة Nova provincia في بداياتها، والثاني لِپوبليوس بِيسْيوس بِتْويـنْيانوس Publius Besius Betuinianus لما بين 102-114م. وعلى النقيض، ففي وليلي أقيمت لهما معالم عديدة اعترافا بالشكر الذي دعت له حمايتهما للمدينة. وهذه في شهادات اعترافاتها، قد كست أسرتيهما بمشاعر الإخلاص الذي تعبر عليه. وهكذا ففي القرن الثاني للميلاد نجد «جمهورية وَليلي» *la Resp(ublica) Vol(ubilitanorum)* قد أمرت بنقش تكريم من خدموها.

وفـي نـهـايـة القـرن الـثـالث أقـامـت قـاعـدة *Sutroniae Valentinae Coniugi clementi(i) Val(erii) Marcellini v(iri) p(erfectissimi) praesidis et patroni nostri*. وفي تـاريخ غيـر معـروف بالقـرن الثاني أو الثـالث للمـيـلاد أقـام الوَليـليـّون معلَمـة أخـرى باسـم ل. سَرْيولِنـوس L. Sariolenus ابن أحد الحكام الذي جعلوه هو أيضا حاميا لهم.

هذه العلاقات المحلاّة بالتكريم والمحبة تجاه أُسَر الحاكمين تكفي للبرهنة على حضور جليّ في الآثار التي أقاموها في وليلي.

ففي القرن الثاني للميلاد أقام بها مارْكوس أنطونْيوس نَفيلوس M.A.Navilus الرجل الرفيع القدر، والي أوغُست : v(ir) e(gregius) proc (urator) aug(usti) M(arco) تمثالاً على نفقته لأبيه *Antonio Navillo [ommib]us equestribus militiis funito…patri karissimo*. ومنذ 44 للميلاد فإن : *Marcus Fadius celer Flavianus Maximus, pro(urator) Aug(usti) prol(egato)* الوالي الأوغسطي بالنيابة قد رأس بها تدشين – dedicavit – تمثالاً لكْلود Claude الذي كان آنذاك في ولايته الرابعة. وفي 158 للميلاد فإن ساكني حيّ أوغُسْتا Augusta أقاموا تمثالا لأنطونان التقيّ، وقام بتكريسه له الحاكم آنذاك بنفسه، وهو كَنْتوس آيرونْيوس مونْيانوس Q.A.Monianos. وفي 216م فإن الوالي م. أ. سيباسْطينوس M.A.Sebastenus أقام بها قوسا للنصر تمجيدا لِكَرَكَلاّ Caracalla، وفي السنة الموالية أقيم الكابتول Capitole تحية لمَرْسين Marcin.

ولكن هناك ما هو أفضل مما ذكر، وهو ثلاث نقائش تذكر بالمعاهدات التي فرضت على القبائل المهتاجة وقد فرضها حكام أشداء. فالأولى نقشت في عهد حكم مارك أوريل Marc-Aurel، والثانية يوم 24 أكتوبر سنة 277م، والثالثة يوم 13 أبريل سنة 280 م. وهي منقوشة في صيغ متشابهة : فالوالي بعد أن تفاوض... إما مع أحد أمراء القبيلة، أو مع القبيلة، أو مع الابن أو الأخ لملك قبيلة البَكْواتيين rex gentis Baquatium، فإنه شاء أن يترك بالمدينة التي جرت بها المفاوضات، وانتهت إلى الاتفاق، أثرا شاهدا على هذا النجاح الذي كان خالدا خلود

الحجر. ومصداقا لذلك وتذكيرا به، فالوالي پ. أيليوس P. Aelius قد أغنى مدينة وَليلي بنْذر ex-voto لحصافة مارْك أوريل أنْطونان أوغُست. وبعد مائة سنة فإن كليمانْتيوس ڤاليرْيوس مَرْكيلينوس C.V. Marcellinus الرجل المتناهي في سموّه رئيس ولاية موريطانيا الطنجية *V(ir) p(erfectissimus) P(raeses) P(rovinciae) M(auretaniae) T(ingitanae)* قد زانها بالتتابع بهيكلين للسلام.

وسواء في عهد حكم الأنطونانيين Antonins أو في عهد بْروبوس Probus، وفي الربيع أو في الخريف، فإن الحكام، ولو تلقبوا بولاة فحسب أو رؤساء موريطانيا الطنجية، يتفاوضون دائما في وَليلي، وبها يذكرون بنفس الافتخار الانتصارات التي حصلت بها دبلوماسيتهم عليها. ومن هذه الذكريات المتأخرة، وممّا قبلها، يتضح لمدة زمنية تذهب من 44م إلى 280م، أي من صيرورة موريطانيا ولاية إلى التغييرات المتأكدة، وإلى التراجع الممكن الذي أمر به دِيوكْليتيان، يتضح التكرار المتتابع، أو الاستمرار المتوالي، للإقامات التي حل فيها الحكام بوليلي طوال عهد الإمبراطورية العليا.

فكانوا يملكون بها منزلا، وهو ما يمكن أن نسميه قصر الوالي. ففي سنة 1922 اكتشف السيد لوي شاتلان Louis Chatelain بوليلي تحت رواق ذي أعمدة إيونية Ioniques متقادمة الصنع لوحة من المرمر. وقرأ عليها النقش التالي، وهو : */ Imp(erator) M(arcus) Antonius / Gordianus Pius Felix invictus / Augustus, Domum cum balineo / vestustate conlapsam, / a solo restituit, curante / M(arco) Ulpio Victore v(iro) e(gregio) proc(uratore) pro legato.*



العمود الأيوني



نقيشة منزل الحاكم





القطعتان الفنيتان اللتان اكتشفتا بوليلي في سنة 1944

هذا النص يرجع لتاريخ 238–244م، ويعرض دفعة واحدة أمام أنظارنا الحقيقة التي فهمناها بالتدريج. فحيث إن حكام موريطانيا الطنجية لم يكونوا يحكمون إلا باسم الإمبراطور، وكما يدل على ذلك لقب Procuratores أي حكام بتفويض من قِبَل الإمبراطور، فالقصر الذي ينعمون فيه كان يعتبر وكأنه ملك للأمير. لذلك عندما قام الحاكم المفوض Procurator مَرْكوس ألبيوس ڤِكْتور M. U. Victore بالخدمات التي أوجبها قِدَمُ مسكنه بوليلي، كان لابد له من الحفاظ على هذا الوهم الشرعي بأن يعزو لسيده گورديان ملكية المبنى والإصلاحات التي صارت ضرورية به. وذلك بنفس الصفة التي كان بها الحكام عدة مرات يلقون على الإمبراطور الذي لا يستطيع ولا يعلم كذلك أهمية أدنى الإصلاحات ولا أدون الطرق الإمبراطورية. ولكن لا يجب أن نتغافل أمام هذه الأساليب البرتوكولية، لأن المنزل ذا الحمّامات الذي في وليلي لم يكن قصر گورديان الثالث Gordien III الذي لم يره مطلقا إلا شكليا. وعمليا فقد كان بوليلي منزل الحاكم المفوض Domus procuratoris منذ سنين عديدة، حتى صار من الضروري إعادة بنائه من جديد بين سنة 238 و244م، مع افتراض أنه كان يقوم على الموقع نفسه، وفي نفس أسوار الإقامة الملكية القديمة Domus regia.

يبدو لي هذه المرة أنني ألامس نهاية متاعبي وما أعرضه. بحيث إذا كان قد وجد في وليلي منزل للوالي domus procuratoris، مثلما وجد في قرطاجة عاصمة الولاية السِّناتورية بأفريقيا، فإن منزل الوالي الذي به جعل پْلين Pline اغتيال بيزون Pison، فذلك لأن وليلي كانت دار الإقامة الاعتيادية للوالي المفوض بموريطانيا الطنجية، مثل قيصرية

(شرشال) للوالي المفوض بموريطانيا القيصرية، ولنفس السبب بالتأكيد، إذ إنه قبل ضم مملكة موريطانيا إلى الإمبراطورية، فوليلي على غرار قيصرية كانت عاصمة للملك يوبا، أي : Volubilis regia Iubae.

تعليق مُلحَق

هذه المذكرة عندما نشرت في صيغتها الأولى سنة 1933، فإن التصويب الذي جرؤتُ على إدخاله في شروح الإشكالية التي قال بها هيرون دُڤْلْفوص Héron de Ville fosse فيما يتعلق ببقايا إهداء طنجة المأخوذة من ديوان النقوش اللاتانية : (أي C.I.L الجزء VIII ورقم 21813)، قد أثارت كما أعلم بعض الارتياب.

ولكن قراءتي قد تأكدت اليوم بصفة قطعية بنص لوحة البرنز التي اكتشفها السيد ثوڤْنو M. Thouvenot في بَناسا ونشرتها تقارير «أكاديمية النقائش» سنة 1940 ص 131–132.

هذا يرجع لسنة 75م، ويوضح فعلا أن سِكْستوس سانْتيوس كَيكيلْيانوس S. S. Caecilianus قد كان حاكما آنَذاك على موريطانيا الموحدة من الوادي الكبير إلى البحر المحيط، ويحمل لقب مفوض *Leg(atus) Aug(usti) pro pr(aetore) utriusq(ue) Mauretaniae*. وقد اختاره حامياً Patron مستوطنو بَناسا الذين وصفوا فيه أنفسهم بأنهم مستوطنو المستوطنة اليولية القَلَنْتينية الْبَناسية، سابقا الولاية الجديدة موريطانيا الإفريقية : *coloni coloniae iuliae valentinae banasae ex provincia nova Mauretania Africa*. فالصيغتان معا تتفقان في تأكيدهما على وجود ولاية موريطانية جديدة Provincia nova

Mauretania. وصيغة بَناسا تصفها بأنها إفريقية Africa، وصيغة طنجة تصفها بالبعيدة أو الخلفية Ulterior مع إضافة تتطلب أيضا استقلال منطقة المدينة. وعلى كل حال، فإن هذه الصيغة وتلك تبديان تردد الصيغ الرسمية طوال المدة التي تلت الاستيلاء على المملكة، والتي على طولها كانت الولايتان منضمتين أو منفصلتين يمكن أن يُنظر إليهما (كجديدتين).

2

موت بطُلِمي ملك موريطانيا

نحن نعلم أن ضمّ موريطانيا للإمبراطورية، لم يقع إلا بحد السلاح، ومن سنة 40 إلى 43 تطلب ذلك الاستيلاء نحو أربع سنين لثلاثة مَنوبين متتابعين، هم القنصلِي مَرْكوس ليكنيوس كْراسوس فْروجي M. L. C. Frugi في 40-41م، والبَريطوريان كايوس سْويطونْيوس باوْلينْيوس C. S. Paulinius في 41-42م، وكْنايوس هوسيدْيوس جيتا Cn. H. Geta في 42-43م. ومن غير المشكوك فيه أَن الاستيلاء قد أعلن عنه منذ سنة 40م، لأن عدة نقائش بها هذه السنة تتطابق مع السنة الأولى للولاية الجديدة. واستخدام التأريخ الموريطاني يفترض أن سنة 40 حلّت فيها الولاية محل المملكة رسميا. إذن فنتيجة لذلك كانت سنة 40م هي التي انتهت فيها بالنسبة للرومانيين الأسرة الملكية التي نصّبوها في موريطانيا في شخص يوبا الثاني. وكان بطلمي ابن يوبا الثاني هو الممثل الثاني والأخير ممن يمثلها. وحيث إن هذا الملك الذي لم يكن أعزب، ولكن خلافا لأبيه، فإن نقوده لم تُبن عن مَلكة مشاركة، ولم يترك ذرية تعتبر شرعية، فمملكته تؤول طبعا لأشد الناَس قرابة إليه في النسب : أي إلى الإمبراطور. لأن بطلمي كان من جهة أمه الحفيد الفعلي للمثلث Triumvir مارْك أنطوان Marc-Antoine وكاليگولا Caligula عن طريق أنطونيا Antonia جدّته (أمّ أبيه جيرْمانِكوس Germanicus) كان ابن

الحفيد. فكان طبيعيا والحالة هذه أن يحوز ميراث عمه على الطريقة البروطونية من غير وساطة فضولية ولا أي فراغ مطلقا. والسنة الأولى من تاريخ الولاية تتناسب مع السنة الأخيرة للمملكة. وقد مات بطلمي في السنة المذكورة كما في دِيون كَسْيوس، أي سنة 40. ولكن المؤسف هو أن ظروف موته هي أبعد من أن تكون واضحة بالتأكيد.

❖ ❖ ❖

فينتج إذن كما سنرى من الأقوال المتطابقة لكتابنا أن بطلمي قد مات بعزيمة غادرة لِكليگولا الذي أراد أن يفتح الميراث بموته. غير أن معرفة التفصيل يصعب الوصول إليها، لأن الإمبراطور تنصل من المسؤولية عن فعله. ولو أنه اعترف بذلك لما استطاع تبريره إلا بتحميل ضحيته بآثام لا تغتفر. ولكنه اجتهد في إخفاء عمله. ولا يوجد أي إهداء باسم بطلمي فيما وصل إلينا، سواء في حياة الملك أو بعد موته، في أحجار لم تضربها المطرقة لمحوها، الأمر الذي يؤكد أن ذكراه المحترمة دائما لم يقع عليها حكم بعد الموت. وكذلك فإن الصيغة الرسمية التي تولي ظهرها لحقيقة الأحداث، كانت تلقّن أن احتلال موريطانيا قد تحقق بمجرد الإعلان عنه، وتؤكد أيضا أن ملك موريطانيا قد مات ميتته الطبيعية، وتعتمد هكذا على خلاف الحقيقة، وألبست البحث بالعراقل التي تواجهنا بالاحتياطات الاصطناعية لتستره وتخيفه.

بعد ذلك بعشرين سنة، حول سنة 60م، كتب سينيك Sénèque كتابه «في سلامة النفوس» De tranquilitate animi، ولم يقدر حتى ذلك العهد أن ينظر للحدث مواجهة، وإنما ألقى عنه إشارة غير مباشرة في الفصل الحادي عشر والفقرة 12 منه.



بطليمي ملك موريطانيا

وبالفعل لا يمكن أن نوقع على بطلمي numquid divitior – [Ptolemaeo ?] – الأقوال الواردة في الفقرة العاشرة من نفس الفصل إلا إذا أخذنا بتصويبات السيّد موري Muretالذي، بتأثير من الفقرة 12، قد حوّل اسم الملك إلى صغية ? Pompeioالتي توجد في المخطوطات numquid divitor Pompeio ?. لكن إذا كان بعض الناشرين المعاصرين قد قبلوا هذه الصيغة، فالأكثرية منهم على صواب في رفضها. أولاً لأنها لا جدوى تحتها : إذ المعلومات الدقيقة في النص، حيث خصص الشخص الذي ذكره سينيك Sénèque كمثل على نظريته في تقلب الأحوال الإنسانية، وجعله يموت جوعا بمنزل كاليگولا بِجَبَل البَلاتان Palatin، فهي معلومات تتناسب مع سِكْستوس پومْبِيوس Sextus Pompeius الذي كان قنصلا سنة 14، ثم كان بروقنصلا في آسيا. وكانت ثروته العظيمة والخيرات التي ملكها، ومعها أنهار كاملة، في كَمْبانيا Campanie، وصِقِلية Sicile، ومَقْدونيا Macédoine، وبالخصوص ارتباطه العائلي القديم مع كاليگولا، المتحدر إليه من قرابة النسب التي جعلها له دِيون كاسْيوس مع أوغُست Auguste، والتي وجد بُرْگيزي Borghesi أصلها في ذرية الأختين المولودتين من زواج آتيوس Atius مع جوليا Julie أخت قيصر. وهما أتِيا الكُبرى Atia Maior التي تزوجت بأوكتاڤْيوس Auctavius، فهي إذن أمّ أوغست. وأتِيا الصّغرى Atia minor التي تزوجت بمارْيوس فيلپوس L. Marius Philypus، فكانت – على ما يحتمل – جدّة سِكْستوس پومْبِيوس S. Pompeius. ثم إن تصويبات موري Muretعلى الخصوص ومع التأمل، تناقضها الفقرة الموالية لها تقريبا من كتاب «سلامة النفوس» De trauquillitate animi التي يبدو لأول وهلة أنها هي التي أوحت بها. ففي الفقرة 12 من نفس الفصل، فإن سينيك

الذي لا مجال للشك أنه ذكر فيها الملك الإفريقي بطلمي، يذكر قرّاءه بأن هذا الأخير لم يكن ضَيْفا Hopes على الإمبراطور مثل بومبييوس Pompeius، بل كان السجين الذي اعتقله الإمبراطور وجعله تحت الحراسة المشددة : *Ptolemaeum Africae regem… inter Gaianas custodias vidimus*، وخاتمة الفقرة توحي من غير إفصاح بالخاتمة المحزنة التي سينتهي إليها الأسير. وفي الجملة المذكورة آنفا، فإن سينيك يشبّه معاملة بطلمي بما حصل لِمِثْريدات Mithridate ملك أرْمينيا *Arminie : …Armeniae Mithridatem inter Gaianas custodias vidimus*. ولكن في الجملة الموالية يسارع فيفصل بين حظوظ الملكين، ويقول : إن أحدهما، وهنا دون شك هو مِثْريدات ملك أرمينيا، قد نفاه كاليگولا واستعاده كلود. والثاني كان هو بطلمي طبعا الذي كان يتمنى بحسن ظن أن يقاد للنفي *alter in exilium missus est alter ut meliore fide mitteretur, optabat*. وهل لهذا معنى سوى أن بطلمي الذي خابت أمانيه قد لقي من غدر كاليگولا شرا أشد من النفي: وليس في الإمكان التعبير بألطف من التلويح دون التصريح بأن الإمبراطور قد قتل ملك موريطانيا. على أن المؤرخين القدماء بعد ذلك بقليل سيتخلصون من الأسلوب الموارب للفيلسوف سينيك Sénèque، ويسمّون بصراحة الاغتيال باسمه.

فَديون كاسْيوس يكتب أن الإمبراطور، استدعى لجانبه ملك موريطانيا واطلع على ثرواته فأمر بقتله. وَسْويطون، في أحد فصول ترجمة كايوس Caïus، تحدث على القَتْلة الدموية لبطلمي : Cruenta mors – persoluta est – وأوضح في فصل آخر أن التنفيذ قد جرى حين تقرر repente percussit. فكاليگولا الذي دعا بطلمي لخارج مملكته، وكان أولاً قد قابله بالتشريف، قد قرر فكرة جريمته بمجرد ما رأى أنه لما دخل للفرجة بألعاب المتجالدين gladiateurs التي كان الإمبراطور يقيمها،

ورأى أن الملك يجمع أنظار عموم المتفرجين على لمعان ردائه الأرجواني، تقررت المأساة في طرفة عين، وفي الحين جرت إلى حلها. وسواء أكانت النظرة المفتونة لكاليگولا عم الملك، بها فكر بغتة في الاستيلاء على الإرث الضخم، أو كأنه قد انفجأ بغته من علامة الاختلاس أمام الأرجوان الذي يكتسي به بطلمي، والذي تختص الجلالة الإمبراطورية ببهائه الرمزي، فإن السرعة نفسها التي بها يخبروننا أنه فكر وأنجز عزمه القتال، لتتطابق مع المزاج الجنوني المهتاج الذي يكسو نزواته. وأكثر من ذلك، فإن حيرتنا من المشروع نفسه وتنفيذه ستكون أقل إذا ساغ لنا أن نجعلهما خارج روما، أن نجعلهما في مشهد متوار، في منظر بالولاية، في لُگْدُنوم Lugdunum أي بمدينة ليون Lyon، أثناء أعياد ساتُرْن (زُحَل Saturnales) المجنونة والدموية التي ملأ بها الإمبراطور المعتوه عاصمة اتحاد بلدان گوليا الثلاثة les Trois-Gaules سنة 40م.

❖ ❖ ❖

ويجب أن لا ننسى أن سنة 40 هذه التي جرى فيها اختفاء بطلمي، فإن كاليگولا لم يقض بروما سوى الشهور الأربعة الأخيرة منها. فقد كان ذهب في مهزلة الحملة لما وراء رينانيا Transrhénane، في شهر سبتمبر سنة 39، ولم يعد منها حسب شهادة سْويطون إلا سنة 40، في ذكرى مولده، أي يوم 31 غشت. وأخيرا وقع تزييف هذا القول الدقيق لِسْويطون، وذلك اعتمادا على قطعة من Acta Arualium التي سجلت حضور الإمبراطور *Adfuerunt imp(erator) Caes(ar) Aug(ustus) Germanicus* في قربان، تاريخه فاتح يونيو. ولكن إذا صح أن هذه القطعة، التي تبتدئ في 24 ماي، وتقف يوم 6 يونيو ترجع لسنة 40 حسب

ناشري ديوان النقائش اللاتانية C.I.L فلسنا ملزمين بالأخذ برأيهم، لأنه ليس لدينا مانع من جعل القطعتين معا من سنة 39. إذ أولاهما تنتهي في 18 مارس، أي في 15 من كلندات Kalendes أبريل، والثانية تبتدئ في 27 أكتوبر أي في 6 من كَـلَنْدات Kalendes نوفمبر، ونكون قد أخطأنا إن أخذنا بافتراض غير أكيد، وضحينا بمفاد خبر ثابت حافظ لنا عليه سْويطون، حتى لكأن دقته نفسها شاهدة على صدقه.

وفي الأول هناك حظان اثنان مقابل حظ واحد في أن اغتيال بطلمي لا يكون جرى في الأشهر الأربعة الأخيرة من سنة 40، التي فيها عاد كاليگولا ليقضيها بروما، بل جرى أثناء الشهور الثمانية الأولى من سنة 40، التي كان الإمبراطور خلالها يتجول في غاليا. وفي الأخير، ذلك بالفعل هو المكان الذي يعينه له تطابق معطياتنا.

قبل كل شيء فالأخبار الواردة في نصوصنا عن حياة كاليگولا في غاليا La Gaule يصعب حصرها في خمسة أشهر. ولما عاد إلى ليون يوم فاتح شهر يناير سنة 40 من رحلته الأولى لما وراء رينانيا transrhénane، فإن الإمبراطور قد دشن بهذه المدينة توليه القنصلية للمرة الثالثة، وأقام مرة واحدة أو أكثر، بحيث يحسن تطويل المدة بما يناسب برنامج الاحتفالات التي أسرف فيها، وفي العجائب العديدة التي فعلها فيها. وأثناء ذلك نظم هجوما خياليا على بريطانيا، ووضع الحجرة الأولى لمنارة ميناء بورْتوس إيتْيوس Portus Itius (Boulogne-sur-Mer). وأخيرا، فقبل الدخول إلى إيطاليا، عاد إلى نهر الرين Rhin لينشر من جديد ادعاء عبقريته العسكرية. والمسيرة إلى المحيط لم يمكن وقوعها قبل الربيع. وجل الفرجات التي جرت بليون تفترض أن أيام الصحو الجميلة كانت قد عادت. ولن نجازف كثيرا إذا افترضنا أن قسما منها

على الأقل قد جرت فيه ذكرى إنشاء الهيكل الروماني والأوغسطي *Ara Romae et Augusti*، بملتقى نهري الرُّون Rhône والصُّون Saône يوم فاتح غشت.

وبعد، إذا صح أن السنة الأولى لولاية موريطانيا، قد جرى الاحتفال بها رسميا قبل عودة كاليگولا إلى روما، لأن النقش يؤكد لنا معادلة يوم 3 غشت من سنة الولاية 413 بيوم 3 غشت من سنة 452، فيحتمل جدا، لكي يعادل تاريخ الولاية بالتاريخ الروماني، أن يكونوا جعلوه ينطلق من فاتح يناير سنة 40، أي بتقديم في وفاة بطلمي. وذلك أمر سهل التنفيذ لأن موت الملك يصعد بعيدا في مجرى سنة 40.

وختاما، وتبعا خصوصا لرواية حوليات دِيونْ كاسْيوس، فإنها لا تتضمن حلاً آخر، لأن هذا المؤرخ قد أوقع اغتيال بطلمي بعد سلسلة من (الجنونيات) الليونية لكاليگولا، وقبل ذهابه إلى حملاته التبجّحية.

❖ ❖ ❖

فسنة 40 للميلاد، في ربيعها أو صيفها، كانت لُگْدُنوم Lugdunum في غالْيا هي مقبرة الملك الأخير لموريطنيا. هكذا فالحدث الذي كان ڤيلْريش Willrich قد أنكره، والذي صدّقه گلْتزير Gelzer عرضاً، والذي لم ينكره اگْصيل إلا وهو متأسف، هذا الحدث إذن سيظهر ثابتا، وسنفهم جيدا أن في هذا التاريخ وبهذا المكان كانت الجريمة الغادرة ضد حقوق الناس، والاعتداء الشنيع على قوانين الضيافة اللذين أتتهما جريمة كاليگولا باغتياله لبطلمي.

وهنا إذن، فجنون الكبرياء الطاغية والنهمة عند الإمبراطور قد بلغ قمته. بحيث إن طمعه المريض لم يسبق أن بلغ به إلى ما يقارب الخبل

والهديان. فأثناء تنقلاته بأرض غاليا، أمر بأن يحييه سبع مرات جنوده بالصفة التمجيدية التي هي إمبراطور Imperator ولو أنه لم يحرز على أي انتصار، ولو أنه لم يخض معركة واحدة. ومن مدينة ليون فإنه لام أعضاء مجلس الشيوخ Pères Conscrits الذين مكثوا بالمدينة ينعمون براحتهم، بينما هو يحيى في الأخطار والأسى، ويكتب إليهم ليرد عليهم تمجيدهم إياه، لأنه غير كاف في تملقهم الذي ألزمهم به، كما لو أنه غضب من جميع الامتيازات التي كانوا يرون أن يسبغوها عليه، من أصغرها لأنها تشتم قيمته، ومن أكبرها لأنها تجعله أيضا في منزلة أدون من الذين يسمحون لأنفسهم بتقييم أعماله ومجازاتها. فعلينا إذن أن نفهم أن أرْجُوان بطلمي قد هيّج غضب الإمبراطور في وقت وفي حالة كانت كبرياؤه فيهما تنقلب إلى الخبل.

وكذلك لم يسبق أن بذل فوق ما أبداه من الطمع المفترس في هذه الحقبة من الابتزازات المتوالية التي يتصارع فيها التهريج والشراسة. فعندما وصل إلى گوليا La Gaule بدأ باستمناح كرم الخواص والمدن. وعندما توقفت عدوى الهبات المجانية، أو المسماة بهذا الاسم، اجتذب أهل الولايات إلى المزايدات الغريبة التي نظمها، وفيها كان ينسى كرامته، ويبيع لأعلى متزايد أثاث وطرف التاج. ويزين هو بضاعته كأحد الباعة الدجالين على عربته. ويقول : «اشتروا هذا، فقد كان على ملك أبي، وهذا الذي كان يملكه أنطوان، وهذا الذي وصلني من غنيمة أوغست». ولم يكن الگوليون الأثرياء يتوارون عن هذه النداءات. فكانوا، مقتنعين أو غير مقتنعين بهذه الأكاذيب، يؤدون الأثمان الطائلة في التوافه. ولما اشتد تزاحمهم عليه أمر كاليگولا أن يحمل إليه من روما جميع عتاد القصر، وحشد لهذا النقل العديد من عربات الكراء، ودواب

الخبازين، حتى إنهم لم يستطيعوا الاستجابة للمتظلمين، إذ كثيرا ما اشتكت المدينة Urbs من فقدان الخبز. ولما بيعت الطرائف كلها، استولى كاليگولا على الأموال باحتجاز ثروات الأبرياء الذين لم يكن يحكم عليهم إلا ليجردهم. وأمر أن تقدم إليه إحصاءات بثروات الغاليين، وابتداء بِيولْيوس سَكِرْدوس Iulius Sacerdos، فإنه أمر بإعدام أقوى الأثرياء، وعندما جمع من دماء هؤلاء الأبرياء ستّين مليونا من السِّسْتِرس Sesterces، التفت إلى أصحاب الملايين من حاشيته : إلى الحاكم السابق لجِرْمانيا لِنْتولوس گايْتوليكوس Lentulus Gaetulicus، وحتى للمقربين منه مثل ليپدوس Lepidus الذي حمل أگْريبا Agrippa بين ذراعيه جرّة رماده حتى روما. فنفهم إذن إذا راجعنا قائمة الجرائم التي أملاها عليه نهمه، كيف أنه لم يقاوم إغراء إرثه لبطلمي. وكان على قيد خطوة من التضحية لمخاوف وهمية بعمّه كلود Claude، الذي تسارع من روما على رأس وفد من مجلس الشيوخ، ولم ينج إلا لما اشتهر به من أنه بليد. ومن الطبيعي أنه في نفس الحقبة يقوم بذبح عمه الموريطاني، لا من أجل مخاوف كانت دون شك غير أكيدة، ولكن بسبب الطمع الذي لا يقاوم في ثرواته العظيمة.

وفي الأخير، فإن الحكاية التي رواها لنا سْويطون، لا توضح فحسب الهياج المفاجئ الذي دفع الإمبراطور لهذا الاغتيال. إنها تساعدنا على استعادة منظر الجريمة ومناخها. فبطلمي كان قد دعى لحفلات ليون، لإعطائها البهاء بحضور (عدة ملوك)، وكان كاليگولا قد دعا في نفس الحين أگريبا Agrippa صاحب فلسطين، وأنتيوخوس صاحب كوماجين Antiochos de Commagène. وكانت غاية هذه الاحتفالات نفسها هي أن تبهر السكان الغاليين، وكانت تضم أنواعا من

الفرجات، كما اشتملت على مباريات في البلاغة التي يلزم القانون من أخفقوا فيها بأداء الجائزة لمن انتصروا. وكان لابد من وجود معارك للمتجالدين كالمعركة munus التي جاء بطلمي ليحضرها لسوء حظه، وكانت تتخلل برنامج الاحتفالات.

أما بروما التي لم يكن الكوليزي Le Colisée بها قد بُنِي بعدُ، فقد كان كاليگولا يفضل إقامة أفراحه الدموية في الملعب المدرج (أمْفِتْياتر) الطوروس Taurus، أو في حظيرة يوليا Saepta Iulia. وبليون فلاشك أنه كان تحت تصرفه أمْفِتْياتر ملتقى النهرين، حيث جرى قبل ذلك بنحو قرن من الزمان استشهاد بوثان Pothin وبلاندين Blandine، وحيث ڤيتِلْيوس Vitellius كان في شهر ماي سنة 69 م قد رمى بِمَريس Marice الثائر البوائي boïen إلى الوحوش لتفترسه. والمنقبون الأركيولوجيون في ليون من ألمير Allmer إلى جيرْمان دُمونْطوزان Germain de Montauzan، ومن فِليبْ فابْيا Philippe Fabia إلى السيد بْييرْ ڤيلومْيي Pierre Wuilleumier قد تعرفوا عادة على بقاياه غير بعيد من الموقع الذي كان به قديما عند الملتقى العتيق لنهرَيِ الصُّون والرُّون، الهيكل الاتحادي لروما وأوغُسْت تحت البسط المخضرة الحالية «لبستان الغروس». وبروما كان كاليگولا قد اعتاد استخدام هذه المجالات دوريا في مسابقات ألعاب السِّرْك، ولمذابح الحيوانات. وكان كذلك يراوح في أمْفِتْياتر الطوروس Taurus بين معارك المتجالدين المعروفة باسم مونِرا Munera وبين المسابقات الرياضية. وفي لِيون يحتمل إذن، كما اقترح ذلك السيد Pierre Wuilleumier عن صواب، أن الأمفتياتر (الاتحادي) كان يستخدم من غير امتياز لحفلات المتجالدين التي كان يمتع بها أهل الولاية. ومن بينهم على الخصوص بطلمي التعيس الذي جاءها في رداء

أرجواني ليحضر سلسلة الألعاب المتنوعة التي كان يقدمها للغاليين Gaullois. والمتأكد هو أننا يجب علينا أن نتخيل في هذا النطاق المباريات الغريبة في البلاغة، التي كان كاليگولا يقيمها في ليون : حيث كان لا يكتفي بأن يستخلص من المغلوبين بأداء الجوائز الواجبة للغالبين، بل كان لا يترك لهم أي مجال سوى أن يمسحوا بألسنتهم نَثْرهم المزدرى، أو أن يرمي بهم في مياه النهر المجاورة. وبعد ذلك بنحو قرن من الزمان، فإن جوڤْنال Juvenal كان لا يزال يذكر ببعض السخرية الرحيمة ارتعاد الخطيب وقد امتقع لونه من الخوف (عند هيكل ليون).

وبدون أن يعلم أنه بهذه المعلومة الطبوغرافية، القريبة مما لوح إليه سْويطون في الفصل 35 من حياة كايوس Caïus، فإنه قد يمكننا ذات يوم من التعرف على أن بقايا (بستان الغروس Jardin des plantes) الليونية هي الأمْفِتْياتر amphithéâtre الذي أكسبه القداسة شهداء سنة 177م، وأن نتعرف في نفس الحين بهذا الموقع المجيد على آخر مرة ظهر فيها بين الأحياء بطلمي Ptolémée ابن يوبا الثاني، آخر ملك لموريطانيا.

3

سَلاَ (شالّة–الرباط) في عهد الأنْطونانيّين
استناداً إلى النصوص المنقوشة على قاعدة
مَرْكوس سِلْپيكْيوس فيلِكْس(*)

إن من زار الرباط مرة واحدة، لا يمكنه أن ينسى شالّة Chella، مقبرة العصور الوسطى للسلاطين المرينيّين. وهي تمتد إلى الجنوب الشرقي من المدينة أسفل منبسط مائل، معشب ومقفر، في أقصى الربوة المشرفة على السهل ذي المستنقعات الذي يتمدد به أبو رقراق، – أي نهر سلا الذي تكلم عليه پْلين Pline، أو سَلاتا Salata الذي ذكره بطليموس الجغرافي – من قبل أن ينصب في المحيط. فإذا كان المسلمون يأتون هذا المكان بخشوع لتحية صلحائهم، ويأتيه الأوربيون ليستنشقوا ملذات الجمال البديع لهذه الأسوار العالية، ذات اللون الأصهب بخرجاتها المزخرفة، ولهذه المقابر المرمرية بكتاباتها الزخرفية، النائمة في ظل أشجار النشم micocouliers وهذه المنارة الرشيقة والمثلومة، المغطاة بالزليج، والمتوجة باللقاليق، بمجموع كل هذه الهندسة اللبقة والخربة، بالبساتين العطرة، والمياه الجارية، التي ينبعث منها شعر إسلام عجوز

*) Sala (Chella-Rabat) au temps des Antonins, d'après les textes gravés sur la base de Marcus Sulpicius Félix.



قاعدة مَرْكوس سِلْبيكْيوس فيلِكْس



منظر شالة

يملأه النعيم والحزن والجمال. ومنذ أن حلّت فرنسا بالمغرب وشالة محط العنايات الورعة لمنقبيها الأثريين. ففي 1922 خصصت لها مجلة هسْبريس Hésperis دراسة ضافية Monographie بمساعدة علمية للَمأسوف عليهما هَنْري باسّي Henri Basset وليڤي پْروڤَنْصال M.E.Levi-provençal : ومن ذلك التاريخ ومصلحة الفنون الجميلة لإدارة الحماية، لم تتأخر عن السهر على إصلاحها. وأخيرا في 1929 تحت إدارة جولْ بوريلي Jules Borely، وبالمساعدة النشيطة لإحدى الأميرات المِصْريات المفتخرة بآثار إيمانها، والمحبة لجمال الموقع، صاحبة السمو الملكي خديجة فؤاد، شرع جول بوريلي في الكشف عن جميع البقايا التي كانت لا تزال ممكنة الاستخراج من أكداس التراب، ونقلها دون إتلاف لتناسق الإطار. ولم يلبث المنقبون أن نالوا جزاء أتعابهم. إذ من نوفمبر1929 إلى شهر ماي 1930، أظهرت التنقيبات في المستوى الأدنى للسور الغربي للمسجد القديم والزاوية Zaouia التي بناها أبو سعيد عثمان في بداية القرن الرابع عشر للميلاد، كما جرى أيضا اكتشاف لم يكن منتظرا. إذ على نحو مائة متر غربي المنارة، في موقع به نتوؤات لبناءات مهدمة يظهر أنها تنذر ببعض الاكتشافات. فأظهرت بقايا ليست إسلامية، بل أظهرت فوروم Forum المدينة العتيقة التي جاءت الرباط بعدها. وهكذا فالمقبرة المرينية ركبت بالضبط فوق موسطة المدينة الرومانية، حيث أقسام من الطريقين الرئيسيتين اللتين تتقاطعان بزاوية قائمة، وبقايا من قوس للنصر، وجسم تمثال امرأة، ونقوش مختلفة عادت لترى النور. وعلى مدير مصلحة الآثار المغربية، السيد لْوي شاتُلانْ Louis Chatelain، عندما تتم التنقيبات في هذه النقطة أن يعطينا عنها اللوحة الكاملة. وفي انتظار ذلك، وبفضل النشريات التي أجريت عنها أولاً في تقارير أكاديمية النقوش بتاريخ 14 نوفمبر 1930، ثم في

مجلة Maroc بعدد 25 ديسمبر 1930، وأخيرا في المحاضر الرسمية للجنة أفريقيا الشمالية لنوفمبر 1930 وفبراير 1931، فإننا أصبحنا قادرين على تقدير أهمية ثلاثة نصوص لاتانية نقشت على أوجه قاعدة تمثال أقيم لفارس روماني. هو مَرْكوس سِلْبيكْيوس فيلِكْس M. S. Felix. هذه النصوص لا تخص ماضي سَلاَ فحسب، بل ماضي موريطانيا الطنجية، وعلى العموم تهم التغلغل الروماني في شمال أفريقيا. وفيما يتعلق بتفصيل النصوص، فإننا نحيل على الخدمات المذكورة آنفاً للسيد شاتُلان. أما نحن فإنما نودّ شرح الأهمية التاريخية للنصوص.

قاعدة تمثال سِلْبيكْيوس فيلِكْس وإهداؤها

هذه القاعدة منقوشة في آن معا على وجهها الأمامي (A) وعلى وجهيها الجانبيين (B وC) بثلاثة نصوص مختلفة : ففي الوجه A عند أقدام التمثال كتب الإهداء لمركوس سِلْبيكْيوس فيلكس M. S. Felix. وعلى الوجه B، وهو يسار القاعدة، أَي على يمين من ينظر إليها مواجهة، نقرأ قائمة بثمان وثلاثين اسماً عَلماً، وعلى الوجه C بالجانب المخالف نص قرار ديكورْيونات سلا. ولنبدأ بالإهداء :

M(arco) Sulpicio, M(arci) f(ilio), / Felici, domo Roma, trib(u) / Quir(ina), lib(eratori) et pair(ono), praef(ecto) coh(ortis) (primae) / Germanor(um), trib(uno), mi(itum) leg(ionis) (sextae decimae) / F (laviae) F(irmae) F(idelis), trib(uno) mil(itum coh(ortis) (tertiae) Ulp (iae) (milliariae) / Petraeor(um), electo et retento ed cens(us) excipiend(os) in partem / provinc(iae) Arm(eniae), item Capp (adociae), / praef(ecto) eq(uitum) al(ae) (secundae) Syr(orum) c(ivium) R(omanorum), amici ob adfect(ionem) munic(ipii) Sal(ensium) et innocentiam d(e) d(icaverunt) / decretumq(ue) ordinis subiecerunt.

وإليك ترجمته :

«إلى مركوس سِلْبيكْيوس، ابن مَرْكوس [المدعوّ] فيلِكس الساكن بروما، المسجل [كمواطن] في قبيلة كيرينا، محررهم وعميدهم قائد

الفرقة الأولى للجرمانيين، الزعيم العسكري للفرقة الثالثة الأولْبية Ulpienne، بعدد ألف رجل من البِطْريين Pétréens المختارين والمثبتين لينالوا الإحصاء في قسم من ولاية أرْمينيا وكذلك في قَبْدوقيا، قائد الجناح السوري الثاني للمواطنين الرومانيين – فأحبّاؤه، بسبب مودّته لبلدية سلا ولإحسانه، قد أهدوا هذا التمثال، وجعلوا به من بعد قرار الديكوريونات».

هكذا فإن التمثال الذي ضاع كان على فوروم بلدية سلا مكرّساً لأحد الضباط الذي أقام بهذه المدينة، والذي رسمت لنا حياته العملية. وهو مَرْكوس سِلبيكيوس فيلِكس. وذلك بالموقع المعيّن بهذا النص للقيادة الشعبية Tribunat في الفيلق، وراء فرقة الجرمانيين الأولى، وقبل فرقة البطريين Pétréens الفرسان - equitata - والجناح الثاني السوري للمواطنين الرومانيين. فواضح أننا أمام حياة فارس كُتبت تصاعديا أو بطريقة التأريخ الموقوت.

في عهد حكم أنطونان التقي Antonin le pieux، الذي يرغمنا النص C على أن نرجح إليه قاعدة تمثال مَرْكوس سلبيكيوس فيلكس، فإن الوحدات الثلاث الأولى التي عمل فيها بالتتابع هذا الضابط، قد كانت مقيمة بالمشرق بمعنى :

1)– أن الفرقة الأولى للجرمانيين، التي وصفتها وثائق متأخرة بأنهاMilliaria أي بها ألف رجل، قد كانت في قَپادوقيا.

2)– أن الفيلق السادس عشر -XVI- الفَلاَوي المساعد الوثيق الذي يؤكد النص وصفه بثلاثة أوصاف، بِسَميساط Samosate بسورية.

3)– أن الفرقة الثالثة الأولوبية Ulpia الألفية للبطريين بقبادوقيا.

ولربما أن قيادته هذه الأخيرة، هي التي أثناءها جرى تكليف سلبيكيوس فيلكس بمهمة مدنية كان عليه أن يتابع إنجازها – retento – ربما بعد أن أقصي عن مهماته كضابط. وهي : إدارة عمليات الإحصاء – *ad Cens(us) exip(iendos)* – في جهة آسيا التي كان يعرفها لأنه أدى فيها واجبات رتبته العسكرية. وهل نفهم أنه أدى هذه الواجبات، أولاً في قسم من أرمينيا وبعد ذلك في قبادوقيا كلها ؟ أو في مجال يشتمل على قسم من أرمينيا وقسم من قبادوقيا. لقد أخذتُ في تتماتي بالقراءة الثانية، وذلك ليس فحسب لأنها أشد توافقا مع النحو، بل لأنها تتفق أحسن اتفاق مع تاريخ هذه البلدان. ففي سنة 114 أنشأ تْراجان Trajan ولاية أرمينيا. وكانت تذهب من قبادوقيا إلى بحر الخزر Mer Caspienne، وسُمّيت أرمينيا الكبرى Armenia maior. ولكن في 117 تخلى هادْرِيان Hadrien عن كل القسم من أرمينيا الواقع شمالي الفرات الأعلى. والمنطقة التي احتفظ بها منها أُلْحِقت بولاية قبادوقيا. فيحتمل إذن أن يكون سِلْبيكْيوس فيلِكْس قد قام بإحصاء دائرة مالية متكونة من القسم الأرميني الذي مكث رومانياً، والقسم القبادوقي الذي كان يجاوره.

وعلى كل فإنه في قبادوقيا قد نال تجربة مزدوجة عسكرية ومدنية. وذلك بدون شك هو السبب الذي من أجله أرسل من قبادوقيا إلى موريطانيا الطنجية لتسيير وظائف كانت بها مطلوبة. وبالفعل، فلا شك مطلقا أن القاعدة التي عثرنا عليها عندما أقيمت له في بلدية سلا، فإنه كان قائدا للجناح الثاني السوري من المواطنين الرومانيين. لأن ذكر هذه القيادة تقع هي الأخيرة وتظهر معاصرة للإهداء نفسه.

وهذا الجناح للخيالة السورية مجهول كل الجهل فوق ذلك. وهناك افتراضان فيما يخص هذا الجناح، وهما ممكنان معا، من غير دليل عليهما : فإما أن يكون سِلْبيكْيوس فيلِكس قد نصب على رأس الجناح بالمشرق، وجاء به إلى أفريقيا، أو إن الجناح يكون حل في سلا محل الوحدة التي كان على رأسها من سبقوا سلبيكيوس، أو أن الجناح كان من قبل ضمن جيش الاحتلال الروماني بالتنْجيتان وذلك عندما وصل سلبيكيوس لهذه الولاية. فمن ناحية يوجد شاهد قبر من شَرْشال لتذكار قائد شعبي Tribun لفصيلة سورية، مات في الطريق أثناء مصاحبته لألف رجال إلى التنجيتان. ومن جهة أخرى، فإن بعض الوثائق تبين لنا أجنحةً أو فرقاً أخرى سورية مقيمة باستمرار في هذه الأرض. مثل الجناح الحماوي ala Hamiorum والفرقة الأولى Ityraeorum. فالتشابهات تساعد إذن على قبول التفسيرين معا، ولا نستطيع الأخذ بأيهما متأكدين.

على أنه مهما كان التاريخ والظروف التي فيها قدم الجناح السوري للمواطنين الرومانيين إلى أفريقيا، فالمتأكد هو أن هذا الجناح كان يقيم قريبا من سلا، عندما أجري بها تكريم قائده سلبيكيوس، هذا التكريم الذي وصل إلينا. وكذلك لاشك في أنه كان لقائده بهذا الاعتبار حق الإشراف والمراقبة ورئاسة البلدية التي يقوم بالدفاع عنها ويكوّن حاميتها. ففي النص C ذُكرت بالفعل اختصاصاته المزدوجة المدنية والعسكرية : (C.I. 9-10)، وإذا رجعنا إلى تحليل قرار ديكوريونات سلا بسلطاته البلدية، فلابد لنا من التسليم حينا بأن السلاويين كانوا يعاملونه كما لو كان قائدا لهم، مثلما هو قائد لجيشه أو أكثر، أي لهذا الجيش الذي لا يتنازلون حتى للتعريف به بوضوح في قرارهم.

إن الأمر هنا لا يتعلق بتفويض استثنائي : فالذين سبقوه يبدو أنهم فعلوا مثل ذلك : (16 و19 .C.I)، وكذلك الذين خلفوه قد زاولوا نفس المهام : (C.I.6). وكذلك فلا يتعلق الأمر بمهمة إضافية، لأن السلاويين في قرارهم يقفون عند قيادته للفرقة الثالثة للبطريين Pétréens بحياته العسكرية الفعلي *(Per tres militias exornatus) (C.I.9)* . وذلك لأن خدمته العسكرية الرابعة، أي قيادته للجناح السوري من المواطنين الرومانيين، قد صاحبتها سلطة مدنية، كانت في نظرهم – وفي الواقع لاشك – تفوق سلطته العسكرية. ومرة أخرى لنلق نظرة إعجاب على ليونة النظام الروماني وطابعه العصري. ولربما قد سبق في قبادوقيا، وبالتأكيد سبق في موريطانيا الطنجية، في مركزه كقائد لجيش سلا، أن مركوس سلبيكيوس فيلكس كان يماثل كثيرا هؤلاء الضباط المديرين، الذين في عهدنا هم رؤساء إداراتنا العربية Nos bureaux arabes.

ومن الطبيعي، فإنه بهذه الكفاءة الواسعة، قد كانت له مناسبات عديدة يستحق فيها شكر محكوميه، بحيث إذا كانت الصيغة الختامية للإهداء : *ob adfectionem municipii Salensis et innocentiam*، تعبر عن الصفات التي بها ملك القلوب، فإن كلمتين موضوعتين في رأس الإهداء مباشرة بعد اسمه، تعبران على قوة الروابط التي تجمعه بأصحاب المعلم الأثري. غير أنهما مختصرتان : lib وPatr وتأويلهما ليس سهلا. فاللفظ الثاني Patr، لا يمكن تفهمه إلا بالإضافة أي Patr(ono)، فيكون معناه أن مَرْكوس سلْبيكيوس فيلِكْس هو سيّد Patron. لكن إذا كان مولى لبلدية سلا المذكور في السطر العاشر، فإنه لا يُدعى Patr(ono) بل يذكر على أنه Patr(ono) munic(ipii). والديكوريون السلاويون في قرارهم يتذكرون أنهم خوّلوه رتبة المثنى Duumvir الشرفي (C.I.21)، وبهذا فما كانوا ليتخلوا عن التذكير بأنهم رفعوه لهذه المنزلة الرفيعة، التي هي في

الحقيقة العليا في تراتب hiérarchie الأوصاف البلدية. إذن فنحن مدفوعون بسبب صمت نصوصنا على تصور تفسير أبسط وأسهل، وإلى قصر سيادة مَرْكوس سلبيكيوس فيلكس على الأصدقاء Amici الذين أهدوا له تمثالا : *Amici… d'(e) d(icaverunt) (A.I. 10-11)*. وكذلك يجب أن نحصر في نفس هؤلاء الأصدقاء Amici الخدمة التي أداها لهم مركوس سلبيكيوس فيلكس، المختفية في الكلمة المختصرة lib. فنظرا لأن سلبيكيوس هو أصلا من روما (A.I. 2)، وفوق ذلك، نظرا لأن المضاف Municipii Salensis ليس تابعا للمختصر lib ولا Patr، فالقراءة بتتمة lib(ero) أي ابن سلا هي قراءة مستبعدة. كما تُستبعد قراءة lib(erto)، لأن الوصف بالمعتق الذي قد تفرضه تلك القراءة، هو متعارض بوضوح مع ما ذكر في النسب، وهو وصف بما لا يفتخر به المرء بعد الخروج منه، كما أنها لاتتناسب، إلا لميزة خارقة للعادة، مع كونه الفارس الروماني، الذي تشهد مسيرة الحياة العمليةCursus لسلبيكيوس فيلكس. إذن فإن قراءة Lib(eratori) وحدها مُرضية ولو أنها شاذة. فمركوس سلبيكيوس فيلكس هو محرر الأصدقاء الذين اختاروه مولى Patron لهم. ويبقى أن نعرف من هم هؤلاء الأصدقاء ؟ وماهي الظروف التي حررهم فيها ؟ ذلك هو ما يحتمل أن يعرفنا به النصان B وC.

قائمة الأصدقاء (Amici)

على يسار النص السابق، أي على يمين من يأتي لقراءته، فقاعدة مركوس سلبيكيوس فيلكس تحمل في عمودين غير متساويين، أحدهما يسارا من عشرين سطرا، والآخر يمينا من ثمانية عشر سطرا، قائمة بثمان وثلاثين اسما، لابد أن نعتبرها لأول نظرة أسماء ثمان وثلاثين مواطنا، كاملي الحقوق، لأن كل واحد من هذه الأسماء يشتمل على التسمية الثلاثينة tria nomina التي تتطلبها الحالة المدنية الرومانية. وهي : الإسم الشخصي Praenomen ويكون دائما مختصرا، والإسم العائلي gentilicium وهذا بالتقريب لا يختصر (ومع ذلك فانظر b 6) ثم اللقب الذي هو مزدوج مرة واحدة (انظر b 6).

وإليك النص B :

a	**b**
M(arcus) Valerius Fabullus	*Q(uintus) Fabius Fabricianus*
L(ucius) Fabius Vivatianus	*Q(uintus) Valerius Martialis*
M(arcus) Antonius Bassianus	*M(arcus) Fabius Vibillio*
C(aius) Valerius Saturninus	*C(aius) Annius Capito*
C(aius) Fabius Fidus	*C(aius) Iunius Cassianus*
L(ucius) Fabius Fabianus	*L(ucius) Val(erius) Cornelius Saturninus*
C(aius) Cassius Saturninus	*M(arcus) Valerius Polio*
L(ucius) Valerius Rogatus	*Q(uintus) Iunius Rufinianus*
P(ublius) Postunius [Her]mesander	*Sex(tus) Antonius Bassinus*
C(aius) Antonius Priscus	

C(aius) Fabius Modestus
C(aius) Valerius Avitus
M(arcus) Valerius Capito
Q(uintus) Pontius Capitolinus
L(ucius) Hortensius Maurus
Q(uintus) Fabius Pudens
M(arcus) Iunius Cassianus
Q(uintus) Herennius Tuscus
Q(uintus) Valerius Saturninus et T(itus) Aelius Zosimus

M(arcus) Cassius Bassianus, q(uaestor)
T(itus) Cassius Bassianus
T(itus) Aelius Africanus
C(aius) Atilius Zubbaeus
L(ucius) Cornelius Voctor
Cn(aeus) Cornelius Cornelianus
Cn(aeus) Valerius Primus
Q(uintus) Fabius Amandus

هذه على الأقل هي القراءة التي نستعيرها من السيد لوي شاتُلان، وهي لا تدعو إلا لتحفّظ واحد في نقطة ثانوية.

وقد سلّم الناشر بأن السطر الأخير فيه العمودان متصلان بحرف العطف et. ولكن الرأي الذي تخيله يبعث على التعجب، وإنّا لنتساءل ألا يجب الأخذ بالملاحظة التي رأى تسجيلها أول الأمر ؟ وأن نعتقد كما ظن ذلك بأن في حرف العطف حرف V بين E وt، وأنه في الأخير اعترف أن ليس هناك سوى عيب في الحجرة. وفي هذه الحالة فالعمودان حتى النهاية قد كملا باستقلال أحدهما عن الآخر. وفي مجموعة VT الراجعة للعمود اليساري يحسن أن نقرأ الاختصار إما [V] et (eramus) أو[V] et (us) أي بمعنى الصفة أو لقب ثان لـ : Q(intus) Valerius Saturninus أي اللقب الذي يتلو التسمية الثلاثية، والذي قد يساعد على تمييزه عمّن هم Valerii Saturnini الذين يظهر أنهم كُثر بمنطقة أفريقيا، (انظر 6 b).

وقد افترض السيد لوي شاتلان أن هذه القائمة التي كل أسمائها العائلية وبالتقريب كل الألقاب بها تكتسي صيغة لاتانية صريحة كانت (على ما يبدو لائحة ديكوريونات سلا). وهذا الرأي هو بالفعل أول ما

يتراءى للذهن عندما نقرأ السطر الأخير من النص *decretumq(ue) ordinis subiecerunt : A*. إن فعل هذه الجملة هو نفس الفعل السالف : d(e)d(icaverunt). فهم أصدقاء Amici مركوس سلبيكيوس فيلكس، الذين عقب إهدائهم أمروا بوضع نص قرار الديكوريونات. ومن هنا، لماذا لا يكون هؤلاء الأصدقاء هم الديكوريونات؟ ليس هنا في أول الأمر إلا ما هو محتمل، ولكن الافتراض لا يمكن أن يتعارض مع مناقشة متعمقة.

1)– إن الأعضاء الثمانية والثلاثين الذين تضمهم قائمة الأصدقاء Amici لا ينقسمون إلا على ثلاث عشرة عائلة gentes، فيها آنيوس واحد Annius (b.4)، وأتيليوس Atilius واحد (b.13)، وهرنيوس واحد (a.19) Herennius، وهورْطِنسْيوس Hortensius واحد (a.16)، وپونْتيوس واحد Pontius (a.15)، وپوسْتومْيوس Postumius واحد (a.10)، وبها اثنان من Aelii (b12, 18)، واثنان من كُرْنيليي Cornelii (b14, 15)، وثلاثة من أنْطونيي Antonii (a, 3, 11, b 9)، وثلاثة من كاسيي Cassii (a, 7, b 10, 11)، وثلاثة من يونيي (a18, b5, 8)، وثمانية من فابيي Fabii (a,2,5,6,12,17) و(b1,3,17)، وأحد عشر من فاليريي Valerii (a,1,4,8,9,13,14,20, b2,6,7,16) وهذه العائلات إذا كانت لوحدها قد ضمت صف جميع المدينة، فإنها تكون عبارة عن أوليغرشية محدودة بصفة غريبة. بل هي في الحقيقة، ضمن المجموعة الواسعة لبلدية سلا، قد كونت دائرة ضيقة من الأتباع والصداقات.

2)– إن عدد ثمانية وثلاثين عضوا يبدو ضعيفا جدا لمجمع بلدية، يكون عدده العادي في الجماعات التي نعرفه بها يقارب المائة، ويصلها ويتعداها.

3)– أن لوائح الديكوريونات التي وصلتنا، قد أقيمت حسب طريقة تراتبية hierarchique راسخة، فيذكر أولاً السادة Patrons ثم الرجال المثنّون الخمسيون duumvirs quinquennaux وبعدهم الرجال المثنون العاديون duumvirs ordinaires وفي المرتبة الرابعة أعضاء البلديات Ediles وأخيرا يأتي الواقفون Pedani أي جموع الديكوريونات الذين لم يسبق لهم بعدُ أن نالوا المناصب البلدية. وهكذا فعلا قد حررت قائمة جماعة كُنوسْيوم Canusium (كنوسا Canosa). وبأفريقيا مع تغيير طفيف فإن قائمة ثموگادي (ثمگاد) لم تنجز إلا على هذا المنوال. أما قائمتنا نحن، فهي بعيدة بعدا مطلقا عن كل ترتيب برتوكولي، ولا تتماثل مع أية وثيقة.

4)– في السطر b10 نجد اسم M(arcus cassius Cassianus) متبوعا بحرف Q. والناشر الأول لم يتمم هذه العلامة. ولكن يسهل العثور على الإسم المختصر بها. وهي ليست الحرف الأول من الإسم الشخصي Q(uintus)، الذي به يبتدئ تسلسل بنوّة مفقودة في هذا السطر كما في غيره، ويكون ذكر هذا التسلسل واجب الذكر بعد اسم العائلة : Q(uinti) [f(ilius)]. وكذلك فإنه ليس لذكر القبيلة التي أهمل ذكرها في كل مكان، وكان مكانها الطبيعي أن تقع بين تسلسل لبنوة مفقودة وبين اللقب، مثل : Q(uirina tribu). إذن إنه محتم أنه الحرف الأول من صفة q(uaestor). وهنا لابد من واحدة من اثنتين : إما أن يكون المرء الموصوف بهذه الصفة قد كان قِسْطورا Quaestor في بلدية سلا، ولكنه بهذه الصفة لا يمكن أن يذكر في السطر الثلاثين في لائحة لم ترد فيها لا أسماء الأعضاء، ولا اسمُ لِدومْقير duumvirs، ثم إن هذه اللائحة متجردة عن كل صبغة رسمية، فهي لا تتعلق إلا بأفراد من الخواص. وإلا فإن *M(arcus) Cassius Cassianus* قد كان هو القسْطور أي أمين المال لمجموعة مكونة من أصدقاء Amici مَرْكوس سِلْبيكيوس

فيلِكْس، ليقيم له بطريقة الاكتتاب تمثالا تشريفيا. وأياً ما كان الحال، فاللائحة لا تشتمل إلا على أشخاص خاصين، مواطنين يعملون لحسابهم الخاص، ومن غير تفويض من بلديتهم.

وأخيراً، إذا شككنا في ذلك، فيكفي لإزاحة آخر تردّداتنا، أن نلاحظ بالإهداء A، في سطره الأخير cretum(que) ordinis subiecerunt. وقد كتبت بيد أخرى، وألحقت بعد ذلك. كما يكفي أن نقارن هذه الملاحظة بالفقرة من هذا القرار التي يتمنى فيها ديكورْيونات سَلاَ أن يقيموا لمركوس سلْبيكيوس فيلِكس باسم البلدية كلها تمثالا ثانيا، ينصب حيث سبق أنَ نُصب التمثالَ الذي به شرّفه فضلاء الجماعة : *ubi hunc ipsum onestissimi quique ob curatam pulchre r(em) p(ublicam) statua honoraverint (C,1. 26)*. وبالطبع فإن الأصدقاء Amici أصحاب الإهداء A، المذكورين في B، والفضلاء onestissumi الذين بالقرار C، يلتبسون. وبالمقارنة يحصل شعور بالغ الدقة بأن النصوص الثلاثة التي نقشت على قاعدة مركوس سلبيكيوس فيلكس تختلف في تاريخها وأصلها. فالإهداءA هو من عمل أصدقاء الوالي، واللائحة B المشتملة على أسمائهم الثمانية والثلاثين قد نقشت أولاً ومجموعةً. وبعد ذلك فإن المجلس ordo أو مجلس شيوخ البلدية بسلا قد أصدروا قرارا نقشوا نصّه على حسابهم بتقابل مع لائحتهم، إذ أن الأصدقاء جعلوا إرادتهم الحسنة، مقابل عمل السلطات العامة، وأظهروا استمرار تعلقهم بمركوس سلبيكيوس فيلكس محررهم ومولاهم – lib(eratori) et patr – (ono) (A,3) وبقي علينا أن نكتشف من خلال سطور قرار المجلس Ordo من هو الذي، لولا عَملُهم، لكان قد أُنْسي، وأن نعرف سبب الإمساك البلدي، وسبب وفائهم هم.

قرار ديكورْيونات سَلا

إن القرار Decretum، الذي على الجانب الأيمن من القاعدة، قد نسق على اثنين وثلاثين سطرا، طولها متساو، باستثناء الثاني والثلاثين الذي لا يحتل إلا وسط مجال النقش. ولها كثافة متغايرة، لمعدل الأوائل والأواخر. فهي واسعة النقش لا تعدّ سوى سبعين حرفا، بينما الأخريات بمائة حرف.

وهنا جزئية يعسر علينا بيانها. إذ الألفاظ الاثنى عشر الأخيرة، الموزعة على السطر الأخير والذي قبله، هي مكررة خارج الخط المحدد لمجال النقش، ولكن في خط وحيد يمتد إلى أعلى الوطيدة Plinthe. ولربما أن الرسم الذي وصلنا لم يكن – كما افترض ذلك السيد لِسْكي Leschi – سوى الثانية التي أنجزت ؟ أما الأولى فإما أنها كانت مَعيبة بأخطاء، وإما أن تكون اشتملت على بعض الجمل التي كانت على مشروع أول، ولم يقع الاحتفاظ بها في النص الرسمي، فجرى مَحْوها طوعا حتى السطر الأخير فقط، فتكون الحجرة إذن قد حفرت، وأعيد الإنجاز على الوجه الجديد الذي تهيأ هكذا. ولربما يكون تكرار الكلمات الأخيرة، طريقة للتعبير على قيمتها، للمبالغة في تمجيد الوالي مَرْكوس سلبيكيوس فيلكس ؟ ولربما أن ذلك من عمل شخص منفرد طاب له، حباً فيه، أن يعيد نشر خاتمة إحدى الخطب التي قيلت في تمجيد رجله العظيم ؟ إنه لا الافتراض الأول ولا الثالث يتناسب مع كون هذا السطر الزائد لم تمحه المطرقة بدوره. أما الافتراض الثاني فيصطدم بكون الكلمة الأخيرة بقيت به معلقة، كما لو أن النقّاش لم يكن لديه الوقت

[1] *Lollio Avito et Statilio Maxsimo co(n)s(ulibus), V K(alendas) Novembr(es), in curia Ulpia, adlubito Salensium* | [2] *ordine, quot C(aius) Val(erius) Rogatus et P(ublius) Postumius He[r]mesander iuvir(i) rettulerunt optimo rarissi-* |[3]*moq(ue) praef(ecto) Sulpicio Felici successorem nominatum, cui, pro exsimi(i)s eius exsemplis, cum et ante* | [4] *testi[mon]ium publice perhibitum sit, nunc praecipu⟨a⟩e manifestiore iudicio quam studio esse perhi-* |[5]*bendum, quoniam oporteret simul nova totiens et in r(em) p(ublicam) merita et in singulos officia novis honoribus to-* |[6]*tiens rependere, simul spem parem ostentare pariter acturis, quit de ea re fieri placeret, secundum sententi-* | [7] *am Q(uinti) Cor(nelii) Capellae c(uncti) c(ensuerunt)* :

omnia a Sulpicio Felice optumo rarissimoq(ue) praefecto Salenses habere, quibus melio- |[8]*ra expetenda non fuerint, si is patriae isti eodem hoc splendore civis contigisset, qui, pro caelestibus iudici(i)s* | [9] *quibus intra iuventam per tres militias exornatus sit, proq(ue) discipulina Uttedi(i) Honorati c(larissimi) v(iri), cum militiae tum* | [10] *civilium munerum verissumi auctoris, quantum tamen [t]am arduum exsemplum ex intervall⟨i⟩o consequi* | [11] *posset, nihil splendidius sibi at dignitatem testimonio tanti praesidis, nihil gratius ad memoriam amore nostro esse* | [12] *crediderit, seu nos ab solitis iniuri(i)s pecorumq(ue) iactura l⟨a⟩eniter quidem et sub imagine suae quietis vindicando, seu in rati(onibus) p(ublicis)* | [13] *et disceptatorem nec dissolute benignum et iustum s[i]ne acerbitate praebendo et quaestiones pari hominum ac r(ei) p(ublicae) iniuria* | [14] *tenebris vetustatis obscuras sagaciter inlustrando, pure diiudicando, seu municipium infestioribus locis maximo* | [15] *murorum opere, minimo sumtu ambiendo, seu annonae avaris difficultatibus ex copi(i)s armaturae suae plurima ad nostram* | [16] *utilitatem, nihil at militum damnum, commodando, [ia]m, quae bona animi essent verissumi, ultra praecedentium finem mo-* |[17]*deratum, verecundum, mitem, pudicum, ordinis reverentem, populi amantem, sui diligentem, ita liberam copiam silvarum* | [18] *et agrorum praebuisse, ut pro tutela operantium frequens excubaret, ita in cetera omni elegantia vitae [a]equabilem egisse* | [19] *ut, promisquo usu rerum omnium, occasione benefaciendi, non potestate, praecederet, atque ean[d]em comitatem, praesenti dexte-* |[20]*ritate iucundam, futuro post exsemplo salubrem, experiremur* ; —

pro quibus rebus ac moribus, et pridem nos Sulpicio Felici | [21] *decurionatum, gradum iuviralem, quot tunc optumus praeses libenter audierit, decrevisse, et nunc, nominato successore,* | [22] *cum probinquom ei⟨i⟩us discessum ita trepide cogitemus, ut instantis desideri(i) conscientiam plenissima spe processu(u)m* | [23] *eius vix lenire possimus, placere erga talem virum non volgata decernere, cum is non volgata praestiterit, deprecariq(ue) prae-* |[24]*sidem indulgentissumum et praefectorum suo[r]um, quos ipse laudabiles faciat, laude et laudatione lactissumum, ut, in quo* | [25] *grati esse voluimus, faveat nobis, permittendo statuam ponere praefecto suo, condecurioni n(ostro), civi egregio, ne amittamus* | [26] *h[ac eu]m, cui⟨i⟩us beneficia tenemus, ac ne, ubi hunc ipsum onestissumi quique ob curatam pulchre r(em) p(ublicam) statua ho-* |[27]*noraverint, ibi praemium ipsius r(ei) p(ublicae) parum grat[a]e requiratur ; permittat praeterea per legatos aput sacratissi-* |[28]*mum principem celebrare, fuisse aput nos Sulpicium Felicem eum praef(ectum) qui augustissumo saeculo sub sanc-* |[29]*tissuma Uttedi Honorati discipulina esse debuerit, quem publicum atfectum, atsistente universo ordine* | [30] *et populo, perferrent at amplissumum praesidem Fabius Fidus et Valerius Polio, planumq(ue) imprimis* | [31] *facerent, nos non omnia quae deberemus honoribus Sulpici(i) Felicis decrevisse, set quae secundum* | [32] *verecundiam ipsius decernere sola possimus.*

لكتابة [Possim[us بحروفها كلها مثلما في نص النقش، وأعتقد أنه يجب علينا أن نجهل دائما سبب هذا الانحراف عن الاعتياد، لأنه على الأقل الغموض الوحيد الذي يبقى مُغلفاً للنص(*).

ترجمة القرار

«نحنُ أهل سلا

اعتباراً منا لأن كل أعمال الوالي الفاضل جدا والفذ، سلبيكيوس فيلكس، هي لنا كما لو أننا قد استطعنا أن نرجوها منه، لو كان الحظ قد جعله يولد مواطنا في وطننا، ولتسمو به من بعد لهذه المنزلة النيرة، وهو أهل لعطايا السماء، إذ قبل أن يغادر عهد الشباب قد حلته بقيادات الفروسية الثلاث، وهو أيضا أهل لدروس أوتيدْيوس هونراتوس Uttedius Honoratus الشخص الممتاز الذي هو أستاذه دون إنكار في نشاطه المزدوج المدني والعسكري، لكي ينال من مسافة بعيدة مثالا بالغ الرفعة، فاعتقد أنه لا يمكن أن يوجد أشرف لكرامته الشخصية إلا رضى وال عظيم، ولم يكن لديه أجمل من أن يذكر بحبنا، وذلك إما لتحريرنا بلطف يتناسب في ذلك مع وقاره، من العسف ومن الغزوات التي اعتادت أن تصيبنا. وإما لأنه في مسائلنا المالية بدا حَكَماً طيبا في غير ضعف وعادلا دون قسوة. والمحاكمات التي سوّدها ليل الزمان، بأذية سواء للشأن العام وللخواص، فإنه أوضحها بحصافة، إذ قضى فيها حسب العدالة المحض. وإما لأنه أحاط بلديتنا، على جميع النقط البالغة الخطر

*) إلى هنا أتوقف أنا عن تتمة ترجمة بقية ص 210، لأن ما يأتي بعد إنما هو تصويبات لغوية وأسلوبية ومنهجية في رسم بعض الكلمات في اللاتانية المستعملة في نص القرار المتخذ للتشريف، كما ألغيتُ – ولنفس السبب – ما في صفحة 212، وأول ص 213، ولكنني ترجمت طبعا ما جاء بعد ذلك إلى العربية في نص القرار عن الترجمة الفرنسية التي أنجزها هنا المؤلف نفسه.

بأقوى السيران Murailles بأقل الأثمان. وإما بتنحية المصاعب الشديدة في التموين، بقطع حصص من مؤونة جيشه، تؤخذ غالبا جدا لصالحنا، ومن غير إضرار بجنوده. واعتبارا بعد ذلك لأن نعود للصفات الحميدة التي تشهد بروح شديدة الوفاء، فإنه ظهر معتدلا، يتجاوز الحد الذي بلغه من سبقوه، فكان طيبا، لطيفاً محتشماً، مراعيا لمجلس شيوخنا، صديقا للشعب، مهتما بواجبه، وأنه خولنا الوصول بأمن إلى غاباتنا وحقولنا، إلى حد أن ضاعف الحراسة ليصون أمن العمال. وفوق هذا، في جميع ظروف الحياة المليئة باللطف، فإنه برهن على اهتمامه الكبير بالمساواة في تسيير الأملاك العامة مع جميع أعضاء المجموعة. وكان دائما يتقدم على الغير، ليس بفعل سطوته، بل بفعل التزامه، ولأننا كنا نشعر بلطفه المستمر، في آن واحد كتفضل منه بديع في الحاضر، وكمثال أمان للمستقبل.

اعتبارا منا لهذه الأعمال ولهذا السلوك، ولما سبق أن وافقنا به على تخويل سلبيكيوس فيلكس الديكورْيونة decurionat مع رتبة مثنّى سابق ex-duumvir، بقرار اطلع عليه حاكمنا الفخم بسرور، فكذلك اليوم، وقد تعيّن له خلف، ونحن نفكر في رحيله المقبل بخشية وارتعاش، ونكاد لا نستطيع إساغة احتمال أسفنا المرير، إلا بأملنا العظيم في ترقياته المقبلة. وإننا لمتفقون على منح التشريفات الفائقة للرجل الذي لم نفتأ ننال منه الخدمات الممتازة. لذلك فإننا نرغب إلى السيد الحاكم ذي السماح البالغ، الذي يسعد دائما بمقدرة وُلاته وبشكرهم، والذي هو وحده يعرف كيف يجعلهم أهلا لذلك، أن يهبنا الإنعام لنؤدي ما علينا من دين، فيأذن لنا بإقامة تمثال لواليه، زميلنا في مجلس شيوخ سَلا، المواطن الشهير تمثالا به لا يضيع منا تماما الرجل الذي نحفظ حسناته. وأن يكون في نفس الموقع الذي فيه كان الرجال الأفاضل بالبلدية قد سبق أن

شرفوه بتمثال نُصب اعترافا بالاهتمامات السعيدة التي قدمها للجماعة. فلا تضيع – جزاء من الجماعة نفسها – لأن ضياعها ينطق بنكران الجميل. وأن يأذن لنا فوق ذلك بأن نبعث إلى شخص الأمير ذي القداسة الفائقة، بعثة كي تمدح لديه سلبيكيوس فيلكس، على أنه كان لنا الوالي، كما يجب أن يكون في هذا القرن ذي المجد السامي، وتحت القيادة التقية جدا لأوتيديوس هونراتوس Uttedius Honoratus. (وفي انتظار ذلك، نحن متفقون) على تكليف فابْيوس فيدوس Fabius Fidus، وڤاليرْيوس بولْيو Valerius Polio بأن يحملا إلى الحاكم ذي العظمة الفائقة هذا الود العمومي الذي يشهد به مجلس الشيوخ بالإجماع وشعب سَلا، وليشرحا له أننا قبل كل شيء لم نُصوّت كي نشرّف سلْبيكيوس فيلكس على كل ما نحن به مدينون له، بل لِما ترك لنا تواَضُعه نقدّمه له وكفى».

أ) تحليل القرار والتأريخ له

مناسبة القرار والهدف منه واضحان بجلاء. فديكوريونات سلا، بمجرّد ما علموا أن مركوس سلبيكيوس فيلكس قد اسْتقْبَلَ خلفاً له، أرادوا أن يعبروا له عن شكرهم، فاجتمعوا كلهم لهذه الغاية. وبصوت واحد (سطر 7) أعلنوا مزاياه في المديح الذي يملأ الأسطر 20-7، ورجوا الحاكم – البرَيْسسْ Praeses – الذي هم تابعون له، كما يتضح من الولاة المعينين في موقَع سَلا، الإذن أولاً في أن يقيموا باسم بلدية سلا وعلى حسابها تمثالا لمركوس سلبيكيوس فيلكس (الأسطر 20-26)، ثم الإذن ليرسلوا إلى روما بعثة مكلفة بأن تطلب له الإنعام الإمبراطوري (سطر 26-29). وفي الختام، لكي يَضمنوا ويعجّلوا بمفعول طلبهم، فإنهم عينوا اثنين من بينهم ليذهبا في الحين إلى مقر الحاكم ليقوما لديه بالتعبير عن شعورهم وأمانيهم (أسطر 29-32).

ينتج من ألفاظ مطلبهم أن استبدال مركوس سلبيكيوس فيلكس كان غير منتظر، وكأنما تلوح عليه مسحة من غضب. وبدون شك يظهرون، والثقة تملأهم في مستقبل الوالي الذي هو على أهبة الرحيل، ويتوقعون مسبقا بملء الأمل ترقياته المقبلة (22-23). ولكن هذا الموقف كان محتوما تقريبا، فكان لابد لهم أن يرضوا بالحظ ويقبلوه تلافيا للأسوإ. غير أنهم لم يستطيعوا الوصول ليخدعونا عن أفكارهم الحقيقية. بل إن إلحاحهم نفسه ليدل على قلقهم، مثل الاحتياط الذي يكررونه عدة مرات، بإرجاعهم إلى الحاكم الإرشاد إلى السلوك الذي يمدحونه عند مركوس سلبيكيوس فيلكس (الأسطر 9، 24، 29) الأمر الذي يشير إلى بعض البرودة في علاقات القائد الروماني العظيم في الولاية مع الوالي التابع له.

ويحتمل أن مطلبهم قد قوبل بالرفض، وإلا فما كان أصدقاء Amici مركوس سلبيكيوس فيلكس بحاجة إلى أن يتحملوا على نفقتهم إذاعة القرار، ولا إلى نقشه على القاعدة التي كانوا قد أقاموها من قبل. وطبعا، حيث إن كل القرارات تفضي إلى مصاريف عمومية، فإن هذا القرار الأخير قد عرض على الحاكم للموافقة ولكنه اصطدم بمعارضته. وواضح للعيان أن الرأي الحسن الذي يحفظه ديكوريْونات سَلا لواليهم، لم تعد الجهات العليا تشاركهم فيه. ولربما أن الغضب على مركوس سلبكيوس فيلكس، يكون مأتاه من نفس الأسباب التي ربطت الديكوريونات به. وقبلهم جذبت إليه الأفاضل Onestissumi، أي الشخصيات البارزة جدا في المدينة. وذلك إما لأن تلطفه بالأغنياء قد أفضى إلى الظلم، أو على العكس، لأنه مقابل مصالحهم قد دافع بتهاون كبير عن حقوق الدولة.

وحقيقة فإن القرار قد حرره أحد الديكوريونات، هو كِنْتوس كُرْنيلْيوس گپيلا *Q(uintus) Cornelius Capella* (سطر7) الذي لا يوجد اسمه في اللائحة B. ولكن بينما وُكّل التنفيذ العاجل إلى قَليرْيوس پوليو Valerius Polio وإلى فابيوس فيدوس Fabius Fidus اللذين قبلاَ التوجه عند الحاكم على نفقتهما (سطر 30)، ومِنْ عنده ربّما إلى روما (27-28)، فإن صاحبَي الرأي أولاً هما المثْنيان Duumvirs اللذان كانا يزاولان الأعمال، وهما : كَيوس قَليريوس روگاتوس *C(aius) Valevius Rogatus*، وپوبْليوس بوسْتيمْيوس هيرْماسَنْدير *P(ublius) Postumius (2) Hermasander*، وكل الأربعة مذكورون بين الأصدقاء Amici الذين كانوا من قبل قد أقاموا تمثالا للوالي الذي هو الآن على أهبه الرحيل. وهذه الملاحظة ذات أهمية، إذ تبين لنا أولاً أن مجموعة الأصدقاء Amici الذين في النصّين A وB وفي نص قرار المجلس البلدي Ordo C، إذا كانت مجموعة متراصة Irréductible، فإن هذا على الأقل قد كان واقعا تحت تأثير ذاك، ثم إنه على الخصوص يوضح لنا في توقيت مطلق التتابع القائم نسبيا بين المحاولة الأولى للأصدقاء وبين القرار الذي تلا قرار البلدية.

فالتبعية التي تعلق عمليا مداولات البلدية على مواقفه مجموعة لاتندمج فيها تعرفنا بالأشخاص الذين قد كونوها.

كيف أن مجلس بلدية سلا يكون قد تحمل هذه التبعية، إذا كان الأصدقاء Amici، نظرا لأصولهم ولوضعيتهم الاجتماعية، في المدينة التي اختاروها للإقامة، لم يكوّنوا بها نخبة تعمل على مستوى واحد مع ممثل الإمبراطور؟ وقادرة على فرض وجهات نظرها على إرادة الديكوريونات المحليين ؟ من الواضح أن هؤلاء المواطنين الرومانيين

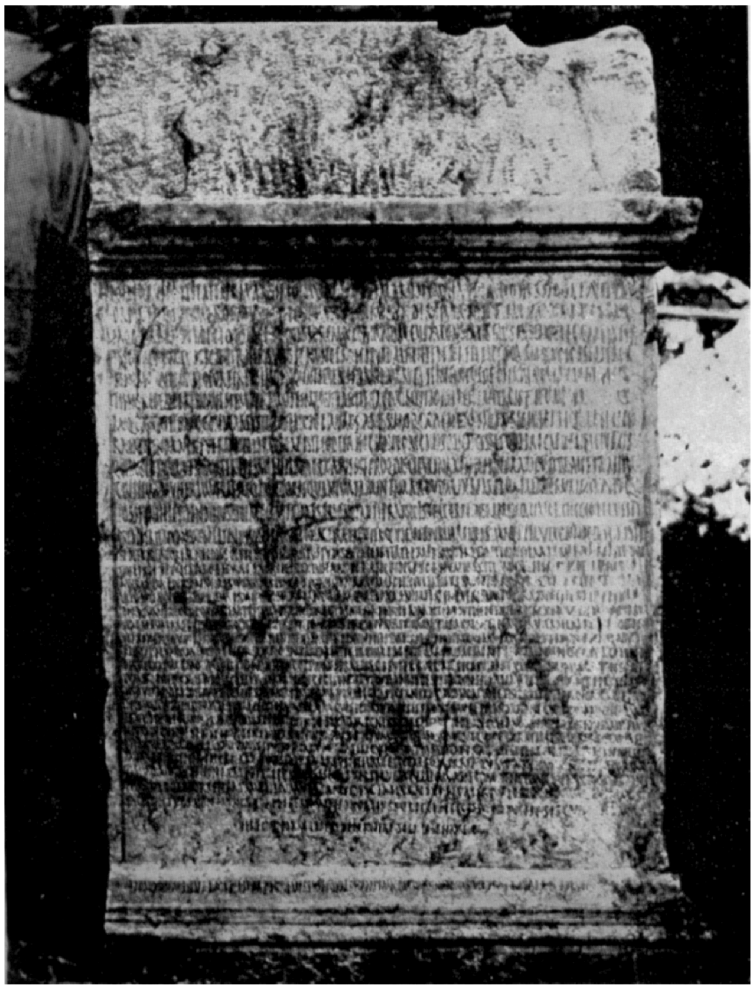

قرار االـمجلس البلدي

الأحرار يمتازون على العموم بوضعية اجتماعية رفيعة. فكان أشدهم أقدمية في الإقامة بالمدينة يشاركون دون مشقة في تسييرها. أما الآخرون فلم يكونوا بحاجة للقعود على كراسي البلدية لإسماع آرائهم بها. فكلهم كانوا متأكدين بأنهم سيلاقون دائما، ولو خارج مجموعتهم، قَلَماً مجاملا – مثل قَلم كِنْتوس كُرْنيليوس گپيلا Quintus Cornelius Capella، الذي عُيّن لتحريرَ القرار الذي بين أيدينا –لكي يحرره في الساعة المناسبة، وفي الصيغة المفروضة.

وفوق ذلك، فإن تأثيرهم يبدو من خلال ألفاظ حالتهم المدنية، في الألقاب والأسماء العائلية التي حين تُضم إلى أسمائهم الشخصية، فإنها تبين ذلك التأثير، بحيث إننا إذا استثنينا الأربعة الذين يُدعون سَتُرْنيني Saturnini (a,4,7,20- b6) والفرد المدعو ماوْروس Maurus (a,16) المذكورين بلائحة الأصدقاء الثمانية والثلاثين، فإنها لا تقدم لنا لقباً يتضح منه بالخصوص أصل أهلي. أما لقب أفريكانوس Africanus الذي يحمله تيتوس آيْليوس Titus Aelius (b12) فإنما يكشف عن مهاجر من أفريقيا البرقنصورلية، أو عن ابن لأحد هؤلاء المهاجرين. وهناك لَقَبان، هما هيرْمِسانْدير Hermesander (a,12)، ولقب زوسيموس Zosimus (b18) يذكران ببلاد الإغريق، بل إن الثاني ليذكر ببلاد الإغريق الأسياوية. وهناك ثالث هو زوبايوس Zobbaeus (b13) تُشْتم منه رائحة سورية البعيدة. أما التسعة والعشرون 29 الباقية، فكانت منذ زمان بعيد مستعملة في العائلات السيناتورية، وغالبا ما كانت في إهداءاتنا تصاحب مُدوّنة الأسماء القنصلية. ومن بين الأسماء العائلية، أو أسماء الأسَر، لا نجد سوى اسم واحد ذكر مرتين حقيقة، هو آيليوس (b,12-18) Aelius الذي اسمه يتطابق مع اسم أنطونان التقي Antonin le pieux

(بعد تبنيه) ويذكّر بأصل للعبيد عن طريق العتق الذي يشهد به عزوه لقرار هذا الإمبراطور : Titus Aelius Hadrianus (117-138). أما الأسماء الأخرى فتُشْتم منها رائحة سذاجة قديمة، كما لو أن المواطنين الرومانيين الذين يدعون بهذه الأسماء يستطيعون التفاخر بقانون وطني نالته أسرهم منذ عدة أجيال.

وأكثر من ذلك، فاشتراك الأسماء العائلية بالألقاب، كما نجدها فيها تتكرر في إسبانيا وإيطاليا وكذلك في شرق شمال أفريقيا. وللعثور على رومانيين يحملون الأسماء الثلاثية (الاسم الشخصي والعائلي واللقب) التي نقرأها مجموعة في قاعدة سلا، فيجب أن لا نبحث عنها في أفريقيا، حيث إن بائع القوارير Amphores لوكْيوس كرْنيلْيوس ڤكْتور Lucius Cornelius Victor (b14) قد نقل لها كما للخارج صنَاعة مستحسنة لدى الجميع، أو في إسبانيا التي بها أصل كايوس أنْطونْيوس بريسكوس Caius Antonius Priscus (a11) الذي له شاهدُ قَبر بروما يجعل له أوسْكا Osca (هويسكا Huesca) مسقط رأسه، ولوكْيوس فابيوس فَبْيانوس Lucius Fabius Fabianus (a6) الذي تذكره نقوش سابورة Sabora في بيتيكا Bétiqua، وكايوس ڤاليرْيوس أڤيتوس Caius Valerius Avitus (a13) الذي سينال بالضبط من أنطونان التقي فائدة النقل الشرعي من بلدية قادس إلى مستوطنة طَرَّگونة Tarragone التي أصبح فيها مثنّىً Duumvir نهائيا. والحقيقة هي أن جماعة أصدقاء والي سَلا كانت مكونة من بورجوازية للأعمال قدمت إلى المغرب، إما من إيطاليا، وإما من الولايات القديمة المجاورة، وكان أعضاؤها فيما بينهم يرتبطون بالرباط المزدوج للثروة وللهجرة.

أما عن توقيت عملهم المحلي، فينتج من معطيات القرار الذي أوحوا به، ومن التدخلات التي أنجزوها بها.

إن هذا القرار مؤرخ بيوم يتطابق مع 28 أكتوبر سنة 144م غير أنه من جانب أول كان مسبوقا بقرار آخر، قد جعل مَرْكوس سِلْبيكيوس فيلكس ديكورْيوناً مع رتبة مثنًّى سابق Ex-duumvir (سطر 21) ولم يكن قد نشر حين شرفه أصدقاؤه بتمثال، لأن هذا الوصف غير مذكور مع أوصافه الواردة في الإهداء، ومن ناحية أخرى فإن المثنَّيَيْن duumvirs اللذين وقّعا عليه، وهما كايوس ڤاليرْيوس روگاتوس C. Valerius Rogatus وپوپلْيوس بُسْتيمْيوس هيرْمِسانْدير P. Postumius Hermesander سنة 144م لم يستطيعا بلوغ مهمتهما السنوية دون أن يتهيئا لها بتدريب في السنة السابقة 143 بمجمع البلدية طبعا. وإذا كانا في لائحة الأصدقاء يتدخلان من غير ذكر لهذا المنصب القضائي Edilite فيحتمل أن اللائحة والإهداء الذي تسانده يكونان قد نُقشا قبل تنصيبهما، لا في التثنية duumvirat في 144م بل حتى في المنصب القضائي Edilité في 143م. وبقية الأحداث المتعلقة بمركوس سِلْبيكيوس فيلكس يجب أن توزع إذن على الأقل على ثلاث سنين متتابعة. هي :

– 142م إقامة تمثاله على يد الثمانية والثلاثين، الذين يدعونه محررهم ومولاهم Patron.

– 143م التصويت على القرار الذي يسمو به إلى رتبة مثنًّى سابق Ex-duuumvir.

– 144م التصويت بمناسبة ذهابه على القرار الذي لدينا.

ب) اختصاصات الوالي

لو أن القيادة على الجناح الثاني السوري للمواطنين الرومانيين لم تكن سوى مجرد جيش Militia فقائده المعيّن لم يكن ليثبت به على هذه

الصفة. لأن الاختصاصات الإدارية التي يشملها من ذات نفسه تلقاء سكان سَلا، تبرر التمديدات التي استفاد منها، وزيادة على ذلك فنصّ القرار يمكن من تحليلها ببعض التفصيل.

فبصفته قائدا عسكريا، كان عليه أن يدرب جيشه وأن يقوته كذلك وأن يسلحه. وأكيدا كان بين يديه الوسائل لهذا، وكان المدنيون يحسدونه عليه أو يستطيعون مضايقته. فإذا كنا قد فهمنا جيدا السطرين 18 و 19 فإنه كان يسوغ له في منطقته أن يقوم ببعض الاستيلاءات، لأن السلاويين يشكرونه على أنه لم يعتمد على الحق المستمد من وظيفته في التقدم عليهم في الأسواق ومزاحمته المنتصرة عليهم في جميع مشترياتهم. وفوق ذلك، فقد كان يتوصل بحصص ضخمة من التموين من المواد الغذائية الضرورية كالقمح مثلا. ومن هذه الحصص كان يستطيع – بشرط أن لا يضر بمعاش الجنود – أن يقتطع مقدمات لتموين السكان. ولم يتأخر أبدا عن إسداء هذه الخدمة لهم (15-16). وبهذا أخذ مسبقا يتدخل في حياة البلدية، ولكن هذا التدخل الحادث صدفة كان ينضاف إلى سلطة دائمة ومباشرة.

إنه بالفعل مسؤول عن أمن سَلا وحرٌّ في اختيار الوسائل. وفي هذه الأحوال يجب عليه أن ينظم مع الفرسان مصلحة الحرس والطوابير الحامية، ولهذا فقد وقع مدحه «لأنه ضاعف الحراسات الليلية لحماية أمن العمال» (18-19)، ولأنه فتح للسلاويين «الوصول الحر إلى غاباتهم وحقولهم» (17-18). وكذلك فمن مهمته أن يجعل الحلّة المدنية في صيانة عن أي هجوم، وأن يسهر كذلك على إصلاح وعلى بناء الاستحكامات الضرورية. لذلك فالسلاويون يهنئونه لكونه أحاط بلديتهم، في النقط

الأشد خطورة «بأقوى السيران بأقل الأثمان» (14-15). وهذا لا يفهم أبدا إذا لم تكن نفقات هذه الأعمال تخص البلدية، وإذا لم يكن القائد العسكري له القدرة على الإنفاق لمواجهة الأعمال حسب ما يراه نافعا من الصندوق البلدي. وإذا صدقنا المسيّرين للصندوق، فإنه أخذ منه أقل ما في الإمكان، وحصل على أحسن نتيجة من التضحية الضئيلة التي سبق أن فرضها لهذا الغرض على من يؤدون.

ومع ذلك يبدو أن النتيجة لم تساو المجهود الذي يُمدح من أجله : لأن سَلا بقيت محترسة، معرضة دائما للعنف ولغزوات الأهالي المهتاجين (سطر 12)، حتى اعتاد السكان ذلك : Solitis iniuriis. وكذلك الوالي على ما يظهر، لأننا إذا استمعنا لمادحيه فإنه كان لا ينتقم من هذه الهجمات إلا بلطف -leniter- وبما يناسب وقاره الخاص. فإما أن هذا الكلام لا يدل على شيء، أو معناه أن مَرْكوس سلبيكيوس فيلكس، عوض أن يبعث بجناحه السوري على النهابين، فإنه كان يفضل تجنيد ما علّمنا التاريخ الحديث أن نسميه خيالة القديس جورج. أي كان يدخل في الصلح مع النهابين، فيجادل – ولكن من غير مناقشة في المبدإ – بشدة في قيمة الفِدْية، إما عن المواشي وإما عن الأشخاص الذين استطاع النهابون أن يفاجئوهم، فكان يسترجع القطعان والأسرى الذين كان الخواص يألمون لفقدهم، ويؤدي للقبائل الثائرة المقادير المالية التي كان يأخذها من ميزانية الجماعة. ولربما أننا لن نغامر بعيدا إذا فسرنا بعمليات من هذا النوع الصفتين، بأنه محرّر ومولى Patron، اللتين أطلقهما عليه الرومانيون الذين استفادوا منهما، وفسرنا كذلك ما حدث من بعد بالاستدعاء غير المنتظر الذي وقع عليه، بطلب من حاكم كان يفضل قليلا من الحِلم وكثيرا من القسوة.

أما السلطة المالية فكانت من جانب داخلةً في مهمة الأمن التي عليه أن يقوم بها. ولكنه كان فيها مستقلا على العموم، ويفهم من فقرات أخرى بالقرار الذي يمجده : خصوصا من الفقرة التي تجعله الحَكَم المطلق في جباية البلدية : *in rati(onibus) p(ublicis)… disceptatorem* (س 13) ويضم لإدارته للمالية السلطة القضائية في جميع القضايا التي تتعلق بها (س 13-14) سواء كانت تلك القضايا ترجع إلى ديون الخواص للجماعة، أو ترجع لقضايا الجماعة نحو إدارة الجباية. فله إذن السيطرة على ميزانية سلا، ويمسك في يده كل حقيقة السلطة في البلدية، تقريبا لنفس الأسباب وعلى غرار (المكلفين بالشؤون العمومية *Cutator r(ei) p(ublirae)*. وذلك منذ أن وقع إحداث هذا الوصي على المدن المدنية حول بداية القرن الأول. مما جعل معاصريه السلاويين يقومون بحد ذاتهم بهذه المقارنة، ويشكرون مَرْكوس سِلْبيكيوس فيلكس على أن أسعدهم ببدل جهوده لجمهوريتهم : *Ob Curatam pulchre r(em) p(ublicam)* (س 26)، وهذا ليس أقل ما يتضح من النص الذي بين أيدينا، بأن هذا النوع من الإدارة المشتركة Mixte الذي طبقه الرومانيون بذكاء على الظروف الخاصة للمناطق العسكرية التي يملكونها في أقصى تخوم التَّنْجيتان.

ج) أحوال سَلا في سنة 144م

إن قرار سَلا يؤكد ويربط ويتمم بصفة قوية المعطيات الفقيرة والمتناثرة التي لدينا عن تاريخ هذه المدينة وعن الولاية الرومانية التي هي قسم منها.

إنه أولاً يؤكد، بالموقع الذي اكتشف به على الفوروم العتيق، الوضعية التي، حسب النصوص الجغرافية، كان تيسّو Tissot قد سبق

فجعل بها مدينة سلا، والتي أوضحتها من بعد ذلك عدة قبور رومانية. إن سلا كانت تتمدد على الموقع الحالي للمقبرة المرينية، فتشرف على أبو رقرار النهر الذي فيما مضى كان يحمل نفس اسمها : *Oppidum Sala eiusdem nomini fluvio impositum*، وتراقب بين المحيط والنهر الطريق التي من تِنْجي (طنجة) تنتهي عند مركز المراقبة المسمى اَدْ مِرْكورْيوس Ad Mercurios. والوضوح الذي يبدو من أحدث المكتشفات يتناسب هكذا مع النتائج التي كنا سنستنتجها من النصوص القديمة. فمن جانب أول، استقى بالفعل پْلين الطبيعي Pline le Naturaliste من خريطة أگْريپا Agrippa هذه المعلومة، وجعل في عهد أوغُست، طول موريطانيا الطنجية يقدر بمائة وسبعين (170) ميلا، أي بزيادة طفيفة على 250 كيلومترا : *Tingitanae provinciae longitudo CLXX est (N.H., V, 17)*. ومن جانب آخر فإن مسالك أنطونان l'Itinéraire d'Antonin تزيد أو تنقص -plus minus- بنحو 174 ميلا بين تِنْجي وأقصى جنوب الولاية، إلى اَدْميرْكورْيوس Ad Mercurios، بالطريق التي يذكر بها المحطات، أي تقريبا 260 كيلومترا، كما يذكر 16 ميلاً، أي أقل من 24 كيلومترا بين آدميركوريوس Ad Mercurios وسلا. والاختلاف بين پْلين ومسالك أنطونان Itinéraire d'Antonin ليس إلا ظاهريا، لأن قياسات «التاريخ الطبيعي» (پْلين) إذا كانت قد قيست على الساحل، فإن طرق المسالك لا تساير الساحل بالتدقيق بين ليكْسوس وسَلا. وتعرجات الطريق القديمة تكفي لبيان الخلاف الضئيل في الرقمين الخاصين بالوثيقتين، كالفرق بين المسافة الحقيقية التي قيست على الساحل بين طنجة والرباط شالة، أي 220 كيلومترا، وبين المسافة المأخوذة من المراحل التي بالمسالك من تِنْجي لِسَلا أي 158 ميلا التي تعطينا 227 كيلومترا. وسلا تقع في نفس الموقع الذي فيه تجعلها معلومات پْلين والمسالك. ثم إن توافق پْلين

مع الأرض ومع المسالك يسوغ الاعتقاد بأن مركز آد ميركوريوس Ad Mercurios كان هو نهاية القياس الذي ذكره أگْريپا Agrippa. وبالتالي، منذ نهاية القرن الأول ق.م، حين كان يوبا الثاني ملكا على موريطانيا، فإن آد ميركوريوس كان هو المركز الأمامي Avant-poste الذي عنده أيضا في بداية القرن الثالث، عندما جمعت معلومات مسالك أنطونان، كانت تقف الطريق الكبرى لطنجة من الشمال للجنوب، كما تقف عنده الإمبراطورية الرومانية في غرب شمال أفريقيا.

ويخبرنا پْلين أن المنطقة الواقعة بجنوب سلا، كانت تُعتبر صحراء معادية تعيث فيها قطعان الفيول، وعشيرة أشد خطرا، هي عشيرة الأُطُلوليّين : *Autololes Oppidum Sala… iam Solitudinibus vicinum, elephantorumque gregibus infestum multo, tamen magis Autololum gente.* وضد هؤلاء الجيتوليين، الذين كانت مجالات أرضهم تمتد إلى موگادو (الصويرة) والأطلس، فكر الرومانيون أن يحتموا منهم بـ «ليمِس» Limes، أي بخط حدود قوي يربط نهر بورقراق بالمحيط يمر على ستة كيلومترات بالجنوب الغربي للرباط. والسطران 14-15 من القرار يظهر أنهما يؤكدان أن هذا «الليمِس» لم يكن قد وُجد في 144م. بحيث إنهما حتى هذا التاريخ لم يذكرا الحاجز الحامي Vallum الذي هو أهم ما يكونه، وإنما اكتفيا بذكر جهاز السيران Murailles القوية التي أحاطت بالحلة الحضرية، وصانت النقط التي هي مهددة جدا. ولربما يكون تاريخه مثل تاريخ الآثار الباقية بنوميديا في ساقية «بنتْ الكْراس» Bent el krass، إنما يرجع لنهاية القرن الثاني أو بداية الثالث. وعلى النقيض، فإن السطرين 17و18 يثبتان دون معارضة أن الجهات المنعزلة التي يتحدث عليها پْلين، قد كانت تستغل على الأقل فيما يجاور المدينة : فترينا

أراضي محروثة – agri – وغابات – Silvae – يحمي استثمارها عناية مركوس سلبيكيوس فيلكس. وإلى اليوم فإن مدينة الرباط محاطة عند الجنوب بالحقول الخصبة التي تمدد الشاوية، وعند الشمال بغابة من 130.000 هكتار، تكثر فيها أشجار بلّوط الفلين Chênes-lièges : أي غابة المعمورة. وقد سبق أن كانت في القرن الثاني للميلاد الثراء الأكبر لسَلا، صالحة لأن تجتذب وتحتفظ بها المهاجرين الفلاحين، وتجار الخشب وصيادي الأفيال، ممن تفضلوا فدخلوا مجلس شيوخها المحلي، وكانت نقابتهم في السر وبصفة خاصة تمسك بأزمة الحكم في المدينة. وبالتأكيد فإنها توضح التقدم الذي حققته المدينة بتحريك منهم أثناء القرنين الأولين للميلاد.

كان پْلين لا يزال يصفها بأنها Oppidum. وپومْپونْيوس ميلاَ Pomponius Mela الذي كتب قبله، ذكر سَلا، وَوَليلي، وليكْسوس كَمُدن صغيرة، لا يمكن اعتبارها ضخمة إلا بمقارنتها مع حلاّت أكثر هزالا : *quarum [urbium], ut inter parvas, opulentissimae habentur, procul a mari… Volubilis…, propius autem Sala et Lixus flumini Lixo proxima.*

وقد تحولت وليلي إلى بلدية في عهد حكم كْلود Claude الذي في عهده تحولت ليكْسوس (تْشمِّشْ) إلى مستوطنة Colonie. ولا يبدو أن سلا نالت من الرومانيين الحظ بسرعة كبيرة. فهي قد كانت تُدعى سَلا كُلونْيا Sala colonia في مسالك أنطونان الذي لا يصعد جمعه إلى أعلى من بداية القرن الثالث للميلاد. ولكن في 144 لم تكن قد ارتقت بعد لهذه الوضعية، إذ أن قرار 28 أكتوبر 144 يسميها Municipium (سطر 15) على غرار إهداء سابق بسنة أو سنتين. فيحتمل أنها لم ترتفع عن كونها مدينة أجنبية peregrine إلى صف بلدية إلاّ بين زمن پْلين الكبير Pline l'Ancien و142، في عهد تْراجان Trajan على ما يحتمل، أي عندما بُني

لِديكورْيونات الجماعة الجديدة اللاتانية أو الرومانية المنتدى الأولْبي Curia Ulpia، الذي يشير دائما السطر "1" إليه كموقع لاجتماعاتهم، والذي كان لا يزال يحتفظ باسم هذا الأمير – أولْبيوس تْرَيانوس Ulpius Traianus – في عهد حكم أنطونان التقي (138-161).

ولكن قرار سلا لا يساعدنا فحسب على أن نرسم من جديد تطور المركز الروماني الأشد بعدا في التنجيتان، بل فوق ذلك يبين أن حظ الولاية – في عهد تحرير القرار – كان يحتل مكانة عظيمة في انشغالات الإمبراطور.

والبرهان على ذلك هو الاختيار الفائق للحاكم – بْرايْسِسْ Praeses – الذي كان يحكم موريطانيا آنذاك، وفي الأهلية الاستثنائية التي أعطيت له. فشخصياً إن أوتيدْيوس هونُراتوس Uttedius Honoratus ذا الكفاءات العالية التي مَدحها ديكورْيونات سلا هو مجهول لدينا. ولكنه باسمه العائلي gentilice النادر جدا، يرتبط على وجه الاحتمال بالعائلة السيناتورية التي كان منها أوتيدْيوس مَرْكيلوس Uttedius Marcellus نائب بروقنصل أفريقيا في الجيل التالي، والتي ربما سبق أن ميزها في القرن السابق أوتيدْيوس أفرِ Uttedius Afer الذي مات قنصلا معيّنا في عهد أوغُست، وبالتأكيد فإنه كان هو نفسه عضوا بمجلس الشيوخ. لأنه في القرار نال نفس الوصف كالطائفة السيناتورية : فكما أن هذه الصفة هي بالأصالة في المجتمع والدولة معروفة بأنها amplissimus ordo، فَدُعي هو بأنه amplissimus praeses (سطر 30) كما أن في نفس الحقبة كان أحد أعضاء مجلس شيوخ تِرْجِسْت Tergeste، (أي تريست Trieste) كان يُدْعى *V[ir] amplissimus et charissimus*. ثم إنه قد حمل على الخصوص هو أيضا هذا الاسم التفضيلي الثاني الذي أصبح وكأنه

علامة اعتراف لجميع أعضاء الطبقة العليا في الإمبراطورية. وبالفعل فإن اسمه حين ذكر لأول مرة في النص الذي بين أيدينا فإنه كان متبوعا بالاختصارين C.V (سطر 9) اللذين لا يمكن تتميمهما إلا كما يلي : C(larissimi) V(iri)، ونحن ملزمون بأن نعطيهما مسبقا قيمتهما البروتوكولية.

يقال أحيانا إن صفات التمجيد التي تعطى بالتتابع لأعضاء الطائفة السيناتورية ولموظفي طائفة الفرسان، التي هي Clarissimus vir وegrigius vir لم تدخل قانونيا في حيز الاستعمال إلا في عهد حكم مارْك أوريلْ (161-180) أي بعشرين سنة بعد قرار سلا. ولكن هذا الرأي قد بلي بالأمثلة الجديدة التي طلعت علينا بها الاكتشافات المنقوشة. إذ أن السيد كانْيا Cagnat قد لاحظ بالفعل أن صفة Clarissimus vir تظهر في النقوش قبل ذلك بكثير : فهي واردة بكامل حروفها في 56، (ارجع إلى C.I.L., X 1402) وفي 69 (كذلك 7852، 13) وفي (C.I.L.XI, 1492) 101 كما هي في الاختصار .C.V منذ عهد هادْرِيان Hadrien في الأمر اليومي الشهير بِلَمْبيز Lambèse في 129 (C.I.L, VIII 270 = 18042 F)، وفي بداية عهد أنطونان Antonin في قرار مجلس الشيوخ : nundinis saltius Beguensis (C.I.L., VII, 270 = 23246)، في 138. ومثل ذلك فإنني اكتشفت الإطلاق الرسمي لصفة egrigius vir على أحد الفرسان منذ عهد هادريان Hadrien (117-138) في نقيشة في «عَين الجمّالة» Aïn-el-Djemala. فلا أحد من هذين الوصفين التشريفيين يكون إذن في غير محله في وثيقة من سنة 144. ويمكن أن نتردد في أن نعتبر الوصف الوارد لرتبة الفرسان في كلمتي vir egregio اللتين يضعهما قرار سلا على اسم الفارس واليهم (سطر 25). ولكن لاشك في أن الوصف بالرتبة السناتورية هو موجود فعلا في المختصرين .C.V كما في سطر 9.

والبْرايسِسْ Praeses الذي يلجأ إليه ديكورْيونات سلا راجين، كان إذن هو C(larissimus) v(ir). وبعبارة أخرى فإن موريطانيا الطنجية كانت في سنة 144 يسيّرها أحد أعضاء مجلس الشيوخ Sénateur، وهذا شذوذ له نتائج عظيمة.

ولقد تغيرت حكومة التنجيتان حسب الظروف. وكانت غالبا ولاية مستقلة يكلف بها عادة موظفون منوبون برتبة بروكُراتور Procurateurs من طائفة الفرسان كما بموريطانيا القيصرية : أو هُمْ بروكُراتورات من غير وصف زائد أو بروكراتورات بالنيابة Pro legato. ولكن قد حدث أيضا في بعض الظروف الحرجة أن موريطانيا الطنجية قد ضُمّت اسماً وفعلاً لجارتها. كما أنها غالبا، وحسب شهادات النقوش، قد جُمعت مع موريطانيا القيصرية، أحيانا تحت حكم بْروكُراتور واحد، كما حدث طوال عهد گالبا Galba، وأثناء عهد سبْتيم سيڤير Septime-Sévère ومن بعدهما أيضا. وأحيانا تحت السلطة الوقورة لمنوب سيناتوري Legat senatorial: مثل Sextus Sentius Caecilianus الذي سبق أن عُيّن قبل توليه القنصلية، ومن لدن Vespasien بصفته : *leg(atus) (Augusti) pr(o) pr(aetore) utriusq(ue) Mauretan(iae)*. وكل شيء يدعونا للاعتقاد أن برايْسِس Praeses قرار سلا أوتيديوس هونراتوس Uttedius Honoratus الذي وِلايته غير مُبيّنة ولا محل إقامته أيضا، قد كان هو كذلك في عهد أنطونان التقي منوبا Legat من لدن أوغست على الموريطانيتين معا. على أننا إذا عُدنا لحياة أنطونان التقي في «التاريخ المجيد Histoire Auguste» فسنقرأ فيه أن هذا الأمير قد خاض عدة من الحروب بواسطة منوبيه Legats وبهذه الصفة فإنه قد أرغم على السلام كلا من البروطونيين Bretons والموريين *Maures : per legatos suos plurima bella gessit ; nam et Britannos… vicit… et Mauros ad pacem postulandam coegit*، إلخ...

في هذه الفقرة نجد الكاتب لم يميز بين الموريين. والوثائق المنقوشة المعاصرة تتفق معه، وترينا بالفعل أن الموريطانيتين معا، فيهما في عهد أنطوان التقي انتشرت ثورة الأهالي وانتصار الرومانيين. والدبلوم العسكري الذي رقمه 100 المؤرخ في 150م يذكر ببعث النجدات من بانونيا Pannonie إلى القيصرية، والقواعد التشريفية لِتيتوس ڤارْيوس كْليمِنْس Titus Varius Clemens، وإرسال النجدات من إسبانيا إلى التنجيتان. فبمجرد ما اتضح للحكومة الإمبراطورية مدى انتشار الفتن في غرب أفريقيا الشمالية، واتخذت الوسائل المناسبة للقضاء عليها، فإنها بالتأكيد أرغمت على أن تجمع في ولاية واحدة جميع المناطق المورية التي وصلتها الفتنة، وأن تجعلها خاضعة لسلطة مؤهلة بالرتبة السناتورية لصاحب المنصب، لكي يزاول السلطة على فصائل جنود الفيالق Légionnaires الذين قد يدعون للمساعدة لإعادة الأمن بها. ولأول وهلة فإن إنشاء النيابة Legatio بالموريطانيتين لصالح أوتيدْيوس هونوراتوس Uttedius Honoratus الذي هو شخص بالغ السمو Clarissime، ليستجيب لهذه الضرورة المزدوجة، ويظهر كأنه علامة على الأزمة الوشيكة الوقوع أوالتي هي واقعة.

أما عن خطورة الحالة الواقعة وعن ضخامة المجهود الإمبراطوري، فلدينا على ما يحتمل العلم بذلك بسلسلة النقائش العسكرية التي عثر عليها في القيصرية. وهذه النقوش برسومها تناسب عصر أنطونان التقي، أكثر منها للقرن الثالث. وبوجودها في بلاد، حيث الجنود الذين تتحدث لنا عنهم، لا يقيمون فيها عادة لهم حامية، فهي تشهد بأهمية تحركات الجيش الذي كانت البلاد مسرحا له. وفيما يلي، قائمة الوحدات، تبعا لإحصائها، التي بعثت إلى القيصرية فصائل النجدة.

أ)– الوحدات المساعدة

1- من مقاطعتَيْ بانونْيا les deux Pannonies الوحدة المذكورة في الدبلوم C.

2- من بانونْيا العليا Pannonie supérieure، الجناح أولْبيا 1 Contariorum الذي ذُكر وجوده في Portus (C.I.L., VIII, 21260) magnus وفي تيبازا (C.I.L., VIII 9291).

3- من جِرْمانيا العليا : Germanie supérieure وكذلك le Numerus Melenuensium وهما معاً قد ورد ذكر وجودهما في أوزْيا Auzia كما في (C.I.L., VIII 9059, 9060)، وربما وحدة مجهولة خلفت وراءها أثرا عن مرورها في Portus-Magnus، وهو نقش إپونا Epona (Revue archéologique 1900، II ص 260).

4- من جِرمانيا السفلى : الجناح أفروروم Ala Afrorum الذي ذُكر وجوده في تِنيس Ténès (C.I.L., VIII, 9657) وكذلك Exphoratores Bataves الذين ذكر وجودهم في Albulae (أي في عين تِموشَنْت) (C.I.L, VIII, 9798 et 21668) وأنظر : *le mil(es) n(umeri) Ex[pl (oratorum)] Germa(norum)* في Bull. D'Oran, 1901, P 35.

ب)– فصائل من الفيالق

1- من إسبانيا : السابعة المزدوجة بِسْطيف VIIe Gemina (C.I.L, VIII, 20365).

2- من ميسْيا السُّفلى : الحادية عشرة كْلاوديا XI[a] Claudia في بورْتوس مَكْنوس (ص 2046، C.I.L, VIII, 9761).

3- من ميسْيا العليا : فْلاڤْيا الرابع في بورتوس مكنوس IV Flavia وفي الجزائر : C.I.L, VIII, 9762), Bull. Arch. Com 1909, CLXXX).

4- من بانونْيا السفلى : في تِنيس II[a] (C.I.L, VIII, 9653, 9660) Adiutrix.

5- من بانونْيا العليا : 1a Adiutrix بشرشال (C.I.L, VIII, 9376, 21049). وX[a] Germania. في بورتوس مكنوس (C.I.L, VIII, 9671, P. 2046) وفي أليولاي Albulae (C.I.L, VIII, 21669).

6- من جرمانيا العليا : XXII[a] Primigenia بِتِنيس Ténès، (C.I.L, VIII 9655, 9656, 9659, 21508).

7- من جرمانيا السفلى : في تنيس 1 a (C.I.L, VIII 9654, 9662 Minervia) وبخربة زامبيا (XXXVIII, Receuil de Constantine عن سنة 1903، ص 91). وكذلك XXX[a] أولبيا بشرشال (C.I.L, VIII, 21053).

إن تجمع هذه النقائش في بعض المواقع التي لا تتغير، والتواجد الذي تبديه في نفس المواقع لجنود الفيالق و للجيوش المساعدة المنقولة من جهات بعيدة، حيث وحداتها تتزاحم على التوالي، لَتوضح أن الفصائل الصادرة عنها قد تكونت في نفس الحقبة. وباعتبار رسومها، وبإنجاز نقشها القليل البروز Bas-relief الذي يصاحبها أحيانا، فإنها يمكن جيدا أن ترجع لعهد أنطونان التقي، وتتطابق مع ما ورد في التاريخ المجيد Histoire Auguste. وجنود الفيالق Légionnaires الذين

دخلوا في تكوين الوحدات الموجهة إلى إفريقيا من بانونْيا Pannonie(*) ومن ميسيا Mesie(*)، ومن جرمانيا لا يمكن أن يخضعوا إلا لمنوب Légat أو لبروكيراتور مُفوّض Pro legato. وحيث إننا، وإلى أن يطرأ جديد، لا نعرف في هذا التاريخ بالقيصرية مثلا بروكيراتور بالتفويض Pro legato، فإنهم كانوا فيها تحت قيادة منوب Legat ربما كان زميلا لأوتيدْيوس هونْراتوس، أو على الأصح لهذا الأخير نفسه أو لخلفه بصفته: legatus utriusque Mauritaniae. وبهذه المداورة نعود إلى النتائج التي يدعونا لها قرار سَلا.

إن ذلك يجعلنا نلمس بأصابعنا حقيقة القيادة غير المألوفة التي نظمها أنطونان التقي بأفريقيا، ويعرفنا فوق ذلك باسم المنوّبlegat الذي كلفه الإمبراطور بمهمة تمهيد الموريطانيتيين، بل إنه فوق ذلك يجعلنا نلمح كيف ومتى وقع إنجاز هذه المهمة.

في يوم 28 أكتوبر 144 الذي فيه جرى التصويت عليه، لم يكن هناك أمان للسلاويين. فعنف أهالي البوادي ضد أهل المدينة كان أمرا معهودا في حياة البلدية : Solitis iniuriis، والحكومة الإمبراطورية كانت قد قررت استخدام القوة، لأن اوتيديوس هونراتوس Uttedius Honoratus كان بمنصبه منصب منوّب Legat، على الأقل منذ السنة الفارطة وذلك إذا كان – كما سلمنا – القرار الذي جعل مَرْكوس سِلْبيكْيوس فيلِكْس دومْفيراً شرفياً duumvir horaire وهو قد وافق عليه حقا منذ 143. ولكن العمليات الحربية لم تكن بعد قد انطلقت بحيث لم ترد أية إشارة في

*) بانونيا Panonnie : هي الأرض المعروفة اليوم باسم هنغاريا.

*) ميسيا Mysia : مقاطعة في آسيا الصغرى على البحر بشمال ليديا، ويفصلها المضيق عن تراقيا Thrace في شمالها.

النص الذي لدينا إلى أية حملة عسكرية، ووالي سلا كان لا يزال يسوي الخلافات مع النهابين بالطريقة اللينة، بمبادلات سلمية. لكن يمكن من ذلك الحين أن نتوقع قرب الأزمة. فالأمر الذي استدعى مركوس سلبيكيوس فيلكس، ووقع على محكوميه بغتة، هو المقدمة التي لا تنكر لمنهج جديد، إذ المنوب قرر أن يأتي برجال جدد.

وبالفعل، ففي ربيع 145 كانت العمليات قد بُدئت. ونعرف بالفعل بواسطة نقيشة كثيرا ما وقع شرحها، أن بهذه السنة فإن فصيلة من الفيلق السادس الحديدي *Vexillatio de la legio VI^a Ferrata* قد كانت بنوميديا، حيث كانت تعمل لإنشاء طريق في الأوراس. وقد أصاب السيد كانْيا Cagnat لما ظن أنها هناك حلت محل قوات الفيلق الثالث الماجد Legion III^a Anguste الذي كان قد بُعث إلى موريطانيا القيصرية، لمحاربة الثائرين. وكانت معارك القمح على أشدها حول 145-147 عندما ركب البحر تيتوس قارْيوس كْليمنْس Titus Varius Clemens من إسبانيا بنجدة تقصد التنجيتان، إذ تبعاً لقول بوزانياس Pausanias كان آخر الثوار قد طردوا إلى الأطلس في أقاصي ليبيا. وقد انتهت الفتنة في 150، لأن هذه السنة فيها على الأقل كانت موريطانيا القيصرية تابعة لبروكيراتورٍ مستقل، هو بورْكيوس ڤيتوسْتينوس Porcius Vetustinus، الذي قام بنزع أسلحة النجدات البانونية المذكورة في أحد الدبلومات العسكرية لفاتح غشت سنة 150. على أننا – من جانب آخر – يسوغ لنا بأن نسلم أن ڤيتوستينوس هذا Vetustinus قد كان في الوظيفة منذ 149. إذ ذاك إذن توقف تنويب Legatio أوتيدْيوس هونْراتوس، لتكون الموريطانيتان تحت حاكم من درجة فارس، وهو نظام حُكم معتاد في عهد السلام.

ج)- رومَنَة سَلا في عهد أنطونان التقي

مهما يكن ما نتعلمه من قرار سلا عن تاريخ الاحتلال المادي الروماني بشمال أفريقيا، فهو يعلمنا أكثر فيما يخص تغلغلهم المعنوي. وقد وصلتنا محاضر رسمية أخرى من مناقشات بلدية، ولكن ليس منها ما يضارع هذا في قيمته وفي لاتانيته Latinité. وفي شمال أفريقيا وقع العثور في هَنْشير الصَّنوبر H. Snobbeur على قطعة من قرار بيوم 31 يناير 186، اتخذه ديكورْيونات إحدى الجماعات المجهولة، لإنهاء خلاف بين بعض الخواص بقرار إجماعي : (سطر C.I.L, VIII, 23956 : de ea re universi Cen(suerunt), 16-17)، وفي مدينة الكاف. عُثر على قرار من أواخر القرن الثاني اتخذه ديكوريونات سيكا Sicca (الكاف) تشريفا لفتاة اعتبطها موت عجيل عن حب والدها، وهو أحد أعيان المكان (C.I.L, VIII, 15880). فالوثيقة الأولى مشوهة، والثانية فيها تعزية ذات بلاغة كامدة وباهتة. أما في إيطاليا فتعابير المقارنة هي في آن واحد كثيرة جدا، ومثيرة للانتباه. وقد عثر على عدة أشباه لتماثيل من القرن الثاني، وقاعدتها على غرار سلا، تحمل محضر إحدى جلسات المجلس المحلي على أحد جوانب الإهداء :

1) قرار اتخذ في 105 لصالح C(aius) Minicius Italus والي مصر، اتخذه ديكوريونات أكْويلْيا Aquileia (Aquilée مواطنوه (C.I.L, V, 875 = Dessau I,L,S, 1374).

2) قرار تاريخه بين 138 و161 لصالح *L(ucius) Fabius Severus*، أمين المال الحضري، اتخذه ديكوريونات تِرْجِسْت Tergeste (أي مدينة تريست Trieste)، مواطنوه هو أيضا، (C.I.L, V, 532 = Dessau, I.L.S, 6680).

3) قرار تاريخه 166 تشريفا للذكرى الإلهية لأنطونان التقي، اتخذه ديكوريونات پيروسْيا Perusia (بيروز Perouse) = (C.I.L, XI, 1924 Dessau I.L.S, 5503).

4) قرار بتاريخ 24 أكتوبر 187، لذكرى گَاقْيا مَرْكيانا، زوجة وأخت فرسان رومانيين، اتخذه ديكوريونات پوتْيولي Puteoli (بوزول Pouzzoles) (C.I.L, XK 1784 – Dessau, I.L.S, 6334).

5) قرار بتاريخ 5 سبتمبر 193 لصالح كاهن أوغست Augustale كايوس تيتْيوس كْريسِموس C(aius) Titius Chresimus اتخذه ديكوريونات سْويسا Suessa (سيسَا Sessa) (C.I.L, X, 4760 = Dessau I.L.S, 6296).

هكذا فإن العادة الإيطالية قد أثبتت غروسها حتى في تخوم العالم الروماني، وفي هذا السباق في النثر اللطيف، يظهر حتى الآن أن ديكوريونات سَلا هم الذين ينالون الجائزة. وبدون شك، فإنهم لم يستطيعوا تكسير القالب الذي كانت تفرضه على صيغهم التعبيرية قوانين المناقشات البلدية، التي كان لها بروتكول صلب متولد عن اجتماعات مجلس شيوخ روما، والذي يبدو أنه لم يصبه أي تغيير في أي مكان. ولكنهم تكيفوا، كما لو كانوا يلعبون، مع التفصيل الإلزامي للثوب الثقيل الرسمي الذي يجب أن يلبسوه لأفكارهم. والتزموا برهان الكتابة في أسلوب إداري لصفحة أدبية. ولابد أيضا أنهم لم يستطيعوا في أمداحهم الرسمية أن يتحرروا لا من قوانين النوع، ولا من مواضعات عصرهم. فقرار ترجيست Tergeste مثلا، وهو معاصر لقرارهم، هو أيضا الذي نجد فيه أكبر قدر من المشابهة معه. فهذا وذاك يقدمان لنا نفس الإطناب المداهن، ونفس الأوصاف الطنانة، وحتى نفس الاستعارات. ففي ترجيست توصف رسائل الإمبراطور بأنها سماوية. وفي سلا،

قرارات الأمير هي : Caelestibus iudici(i)s وفي ترجيست أعطى فابيوس سيرفوس يقظة لياليه، مثلما فعل في سَلا سلبيكيوس فيلكس. وكل منهما هو الفاعل لفعل Excubare. وفي ترجيست كما في سلا، فإن مجهودات متماثلة قد عبر عنها بتعابير متماثلة. ففي ترجيست، المجلس كله يود أن يذهب عند الأمير ليعبر له عن اعترافه لفابيوس سرفوس. وفي سلا يبعث إلى روما سفارة تمدح لدى الأمير مزايا سلبيكيوس فيلكس (س 27-28) وديكوريونات ترجيست Tergeste يريدون أن يثبتوا إلى الأبد تقاسيم وجه مواطنهم العظيم، لكي تبقى أمدا طويلا ما بقيت أعماله (25, II). وكذلك ديكوريونات سلا يرفضون أن تمحى صورة الوالي الذي يذكرون دائما إحساناته (25-26). وهكذا وذواليك. ومع ذلك فالنص المحرر بسلا، يمتاز عن نص ترجيست، وبالطبع عن جميع القرارات الإيطالية الأخرى، بالبحث عن التأثير، بجمال التعبير، وبالسيطرة على الجملة، وكل ذلك لا يملكه إلا هو. وقد أخذ عن الخطباء توان حقبهم، وعن الشعراء نصاعة صورهم. فما اشدها فطنة في اختيار الصفات، وفي التدرج بالمترادفات!! *moderatum, verecundum, mitem, pudicum, ordinis reverentem, populi amantem, sui diligentem (1, 17)*. وأي حصافة وأي مقدرة في المعارضة بالتناقض : *municipium infestioribus locis maximo murorum opere, minimo sumtu ambiendo (1.14-15)- plurima ad nostram utilitatem, nihil at militum damnum commodando (l. 15-16)*. وأي إحساس بالصفة، هو في آن واحد نادر ومباغت ودقيق!!: *annonae avaris difficultatibus (l. 15)*، وأي يسر في استخدام أسماء المعاني : *omni elegantia vitae* (س 18 وانظر تاسيت، Ann, XIV, 19). وختاما، أي جمال Sententia يجعل رواة الأشعار يشعرون بالغيرة. فلكأن مجلس بلدية سلا قد احتشدت فيه أحسن أدمغة روما. ومن كل ما

يستخلص من دروس هذا القرار الثمين، فهذه بدون شك هي أشدها طرافة، وهي التي ترينا زهرة الحضارة اللاتانية تتفتح، وكأنها في قلب المدينة، في مجمع بلدي، ضائع في أقاصي الإمبراطورية، في أرض القطعان الكبرى للأفيال والباربار المجاورين. حقا إن روما لم تعد في روما. إنها جميعها حيث البلاغة الرومانية اجتذبت إليها المريدين، وحتى إلى سلا بالتنجيتان، حيث كبار الـ Mercanti di campagna، وحيث تجار العاج الذين كانوا لاشك هم نخبة سكانها، ويبدون متضلعين في تقاليد المدرسة. ينطقون بالدقة الفكرية للقرن الذي يعيشون فيه، والذين بعدما درسوا بِوَرع تاسيت Tacite وبِلْين الفَتى Pline le Jeune، اجتهدوا في أن يحسنوا كتاباتهم الرسمية، مثل تحسين أساتذتهم.

4

نهاية المغرب الروماني

بين المحيط، والأطلس المتوسط ونهر مَلْوية (ملوشا) التي جميعها كانت تحده، فما الذي صار إليه المغرب الروماني في عهد الإمبراطورية السفلى ؟ ماذا كان مصير موريطانيا الطنجية الذي يختلط به، عندما كان العالم الروماني الذي ضمت إليه سنة 40 للميلاد، وأدمجت فيه فعليا سنة 44 للميلاد، وشرع مع بداية تقهقر القرن الثالث يضيق أو يتفكك ؟

وإلى حد اليوم، جرى الاعتبار على أن الانحدار من الإمبراطورية العليا إلى السفلى قد جرى ببعض الزمن قبل سنة 297م، إذ تبعاً لمومْسن Mommsen يُذكر أن 297 هي التي فيها تم تحرير لائحة فيرونة Vérone، والتي فيها كانت أبرشية إسبانيا مقسمة إلى ستّ ولايات، والأخيرة منها هي حقيقة موريطانيا الطنجية. وكان المؤرخون حتى الآن متفقين على تأكيد أن هذا الانتقال، قد جرى فيها تقريبا بصفة غير محسوسة، بحيث إن الانتقال لم يصاحبه سوى تغيير في التعبير، أي إن قرارا إداريا من ديوكْليتيان Diocletien قد فسخ ببساطة الروابط التي كانت تربط موريطانيا الطنجية إلى الولاية المجاورة، وهي موريطانيا القيصرية، وربطتها كما هي بأبرشية إسبانيا.

وقد كانت هذه بالمغرب دائما منحصرة، باستثناء بعض المواقع التجارية المنعزلة والساحلية مثل روسَّدير Rusaddir، التي صارت لا

تتصل مع بقية المناطق الأخرى من الإمبراطورية إلا عن طريق البحر[24]. ولم تنزل أبدا بالجنوب إلى أسفل من خط يمكن أن نخطه اليوم بمدن الرباط، مكناس، فاس وتازة. على أن ديوكْليتيان قد انتهز فرصة تغييراته الترابية لكي ينقصها أيضا إلى النصف. وكان في هذا وفيا لسياسته أو على الأصح لستراتيجيته التي – لكي يحسن الدفاع عن الإمبراطورية – فإنه بطريقة منهجية قد قصر الجبهات. وتحت هذه التسمية، فإن موريطانيا الطنجية الجديدة التي ستصبح خاضعة لحاكم الولايات الأسبانية، لم تحتفظ تحت سيطرته إلا بمنطقة البحر الأبيض المتوسط. وهي تمتد شمالي نهر ليكْسوس (اللكوس)، وتتطابق فيما مضى مع المنطقة الدولية لطنجة ومع منطقة النفوذ الإسباني سابقا. أما المغرب الداخلي بِوَليلي العاصمة القديمة للملوك الموريين، التي تحولت إلى عاصمة جهوية chef-lieu للبروكيرات Procurateurs الإمبراطوريين، فقد أمر بالجلاء عنها جلاء كاملا وتخلى عنها بهدوء لمقاديرها. لكن، وبسخرية غريبة، ففي البلاد التي هجرها جنوده وموظفوه بأمر منه، فالحضارة الرومانية، وحتى المسيحية التي في الأجيال السابقة قد اقتحمته إلى حد أن أصبحت متمثلة في هذه الحضارة. وحتى الاسم الذي أطلقته روما على الولاية القديمة، إن كل ذلك بقي حيا أمدا طويلا حتى لما بعد الغزوات العربية الأولى.

وبالتأكيد، فإن الإيضاح المفروض عليّ سيداخله جانب من الافتراضات، لأن المرويات الأدبية، حتى من عهد الإمبراطورية العليا، لم تكن غزيرة جدا فيما يتعلق بالمغرب القديم، ونفتقدها تماما في نهاية القرن الثالث. وتبعا لذلك، لا نستطيع الاعتماد على أقوال دون تعارض يأتينا من أعماق العصر العتيق. إننا هنا سنعرض لتاريخ بدون كلام.

ولكن هناك أحداث. والأحداث مسجلة على طول الطرق، وتحت زجاج خزانات الأوسمة، وفي عمق المخابئ التي زودتنا بالتماثيل الكاملة أو النصفية مصفّفة ومكتوب عليها تواريخها وعباراتها المنقوشة وقد أغنتها عدداً وفوائدَ، في الثلاثين سنة الأخيرة، تنقيبات أستاذي اكْصيل، والسيّديْن أَلْبيرْتيني Albertini ولِيسْكي Leschi بمقاطعة وهران، والسيد لْوي شاتُلان Louis Chatelain ومساعده ريمونْ ثوقْنو Raymond Thouvenot بالمغرب. إنها أحداث تتحدث بأعلى وأوضح من الألفاظ. ولستُ أظن المحاولة غير مجدية ولا متهورة في إحياء ما توحي به بصفة غير منظورة.





اللّيمس الرّوماني

التخلّيات عن القيْصرية
وتأثيرها على التنْجيتان

لننظر أولاً ما جرى في موريطانيا القيصرية، التي كانت في عهد الإمبراطورية العليا، تمتد من أمْبساگا (الوادى الكبير) إلى مُلوشا (مَلْوِية). فقد قسمها ديوكْليتْيان وصغّرها، إذ قسمها إلى شطرين، أحدهما غربي قد احتفظ باسم موريطانيا القيصرية، والآخر شرقي وسُمي موريطانيا السطيفية Mauretanie Sitifienne.

أما موريطانيا السطيفية التي سيرد اسمها عدة مرات في نوتيتْيا دگْنيتاتوم Notitia Dignitatum، فكانت تمتد من حد نوميديا القديمة، المَرسوم بمصب نهر أمبساگا Ampsaga أي الوادي الكبير شرقا، وغربا إلى روسُوكورو Rusuccuru (دلّيس Dellys)، بما وراء شعْب الصمام Soumam والمدن التي فيما مضى كانت متدرجة على مجراه : كصلْداي Saldae (بْجاية) على الساحل، وبداخل الأراضي مدينة توبوسُبْتو Tubusubtu (تكلات)، التي أخذت اسم شَعْبها Ethnique حسب ظن وجيه قال به السيد جِيوڤاني كوسْتا Giovanni Costa، واستخدم في الدلالة عليها، مثلما استخدم معا اسم سيتفيس Sitifis أي سطيف Sétif، ولا يزال يلاحظ وجوده دائما في الصيغة المحرفة التي أطلقها عليه الناسخون في قائمة ڤيرونة Vérone (موريطانيا تابْيا إنْسِدْيانا Mauretania Tabia Insidiana = موريطانيا توبوسُبْتتانا Mauretania Tubusubtitana). وكانت لا تكاد تعادل ثلث موريطانيا القيصرية القديمة.

أما القيصرية الجديدة فكانت أبعد من أن تشمل الثلثين الباقيين. ذلك أن ديوكْليتيان الذي كانت تجزئاته عادة ترمي إلى اقتطاع أجزاء صغيرة بنفس الأحجام تقريبا، فإنه ترك خارج الحدود التي رسمها للإمبراطورية جميع الأرض التي تقع بين نهري سينَلاف Cinalaph، أي نهر شْليف ومُلوشا، أي مقاطعة وهران Oranie الحالية. وغربي شليف فإن عهد حكم كاروس (282-284) Carus كان بالفعل هو الأخير الذي وصلته مجموعة الأعلام الميلية التي، في عهد الأباطرة السابقين، كانت تتقدم حتى نهر تَفْنا Tafna. والسيد ألبيرتيني Albertini الذي نحن له مدينون بهذه الملاحظة الثمينة، قد أصاب في استنتاجه أن ديوكليتيان لما تخلى عن تعهد طرقه العسكرية إلى بعيد جدا، فإنه بالفعل قد حدد خط مصب الشليف كحد رسمي لموريطانيا الجديدة.

إلا أن هناك أمراً لم ينتبه له أحد بعد، وهو أن ديوكليتيان كان في نفس الحين مضطرا إلى التخلي عن الاستمساك بأقسام الأرض المغربية التي كانت فيما سبق مرتبطة بالطريق الأرضية مع ما نسميه اليوم ولاية وهران Oranie. وسقوط اللّيمَس بالقيصرية الغربية، الذي تقبله الإمبراطور ليقوي مقاومته، قد جرّ حتما للتخلي عن ليمس التنجيتان الذي كان متضامنا معه.

وفي تخوم الولايات الرومانية، فإن مدلول الطرق العسكرية والليمس بينها اشتراك شديد. والليمس العتيق، لا يتكون مطلقا – كالحدود العصرية – من خط مثالي، رمزي، يشار له هنا وهناك ببعض الأعمدة الدالة. إنه جهاز مادي، على قطعة أرضية ليس لاستمرارها انفصام، وتشكل نحو الخارج إما مجموعة من العراقل الطبيعية كالكدى والأنهار، وإذا لم توجد هذه، فالعرقلة المصطنعة من حفير تحفره أيدي الإنسان،

وبه حصون تتفاوت أهميتها، وعلى مسافات يكثر أو يقل تقاربها، وتقوي حسب المراد الجهاز الواقي، ونحو الداخل طريق موازية يقصد منها الربط بين المنشآت الدفاعية، ومراكز الحرس، أو على الأصح الحاميات التي تقيم بها. فمن الواضح في هذه الأحوال أن الطريق حيثما فقدت، فالليمس ينمحي والحدود تسقط. وذلك ما حدث في عهد ديوكْليتيان بالنسبة للمنطقة الواقعة بين الشليف وملَوية في موريطانيا القيصرية. وعلى العكس، فهنا، حيث نجد أقساما من الحفير وخرائب قلاع، نتيقن أن تحت حراستها، كانت في الماضي تجري الطريق العسكرية التي سبق أن فتحها جنود الإمبراطور، مثلما وقع قبل ديوكليتيان في موريطانيا الطنجية.

ولا يمكن مطلقا أن نرمي بالارتياب وجود الليمس المغربي، الذي تبعا لاتجاه من الشرق إلى الغرب قد غطى من الجانب الجنوبي موريطانيا الطنجية. منذ أن كان السيد برينو M. Brunot على بعد ستة كيلومترات بجنوب الرباط وعن المستوطنة الرومانية القديمة لسلا (شالة الرباط)، قد اكتشف قسما من خندق Vallum تام الوضوح إلى حد أن الأهالي ظنوا أنهم يرون فيه ساقية مهجورة، هي ساقية الفرْعون el-Faraoun، كامل الاتضاح، فاستطاع السيد رولند – مَريشال Rouland Mareschal أن يصفه بدقة على طول أكثر من عشرين كيلومتر من البحر المحيط حيث ينتهي غربا حتى الحصن الصغير المشرف على المنعطف الكبير لنهر سلا، أي أبي رقراق اليوم. وتضيع آثار هذا التحصين بعيدا في اتجاه الشرق. ولكن الحصون والقلاع التي أقيمت فيما مضى على طول الليمس، تمكننا من مدّه إلى جنوب وَليلي، أولاً نحو مكناس حيث الكولونيل هانيزو Hannezo أبصر في 1912 «بقايا معسكر روماني تحت محرز Réduit المعسكر الحالي»، ثم على جبل العروش

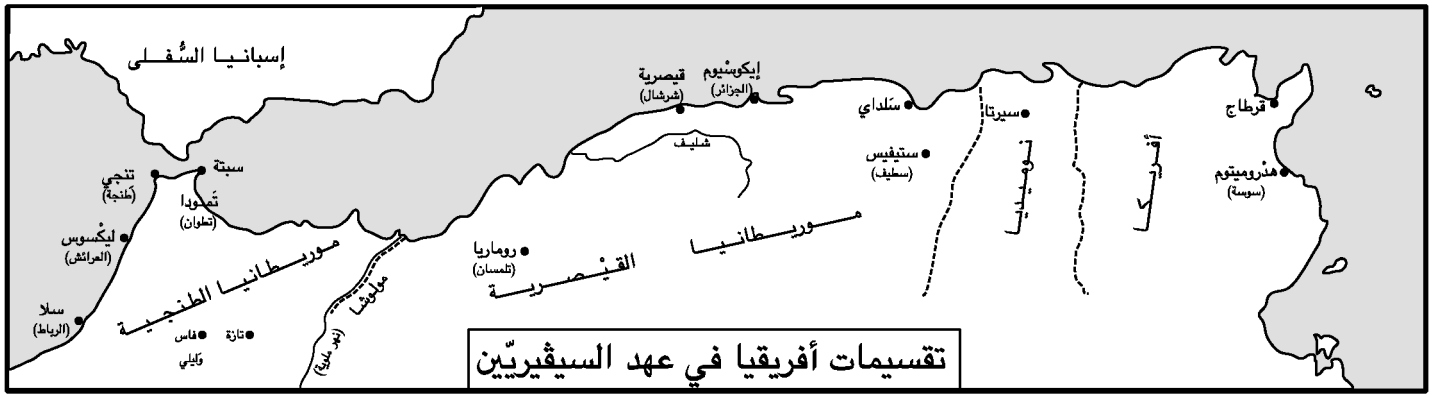

تقسيمات أفريقيا في عهد السيڤيريّين

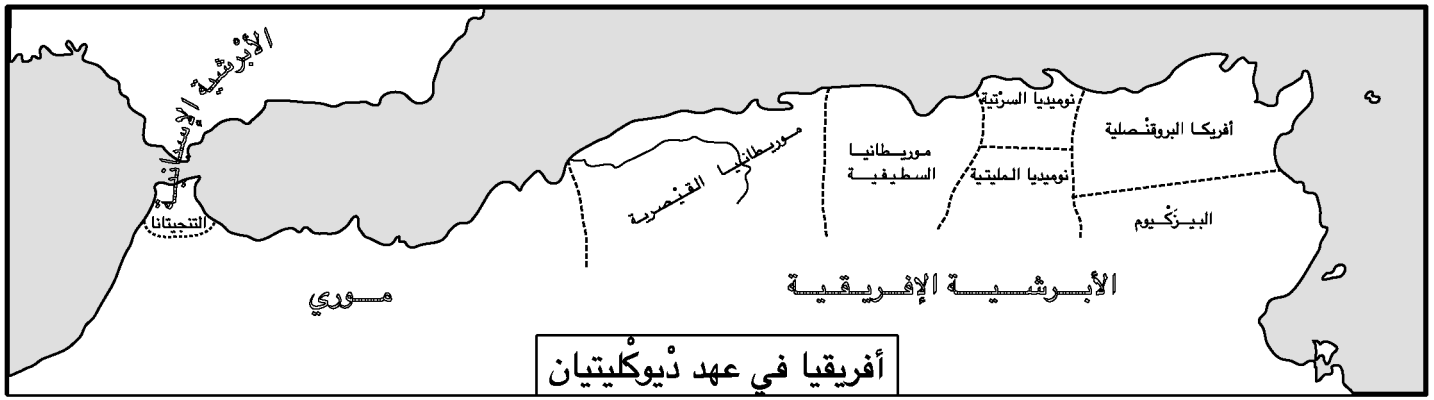

أفريقيا في عهد دْيوكْليتيان

Djebel-el-Arouch، على المنبسط الذي سجل به السيد دُلَمرْتينْيير M. de la Martinière بقايا حوزة enceinte منها ترى في آن واحد مكناس وفاس.

ومن فاس إلى مقاطعة وهران Oranie بين جبال الأطلس المتوسط جنوبا وجبال الريف شمالا، لا توجد إلا طريق واحدة يمكن أن تعبر عرضا. هذه الطريق هي من صنع الطبيعة في سلسلة الشعاب المتتابع بعضها لبعض على مسافات قليلة. فكأنها ترشد الإنسان وتقود سيره من المصب المحيطي الذي ينصب فيه نهر سبو، أي سوبوس Subus قديما الذي تحدث عليه پْلين الكبير كنهر بديع صالح دائما للملاحة، وتقوده للبحر الأبيض المتوسط الذي يتجه إليه نهر ملوشا (ملوية). وواد فاس يقود إلى إينّاون Innaouen رافد سبو، الذي يسهل رد المجرى دون ملاقاة أي عائق سوى الوديان الصغيرة التي تصله الواحد بعد الآخر. وعند أحواز تازة يتم الوصول لمنابع إيناون. ولكن على عشرين كيلومترا شرقا يجري وادي مسّون O. Mçoun رافد ملوشا (ملوية). ثم من ملوية إلى سيگا Siga (تَفْنا Tafna) الذي هو موازٍ لها بين المحطتين الأخيرتين لليمَس الخارجي في القيصرية، وهما نوميروس سيروروم Numerus Syrorum (لالّة مَغْنية) غرباً وپوماريا Pomania (تلمسان) شرقاً. والممر مهيأ بمجاورة وادي إيسْلي Isly الرافد الأيسر لسيگا (تاقنا) الذي يسقي مركز وجدة المغربي. هكذا فإن سلسلة من الشعاب تقود من فاس إلى تلمسان. ذلك هو ما عُبِّر عنه بغير صواب باسم ممر تازة. في الحقيقة «المجاز Couloir الطويل من السهول الذي هو الباب الأكبر للدخول إلى المغرب من جهة الجزائر» سبيل الاتصال الوحيدة والضرورية، التي حررناها من غزوات أهل الريف(*)، والتي قبل تدخلنا

*) المؤلف يقصد هنا لاشك بقوله أنهم حرروها من أهل الريف، الانتصار الفرنسي في الأخير على المغاربة في ثورة الريف التي قادها الزعيم الكبير المرحوم محمد بن عبد الكريم الخطابي. (المترجم)

لم تتوقف أبدا عن كونها تستخدم، تحت الاسم المتكبر الذي أطلقه المغاربة عليها بكونها طريق السلطان(*).

فبهذه الطريق كانت القبائل الوفية لعبد القادر قد انضمت إلى القوات الشريفة، التي في المعركة قرب وادي إيسْلي Isly سنة 1844 دحرها الجنرال بيجو Bugeaud في نفس الحين مع الأخرى. وبهذه الطريق في 106 ق.م فإن ملك النوميديين يوغَرْطة الذي كانت فيالق مَرْيوس Marius تقاتله ظن أنه يستطيع الالتجاء إلى ملك الموريين بوكوس الأول Bocchus 1er، في هجوم طارده فيه الرومانيون ولم يتمكنوا منه شخصيا. ولكن الحظ واتاهم بالاستيلاء على ثوراته وعلى الموقع الوضيع Bicoque الذي اختزنها فيه بالقرب من ملوية، وقد وصفه سالوسْت وصفا ينطبق حرفيا على مركزنا في تاوْريرت Taourirt. ومن هذه الطريق بعد ذلك، في عهد الملوك الموريين الذين رافقهم الحظ السعيد مثل بوكوس الأول Bocchus 1er بعد أسْر يوغرطة، وبوكوس الثاني بعد اندحار بوگود Bogud، ويوبا الثاني طيلة عهد ملكه، لكي يضم لصولجانه موريطانيا الداخلية وموريطانيا الخارجية أي ليضم ثلاثة أرباع الجزائر والمغرب. بهذه الطريق إذن تحقق حتميا الالتحام بين قسمي مملكتهم التي توحدت. وختاما، من هذه الطريق فالرومانيون الذين، بعد أن تلقوا إرث الملوك الموريين، ما كانوا ليتخلوا عن اتباعها، وحسب رأيي فإنهم مدّوا الليمس الجنوبي حتى فاس، ثم حتى المحيط. وابتداء من نهاية القرن الثاني نظموه تنظيما قويا بالقيصرية من أوزْيا (Aumale) وَرَبيدوم Rapidum (مَسْكراي) إلى نوميروس سيروروم Numerus Syrorum (لالّة مغنية).

*) وهي لم تتوقف كما قال عن كونها مع أخريات غيرها هي الطريق السلطاني، وبلغة اليوم الطريق الوطنية Route nationale، ولكنه لابد أن يسم أي شيء وطني مغربي بسمة تفضح ما في صدره، هو الذي كان وزيرا للمريشال بيتان الذي بدوره قاد الحرب ضد ثورة الريف. (المترجم)

وأعرف أن هذا الرأي مرفوض اليوم على العموم. فمؤرخ الليمس السيد فَبْريسْيوس M. Fabricius مثلا يعتبر أن الاتصال القاري بواسطة (ممر تازة) بين الموريطانيتين، هو شديد الإشكال. وحديثا أيضا، فإن السيد دُلاشاپيل M. de la Chapelle في مذكرة قيمة عن حملة سْويطونْيوس باوْلينْيوس Suetonius Paulinius التي جرت في 42م قد أدلى برأي هو أن هذا الاتصال لم يكن أبدا سوى اتصال استثنائي. وعلى النقيض فأنا مقتنع بأنه كان اتصالاً اعتياديا، وأنه لم يتوقف مؤقتا إلا في حقب الفتن. وفوق ذلك فإن الأهداف الأولى للحكام الإمبراطوريين ولطوابيرهم الرادعة كانت هي تخليصها. هذه على الأقل هي الحقيقة التي إن نقوشنا وآثارنا المكتشفة أخيرا يظهر لي أنها تشهد بها، وأود أن أبرزها للنور ولو باختصار.

1)– منذ بدايات الاحتلال الروماني، أبدى جنرالات كلود Claudes اهتمامهم بتأمينها. وإن إعادة زحف سْويطونْيوس باوْلينْيوس نحو نهر «الغير الأعلى» Haut Ghir إلى مسلكه الحقيقي عن طريق لالّة مَغْنية، وبَرْگَنْت Berguent، وتَنْدرارة Tendrara، وسهل تَملاّلت Tamlelt، وفي الأخير تَمْغنْت Tamghent، حيث جنود الفيالق عبروا الأطلس الكبير وأبصروا جبل العياشي مَكسواً بالثلج، فإن السيد دُلاشاپيل قد أوضح في دفعة واحدة الأسباب التي هي : الطرد في الحاضر، والتثبيط في المستقبل لرحَّل منطقة نهر الغير Ghir، الذين كانوا يسيرون مع مجرى وادي ملوية، ويأتون هناك لمهاجمة الركبان والقوافل السائرة بمجالاتهم بسهول گَرْسيف Guercif وَوَجْدَة.

2)– عندما انتهى الوجود الروماني، سنرى حتى في القرن السابع للميلاد، أن الاتصالات بين المجموعات المسيحية بِأَلْطاڤا Altava

(لَمورِسْيِير Lamoricière) وفي پومارْيا Poumaria (تلمسان) من جهة وفي وَليلي من جهة أخرى، قد مكثت اتصالات كثيرة جدا ومتينة، بحيث إنها تفترض تنقلا عاديا على الطريق القارية التي سَتُعرف من بعد باسم طريق السلطان، ولكنها بدون أدنى شك كانت فيما قبل تخدم الليمس الإمبراطوري.

3)– وكذلك، فإن هذه الطريق كانت لازمة لتبليغ السيطرة الرومانية. إذ هذه بالفعل لم تقبل إلا في سنة 46 تقسيم موريطانيا إلى قسمين. ومن سنة 40 إلى 46 لم تكن تكوّن إلا ولاية واحدة، مثلما كان جاريا لغاية سنة 40 حيث لم تكن سوى مملكة واحدة، وبعد ذلك، في عدة مناسبات عادت إلى وحدة القيصرية والتنْجيتان تحت القيادة المنفردة لحاكم واحد، تارة لا يكون إلا بْروكُراتوراً Procurateur من طائفة الفرسان، وأحيانا هو من الرتبة السيناتورية. فيحمل لقب منوّب Legat وأخيرا هو فارس مشبّه بمنوّب ويحمل اسم Procurator pro Legato، أي بروكراتور منوّب. وبالفعل فإن هذا الاندماج جرى :

أ)– في عهد كْلود Claude، لفائدة بروكراتور مُنوّب Procurator pro legato هو فادْيوس كِلير Fadius Celer.

ب)– في عهد نيرون Néron وگالْبا Galba لفائدة البروكراتور لوكييوس ألْبينوس Lucceius Albinus.

ج)– في عهد ڤسْپاسْيان Vespasien سنة 75 للميلاد لفائدة المنوّب Legat سِكْستوس سَنْتيوس كايْكيلْيانوس Sextus Santius Caecilianus.

د)– في عهد تْراجان Trajan لفائدة المنوّب لوسْيوس كْوييتوس Lusius Quietus.

هـ)- في عهد هَدْريان Hadrien لفائدة البروكراتوس ك. مَرْكْيوس تورْبو Q. Marcius Turbo.

و)- في عهد أنطونان التقيّ Antonin le Pieux في 144، لفائدة المنوّب أوتيودْيوس هونُراتوس Uttedius Honoratus ومن خلفوه مباشرة من منوّبين أو بروكراتورات.

ز)- في عهد كومود Commode لفائدة منوّب نجهل معرفته.

ح)- في عهد سِبْتيم سيڤير Septime-Sévère وأبنائه لفائدة بْروكُراتورَيْن اثنين هما : كْنايوس هايوس دْيادومِنْيانوس Cn. Haius Diadumenianus، وكانْتوس سَلوسْتيوس مَكْرِنْيانوس Quintus Sallustius Macrinianus.

ط)- في عهد ألكسندر سيڤير Alexandre Sévère لفائدة البروكراتور ت. فْلاڤْيوس سيرِنوس. ولربما للبروكراتور فورْيوس كِلْسوس.

ي)- في عهد ڤاليرْيان Valérien لفائدة حاكمين لم تصلنا لا رُتَبهم ولا أسماؤهم. ولكن إذا صدقنا رسالة من القديس سان سِپْريان St Cyprien، الحاملة لتاريخ 256 م فإنهم قد حكموا موريطانيا كلها دون تمييز بين القيصرية والتنجيتان.

ك)- وقُبيل تولي ديوكْليتيان Dioclétien نفسه كان الحديث عن دوق الموريطانيين dux per mauretaniam، كما لو أن العهد الذي نقش فيه النص الذي يذكره - ربما في الشهور الأولى من سنة 284 - لم تكن الموريطانيتان إلا واحدة عسكريا.

لكن هذا التجميع للولايتين في واحدة كان بالتأكيد يفرض أنهما قد توحدتا بواسطة أرضية. وقد كتب السيد دُلَمرْتِنْيِير de la Martinière سنة 1912، قائلا : «نحن نعلم كيف أن الملاحة بالساحل المغربي هي غير موثوقة، وصعبة أثناء قسم من السنة. ويكون من المستغرب أن لا تكون السلطة الإمبراطورية لم تنجز اتصالا ترابيا، كان ضروريا لاستمرار احتلالها». ومن ذلك التاريخ حصل لنا اليقين بأنها فعلا لم تتهاون بهذا الواجب البسيط، لأننا تعلمنا قراءة النقوش العديدة التي حينما تشرح شرحا متقنا، فإنها تجعلنا نشاهد حركات الجيوش التي تناوبت قديما بين الجزائر والمغرب. ففي عهد فادْيوس كِيلر Fadius Celer فإن جنود الفيلق العاشر المزدوج، قد أشير إلى وجودهم في آن واحد في وليلي وفي ألبولاي Albulae (عين تِموشَنْت). وفي عهد گالْبا كانت الوحدات التي تحت نظر لوكييوس ألبينوس Lucceius Albinus في هذه الموريطانية وتلك تكوّن جيشا متناسقا، تظهر وحداته وكأنها يمكن تعاوضها فيما بينها. وبعد ذلك في عهد أنطونان التقي، فإن فصائل الفيالق والمساعدين الذين كان هذا الإمبراطور زوّد بهم منوّبه أوتيدْيوس هونْراتوس Uttedius Honoratus قصد إعادة الأمن والسلام حول سلا على المحيط، فنجدُهم منتشرين بين قيصرية «شَرشال» وتيبازا Tipaza، وأوزيا Auzia (Aunale) وكَرْتناي Cartennay (تنيس Ténès) وألْبولاي Albulae (عين تِموشَنْت) على واجهة البحر الأبيض المتوسط. وبالطبع، فإنهم بعيدا عن كونهم كانوا متوقفين على مخاطر الملاحة، فإن الطوابير لابد أنها اقتحمت – مثل الأعداء الذين كان يجب القضاء عليهم – الطرق والممرات الداخلية. ونتيجة لذلك، فإن هذه التنقلات لا تلزمنا فحسب بالتسليم بوجود الاتصال التراتبي الذي يرفضونه، بل إنها تدعونا زيادة على ذلك إلى عدم التحديد في أوقات الفتن حيث لزوم «تطهيرها» يجعلها

أكثر حساسية، نظرا للتجمعات وللزحوف التي كانت تتطلبها. وعلى النقيض يجب نشرها لتشمل الحقب السعيدة التي بدون مشاكل. حيث إن التنقل الاعتيادي للمسافرين وللبضائع كان يحل في صمت محل الضجيج الاستثنائي للحملات العسكرية.

4)– وكذلك فإن لدينا علامات على أن التوسع قد كان مزدوجا في غرب وفي شرق مُلوشا. ففي نهاية القرن الثاني قام الأباطرة في القيصرية بمضاعفة الليمس الشمالي الذي كان يسير من شْليف إلى تَفْنا Tafna ماراً بِتيگاڤا Tigava (الأعطاف Attafs)، وكَسْتيلوم تِنْجيتاروم Castellum Tingitarum (orléansville) وألبولاي (عين تموشنت). فأنشئ ليمس ثانٍ خارج السابق، وكان خلال البسائط العليا يسير من أوزيا (Aumale) إلى نومِروس سوروروم Numerus Surorum (لالّة مَغْنية) مروراً بِراپيدوم Rapidum (مسكراي)، وأوسينازا Usinaza (Saneg)، وكوهور بروكُروم Cohors Breucorum (هَنْشير السويق H. Souik)، وألا ميلياريْا Ala Milliaria (البنْيان Benian)، ولوكو Lucu (تيمَزْوين) وإلى تَسَكّورا Tasaccora (Chanzy)، وألْطاڤا Altava (Lamoricière)، وبوماريا Pomaria (تِلِمْسان). وهذا الخط تذكره أنصاب الأميال المتدرجة على طوله كَالدثار الجديد – nova praetentura – الذي نشره على ولاية وهران سِبْتيم سِيڤير Septime Sévère وأبناؤه. والليمس المغربي كما وصفناه، قد نظم باتصال مع هذا. والقسم الذي شاهدنا منه بجنوب سلا، قد وقع الانتهاء منه في عهد دَكْيوس (250-251) Decius، الذي تبدو ذكراه في التسمية (دار دَقْيوس Dar Dqios) التي يطلقها الأهالي على المنشآت التي على جانبه خلال «ظهر الأمان Dahar-el-Aman». وعلى كل فالأشغال لم يمكن بدؤها فيه قبل أواسط القرن الثاني، لأن محضر الاجتماع الذي عقده ديكورْيونات سَلا يوم 28

أكتوبر سنة 144 للميلاد، إذا كان قد هنأ الوالي مَرْكوس سِلْبيكيوس فيلِكْس على أنه زود حلتهم الحضرية بسيران Murailles قوية في النقط المهددة جدا حولها، فإن ذلك المحضر ليس فيه أي إشارة للجهاز الوقائي Vallum، الذي هو على بعد ستة كيلومترات بالجنوب بجوار جدرانها مباشرة. وسيحميها فيما بعد، وينبئ بالغارات التي كان سكان سلا آنذاك معرضين لها دائما. بحيث إن هذا الجهاز الدفاعي لو كان قد وجد من قبل لصان المدينة عن هذه الغارات. وفوق ذلك، وكما ينتظر من منشآت متعاصرة تقريبا، فإن «ليمس» التنْجيتان تلوح عليه نفس التصورات الستراتيجية للدثار الجديد nova praetentura الواقي الذي بالقيصرية. فهو مثله يسانده خط حقيقي من الحصون الصغيرة Fortins التي بُنيت في مخططه. ومثله أيضا فإنه يستنير من موقع لموقع بمراكز أمامية، أقيمت كسهام خارج مخططه. ففي أقاصي الحدين الإفريقيين لم يصن الرومانيون أنفسهم بغير هذا. إنهم كما أنشأوا قلعة سِياوَن Siaoun على أربعين كيلومترا جنوبي الليمس الشرقي الذي يمر بتِلِيباري Tillibari (رمادة Remada). ومثلها في Castellum Dimidi (مَسْعاد Messad على مئتي كيلومتر جنوبي أوسيناگا Usinaga (صنيگ Saneg)، وكذلك في خَضْرا Khadra على مائة كيلومتر جنوبي Cohor Breucorum (هَنْشير سْويق H. Souik). وقد احتموا، على 35 كيلومترا جنوبي مكناس «بالمدينة العسكرية» التي تعرّف الكولونيل هِنيزو Hannezo على بقاياها في الموقع المعروف باسم أگُرايْ Agouraï، وعلى60 كيلومترا جنوبي فاس بالقلعة المهدمة اليوم في العنصر Anoceur، وفي حطامها عثر السيد لْوي شاتْلان على شاهد قبر لأحد جنود حاميتها. وهو فارس إيداوي éduen من الجناح الطاوريـاني Ala Tauriana فهذه التماثلات، كالتزامنات التي لاحظناها، تدعو مسبقا إلى أن ليمس

القيصرية وليمس التنجيتان يوجد بينهما الاستمرار الذي نستطيع أن نبرهن عليه ماديا.

5)– لأن بقايا أثرية – وهذا موضوع قد أهمل كثيرا – موجودة بصفة لاشك فيها، لـ «الليمس» الذي خطه الرومانيون بين فاس وتَفْنا Tafna عن طريق «ممرّ تازة».

أ)– استطاع السيد دُلَمريسْيير منذ 1912 أن يكتب قائلا : حسب المعلومات التي تلقيتها من الأهالي، فإنه قد يوجد عند البرانْص Branès – القبيلة الريفية التي تتقدم أرضها نحو المجرى الأعلى لنهر إينّاون – «خرائب تُسمى مدينة النصراني Medinet-Nezrani في الگوزة Gouzet بأرض وَرْبة Ouerba، على نصف يوم من تازة. وليست الأسوار بالحجر المقصوب، بل إنها من الدبش غير أن هذا الدبش هو من ملاط صلب جدا». لكن في 1919 ذكر السيد لْوي شاتْلان، قائلا : «عند بناء جسر على واد بوحلّو Bou-Hellou (بطريق فاس – تازة بشعب إينّاون، على أربعمائة متر من النهر، بالضفة اليمنى وإلى علوّ الجسر)، جرى اكتشاف لعدة قطع من تماثيل رومانية واضحة. كانت عبارة عن تاج عمود، وقطعة نصف عمود، وقاعدة عمود ناتئ Pilastre، وعدة قطع من إفريز. وعلى بعد مائتي متر... ظهر من عمق ضئيل قسمان من سور بحجارة ضخمة يكوّنان زاوية مستقيمة. هذان الجداران كانا يتكونان من كتل حجرية جميلة حسنة القطع، وتستند على أسس من حجارة مرصوفة Blocage. وفي الأخير، قطعة مدمجة في إحدى دعامات الجسر، هي عبارة عن نقش واضح، يمكن من قراءة الأحرف الثلاثة DUS [*]».

*) وهنا تعليق للمؤلف يقول : إن لوي شاتلان أضاف بإتقان قوله : «يمكن أن الأمر هنا يتعلق بمحطة على الطريق التي حسب مويلر Mueller كانت من توكلوسيدا Tocolosida بجنوب وليلي تسير إلى القيصرية». وأيا ما كان تفصيل التخطيط، فإن هذه الطريق وجدت حقيقة. (المترجم)

ب)- وأنبأني السيدان أَلْبيرْتيني Albertini وليسْكي Leschi المفتش العام ومدير مصلحة الآثار بالجزائر، أن عملية للتعرف بالطائرة، قد غامرت وخرجت على النطاق المحدد لها، فجرت سنة 1935 على ولاية وهران، طبقا للمنهج الذي أتقنه عندنا الأب پْوادْبارد R. P. Poidebard، قصد استكشاف باطن التراب الأركيولوجي، فاستطاع التعرف والتأكد بالتصوير الفتوغرافي من السماء، لموقع وشكل حصن صغير مماثل للحصون الأخرى التي بأقسام الليمس الروماني بالجزائر. وهو واقع في شِعْب وادي مَسّون غير بعيد من الحصن الذي أقمناه هناك للدوام.

ج)- وهذا الاكتشاف الأخير يجعل من المحتمل أن التعرف المقترح لبعض البقايا الأثرية التي كُشفت سابقا في وَجْدة يمكن أن تعرف معه اكتشافات معسكر روماني محصن.

ولاشك أن هناك مغامرة إذا أردنا أن نستعيد - مع هذه القلة من الاكتشافات - التخطيط المفصل لليمَس بين فاس ونومِروس سيروروم Numerus Syrorum (لالة مَغْنية) وبقية المحطات التي أقيمت على الطريق التي خدمته. ولكنها كافية للتأكد النهائي من وجودها. وحيث إن هذا الليمس لا يمكن تصوره إلا كامتداد نحو الغرب لليمس موريطانيا القيصرية، فمن الواضح أن التخلي الجزئي عن هذا، قد جر إلى تهدم الآخر.

ونتيجة لذلك، عندما رضخ ديوكْليتْيان في الجزائر إلى عدم القيام بإصلاح طرقه العسكرية بغرب شليف، فإنه في نفس الحين قد تخلى عن التي كانت تتممها بداخل المغرب. وبعبارة أخرى، كما أكدتُ ذلك في البداية، فإن ضرورات استراتيجية في المقاومة والتراجع قد فرضت عليه في آن معا أن يضيق موريطانيا القيصرية نحو الشرق، وأن يجمع

موريطانيا التنجيتان بغرب سلسلة الريف وبشمال نهر ليكسوس (وادي اللكوس). وهذه الولاية باسمها القديم قد اتخذت وجها جديدا. فاتجهت نحو البحر. ولكونها لم تحتفظ بمواصلاتها الترابية مع بقية أفريقيا الشمالية، فإنها إذن أدارت وجهها نحو مضيق جبل طارق، وبالطبع لم تكن سوى تابعة عبر البحر لأبرشية الأراضي الإسبانية.

إخـلاء وَليلـي

ومتى تـحقق هذا التغيير الكلي ؟ فـي مقال كثيرا مـا ذكر فـي الدراسات المتفرقة عن لُوي هـافي Melanges louis Havet أوضح السيد كانْيا Cagnat أنه، إذا كانت لائحة ڤيرونا Liste de Vérone، التي أخبرتنا بذلك، قد أنجزت في «دفعة واحدة» في سنة 297، فإن التغييرات التي تفرضها هي أبعد من أن تكون «عمل يوم». فقد تتابعت خلال السنين السابقة حسب الظروف. والنقائش حين تُضم لهذه الوثيقة الثمينة، تفرض علينا أن «نرجع» بتقسيم موريطانيا القيصرية في القيصرية والسّطيفية على الأقل إلى 293، وعلى النقيض أن ننزل بالعملية في نوميديا السرتية Cirtéenne والمليتية Militiana، والبروقنصلية في زوجيطانْيا وبيزاسينا Byzacène إلى الحقبة الممتدة بين 295 و297، وأن نسلم في الأخير أن «من الغرب» كان ديوكْليتيان قد بدأ في اقتطاع الولايات الإفريقية.

إنها الحقيقة ذاتها، ودقيقة أيضا، إذ أن كانْيا تنبه لها محتشما.

أولاً ليس قبل 293، بل إن فصل القيصرية عن السطيفية تقرر على ما يحتمل قبل 289. وإن إهداءً لِيونون Junon عُثر عليه في صَلْداي Saldae (بجاية) ونقش قبل فاتح مارس 293، ويميز بوضوح الولايتين – *tam ex p(rovincia) Maur(etania) Caes(ariensi) quam etiam de Sitifensi* – تعزو قيادة الجيوش وتسيير العمليات الحربية في الولايتين لنفس القائد الوحيد، هو حاكم القيصرية أوريليوس ليتوا Aurelius Litua. ونقش آخر

اكتشف في بلاد القبائل، Kabylie، وهو أحدث من الآخر ببضعة أشهر يحتفي بالإصلاح الذي كان پْريسِس Praeses موريطانيا القيصرية أوريلْيوس ليتْوا Aurelius Litua باسمِ سلطاته العسكرية الممتدة قد قام به على الحصن الصغير في كَفْريدا Kafrida بمنطقة موريطانيا السطيفية. لكن بقدر ما لا يصح الاعتقاد بأن دْيوكْليتيان قد اختار حقبة الفتن لينجز فيها تغييراته الإدارية، فمن الطبيعي أنه دون أن يتراجع في الإصلاح الذي سبق أن أنجزه يكون قد أراد أن يتحاشى المصاعب التي تثيرها في أوقات الحرب، ويجمع من أجل هذا في يدي «پْريسِسٍ» وحيد إدارةَ الجيوش المقيمة والعمليات التي أجريت في الولايتين. إذن فإذا تذكّرنا، تبعا للقديس جيروم St. Gérome، أن ثورة قبيلة Quinquegentanei (أي قبيلة الأخْماس) التي لغاية 292 قد أغرقت في الدماء أرض الجزائر من شعْب «الوادي الساهل» لغاية جهة «الحضْنة»، وقد اندلعت في 289 م، وهِي السنة التي تولّى فيها أوريلْيوس ليتْوا Aurelius Litua الحكم في موريطانيا القيصرية، وأصاب انتصاراته الأولى على الثوار، فإننا مدفوعون لأن نوجب أن سنة 289 فيها تكونت قيادته الوحيدة. وأن السنة السابقة عليها، أيْ 288، فيها تم تقطيع الولاية الذي كان الهدف منه أن تعوّض وتصلح الخسارة في الصراع الجاري.

وأخيراً، فإن النقائش لا تعرف أيَّ پْريسِسٍ Praeses كان في تْريبوليتانْيا قبل أوريلْيوس كينْتيانوس Aurelius Quintianus الذي ذُكر اسمه حاكماً لنوميديا سنة 303، إما لأنه استبدل تْريبوليتانْيا بنوميديا أو العكس استبدل نوميديا بتريبوليتانيا. إذ الواقع هو أن ولاية تريبوليتانيا Provincia Tripolitana لم تذكر في لائحة فيرونة Vérone. وقد افترض البعض أن الناسخ سَها عن اسمها في تجريد ليس به سوى سِتّ

ولايات، بينما هي سبع ولايات لا سِتّ، واردة مجموعة في خلاصة العنوان. ولكن هذا السهو يكون غير محتمل لأن تريبوليتانيا يجب أن تذكر هي الأولى في الترتيب الجغرافي المتبع من الشرق للغرب بقلم محرر لائحة ڤيرونة Vérone. ولذلك فيسوغ لنا جدا أن نعتقد أن الناسخ، بكل بساطة قد حول رقم VI إلى VII في عمله. إذ في الرواية الموالية، فالتقسيم المغلوط للبروقنصولية ولزوجيتانيا اللتين في الحقيقة هما مندمجتان، هو ما دفع به للاعتقاد أن الواحدة منهما مستقلة عن الأخرى، وإلى الزيادة في عدده نتيجة لذلك. هل معنى هذا إلا أن تريبوليتانيا قد تكونت بين 297، السنة التي حررت فيها لائحة فيرونة Vérone التي كانت لا تزال تجهلها. وسواء سنة 302 أو سنة 304، حيث إن أوريليوس كينتيانوس Aurelius Quintianus قدم أو عوض حكومته بنوميديا حكومة الولاية الجديدة. لكن هذه التفاصيل تجعلنا قادرين على التدقيق بتأكيد النتائج التوقيتية، التي على العموم قد انتهى إليها بحث السيد كانْيا Cagnat، وإلى استعادة المراحل - الواحدة تلو الأخرى - للتجزئة التدريجية التي فرضتها إرادة ديوكْليتيان من الغرب إلى شرق شمال أفريقيا الروماني :

1)- في 288 على الأكثر تقسيم موريطانيا القيصرية القديمة إلى موريطانيا القيصرية وموريطانيا السطيفية.

2)- بين 295 و297 تقسيم نوميديا إلى نوميديا السِّرْتية Cirtéenne ونوميديا العسكرية، وتقسيم البروقنصولية إلى زوجيطان Zeugitane وبيزسينا Byzacène.

3)- 297 و302 ، أو 304 إنشاء تريبوليتانيا.

من هنا نتج أنه لكيلا ينقلب ترتيب هذا التتابع، حيث – على الخريطة – يبدو أن التواريخ تسير خطوة خطوة من البحر المحيط إلى السدْرتَيْن، فلابد من الرجوع لبداية عهد ديوكْليتيان، ولأشَدِّ قُرب ممكن من صعوده للحكم، سنة 285، أي الرجوع بالتغييرات التي حصلت بغرب الولاية القيصرية الجديدة، وهي فوق ذلك مرتبطة بها ومتزامنة معها، ارتباط التنجيتان البحرية بإسبانيا، والتخلي عن التنجيتان القارية.

إن هذا الافتراض هو الوحيد الذي يتطابق مع التطور العام الذي تنامى فوق ذلك في أفريقيا الشمالية الرومانية. وزيادة على ذلك فإنه يتقوى بالتوافقات التي يجدها في إسبانيا، حيث حل البريسِس من طائفة الفرسان محلّ الحكام من الرتبة السيناتورية، وذلك بترابط متبادل مع تكوين أبْرشية الإسبانيات des Espagnes المبيّنة في لائحة ڤيرونة، إذ لابد أن ذلك حدث بين 283، التي نجد فيها مرة أخرى واحداً موصوفا بأنه (Clarissime) أي المستنير أو ذو الجلاء، واسمه أوريلْيوس ڤَلَنْتنْيانوس Aurelius Valentinianus، وبين سنة 288 التي يبدو فيها، في محلّه، الموصوف بأنه Perfectissime أي صاحب الكمال، وهو الفارس بوسْتومْيوس لوپِرْكوس Postimius Lupercus. وفي الأخير يتضح ذلك خصوصا في الإخلاء الكلي للتنجيتان القارية التي سنمسك بها في الصميم في وَليلي. ويمكن البرهان على أنه، أي الجلاء، قد حدث في حقبة كان فيها تعهّدُ وحماية طريق الحدود إلى مقاطعة وهران قد أهملتهما الإمبراطورية غداة تولي ديوكليتيان الحكم.

والآن لنفتح دواوين نقائشنا اللاتانية. فسرعان ما يثير انتباهنا التعارض بين نقائش طنجة ونقائش وَليلي.

ففي طنجة لا نجد إلا نقائش فيها إهداءات تمجيدية للأباطرة، واحدة بتاريخ 298-291 موجهة إلى الإمبراطور ديوكْليتْيان Dioclétien، والأخرى بتاريخ 296 موجهة للإمبراطوريْن ديوكْليتْيان وماكْسيمْيان Maximien.

أما في وَليلي فلا يوجد، أيّ أثر على الحجارة المنقوشة لا لديوكْليتيان، ولا لأيّ أحدٍ ممن خلفوه. وسلسلة القياصرة – التي فيها أكثر من خطإٍ – تبتدئ في النقوش مع كْلود Claude بقاعدة تمثال أقيم سنة 44. وتنتهي فيها بين 276 و282 بثلاثة نقوش تَذْكر پْروبوس Probus، ولكنها تدعونا للنزول حتى الإمارات الموالية أي إمارة كاروس Carus (283–282) وإمارة كارين Carin (284-283)، لأن المَحْو بالمطرقة martelage، في الانتقام الذي زاوله هذا وذاك من هذين الإمبراطورين على ذكر سابقهما قد محا بجفاء اسمَ پْروبوس Probus في النصوص الثلاثة الآنفة الذكر. الأمر الذي يوضح أن سلطتهم قد امتدت في تمامها إلى حدود التنجيتان. وهكذا فإن مجموعة نقائشنا الرومانية تقف في وليلي بالضبط في النقطة التي تبتدئ في طنجة. وكل شيء فيها يجري، كما لو أن في نفس الزمان، وتحت تأثير ديوكليتيان، قد تجددت الحياة في طنجة، وعلى العكس انطفأت في وليلي.

ومجموعات نقودنا، تبرز بقوة أشد نفس الشعور. ولقد تفضل السيد ثوڤْنو M.Thouvenot، فأبلغني سنة 1936 نتائج إحصاءاته في خزانات الأوسمة Médailliers بالمتاحف المحلية. ففي المنطقة الدولية ومنطقة الحماية الأسبانية اللتين تتطابقان مع التنجيتان الجديدة، أغلبية عناصر العهد الأسفل Basse époque واضحة للعيان. فمثلا يقدم لنا متحف تطوان عدة أمثلة من إصدارات قسطنطينية Constantiniennes،

ومما بعد عهده Post-Constantinienne. ومتحف طنجة يملك المجموعة الكاملة للأباطرة في القرن الرابع حتى عهد هونوريْوس Honorius. لكن نُمِّيات الإمبراطورية السفلى Bas-Empire هي فعليا أجنبية عن مجموعات مغرب الحماية الفرنسية التي يمكن تركيبها على التنجيتان الداخلية. وحقيقة، ففي سَلا (الرباط) جرى في إحصاء في سنة 1934، ومن مجموعة 58 قطعة تُقرأ كتابتها أو يمكن التعرف عليها، فإن 13قطعة هي قسطنطينية او متأخرة. ولكن وجودها لا يُلزم منه مطلقا، أن سَلا آنذاك استمرت تابعة للعالم الروماني. بل معناها على الأكثر هو أن هذه الحلّة الساحلية قد استمرت معها العلاقات التجارية بطريق البحر، خارج كل تبعية سياسية. وهي لا تثبت شيئا ما عن توسع الإمبراطورية، مثلها مثل الاكتشاف في تنقيبات شالّة لدانقَيْن من عهد الجمهورية، أو لما استخرج بنواحي آسفي، وهو وعاء من طين مليء بقطع بُرُنْزية من عهد ڤَلنْتينْيان Valentinien. أما مواقع التنجيتان الداخلية فهي تقريبا لم تكشف عن نقود متأخرة عن نهاية القرن الثالث. بحيث إن السيد ثوفنو Thouvenot في تنقيباته عن النُّميات في بَناسا Banasa لم يستطع أن ينزل إلى أسفل من عهد أوريليان Aurélien (270-275). وبِوَليلي فمن 2717 قطعة من العملة الرومانية التي قد تمكّن من التعرف عليها، هناك 11 قطعة تصعد للعهد الجمهوري، و10 قطَع ينزل عهدها إلى النصف الثاني من القرن الرابع، مقابل 2694 قطعة تتدرج من أوغُسْت Auguste إلى پْروبوس Probus. وأمام هذا العدد العظيم هناك قطعة من عهد مَكْسانس Maxence وواحدة من عهد كونْسطانْس كْلور Constance Chlor. ولا توجد أي قطعة من عهد ديوكليتيان، ولا من عهد قسطنطين Constantin ولا من أبنائه. وهذه الإحصائية المتوافقة مع الأدوات المنقوشة هي ذات وضوح باهر. إن الإمبراطورية قد انمحت من وليلي لما انفتح فيها غياب

مجموعاتها النقدية. وقطَع ديوكليتيان لم تعد تصل أو يجري تداولها في العاصمة القديمة للتنجيتان لما أعطى هذا الأمير الأمر بالتخلي، وأن الإخلاء قد أجراه موظفوه وجنوده بانتظام.

وليس فحسب أن الخطوط الكبرى للانسحاب الذي أمر به دْيوكليتيان تبدو بوضوح في ترتيب الوحدات العسكرية التي قبل 372، قد ذكرتها Notitia Dignitatum للجيوش التي جعلت رهن إشارة «كونْت التنجيتان» بعد ربط هذه الولاية بالأبرشية الأسبانية. ولكن أهمية هذا التراجع تقاس بسهولة مع اعتبار عناصر المقارنة التي تعرضها علينا مع Notitia النقوش الجديدة العديدة. وبالأخص منها الدّبْلومان Diplomes العسكريان اللذان اكتشفهما السيد ثوڤْنو Thouvenot في سنة 1934، واحدا بعد الآخر في خرائب بَناسا.

والأكثر حداثة من هذين الدبلومين (هو الدبلوم الثاني في مرجعيتنا)، قد نقش سنة 122، غداة الثورة التي قضى عليها جنرالات هادريان. وهو يشمل مجموعة من خمسة أجنحة للخيالة، ومن تسع وحدات Cohortes من المشاة. والأقدم منهما (هو الدبلوم الأول في مرجعيتنا)، قد نقش في عهد تراجان سنة 109 في عهد هدوء شامل. وهو لا يشتمل إلا على جناحين وست وحدات مما ذكر في الآخر. ولاشك أن هذه الأرقام الأخيرة – ثمانية في الجميع – هي التي تمثل في عهد السكينة المجموع الاعتيادي الذي بلغته جيوش موريطانيا الطنجية في عهد الإمبراطورية العليا.

ولكن هناك ملاحظة واجبة، هي : إن مجموع الوحدات لم يتغير من 109 إلى موسطة القرن الرابع، لأنه، إذا في Notitia كانت أجنحة

الخيالة اثنين كما في الدبلوم الأول، – أي الجناح الأول من الحمويين Hamiens والجناح الثالث من الأشتوريين Asturiens – قد أنقص إلى واحد، – هو الجناح الهركولي Aile herculienne – فإن وحدات المشاة قد بلغ عددها من ستة، وهو مجموع حسب إحصاء الدبلوم الأول، إلى سبعة أي العدد الناتج مما ذكرته Notitia.

إذن فَدْيوكْليتْيان لم ينقص من عدد جيوشه بالتنجيتان. بل إن توزيعها على الخريطة هو الذي قد غيره تغييرا عميقا. وبالفعل، في عهد الإمبراطورية العليا، واعتمادا على الوثائق المنقوشة التي كشفت بشمال لُكوس، سواء في المنطقة الدولية بطنجة أو بمنطقة الحماية الأسبانية، فإننا لم نقع إلا على موقعين اثنين في التنجيتان البحرية، كانت بهما حاميات، هما: طنجة وأوپيدوم نوڤوم Oppidum Novum، أي «القصر»، حيث كانت فصيلة من الجناح الأول الحموي Hamien. وعلى النقيض فإن نقوش نفس الحقبة تضاعف المراكز بجنوب لكوس، في هذا القسم الشمالي من منطقة النفوذ الفرنسي، التي فيما سبق كانت تشمل التنجيتان الداخلية. فهي ترينا في الإقامة في سَلا : الجناح الثاني للسوريين، وفي وَليلي فصيلة بريطانية Vexillatio Brittonum، وقطعة من الجناح الأوغُسطي المزدوج، وفي عين الشقور Aïn Chkour عناصر من الوحدة الرابعة للغاليين والوحدة الأولى من الأشتوريين والغاليسيين Galiciens، وفي سيدي قاسم (Petit jean Aquae Dacicae ؟) بها عناصر أخرى من الوحدة الرابعة للغاليين، وفي توكلوسيدا Tocolosida قسم آخر من الجناح الأوغسطي المزدوج، وفي ثاموسيدا عناصر أخرى من الوحدة الأولى من الأشتوريين والغاليسيين، وفي بَناسا حامية غير موضحة ولكن تبدو قيمتها من قدماء المحاربين الذين قضوا بها تقاعدهم. ففي شمال اللكوس تناثر وتناقص الدفاع عن التنجيتان،

ولكنه تجمع وتناسق في جنوب اللكوس طوال عهد الإمبراطورية العليا. حتى إذا جاء ديوكليتيان فإننا مع Notitia Dignitatum نشاهد تغييرا ملحوظا، حيث حاميات عهد الإمبراطورية السفلى تتجمع بشمال نهر اللكوس، بينما هي قد انمحت بجنوبه.

ولنعد الآن لما أوردته Notitia Dignitatum : إنها أوردت هكذا لائحة القادة – والياً وسبعة من الضباط برتبة زعماء Tribuns – للوحدات الثمان المنتظمة تبعا لأوامر «كونْت التنجيتان»، وتذكر هذا الوصف بالبيان الوارد تارة بصيغة المفعول به وتارة بصيغة المفعول فيه عن المحل الذي تقيم به كل وحدة من الوحدات :

1- praefectus alae Herculeae :	*Tamuco*
2- tribunus Cohortis secundae Hispanorum :	*Duga*
3- tribunus cohortis primae Herculeae :	*Aulucos*
4- tribunus cohortis primae Ityraeorum :	*Castrabariensi*
5- tribunus cohortis… :	*Sala*
6- tribunus cohortis Pocatianensis :	*Pacatiana*
7- tribunus cohortis tertiae Asturum :	*Tabernas*
8- tribunus cohortis Friglensis :	*Friglas*

ولقد اجتهد المؤرخون من تيسّو Tissot إلى كانْيا Cagnat في التعرف بدقة على هذه الأمكنة.

وحتى اليوم، فإن موقعا واحدا من بين الثمانية هو الذي استعصى على محاولاتهم لمعرفته. إنه هو باكاتيانا Pacatiana، الذي كتب عنه

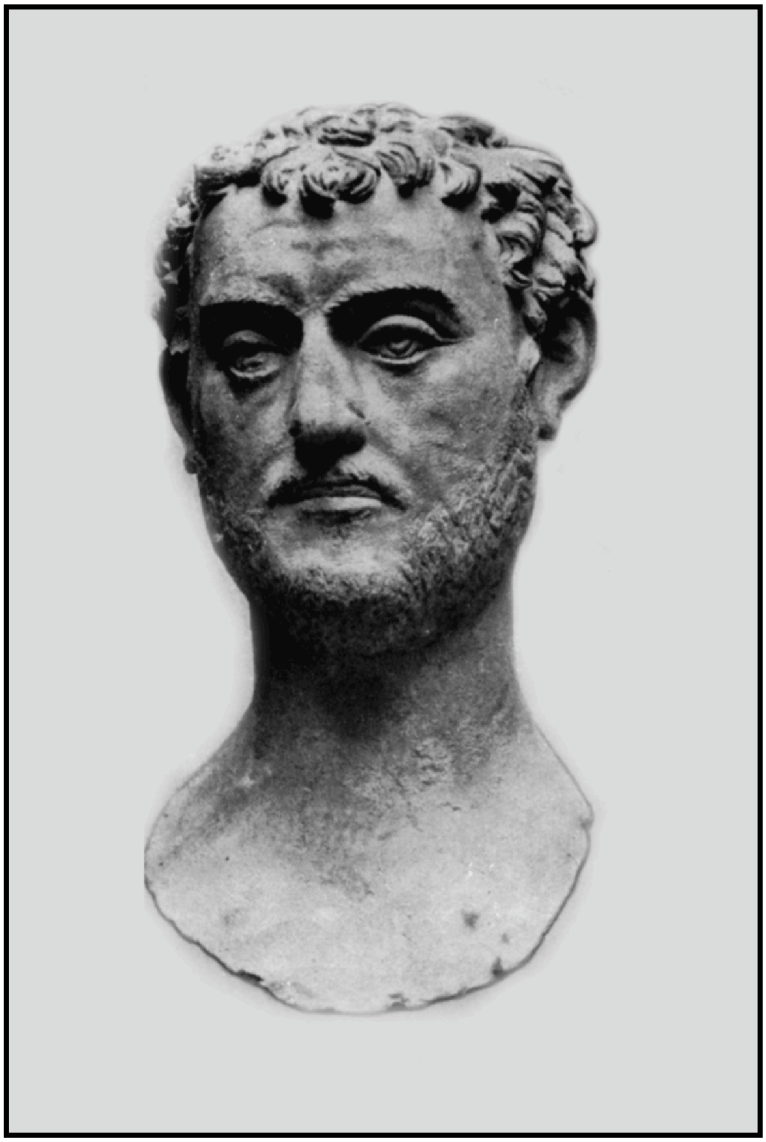

کایوس یولْیوس پاکْتِیانوس

تيسو Tissot قائلا : «لا شيء يمكن أن يساعدنا لإثبات موقعه»، كما يؤكد كانيا Cagnat قائلا : «إن موقعه الجغرافي يبقى بالكلية غير معروف». ويمكن فحسب أن نفترض أن هذا المركز مَدين باسمه إلى البروكراتور بالنيابة Pro legato، الفارس الذي أصله من ڤيينا Vienne من غاليا، والذي اسمه كايوس يوليوس باكَتيانوس Caius Julius Pacatianus، الذي حكم موريطانيا الطنجية في عهد سِبْتِمْ سيفير Septime-Sévère، والذي من بين المنشآت الدفاعية، يحسن طبعا أن يعزى إليه إنشاء مركز بقي مدة طويلة بعده ضمن الجهاز الدفاعي الدائم المقام في التنجيتان الجديدة في عهد الإمبراطورية السفلى.

وعلى العكس فإن موقعا آخر هو تَبِرْناي Tabernae لابد من معرفة مكانه. وحسب مسالك أنطونان Itinéraire d'Antonin، فهي تجعل تبرناي بين زيلي Zili (أصيلة) وليكْسوس (تَشَمّشْ، بأعلى من العرائش). فيحتمل جدا أن يكون في (لالّة الجيلالية Lalla djelalia) في أقصى شمال البسيط الذي يمر به وادي السبت، أي المجرى المائي الوحيد الذي ينصب في المحيط بين أصيلة والعرائش، في المنبسط الطبيعي الذي به خرائب كستلوم مبني بالحجارة الضخمة.

وبتغييرات طفيفة على الصيغة المحرفة في أسماء ثلاثة من المواقع، فإنه يمكن بسهولة بخريطة المغرب العتيق أن نجد تموكو Tamuco، التي رأى فيها ناشرو Notitia، وتيسّو وكانْيا متفقين جميعا أن تصويبها الظاهر هو تمودا Tamouda العاصمة الحالية لمنطقة النفوذ الإسباني : تطوان. وفي أولكوس Aulucos أو آدلكوس Adlucos، يجدون كذلك اللفظ الذي في عهد الإمبراطورية السفلى كان يطلق على الحصن الصغير Fortin لليكسوس، لأنه انتقل من غير تغيير كبير للنهر الذي

يحمل نفس الاسم الذي تتحكم فيه ليكسوس، والذي عطفته الأخيرة هي التي تنعطف بين تشمش Tchemmich والعرائش، والذي يحمل اليوم اسم واد اللكوس، قد كتبه البكري بصيغة أشد قربا من صيغة Notitia : أي واولكوس Ouaoulokkos. وختاما لقد أصابوا في اعتبار Friglae تحريفا لاسم فريجداي Frigidae، الموقع الذي جعلته مسالك أنطونان بين ليكسوس (تشمش) على نهر لكوس وبين بناسا (سيدي علي بوجنون) على نهر سبو. فهو السوير Soueir على ما يحتمل. لأن السوير هو النقطة الوحيدة المتوسطة التي ذكر بها وجود خرائب رومانية قريبة من منابع مياه جارية على نحو عشرين كيلومترا جنوبي اللكوس.

وعن موقع رابع، فإن كانْيا قد أصلح تيسّو، إذ الأمر يتعلق ب : Castrabariensi الذي جعله هذا الأخير مأخوذا إما من Castrobanasensi أو من Castrabanensia وقد عرف بأنه بَناسا على نهر سبو بالمغرب الداخلي وعلى نحو أربعين كيلومترا جنوبي فْريجيداي Frigidae. وبالرجوع للشرح الذي يفسر في مخطوطات الـ Notitia الوسم Vignette الذي رسم به هذا الحصن Castellum، فقد سجل كانيا أن صيغة Castrobarensi التي يحملها الوسم مرتين، تنفي نهائيا افتراض تيسّو، وتبيح إصلاحا بسيطا جدا، هو : Castrobabbensi، ومثّل بكل احتمال القصر المسمى بهذه التسمية في بابا كَمْبِسْتريس Babba Campestris، المستوطنة القديمة التي أنشأها أوغُسْت على ما يحتمل في سهول ريغة Rirha على وادي بَهْت، بنحو 40 ميلاً (60 كيلومترا) بشرق الشمال الشرقي لليكْسوس حسب المعلومات الصحيحة تقريبا التي أدلى بها پْلين الكبير.

ولم يبق لنا إلا أن نحدد موقعين هما : موقع دُگا Duga، وموقع سَلا. إن كانْيا لا يشك، وتيسّو كذلك، في أن سلا هي المدينة التي أتاحت تنقيبات شالة. إنها قريبة من «إقامتنا» بالرباط. وبتناقض غير منتظر شيئا ما، لا يتردد كذلك في قبول أن دُگا التي لا يوجد اسمها في أي مكان، تقع في البنْيان El Benian قريبا من زينة Zinna، على طريق تنْجي (طنجة) في تَمودا (تطوان)، حيث تيسّو وصف وقاس الأسوار الخربة لمعقل له 150 مترا طولا و90 مترا عرضا، بُني بالحجارة الضخمة، وبجوانبه تسعة أبراج رباعية الشكل، وبوسطه يقوم محرز من 35 مترا على 28. على أن تيسو نفسه لم يقل بهذه المعادلة إلا مع تحفظ، ولا شك أنه قد ألهم لها اعتقادا بأن عهد الإمبراطورية السفلى «كان خط الدفاع وأرجع من الداخل إلى الساحل». والمتاكد هو أن البَنْيان كان فيه قلعة مهمة. ولكن لاشيء يدل على أن اسمها كان هو دُگّا وليس باكاتْيانا Pacatiana مثلا. إما عن إلهام تيسّو فسنرى أنه صحيح. ولكنه لم يكن كذلك حين جعل Castrabariansi في بَناسا على نهر سبو وسلا بالرباط. وقد قواه كانْيا حين دفع Castrabariensi نحو الشمال، حتى بابا كَمْبِسْتريس. وستبقى غير مقبولة إذا وجب أن نبحث عن سلا الواردة في Notitia بقرب الرباط، في أقصى الحدود الجنوبية لعهد الإمبراطورية السفلى. ولحسن الحظ فإنني قادر على أن أبرهن على أنه قد كان بالساحل المغربي سَلا أخرى مجانسة في الإسم ولكنها غير مرادفة للتي أزحنا عنها التراب بضفة «أبو رقراق». وبالفعل قد نقلت بمتحف تطوان في 1933 وثيقة حاسمة، هي حسب علمي، لم يقع نشرها منذ ذلك العهد. إنها قطعة بائسة من نقيشة، يصعب عليّ كثيراً أن أحيط بمعناها الأولي، ولكنها كافية لإيضاحي هذا فقد قرأتُ :

IVXTA DIVINAM

PROVISIONEM

CIVITAS SALENSIS

إن صيغة السطرين الأولين Iuxta divinam Provisionem هي صيغة مطابقة لأسلوب النقائش في عهد الإمبراطورية السفلى. ومدينة سلا Civitas Salensis التي استخدمتها لتخليد شكرانها للإدارة الإمبراطورية هي معاصرة لسلا التي تذكرها Notitia Dignitatum، ويحتمل جيدا أنها كانت تختلط معها، إذ لا نستسيغ كيف أن حجرة نُقشت بقرب الرباط تكون قد جاءت لتقع بتطوان. وعلى كل حال لابد أن نختم أن Civitas Salensis التافهة التي أملت النص الرسمي في القرن الرابع للميلاد ليس لها أي جامع يجمعها مع سَلا أبو رقراق الرفيعة، التي ارتفعت إلى بلدية في عهد تْراجان، وسَمَت إلى مرتبة مستوطنة قبل تدوين مسالك أنطونان. والحقيقة هي أن المزدوجات كثيرة في الجغرافيا القديمة لشمال إفريقيا. ففي البروقنصولية نعد اثنتين باسم هيبو Hippo، أي بنْزَرت وعَنّابة، كما هنا اثنتان أيضا باسم ثُبورْسيكوم Thubursicum، أي طبرسق وخميسة، واثنان باسم تيبازا Tipasa، واحدة في نوميديا أيْ تيفاش والأخرى في موريطانيا القيصرية وهي تيبازا أي طِبسّة. والموريطانيتان كان لكل منهما طَنْجَتُها : تِنْجي، وCastellum Tingitarum أي أورْلِيانْڤيل. كما لكل منهما مدينته الجديدة Oppidum Novum وهي دوبْري والقَصْر قرب العَرائش. وكما أن التنجيتان وحدها كان لها اثنان باسم روسَّدير أي المليلْية وأگادير (لاَ موگدور). فقد أصبح الآن مسلما أنها كان بها موقعان باسم سلا : أي المستوطنة الواقعة قرب الرباط، وهي التي أضاعتها الإمبراطورية السفلى نهائيا،

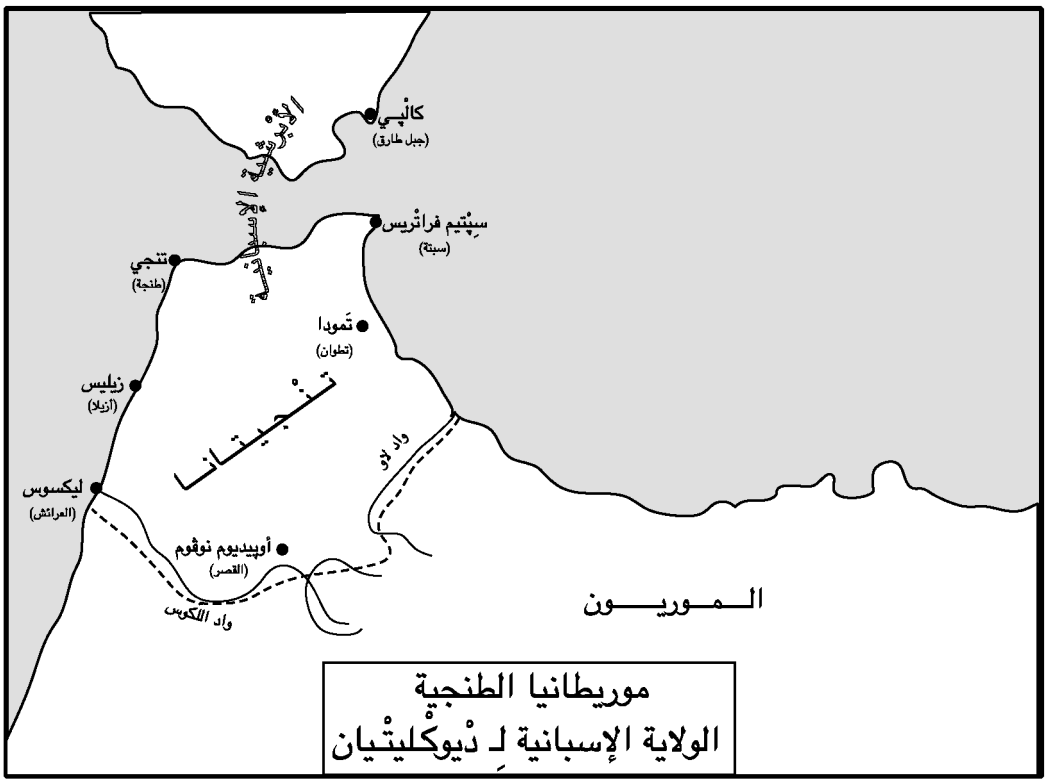

موريطانيا الطنجية
الولاية الإسبانية لِـ دْيوكْليتْيان

وكذلك الـCivitas التي حافظ عليها ودافع عنها، ولا نستطيع أن نحلها في أي موقع سوى بجوار تَمودا (تطوان).

إذن فلائحة Notitia Dignitatum تستنير بنور جديد. إن موقع واحدة مما تذكره، وهو فْريجيدايْ Frigidae لهذا السبب دون شك، مذكور في الأخير، لأنه يحتمل مقاما بجنوب اللكوس، ولكن على بعد ضعيف جدا من هذا النهر، بحيث يقصد منها – أي فريجيداي – جليا أن تحميه. والأخريات كلها، حتى سلا التي نعلم الآن أنها كانت موجودة بجهة تطوان، وكذلك باكاتْيانا Pacatiana ودُگا Duga، اللتان لا نستطيع فصلهما عن الجهاز الذي قد انتمت كلتاهما له بالتأكيد، وقد كانت كلها موزعة على شمال اللكوس لا غير.

وواضح جدا، أن ديوكْليتيان قد أوضح للتنجيتان التابعة لأبرشية الإسبانيات des Espagnes الحدود التي حتى اليوم تحصر منطقة النفوذ الإسباني، كما أنه نظم في نفس الحين إخلاء باقي الولاية الموريطانية بمنهاج جعل أجمل اكتشافاتنا في وَليلي تؤدي عنه شهادة لا يمكن دحضها.

وأحيل هنا على ذكريات الذين زاروا متحف وليلي، البسيط جدا في حجمه وزخرفه، ولكنه بالغ البهاء بجمال مَرْمَرياته وبُرُنزياته التي خرجت من التنقيبات التي أمر بها المارشال اليوطي، وسيّرها السيد لوي شاتْلان Louis Chatelain، لتشع ببهاء لا مثيل له. وحتى السائح العادي يأخذه الإعجاب أمام الواقعية الكلاسيكية للرأس الذي من المرمر الذي حسبتُ أني أرى فيه يوبا الثاني في بداية عهد حكمه، وأمام الحركة والحيوية للكلب الذي من البرنز، وهو الأول تاريخياً في الاكتشافات العظيمة بوليلي، أي أمام فتنة فن بْرَكْستيل Praxitèle للشاب الساقي

éphebe verseur، وبالخصوص أمام جمال وقوة ديونيسوس Dionysos المتوّج بإكليل الغار الذي أراد أحد نقاشي التماثيل بعهد أوغست Auguste أن يجمع فيه ليونة بْرَكْستيل إلى تعبيرية ليزيپ Lysippe إلى قوة مثال پوليكليت Polyclète.

ولكن الناس جميعا منبهرون من حالة الحفظ التي وصلت فيها لنا هذه الآثار، التي أكثرها يعاصر بداية عهد الميلاد، فهي نتيجة لذلك من مجموعات يوبا الثاني. وتمثل – كما لو أنه ولد بالأمس – الفن الإغريقي الإيطالي الذي بلغ هذا التوازن الكامل منذ نحو ألفين من السنين. فالتمثال النصفي ليوبا الثاني قد احتفظ بأنفه، والكلب البرنزي حافظ على ذيله، والفتى الساقي، والديونيسوس Dionysos يتنسمان الطراوة التي يبدو وكأنها تعطي للمادة التي صُنعا منها الشبابَ الذي شاء الفنان الصانع أن يكسو به صورتيهما. إنني عندما رأيت في سنة 1933 هاذين الأثرين الفائقين جنباً لجنب من غير تجاعيد، أدركت في نفس الحين أنهما لم يكونا سالمين وباهييْن، إلا لأن مخابئ مناسبة قد صانتهما عن مثالب القرون العشرين التي تفصلنا عنهما. ومن ذلك الحين، فإن المعلومات الضئيلة التي استطعتُ جمعها عنهما في المنشورات المتعلقة بهما، قد أقنعتني أن شعوري ذاك يستجيب للحقيقة فعلا.

فمثلا الفتى الساقي «قد أُخفي في جدار»، بحيث إن «غشاء كثيفا من التراب الأسود والحطام من كل نوع تجعله لا يُعرف...» وقد صانه هذا الوضع. ومغامرات الكلب لها دلالات أكثر، لأن «نهاية ذيله كانت محطمة»، ولكن عند تنظيفه «وقع العثور عليها بداخل بدنه»، وفي ذلك برهان لا يعارَض على العنف الذي به جرى اقتلاع الكلب من موقعه الأصلي، وعلى حسن العناية التي بها قد جُعل في موضعه الجديد. أما

ديونيسوس Dionysos المتوج بالغار الذي كان الحفاظ عليه «تاما جدا» والذي «كانت عيناه قد نقلتا وضاعتا»، فاكتشافه جرى في ظروف لا تدعو إلى الخطإ : «لقد كان متمددا على عمق مترين ونصف في بيت صغير من مجموعة واسعة من البنايات، نرى فيها باحة داخلية بها حوض مائي تحيطه الأعمدة...». والحق هو أن كل واحد من هذه الاكتشافات، قد جرى كما لو أن الآثار التي مكنتنا منها، تكون قد دفنها مالكوها. والاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يمنعنا من نقل هذه الاحتياطات التي لا تُنكر إلى أمر بالإخلاء، مأتاه توزيع الآثار الفنية التي يردها تاريخها جميعا إلى تركة يوبا الثاني، كما اقتطفها الحكام الإمبراطوريون، الذين أتوا، بعد موت بطلمي ابن يوبا إلى وليلي ليأخذوا مكان الملك في داره. إنها دون شك كانت مهيأة لزخرفة القصر الملكي، الذي تحوّل إلى إقامة (بْروكيراتورية Procuratorienne)، وأعيد بناؤه في عهد گورْديان الثالث Gordian III. وهناك في شمال المدينة، في مواجهة قمة زگوطة Zagota التي تحرسها هذه الإقامة كان المنتظر أن يقع العثور عليها. لكن، وعلى عكس هذا الظن، فإن «قصر الحكومة» لم يُعد إلينا أي واحد من هذه الآثار، ولكن من خارجه استخرجت هذه التماثيل التي نرى أنها جاءت منه. فالتمثال النصفي ليوبا قد استُخرج عند تنظيف «أحد الأحواض التي تحدّ جدار الحوزة». والبرنزيات أُخِذت من المنازل بحي مغاير تماما. والفتى الساقي من «إحدى الدور التي كان لها مدخل من طريق ثانوية، من وراء المجموعة العريضة التي تكونها الدار المعروفة باسم دار أورفي Orphée». والكلب من إحدى الدور التي نشاهدها «بجنوب قوس النصر». وأما ديونيسوس فمن إحدى تلك التي تمتد «بشمال هذا القوس». فنحن بالنظرة الأولى محتارون بهذا التفرق، ونغرى بنسبته إلى بعثرة الصدفة، خارج كل عملية منظمة، في ساعة

تاريخية، للسلطات الرومانية. ولكن عند التأمل نلاحظ أن الحذر واجب عليهم، إذا كانوا يخشون الثوار والنهابين، فيضلّلون بحوثهم وضرباتهم، ونعود رغما عن الظواهر العارضة، إلى افتراض يجعله حتمياً اكتشافٌ جرى أخيرا في دار ديونيسوس.

ففي نفس البيت الصغير الذي دفن فيه التمثال الرائع لديونيسوس Dionysos، جرى بالفعل جمع سبع رصائع Médaillons رومانية، جاء السيد ثوڤْنو ليقدمها يوم 8 أكتوبر 1937 إلى أكاديمية النقائش. فألح عن صواب على حدثين أساسيين، هما : حالة حفظهما البديعة، والعلاقة التي بصدفة لا يمكن أن تكون عابرة، وهي أن هذه الرصائع موزعة على مدى نصف قرن من الزمان، تستند فيه إلى قياصرة الإمبراطورية العليا «الذين تدخلوا بفاعلية في ولاية موريطانيا الطنجية» وهم : أنطونان التقي الذي أخمد الثورة، وكومود Commode الذي أنشأ أسطولا جديدا لحماية المواكب التجارية التي تحمل القمح من إفريقيا الشمالية إلى مخازن أوستي Ostie، وسِپْتيم سيڤير Septime-Sévère الذي أرغمته الثورة الجديدة على ضم الموريطانيتين القيصرية والطنجية، فجعلهما ولاية واحدة. وفي الاجتماع الذي حظيتُ فيه بالاستماع إلى السيد ثوڤْنو، فإن زميلي وصديقي السيد أدْرِيان بْلانْشيت Adrien Blanchet، الذي كان يجهل الآراء التي عبرتُ عنها في لندن في شهر يونيو الفارط، عن مخابئ وليلي، والذي كانت تقوده معرفته الواسعة بالنُّميات قد أبدى افتراضا، مؤداه أن هذه الرصائع جُمعت على الرايات Enseignes العسكرية التي حسب العادة تكون معلقة عليها. فأخذتُ الكلمة من بعده لأكرر القول الذي سبق أن قلته قبل ذلك بأربعة أشهر في الاجتماع الذي عقدته «جمعية النهوض بالدراسات الرومانية»

Association for the promotion of the roman studies، وأوضحتُ التأكيد الذي أتى به على غير انتظار الاكتشافُ الأخير للرصائع الرومانية وكذلك الافتراضُ الثري الذي أوحى به إلى السيد م. بلانْشيت.

وعندما نَشَر فيما بعدُ تبليغَه Communication في تقارير أكاديمية النقائش، فإنه أراد، بامتناعه عن ذكْر السيد بلانْشيت وأنا، احتراماً لنا، أراد أن يعلن عن عدم توافقه معنا فِي الآراء التي قد عبّرنا عنها.

فَإنه كتب نقداً لرأيي : «لا يمكن أن نتحدث عن مخابئ بالمعنى الدقيق، ولاشك أن التمثال الكبير الذي عُثر عليه ممددا في محرز، قد أُخفي، ولكن رصائعنا قد عُثر عليها بجانبه في مجال ضيق جدا، مع نحو مائة من النقود الأخرى من القرنين الثاني والثالث. فنفترض مع الاحتمال أنها في أول الأمر كانت مخزونة في كيس من ثوب أو من جلد، أو في صندوق من خشب. والغشاء قد اندثر مع الزمان، وانتثر محتواه شيئا فشيئا عن موقعه الأول». وأعترف أني لا أفهم هذه التمييزات الدقيقة، ولا هذه التحفظات غير المجدية. ولا أستطيع البلوغ لفهم الفرق الذي يمكن أن يوجد بين مخبإ ومخبإ «بالمعنى الدقيق»، ولا الكيفية التي بها قد صنع الظرف الذي فيه قد جُعلت النقود، والذي انفلتت منه لما انحطم، وإنما يكفي أنها قد وُجدت «بجانب» ديونيسوس المخفي في مترين ونصف من تراب عتيق لألحَّ أنا على فكرة أنها قد أُخْفيت معه.

أما الرأي الساطع الذي قاله السيد أَدْرِيان بْلانْشيت، فقد ظن السيد ثوڤْنو أنه يمكن التخلص منه بملاحظة ذكرت في تعليق بأسفل الورقة، هو أن «الدار التي جرى بها العثور على ذلك، هي بالتأكيد تقريبا دار أحد المدنيّين». وتبعا لذلك فالرصائع المختلف فيها «لم تكن حسب ما يَلوح مثبتةً في قائمة الأعلام». وإني لا أريد حقيقة أن يبين لي ما

يمكن أن يميز اليوم في الوضعية أو الزخرف دارة Villa «عميد» عن دارة «جينرال»، ما يميز وسائل رغد العيش لضابط من المستوى العالي، عن وسائل الرفاهية لموظف مدني ينتمي لنفس المستوى الاجتماعي ولنفس المستوى في الحياة. وفي الختام، فمن الواضح على الخصوص، أن الأدوات الثمينة عندما تفكر الحكومة في نقلها لمبان مختلفة، لصيانتها من النهب والكسر، فإن قليلا من اللباقة يفرض تقسيم تلك الأدوات. وإذا صح أن تمثال ديونيسوس بعد أن كان هو جزء من المجموعة الملكية التي صارت إرثا للأباطرة ولممثليهم، وإذا كانت الرصائع الرسمية بعدما زَيَّنت الأعلام العسكرية قد دفنت لصونها عن النهب، فإن ما بقي سيأتي من نفسه. إن إخلاء وليلي قد جرى على المدينة كلها، وشمل واستعمل دون تمييز الممتلكات الخصوصية ومحارس السيران Remparts. ووضعية المودَعات Depôts تفرض الفراغ من حولها، مثل السرعة التي تنبعث من تهييئها، والتي تعبر لابد من مباغتة الخطر الذي درأوه. وإن التخلي في آنٍ واحد بضخماة عملية للأمن العام، مع العناية الدقيقة التي يسمح بها وثوق الذاهبين بالرجوع الذي لم يتحقق أبدا، وبالخصوص مع التسارع في فرار كان شاملا، ولم تثقله لا المواكب، ولا التغليفات، كما لو أن الأوامر الإمبراطورية تزامنت مع ترقب الظهور القريب للعدو. والتاريخ لم يخبرنا مطلقا بصراحة من أين سيأتي العدو. ولكن لا يستحيل التعويض عن صمته، وتسمية الغزاة بأسمائهم الذين ربما في سنة 285 أو 284 قد أطبقوا على وَليلي التي أُخْليت، والذين لم ينجحوا في الكشف بها عن سر المخابئ التي لأول مرة أظهرتها بها، ولكنهم على كل حال قد سيطروا عليها إلى أن وصل العرب.

البكْواتيون Les Baquates

أثناء العصور الوسطى العليا كانت المناطق الممتدة جنوبي اللّيمَس الروماني، الواقعة بين سَلا (الرباط) وَوَليلي هي الأرض الخاضعة لإحدى القبائل المسلمة التي اعتبرتها القبائل الأخرى منحرفة (هَرْطَقية Hérétique)، وقد مكثت خارجة عن القانون وعن الإيمان العام لبقية المغرب الإسلامي لغاية هذه السنة، وهي 1059 التي قضى فيها المرابطون عليها. إنهم البرغواطيون.

وهناك إغراء كبير، – لم يمنع المستشرقين – لربط هؤلاء البرغواطيين الذين من أهل العصور الوسطى مع البكْواتيين الذين تُحدثنا عنهم الوثائق القديمة. ومع ذلك فهذا الرأي، الذي أنضمُّ أنا فيما يخصني للقائلين به، يصطدم بظاهر عرقلة مزدوجة. أولاً لأن الكاتب الوحيد من الإمبراطورية العليا الذي حدد موقع عشيرة أهلية متصلة بموريطانيا الطنجية، أي پْلين الكبير Pline l'Ancien لم يذكر البكواتيين، بل إنه ذكر هؤلاء الباربار الأطُلوليين Autololes الذين في العصر الذي كان يكتب فيه پْلين الطبيعي عن هذا، كان المفروض أنهم خارج الحدود الرومانية، وكانوا مستولين على جميع الممرات المؤدية للأطلس الكبير، مرورا بقمم الأطلس المتوسط، بجنوب وليلي، وسهول الشاوية بجنوب سلا (الرباط) والنهر الذي يحمل اسم سلا، وهو أبو رقراق اليوم. وبعد ذلك فالأركيولوجيون قد سلموا حتى اليوم، باتفاق يظهر أنه يُسكت كل معارضة، بأن البكواتيين كانوا يحتلون بشمال المغرب الحالي جبال

الريف. لكن يُحتمل أنهم مخطئون، والمتأكد هو أن بعد موت پْلين الكبير، فالأطلوليون Autololes قد انعدموا من المناطق التي جعلهم بها.

وفيما يخص الأطلوليين، فشهادة پْلين عنهم، التي كُتبت بأسلوب فيه بعض البحث عن التأثير قد أُصلحت وأذيبت في فقرات أخرى من التاريخ الطبيعي. فهنا يحلهم پْلين في أحواز موگادور (الصويرة) في مقابلة الجزر الأرجوانية. وهناك يُبعدهم إلى ما بين روسَّدير (أگادير) ووادي سوس. وفي مكان آخر يبعدهم إلى أكثر من ذلك أيضا، إلى جوار السود. ويتركنا نلاحظ أن القبيلة التي داخلتها حركات التفكك القوي، فإن أقوى عشائر الجيتوليين كانت قد بدأت في التفرقة. وتسارع انهيار الأطلوليين بعد 60 سنة، فأصبحوا كما يقول بطليموس لا يكوّنون إلا قبيلة صغيرة. وهم منذ ذلك مقيمون بشاطئ البحر الذي عند الجنوب الأقصى لجيتوليا في مقابلة جزيرة يونون de Junon الواقعة بين قيرْني Cernè في وادي الذهب Rio de Oro وجُزر كناريا المعروفة بأنها الجزر السعيدة Îles Fortunées التي تتحدث عنها الخرافة. ثم ضاعت آثار هؤلاء الأطلوليين في الظلمات. وبدون شك فإن اسمهم كان لا يزال يعود لأقلام الشعراء. ولكن ذكرهم الذي أقحمه كْلوديان Claudien في مديحه لسْتليكون Stilichon، هو ذكر يتجافى مع كل حقيقة واقعية، ويشترك – كما عند لوكان Lucain وعند سيلْيوس إيطاليكوس Silius Italicus – في أمثلته بأمثلة الگرامنطيين Garamantes والنَّصمونيين Nasamons. وليس هو سوى فرصة تعليق وقيمة للتذكار. وهو عن قصد قد أزيل عن لغة پولْ أوروز Paul-Orose الذي حسب قوله، فإن الأطلوليين الذين أُبعِدوا إلى أقاصي الأطلس قد تخلوا عن اسمهم السّلالي Ethnique القديم واتخذوا اسم الگالوليين Galaules. وعبثاً نقوم بالبحث عن ذكراهم، أو عن الگالوليين الذين يُفترض أنهم خلفوهم في مسالك أنطونان، أو في

لائحة ڤيرونة Vérone أو في قائمات الأخبار Chroniques. فكل شيء كان يجري في نصوصنا القديمة، في المدى الزماني الذي يفصل التاريخ الطبيعي لپْلين وهذه الوثائق التي من القرنين الثالث والرابع، وكأن الأطلوليين قد أتى عليهم الدهر فأخلوا مكانهم لمن أتوا بعدهم.

غير أن من خلفوهم حسب رأيي كانوا هم البكْواتيين. ولكي يمكن إحلالهم بالجبال في شمال طنجة، فَيُستند عادة على بداية «مسالك أنطونان». غير أنه يكفي الرجوع لهذه الجملة التمهيدية لنرى أنه لا يمكن أن نستخرج منها مثل هذا التأكيد، حيث إن كتاب «المسالك» ينفتح على شبكة طرق أفريقيا. وهذه الشبكة نفسها تنفتح بها من الشرق إلى الغرب مبتدئة في طنجة بموريطانيا : A Tingi Mauritania ثم يأتي شرح، أُقحِم بالتأكيد بعد ذلك وبدون شك – إذا كانت المشابهات التي سنراها عما قريب لا تذهب بنا للخطإ – أي أُقْحِمت أثناء التحويرات التي نالت كتاب «المسالك» في القرن الرابع. ولقد جرى الاعتياد على ربط هذا القول باسم تِنْجي، وفي هذا غلط واضح. إن القول متعلق بموريطانيا التي باسمها يقترن القول مباشرة، ويُترجم، كما يلي : «ابتداء من تنجي، فموريطنيا، أي البلاد التي يسكنها الباربار البكواتيون والمكنيتيون». فَعِوَض الاقتصار على جهة طنجة بمحاولاتنا لمعرفة موقعهم، فمن الواضح أن المحاولات تنشرهم على موريطانيا بكاملها. فهي تشير لوجود البكواتيين المرعب، من غير أن تثبتهم على نقطة دون أخرى. وهي قريبة، إن لم تكن مأخوذة، من جداول القبائل المتناثرة خلال الإمبراطورية. وأول هذه الجداول في التاريخ مذكور في لائحة ڤيرونة Vérone. التي حررت سنة 297، والأخريات أدخلت خلال القرون الموالية في liber Generationis، وفي La Chronique d'Alexandrie وكذلك

في Les Exerpta Latina بقلم القدّيس جيروم St. Jerôme على أن الأمر الأسهل هو إعادة عرضها هنا :

1) لائحة فيرونة،XIV ص. 252 Seeck : *Item gentes quae in Mauretania sunt* :

Mauri Gensani (= Mauri quinquegentiani).

Mauri Mazazeces (= Mauri Mazices).

Mauri Baveres (= Mauri Bavares).

Mauri Bacautes (= Mauri Bacuates).

2) Liber Generationis, I, 197, Chron. Min, P. 107 : *gentes autem quae linguas suas habent hae sunt….* :

(64) *Mauri*.

(65) *Baccuates et Massenas (Baquates et Macénites)*.

(66) *Getuli*.

(67) *Afri qui et Barbares*.

(68) *Mazicei*.

(69) *Garamantes, etc…*

3) Excerpt. Lat., ap. S. Jérôme, éd. Schöne, I, p. 187, et Chron. Alex, 167, ap. Chron. Min, p. 107 : *gentes autem quas dispersit dominus deus super faciem omnis terra(e) sunt autem hae* :

…. 64 *Mauri*

65 *Macuaci (= Baquates)*.

66 Getuli.

67 Afri.

68 Mazici.

والمحرر الثاني «لمسالك أنطونان»، في الحقبة التي كانت تُحضّر فيها هذه المجموعات، قد استقى بالتأكيد من نفس المصادر، مثل مؤلفيها، عناصرَ شرحه الخاص. ولكنه لم يكن له كذلك نية أو وسائل الإحلال للعشائر التي ينقل أسماءها في مواقعها. فلا شيء إذن يؤخذ أكثر من هذا السرد للأسماء سوى أن موريطانيا توجد بها هذه القبائل التي تُدعى بالمازيس Mazices، والمكنيت Macénites والبَكْوات Baquates. وعلينا أن نتوجه إلى وثائق أخرَى طلباً لبعض المعلومات، حول المناطق التي هي لإقامتهم أو لمجالهم بالتتابع.

أما عن المازيس (أو المازيك) Mazices فَبَطْليموس أدلى لنا بمعلومتين قيمتهما غير متساوية. ففي فقرة من كتابه الرابع، يظهر أنه يذكرهما في التنْجيتان، غربي سَبْتَة، لكنه في فقرة أخرى ينقلهم إلى القيصرية، إلى قرب نهر السينالاف Sinalaph (وادي شلْيف). وهذا في الواقع كان هو موضعهم الحقيقي، إذ يحتمل أن في هضبة الونْشَريس Ouarsenis، وعلى كل حال ففي جهة كَسْتيلوم تِنْجيتَروم Castelum Tingitarum (أي أورْليانْسڤيل)، فإن هؤلاء الموريين حلفاء فيرْموس Firmus قد جدّوا سنة 374 في تطويل أمد مقاومتهم. أما المكنيت Macénites الذين يُصرّ كانيا Cagnat بطيش على أن إقامتهم كانت بالريف، فإنهم لم يقيموا بالمغرب الشمالي. إذ أن بطليموس يجعلهم في عمق التنجيتان. وهذه الطبوغرافية تلقى تحقيقا تكميليا في النظرية الغريبة الموروثة عن العِلْم الزائف ليوبا الثاني، والتي توسع فيها دْيون

كَسْيوس D. Cassius عن منابع النيل. وهي إذا صدقناه يكون منبعه من سفح الأطلس. فيوضح قائلا : «هذا الجبل واقع في أرض المكنيت Macenitide قريبا من البحر المحيط في الغرب. وهو يعلو أكثر من الجبال الأخرى. ولذلك فهو دائما مكسوّ بثلج ينحدر منه في الصيف مقادير غزيرة من الماء، فتحدث إذن فيضان النيل». ثم يفتخر ديون كسيوس بهذا الاكتشاف البديع كما لو أنه هو المبتدع الأول له. ويقول في ختام فصله : «لا يجب أن يعجب أحد من الناس إذا اكتشف ما كان مجهولا عند قدماء الإغريقيين، وهو أن المكنيت يسكنون بجوار موريطانيا السفلى، وأن العديد من الجنود العاملين بهذه الولاية يتقدمون حتى الأطلس».

هكذا فإن المكنيت، تبعا لاعتقاد متأصل في الخطإ الواقع على حساب «مسالك أنطونان»، يقع الإصرار على جمعهم بالريف، ويحتلون سلسلة الأطلس الكبير. وحيث إن بطليموس قد جعل لهم البكواتيين في الشمال جيرانا يحدونهم، فإننا مرغمون على أن نجعل قبيلتهم لا بالريف، بل في الأطلس المتوسط، وعلى البسائط المجاورة، وأن نفترض أن ضغطهم هو الذي أدّى إلى أن الأطلوليين طردوا، واضطهدوا وابتلعوا.

والنتيجة ستكون مفاجئة لاشك. ولكنها هي الوحيدة التي تؤكدها النقوش. ففي شمال التنجيتان، فإن القبيلة الوحيدة الأهلية التي أفصحت لنا عن وجودها لم تكن قبيلة البكواتيين بل كانت هي قبيلة الماسيسيليين Masaesyles. وعلى النقيض ففي جنوب التنجيتان بوليلي، فإن أربعة نقوش تشهد بقرب البكواتيين إن لم يكن بوجودهم. وأقدم هذه النقوش قد وقع نقشه عقب اليوم الذي أظن أن هذه العشيرة نالت فيه من الإمبراطور هادْريان Hadrien في آن معاً التكليفَ بطرد الأطلوليين،

والأمرَ باحتلال الأراضي القديمة التي على حدود الليمس في زَرْهون والأطلس المتوسط والبسائط المحيطة. إذ حسب رأيي قد مرّت سنون قليلة فحسب بين نقش تِنيسْ Ténès المعروف منذ أمد طويل، ويَذكر غزوةً حديثة للبكواتيين على سَاحل موريطانيا القيصرية، وأقدمَ نقوش وَليلي المتعلقة بالبكواتيين، التي تشهد بتعبدهم الورِع، أو على الأقل بتعبد شيخهم (أو رئيسهم) للإمبراطور الحاكم، وهو أنطونان التقي. وأني لأستأذن، توضيحا للمناقشة، أن أعيد كتابتها هنا الواحدة بعد الأخرى، مع محاولة إحاطتهما معا بالتعليق الذي تستحقانه والظروف التي تجمعهما. فالأولى وهي التي ترجع لِكَرْتِناي Cartennae (تنيس Ténès)، ظهرت منذ أمد طويل في C.I.L, VIII تحت عدد 9663. وأُدخلت بعد اكتشافها بقليل في المتحف الوطني للآثار القديمة الجزائرية، الذي أصبح منذ سبع سنين متحف اصْطيفان اگْصيل، وهي معروضة في الهواء الطلق، على طول الجدار الغربي للبناية المهمة، غير بعيد من تلمْلي Telemly، في مواجهة المكاتب المديرية. ولم يمر يوم إن صح اَلقول أثناء السنين التي تشرفتُ بوجودي بها، دون أن أراها عند مروري، ودون أن أقف أمامها، ودون أن أبحث في اقتحام السر التوقيتي لهذه القاعدة الرشيقة والقوية، ذات الأحرف الجميلة التصوير، وذات النص الذي له أهمية متعددة وله قيمة لا تنكر. وختاما ها هو ذا :

C. FVL CINIO. M.F. QVIR

OPTATO FLAM AVG IIVIR

QQ PONTIF IIVIR AVGVR

AED. QVaeSTORI QVI

INR VP ti ONE. BAQVA

TIVM COLONIAM TVI

TUS Est tesTIMONIO DECRETI ORDINIS ET

POPVLI CARTENNITANI

ET INCOLAE PRIMO IPSI

NEC ANTE VLLI

AERE CONLATO

C(aio) Fulcinio M(arci) f(ilio), Quir(ina tribu) /, Optato, flam (ini) Aug(usti), (duum)vir(o) / q(uin)q(uennali), pontif(ici), (duum)vir (o), aug(uri), / aed(ili), qu[ae]stori, qui / inrup[ti]one Baqua/tium, co [l]oniam tui-/tus e[st tes]timonio decreti ordinis et po-/puli, Cartennitani / et incolae, primo ipsi / nec ante ulli, aere conlato.

الترجمة : «إلى كيوس فولْسينْيوس أوپْتاتوس، ابن مَرْكوس، من قبيلة كيرينا، كاهن (فلومين) أوغُست، الدومْڤير الخمْسي، الحبر، العرّاف، ناظر المالية، الذي أثناء هجوم للبكواتيين، حمى منهم المستوطنة، كما يشهد بذلك قرار اتخذته جماعة (الديكوريونات)، واتخذه الشعب (سواء مواطنو كَرْتِناي أو (مطلق) سكانها، فله هو الأول، وليس لغيره قَبْله (في المدينة أقاموا) هذا التمثال باكتتاب».

المعنى واضح، ذلك أن الأورْدو Ordo أي الطائفة المسيرة، ولنسمِّها باسم المجلس البلدي، قد صوت على مقترح، سارع للتوقيع عليه مواطنو كَرْتناي (في جمعياتهم) وسكان كرتناي (غير المواطنين في جماعاتهم). وبنص المقترح البلدي، فقد كان معلوما لدى العموم أن گيوس فُلْسينْيوس أوپْتاتوس قد أنقذ المستوطنة من هجوم البكواتيين،

وعقب هذه الشهادة الرسمية فسكان كرتناي، من غير تمييز في الطبقات، في القانون أو في الأصول، يتشاركون ليقيموا له تمثالا، ويكسونه هكذا ولأول مرة شرفا لم ينله أحد قبله من المواطنين. ومن ناحية أخرى، إن المحزن هو أننا إذا كنا قادرين على تشكيل سلسلة المناصب المدنية من أمانة المال questure، وعضوية المجلس البلدي، والدومْڤيرا البسيطة، والدومْڤيرا الخمْسية، ومناصب الكهنوت المحلي : من عرافة، وكهانة ورهبانية لِگيوس فُلْسينْيوس أوپْتاتوس، فإن معلوماتنا عن الشخص تقف هنا، ونحن من ناحية أخرى، ملزمون باللجوء إلى الظنون عن العهد الذي هيأ فيه البكواتيون الفرصة له لإظهار قيمته.

وبينما اكتفى السيد لْوي شاتْلان بملاحظة شكنا في هذه النقطة، فالسيدان كانْيا وثوڤْنو قد اجتهدا في الخروج منها. فبالنسبة لكانيا، إن الإهداء لِگيوس فُلْسينْيوس أوپْتاتوس يشتمل على إشارة جزئية بالحركات الأهلية التي هزت الموريطانيتين في عهد سِبْتيم سيڤير Septime Sévère. وبالنسبة لِثوڤْنو فهي راجعة للحركات التي زعزعتهما في عهد مارك أوريل Marc Aurèle وكومود Commode. ولكن هذا وذاك، وهما يريدان على الخصوص سد الثغرات في رواياتنا، قد استخدماها بمهارة وببراعة في هذه الغاية : فلقد استخدماها وكأنها حجرة لسد ثقب في تاريخ المعارك التي يدرسانها، دون تفكير فيما تخبرنا به من ذاتها، عن مظهرها العام، وعن السمة النهائية لنصه. لكن إتقان حروفه المنقوشة يمنعنا من أن نعطي لقاعدة تمثال كيوس فلسينيوس أوبتاتوس، التي هي بالتأكيد، واحدة من أجمل ما يملكه متحف اصْطيفان اگْصيل – أن نعطيها – تاريخا أسفل من موسطة القرن الثاني. وزيادة على ذلك، سيكون غريبا تمام الغرابة، أن أهل تِنيس

Ténèsيكونون قد انتظروا عهد إمارة سبتيم سيڤير (193-211)، أو حتى نهاية عهد مارْك أوريل (176-180) لكي يقعوا في حب إقامة التماثيل، الذي ما أن انطلق، حتى أخذت المدن الرومانية بأفريقيا تعطينا الأمثلة من عندها.

كيف نسلم بأن كَرْتناي قد تأخرت إلى هذا الحد عن المدن الأشد بعداً والأقل حظا ؟ ففي أقصى التنجيتان في سلا، وابتداءاً من سنة 144 للميلاد، نال القائد المحلي للحامية، أي مَرْكوس سلُّبيكيوس فِيلكس تمثاليْن، أحدهما أُهْدي له باكتتاب مثل الذي أهدي إلى ك. فلسِينوس أوپتاتوس، والثاني قُرر له من قبَل هيئة الديكورْينات. وفي وليلي كان ذلك من قبل بمائة سنة، فالدومْڤير مَرْكوس ڤليرْيوس سيڤِروس ابن بوسْطار، قد نال على موقفه في الحرب ضد أيدْمون نفس التشريف. وسَلا لم تنل رتبة بلدية إلا في عهد تْراجان، وكانت وليلي أسعد حظا، فدخلت في نطاق المدينة الرومانية سنة 44، ومَرْكوس ڤَليرْيوس سيڤِروس الذي هو آخر شوفيظ بها، أصبح أول دومْڤير Duumvir لها. ولكنها أقدمية ضئيلة بالمقارنة مع كرتناي التي كانت من قبل بخمسة وسبعين عاما قد ارتقت إلى مستوطنة حول سنة 30 ق.م على يد أوكتاڤ Octave، للجنود المحررين من قدماء المحاربين بالفيلق الثاني بالتّريومْڤيرا triumvirat. فيلزمنا إذن لكي نتوافق مع الاحتمالات النفسانية للبلدية أن نربط النشاط السلمي لكايوس فُلْسينوس أويْتاتوس، والجزاء الذي جازته به كَرْتِناي، «أن نربطه» بواحدة من الثورات الثلاث الأولى التي عانت منها موريطانيا الرومانية : في عهد ضوميتْيان Domitien (بين 80 و96) أو في عهد هادْريان Hadrien (بين 117 و122)، أو في عهد أنطونان Antonin (بين 144 و152). وهذا التاريخ الأخير يتنحى بتجمع الجيوش التي حشدها منوّبو Legats أنْطونان في كَرْتِناي استعدادا لحملاتهم القمعية.

حيث إن النقوش أنبأتنا أنه قد مرت أو أقامت بها آنذاك فصائل من الفيلق الأول مينرْڤيا Minervia والفيلق الثاني أدْيوتْريكْس Adiutrix ومن الفيلق الثاني والعشرين پْريمجِنْيا Primigenia. وقد تحولت هذه المرة سلطات المستوطنة بفعل احتياط الحكومة الإمبراطورية إلى مجرد متفرج. فلم يبق إذن لإغوائهم وابتلاء قوتهم سوى الثورات التي واجهها ضوميتيان Domitien، أو لم يبق سوى الثورة التي قمعها بروكيراتورات Procurateurs هادريان بين سنة 117 و122. ولأول نظرة فإن الإمكانيتين تتعادلان. ولكن التجربة تدعونا إلى أن نربط بالاضطرابات التي خربت الموريطانيتين في عهد هادريان، أي الغزوة التي حاولها البَكْواتيون بكَرْتناي (تنيس Ténès)، وقد أخفقت بفضل الترتيبات الحصيفة والقوية للدومَقْير الخَمْسي كَيوس فلسينوس أوپْتاتوس. وبالفعل، فبين كَرْتناي وإيكْلِكيلي Iglgili (جيجلي) تجمع الصراع. والمنطقة كلها تحمل علامة النصر الذي حققه جنرالات هادْريان على اضطراب الموريين، ومع تلك العلامة أثر الإرغام الذي ألزم به الأهالي لإبقائهم في الواجب. وبالقرب من جيجْلي أقيمت قبل سنة 128 قلعةُ Castellum يحمل اسمها تذكاراً، أي قلعة النصر Castellum Victoriae. وأقيمت بشَرْشال قلعة أخرى باسم Victoriae Augusti. وأخيرا فإن مواطني تيبازا Tipasa الذين لاشك أنهم قد ساعدوه بولائهم الفعال، قد شاهدوا مدينتهم تصعد لرتبة مستوطنة رومانية.

ومن الطبيعي أن يكون المقيمون Colons بكَرْتناي قد أبدوا على الأقل عزماً لا يقل عما أبداه جيرانهم. وما كان الإمبراطور ليعبر لهم عن اعترافه بتخويلهم مزية «المواطنة» لأنهم كانوا مزودين بها من القديم. غير أن ممثله في ولايتهم قد شكرهم بصفة غير مباشرة على الأقل، وذلك

بالترخيص لهم في أن يخلدوا في الصخر خطوط ومديح موظفهم العالي. وهذا يفضي إلى أن بين 117 و122 كان البكواتيون قد ارتموا على كرتناي مع أمل اقتحام أبوابها، ولكن سرعان ما خاب أملهم.

ومن أين أتوا ؟ إننا نجهل ذلك، ولا فائدة في تقديم افتراضات لا يمكن الاحتجاج لها. ولكن يسهل التفكير في معرفة إلى أين قد ذهبوا بعد اندحارهم.

عقب هذه الفتن، اهتم هادْريان المنتصر بالاحتياط من عودتهم. ولهذه الغاية فإنه لم يكتف بتقوية المنشآت الدفاعية للإمبراطورية في البلاد. بل إنه زيادة على ذلك، أراد أن يحتجز داخل حدود تحصر بواسطة البروكيراتورات بدقة، مجال أعمال القبائل البالغة الخطورة. وهكذا ففي 128، فإن البروكيراتور بموريطانيا القيصرية مَرْكوس ڤتْيوس لاطْرو M. Vettius Latro، قد فصل نهائيا أرض المواطنين بِإِگْلِگيلي Igilgili عن أرض لعشيرة مجاورة هي عشيرة الزِّيميسيّين Zimices التي يجب أن تكتفي بها في المستقبل. وكذا فإن بروكيراتور موريطانيا القيصرية كَيوس بِطْرونْيوس كِلير قد وضع سنة 137 في وسط أرض القبائل، حول برج مجانة، أحجار الحدود التي يجب على إحدى القبائل المحلية النوميدية أن لا تتعداها منذ ذلك التاريخ. ولابد أن تعاليم مماثلة مستوحاة من نفس السياسة قد وجهت كذلك بروكيرات موريطانيا الطنجية. ولابد أن أحدهم قد كلف بإسكان البكْواتيين – الذين كانوا أكثر انقيادا لأنهم اندحروا قريبا في المناطق التي سنجدهم بها فيما بعد – خارج اللّيمَس الجنوبي للولاية ولعاصمتها وَليلي. وقد نالت حكومة هادْريان بهذه العملية فائدتين مهمتين. فَبتغريبها للبكواتيين فقد منعت

عنهم محاولتهم القديمة في حب النهب، وبحصرهم في إحدى الأراضي واستخدمتهم كقبيلة حاجزة لصد من هُم أكثر همجية منهم، أي هؤلاء الأُطْلوليين الذين يهيمون حول سَلا، ويوحون إلى پْلين الكبير Pline l'Ancien مخافة غاضبة. ولكنهم وقد أرجعوا إلى موگادور وأگادير، في الحقبة التي كان فيها بطليموس يثير إحداثياته، فإنهم مع النصف الثاني للقرن الثاني قد دخلوا في صمت نهائي.

وعلى كل فنقيشة وليلي منذ السنة الثالثة من تولي أنطونان التقي للحكم (138-161) تشهد في آن واحد بوجودهم في الجوار وبخضوع رئيسهم للسلطات الرومانية. وفي ذلك برهان، لم يلاق الاهتمام حتى اليوم، على أن الوجود والخضوع يصعدان إلى عهد هادريان (117-138).

ومع أنها قد نشرت بأكملها على يد السيد لْوي شاتْلان، فإني أرى من المفيد أن أعيد نشرها هنا، نظرا لما أولي لها من أهمية :

IMP. CAES. DIVI HADRIANI FIL DIVI TRAI

ANI PARTHICI NEP. DIVI NERVAE PRONEP. T AELIO

HADRIANO ANTONINO AVG PIO PONT MAX

TRIB POT III COS III P. AELIVS TVCCVDA

PRINCEPS GENTIS BAQVATIVM

Imp(eratorià Caes(ari), Divi Hadriani fil(io), Divi Trai/ani Parthici nep(oti), Divi Nervae pronep(oti), T(ito) Aelio / Hadriano Antonino Aug(usto) pio, pont(ifici) max(imo), / trib(unicia) pot(estate) iii, co(n)s(uli) iii, P(ublius) Aelius Tyccuda, / princeps gentis Baquatium.

فكما لاحظ ذلك السيد لْوي شاتْلان، فالنص قد نقش على حجرة مستعملة ثانياً : «لأن النقّاش قد قطع إلى نصفين كلمة هادْرياني)، لكي يستطيع في السطرين الأول والثالث أن يقفز على الثقبين اللذين خلفتهما مخاليب الاستخدام الأول. الأمر الذي يؤدي إلى أن المهدي كان حاذقا أكثر مما كان متحمسا. وعلى كل فتشريفه قد انحط إلى أقل ثمن.

وليس هذا كل شيء : بحيث إذا كان التاريخ الذي تسليمها فيه قد تحدد بتواقع السلطة التريبونية الثالثة مع العهد الثالث لقنصلية أنطونان بين فاتح يناير والعاشر من ديسمبر 140، فإن الإسم الشخصي الذي يحمله – أي پُوبْليوس Publius – هو ليس اسما للأمير المتولي للحكم الذي هو تيتوس آيلْيوس هَدْريانوس، وإنما هو اسم السابق عن هذا الأخير، أي بوبليوس آيليوس هدريانوس.

ومن هذا تأتي النتيجة الأكيدة، وهي أن البَكْواتي توكودا Tuccuda الذي شَرّف أنطونان التقي بإهدائه بثمن بخس، كان قد صار مواطنا رومانيا بفضل وبموجب قانون لِهَدريان. وهذه النتيجة المحتملة هي أن هذه الهبة، قد خولت له أثناء تنظيم قبيلته الذي فرضته سلامة الإمبراطورية في شمال أفريقيا.

وفي نفس الوقت الذي ألزَمَ فيه البكواتيون بالأرض التي خططها لهم، فإن هادريان بواسطة ممثليه في موريطانيا، قد أخضعهم لسلطة رئيس وحيد. كان له الخضوع مبدئيا مضمونا مرتين : بصفته مواطنا رومانيا، وبالالتزامات التي للمولى أمام سيده، وهي التي أوجبتها الهبة التي تفضل بها عليه الإمبراطور.

وهناك ثلاثة نقوش نذرية، عُثر عليها كلها بوليلي، وتنير إحداها الأخرى، وتشهد مع ذلك على أن خضوعهم أمر عارض.

وفوق ذلك فإنها قد نشرت قديما، ولذلك فلن نقرأ هنا سوى بدايتها:

GENIO . IMP

M. AVRELI . ANTONINI AVG

P. AELIVS CRISPINVS PROC

CONLOCVTVS CVM

……O PRINC GENTIVM

Genio imp(eratoris) / M'arci) Aureli Antonini Aug(usti) P (ublius) Aelius Crispinus proc(urator) / conlocutus... cum / ...o princ (ipe) gentium...

إن المأسوف عليه موريس بينْيِي Besnier كان قد أعاد حالة المفعولية لـ : Princ(ipium) gentium وترجم كما يلي : «إلى عبقرية الإمبراطور مارك أوريل أنْطونان أوغُست پوبْليوس آيليوس كْريسْبِنوس، البروكيراتور، بعدما تحادث مع مجمع رؤساء القبيلة...»، ولكن هذا التأويل لا يمكن أن يقاوم القوة المناقضة للمشابهات التي أوجدتها لنا الاكتشافات الأخيرة : ففي السطر الخامس كان به اسم أمير عشيرة البكواتيين – آيليو ؟ أوريليو ؟ – كما في النصوص المماثلة التي وصلتنا كاملة فيما بعد ذلك.

أولاً النص الذي وقع اكتشافه في 1919، والذي بهذه الصيغة :

I(ovi) O(ptimo), M(aximo), Genio et Bonae Fortun(ae) Imp (eratoris) Caes(aris) M(arci) Aur(elii) Probi / invicti Aug(usti) n (ostri), / Clementius Val(erius Marcellinus), / V(ir) p(erfectissimus), p(raesses) p(rovinciae) M(auretaniae) T(ingitanae), Conloquio /

habito cum Iul(io) Nuffusi filio Iul(ii) Matif / regis g(entis) Baqu (atium), foederata(e) paci(s) / aram statuit et dedicavit die viiii / kal (endas) novembr(es), d(omino) n(ostro) / Probo Aug(usto) / et Paulino co(n)s(ulibus).

«إلى جوبِتر الطيب جداً والكبير جداً، لعبقرية وللحظ السعيد للأمبراطور قيصر مَرْكوس أوريلْيوس پْروبوس الذي لا يُغلب، أوغُسْتُنا كْليمِنْتيوس قَلَرْيوس مَرْكِلينوس، الرجل البالغ في الكمال، حاكم ولاية موريطَانيا الطَنجية، بعدما أجرى مذاكرة مع يولْيوس نوفوسي ابن يولْيوس مَتيفْ ملك قبيلة البكْواتيين، قد وضع وأهدى هذا الهيكل للسلام المضمون بمعاهدة، في اليوم التاسع من كَلَنْدات نوڤمبر، في عهد قنصلية پْروبوس Probus أوغُسْت وپوليْنوس Paulinus (24 أكتوبر 277).

ثم يأتي النص الذي اكتشف في السنة الموالية في نفس الحي بِوَليلي. وهو الذي نشره السيد لْوي شاتْلان في النشرة الأركيولوجية :

I(ovi) O(ptimo) M(aximo) D(iis) Deabus-/q(ue) immortalibus et Genio imp(eratoris) Caes(aris)/ M(arci) Aureli(i) Probi Augusti, / ob diutina(m) pace(m) servata(m) cum / Iulio Nuffusi, et nunc conlo-/quio habito cum Iul(io) Mirzil/ fratre e(i)iusdem Nuffusis reg (is) / Baquatium, / Clement(ius) Val(erius) Marcellinus, / v(ir) p (erfectissimus), p(raeses) p(rovinciae) M(auretaniae) T(ingitanae), confirmata pac(e), ara/m posuit et dedicavit idibus april(ibus) / Messala et Grato Co(n) s(ulibus).

إلى جوبِتر الطيب جدا والعظيم جدا، إلى الآلهة والإلهات الخالدين، إلى عبقرية الإمبراطور قيصر مَرْكوس أورلْيوس پْروبوس أوغُست، بسبب

السلام الطويل الذي حافظ عليه مع يوليوس نوفوسي، والآن بعد المؤتمر الذي جرى مع يوليوس ميرْزيل Mirzil، أخي نوفوسي هذا ملك البكواتيين، فكليمنتيوس فليريوس، الرجل الكامل جدا، حاكم ولاية موريطانيا الطنجية بعدما أكد السلام، قد وضع وأهدى هذا الهيكل في إِدات aux Ides أبريل في عهد قنصلية ميصالا وگراتوس Messala et Gratus (13 أبريل 280).

لكن هذه الوثائق الثلاث البينة يبقى علينا أن نضيف لها اليوم وثيقة رابعة. فالسيد ثوڤْنو، قد ارتأى فعلا أن بين قطع النقوش المكتشفة في وليلي في سنة 1924، هناك اثنان عرّفهما الناشر السيد شاتْلان بالحرفين e وf، وهما يكونان في الحقيقة العنوان والنهاية لإهداء مماثل لما سبق :

I o m

CETERIS diis deabusq(ue)

ET VICToriae

aVGØ C

.....

pa CIS FIRMANDAE

sep TEMBRIBVS

والسيد ثوڤْنو الذي تابع بحوث أ. ڤونْ پْرميرْشْتاين A.Von Premerstein قد درس بتدقيق ثورات الموريين في عهد مارك أوريل، ولاحظ وجود اضطرابين بينهما فارق من بضعة شهور، فالثورة الأولى بين 172 و174، والثانية بين 174 و176 وكلْتاهما قد اتسعت حتى إلى إسبانيا. وبكثير من الحصافة أوضح كَيف أن نقوش بيتكا، حيث

المواطنون في إيطاليكا Italica بالقرب من إشبيلة، والمواطنون في سِنْجيلْيا بارْبا Singilia Barba بالقرب من أَنْتكْويرا Antequera قد شكروا فِي مرة التهدئة التي جاءت، والبروكيراتور بموريطانيا الطنجية كَيوس فلْيوس مَكْسيمْيانوس على أن طرد عنهم الموريين، وهما تؤرخان بالتقريب بالنذر ex-Voto (للحوريات ولِجنّي) «عين الشْقور» القريبة من وليلي، اعترافا لنفس هذا الفاليوس مَكْسَمْيانوس، الموصوف بأنه Proc(urator) Aug(ustorum) أي أنه بروكيراتور للإمبراطورَيْن مارْك أوريل Marc-Aurèle و كومود Commode الحاكمَيْن معاً منذ 17 جوان 176 :

NYMPHIS ET GENIO

l OCORVM

VALLIVS MAXIM

iANVS PROC

AVGGØ

Nymphis et Genio / [l]ocorum / Vallius Maxim-/[i]anus proc (urator) / Aug(ustorum).

ولكن أستطيع اتباع السيد ثوڤْنو. ولا أستطيع التسليم بأن إقامة الهيكل الرابع للسلام، بينه أية علاقة مع الحملات العقابية لفالْيوس مَكْسيمْيانوس. ففي مقدمة إهدائه اختلافات كثيرة مع الهيكل المهدى لعبقرية مارك أوريل وحده. وهو الوحيد الذي ذكر انتصارا، لم يستطع أو لم يقدر على تذكّره أي واحد من الثلاثة الآخرين. لكن وبالخصوص، إذا كان كَيوس ڤَلْيوس مَكْسيمْيانوس موصوفا في وليلي بأنه بروكيراتور للأوغُسْتيّيْن الاثنَيْن، فانتصار الأوغستيين هو الذي كان عليه أن

يذكره. لكن الانتصار المذكور هنا هو انتصار إمبراطور واحد أي VICTORIAE AVG – Augusti – وليس للحاكمين الإثنين VICTORIAE AVGG=Aug(ustorum). وهذا ما لم يكن إذن هذا الإهداء المبتور، (من عهد صحيح) يمكن استخدامه على نحو ما استخدامين، أي مع النقش الذي شرف عبقرية مارك أوريل فلابد من إرجاعه لعهد بعيد. وفيما يخصني فإني أسلّم بأن أرى فيها الانتصار الذي احتفى به في سنة 150 جنرالات أنطونان التقي. وبهذا فالحرف الذي يتلو ورقة الغار l'hedera distinguens والذي يكون وضعه بين أسماء الآلهة المُهدى لها وبين المهدي، والذي بالمقارنة يجب أن يكون اختصارا لاسم هذا الأخير، ليس هو حرف C الذي طبعه السيد ثوثنو في مقاله، بل إنه حرف q، الذي تفرض وجودَه نسخةُ السيد شاتلان. فمبادرة كَيوس قَلْيوس مَكْسميانوس C(aius) Vallius Maximianus تنحى هو نفسه بهذا، وعلى العكس يقترح تدخل البروكيراتور كنتوس بوركيوس فيتوستنوس q(intus) Porcius Vetustinus الذي في 149 بمناسبة خدمات جسر الماء بصَلداي (بجاية) كان يتكاتب كالند للند مع المنوّب Legat في نوميديا نوڤيوس كريسْبينوس Novius Crispinus، وبعنايته حسب نص دبلوم عسكري من أحواز ڤيينا Vienne النمسا) وقع يوم فاتح غشت سنة 150 تسريح الفصائل التي انتهى عملها العسكري من جيش الحملة الذي شارك، تحت قيادته في المعارك القمعية بموريطانيا القيصرية : *in expeditione Mauretaniae Caesariensis*. وهذا التعبير الأخير الذي حل محل ذكر اسم الولاية المعتاد يبدو أنه يشير على مثال سابقيه المباشرين المنوّبين Legats الذين تتحدث عنهم l'histoire Auguste، والذين عرفتنا نقيشة سَلا بواحد منهم، هو ك. بوركيوس فيتوستنوس الذي لا يحمل أي لقب في نقيشة بجاية، والموصوف بأنه بروكيراتور لا

غير في الدبلوم العسكري، وقد حافظ على القيادة على الموريطانيتين مجموعتين. ودائما فإنه على طرق عمالته العسكرية الواسعة، قد استطاع دون صعوبة أن يرأس يوم فاتح غشت سنة 150 في «قَيْصرية» (شرشال) تسريح قدماء المحاربين بمستوطنات موريطانية القيصرية. وفي يوم 13 سبتمبر 150استطاع أن يصدر في وليلي أوامره للقبائل المحيطة. فأقترح إذن على سبيل المثال Exampli gratia. وأنا أتذكر أن سنة 150، فيها يوم فاتح غشت قد تغير القنصلان المعتادان الإثنان بغيرهما وهما كاسْيوس أبوليناريس و م. بِطْرونْيوس مامرْتينوس، فأقترحُ إذن إحلال القطع الآتية التي أحسن مقارنتها السيد ثوقْنو.

I . o . m

C E T E R isq. deis

E T V I C T O riae

aV G O porcius Ve-

tustinus proc aug.

Conlocutus cum

……principe

g. Baquatium ar-

am PACIS FIRMANDAE

id. SEPTEMBRIBVS

Apollinare et

Mamertino cos

dedicavit

I(ovi) O(ptimo) M(aximo) / ceter[isq(ue) deis] et Victo[riae] / [A]ug(usti, Q(uintus) [Porcius Ve-/tustinus, proc(urator) / Augusti, / conlocutus cum / ...principe / g(entis) Baquatium, ar[am] pacis firmandae / id(ibus) septembribus / [Apollinare et Mamertino Co(n)s (ulibus) / dedicavit].

«إلى جوپِتر الطيب جداً والعظيم جدا، وللآلهة الآخرين وإلى انتصار أوغُست، كِنْتوس پورْكيوس ڤيتوسْتِنوس، بروكيراتور أوغُست، أجرى مذاكرة مع ... رئيس قبيلة البكواتيين، قد أهدى هذا الهيكل للسلام، الذي يجب أن يؤكد في إدات Ides سبتمبر بقنصلية أپوليناريس ومامِرْتينوس (13 سبتمبر 150م).

وأيا ما كان عن شرعية هذه التتمات، فالمعنى العام لاشك فيه. فيتعلق الأمر بنصب للسلام ara pacis آخر في المجموعة الوليلية. وإن كثرة هذه الهياكل هي علامة سيئة على هشاشة السلام الذي يراد لها أن تمثله. ويبدو أن روما من أنطونان التقي إلى پْروبوس لم تكن قد عرفت الهدوء مع البكواتيين. واتفاقها معهم المتزعزع دائما، كان يتطلب في كل حين مفاوضات جديدة، وحيث أنها كانت ترتاب في التوقيعات المتبادلة معهم، فإنها في الختام كانت لا شك تُؤخذ منهم الرهائن.

وواحد منهم هو الذي عثرنا في روما على شاهد قبره الحزين :

D M

MEMORIS

EILI

AVRELI

CANAPTHAE

PRINCIPIS GENTIVM

BAQVATIVM

QVI VIXIT

ANN XVI

D(is) m(anibus) / Memori(ae) / E(i)li(i) / Aureli(i) / Canarthae / principis gentium / Baquatium / qui vixit / ann(is) xvi.

الترجمة : «للآلهة أرواح الموتى، ولذكرى إيلْيوس أوريلْيوس كنارْثا Elius Aurelius Canartha رئيس البكْواتيين الذي عاش 16 سنة».

هذا الأمير البكْواتي المتوفي في الشباب، قد دفن في قبر فقراء. ولاتانية حاشيته مليئة بالأخطاء مثل Memoris عوض Memoriae، و(i)Eili عوض (i)Eli وأكثر من ذلك : (i)Aeli. غير أن علاقات التبعية التي تربط أسرته بأسر الأباطرة باقية دائما، بل إنها قد تقوّت لأن الاسم العائلي أيليوس Aelius الذي أخذته من هادْريان لما اندمجت في المدينة الرومانية، فكَنارْثا Canartha قد أضاف اسم أوريليوس الذي هو بالتتابع ملك لِمارْك أوريلْ، ولِكَرَكَلاّ، وإيلَـگَبال، ولألِكْسَنْدر سيڤيرْ.

ويبدو أن الأخطاء التي في ذكرياته لا تتعلق بجنسيته المورية بل إلى الانحطاط الذي ابتدأ لدى الرومانيين. فلقد تعلم اللاتانية التي يتكلمها، كما أنه اتخذ عقائدهم، وجعل بقاياه تحت دعوة آلهة موتاهم. فلو عاد لقبيلته لرّبما نشر فيها حضارة المدينة. ولكن الحظ لم يسعفه قطّ. ولما مات عن ستة عشر عاما، فإننا نجهل هل خلفه أحدٌ غيره من بين أهله في أسْره.

وعلى كل حال ففي النصف الثاني من القرن الثالث، كان البكواتيون قد توقفوا عن بعث الرهائن. فبقدر ما كانت الإمبراطورية تضعف، كانوا يتحررون. والنقيشتان الأخيرتان من وليلي اللتان تعنيانهم تبرهنان على أنهم في الأخير قد نجحوا. ولنرجع إلى تفاصيل تحريرهما. فرؤساء البكواتيين يحملون دائما أسماء رومانية، ولكن هذه الأسماء لا تحتمل أي علاقة مع الحالة المدنية للإمبراطور، بحيث عندما يُسمّى الإمبراطور باسم أوريلْيوس - أوريليوس پْروبوس - فإنهم جميعا ينتسبون إلى اليوليين Iulii، سواء كان يولْيوس نوفوسي Iulius Nuffusi، أو أبوه يولْيوس ماتيف، أو أخوه يولْيوس مِرْزيل. وتغيير الاسم العائلي معناه أنهم يطلبون شرف تكوين أسرة حاكمة جديدة. وبتكوينها فإنهم قد اعتنوا بإبعاد ذكرى الامتيازات الإمبراطورية التي أعطت الجنسية الرومانية لآيلْيوس توكودا Tuccuda، ولآيلْيوس أوريلْيوس كانَرْثا Canartha، كما أبعدوا آثار السيادة الشرعية التي كانت تجري على سابقيهما من لدن القياصرة الذين أعطوا أو أكدوا هذه التجنيسات. وهم يريدون دائما أن يضيفوا لاسمهم الأهلي «نوفوسي» Nuffusi أو «ماتيف» Matif أو «مِرزيل» Mirzil اسماً رومانياً هو يولْيوس Iulius، ولكنهم يختارونه. فهم إذن لا يفكرون في إبعاد اللغة اللاتانية التي تعلموها، ولا الحضارة التي يسرّهم أنهم قد تمكّنوا منها. ولكنهم يأنفون أن يكون ذلك التميّز اللغوي والحضاري مرهوناً بموافقة أحد الحكّام. إنهم يدّعون من الآن أنهم رومانيون بعمل من إرادتهم الخاصة، لا بإنعام من أحد الملوك. وللتعبير عن استقلالهم بصفة أحسن، فقد اتخذوا في تلك الأثناء الصفة الملكية. فَتوكودا وكَنارْثا لم يكونا سوى رئيسَيْن للقبيلة أي پْرينْكِبس Princips خاضعَيْن للإمبراطور. أما ماتيف ونوفوسي فإنهما ملكان Rex، وهو يعترف بهما، ويتفاوض معهما مفاوضة الندّ للندّ. وفي

عهد ماركْ أوريلْ كان رئيسُ البكواتيين يأتي بنفسه للموعد الذي حدده له ممثل أوغُست. وفي عهد پْروبوس فإن ملك البكْواتيين لا يرضى بأن يذهب إلى البْروكيراتور الإمبراطوري، ويُنيب عنه إما ابنَه يولْيوس نوفوسي، مثل الملك يولْيوس ماتيف، وإما أخاه يولْيوس مِرْزيل عندما تحوّل يولْيوس نوفوسي من أمير ملكي إلى مَلِك.

وروما كانت مضطرة لتتعامل أكثر فأكثر مع محكوميها القدماء، الذين يتحلون اليوم بصفة الحلفاء في المعاهدات التي كانت تدعوهم لإمضائها –Pax foederata–. وبهذا تفسر كثرة تكرار الاجتماعات التي يكون الحكام الإمبراطوريون فيها محتاجين لالتقاء بالرسُل البكْواتيين. ولكن الضرورة التي وجدت روما فيها نفسها ملزمة يوم 13 أبريل سنة 280 بإعادة السلام المنعقد مع البكواتيين يوم 24 أكتوبر سنة 277، كان علامة سيئة على زعزعة الأسس التي تعتمد عليها. وأكثر من ذلك ربما إن هذه الجزئية في الأسلوب التي عبر بها الحاكم كْليمنْتيوس ڤَليرْيوس مَرْكِلينوس Clementius Valerius Marcellinus في بروتكوله الثاني قد ألحّ بالتورية إلى حد التعبير بكلمة طويلة –diutina– عن سلام لم يطل عهده مدة سنتين ونصف. فواضح أن هذه لم تكن سوى هدْنات. وكانت السيطرة الرومانية على التنجيتان في الحقيقة موقوفة على الإرادة الحسنة للبكواتيين. ولم يعد البروكيراتور الإمبراطوري قادرا، في الاتصال بهم، على الحفاظ على عاصمته وليلي إلا بموافقتهم. ولقد فهم ديوكليتيان أن للخروج من حالة غير مستقرة ومهينة، لم يبق له أي اختيار سوى التضارب معهم أو إخلاء الأرض لهم. ولم يكن يرى التنازل للتفاوض معهم طلبا لحيادهم وكذلك لم يكن يرى أن يوزع قواته على أهداف ثانوية. فتخلى إذن عن أن يعيد البكواتيين إلى طاعة فقدوا عادتها. وهكذا ففي الإشارة الأولى للهياج الذي وصله من قبائلهم أمر

بإخلاء الأقسام من التنجيتان المعرّضة لضرباتهم ثم هرب من أمامهم، وتخلى لهم عن عاصمة ولايته وَليلي. ولكن البكواتيين الذين كانوا لا يستطيعون العيش تحت سيطرة روما، كانوا كذلك لا يستطيعون الحياة بدون حضارة روما. وهكذا ففي قلب المغرب، وبمشيئة غير منتظرة، فإن روما بدون الرومانيين، وإنما بالبَكْواتيين المتَرَوْمنين، ستُديم بالأطلس المتوسط وبجميع الأراضي المغربية الواقعة بجنوب اللُّكوس وجودَها إلى عهد قدوم العرب، وهو وجود طُرد من الأمكنة الأخرى. على أن هذا التناقض يبقى غير مفهوم لو أن البَكْواتيين المحررين من سيطرة روما الإمبراطورية المتفككة بصفة لا رجعة فيها، لم يكونوا قد ترسخوا في أعماقهم لطرائق روما في التفكير والحياة، باعتناقهم الجماعي الإيمانَ الجديد الذي استولى على سادتهم، والذي استولى في الوقت نفسه على إخوانهم في ولاية وهْران. فبفضل المسيحية التي اعتنقها هؤلاء الموريون المغمورون، بقيت روح روما حيّة في أفريقيا مدة ثلاثة قرون بعد التحطيم المادي لإمبراطوريتها في الغرب.

أقدم آثار المسيحيّة في المغرب

في أي وقت أمكن رصد التسرّبات الأولى للمسيحية بالمغرب ؟ إن هذا مشكل بالغ الصعوبة، ولكنه ليس متعذر الحل. ولنبدأ بتأمل المرويات الأدبية.

إن أقدم ذكرٍ بلغنا عن انتشار المسيحية في المغرب يوجد في المرويات عن «شهيدَي» تِنْجي (طنجة)، وهما الجندي «القدّيس مَرْسيل» (مَرْسيلوس) Saint Marcel، و«القدّيس كاسْيان» (كاسْيانوس) Saint Cassien، وهو أبرز من سابقه، خلافا لما يُتصور عادة.

إن دراسة نصوص آلام القديس مَرْسيل (la Passio de St. Marcel) معروفة. وهنا كما في الغير، فإن البولنديين Les Bollandistes قد قالوا كلمتهم الأخيرة. ويكفي أن نقارن بين الصيغتين : «م» و «ن»، اللتين استخرجهما القسّ دولَهايْ R. P. Delehaye من مقابلة المخطوطات، لنستخرج نصّاً يحافظ على أصل العقود العدلية التي يصعد إليها بوضوح في كل صيغة. وإليك الترجمة المؤقتة :

1)– في يوم إدات غُشْت، في عهد قنصلية فاوُسْتُس Faustus وگالوس Gallus (13 غشت 298) في ليجْيو Legio (ليون في إسبانيا)، مثل السيد مَرْسلوس، الجندي من المشاة الخفاف، أمام الحاكم فُرْتُناتوس Fortunatus، فسأله هذا الأخير : «هل حقيقةً إنك اعتبرتَ من الأحسن انتهاك الطاعة، ورميتَ على الأرض بحمالتك وسيفك وكَرْمة داليتك».

2)– أجاب مَرْسلوس : «نعم، يوم 12 من كَلَنْدات غُشْت (21 يوليوز)، عندما كنتم تحتفلون بعيد إمبراطوركم، بمحضر الأعلام والعموم جهاراً، أعلنتُ أني مسيحي، وأني لا أستطيع أن أقسم على الخدمة إلا في جيش يَسوع المسيح، ابن الربّ، أبينا القدير».

3)– فأجاب فُرْتُناتوس : «لا يمكنني السكوت على تهوّرك. ويجب عليّ الرجوع إلى أباطرتنا، وأن أسلِّمك لرئيسي ممثِّل القضاة أوريلْيوس أگْرِكولانوس Aurelius Agricolanus تحت قيادة كيكيلْيوس أرْڤا Cecilius Arva المباشر العسكري. (سكرتير القيادة العليا)».

4)– في عهد قُنْصلية فاوُسْتوس وگالوس، في 3 من إداتْ نوفمبر (30 من أكتوبر 298) في تنجي (طنجة)، قُدّم الجندي مَرْسلوس (أمام القاضي)، وقرأ الوثائقَ كاتبُ المحكمة : «يحضر هنا الجنديّ مَرْسيلوس الذي قدّمه لعدالتك الحاكمُ فُرْتناتوس. وهذه هي الرسالة التي كتبها في شأنه والتي سأقْرأها إن أمرتَ».

5)– وردّ أگْرِكولانوس : «لِتُقرأ الرسالة».

6)– فقال الكاتب : «إليك يا سيدي، أنا فُرْتناتوس... إلخ».

7)– انتهت القراءة، فطلب أگْرِكولانوس من المتهم : «هل نطقتَ بالكلام المسجل في عقود الحاكم ؟».

8)– أجاب مَرْسلوس : «نعم نطقتُ بذلك».

9)– وتابع أگْرِكولانوس : «كنتَ تعمل كجنديٍّ عادي ؟»

10)– أجاب مَرْسلوس : «نعم كنتُ أعمل (هكذا)».

11)– فسأله أكْـرِكولانوس : «أيّ جنون دفع بك إلى إنكار يمينك وإلى النطق بمثل هذه الأقوال ؟».

12)– فأجاب مَرْسلوس : «ليس هناك من جنون عند من يخشون الربّ».

13)– فتابع أكْـرِكولانوس : «أنتَ إذن نطقتَ حقيقة بالأقوال المسجلة في وثائق الحاكم ؟».

14)– فكرّر مَرْسلوس : «نعم قد نطقتُ بها».

15)– وتابع أكْـرِكولانوس : «هل رميتَ بأسلحتك ؟».

16)– فأجاب مَرْسلوس : «نعم، رميتُها، إذ لا يناسب أحد المسيحيين أن يعمل للدنيا، لأنه في جيش المسيح سيّده».

17)– وختم أكْـرِكولانوس بقوله : «إنّ موقف مَرْسلوس، لَيَدعونا إلى تبيان صرامة الطاعة، لذلك ففيما يخص مَرْسلوس الذي كان يعمل بصفته جنديا اعتياديا، والذي أنكر جهارا بألفاظ نابية يمينَه العسكرية، ونطق بألفاظ نابية، كما هو مذكور في عقود الحاكم، فقد تقرر أن يعاقَب بالسيف».

18)– وعند سيره للعقاب، اكتفى مَرْسلوس بقوله : «بارك الله فيك يا أكْـرِكولانوس».

19)– وهكذا كان اللائق أن مَرْسلوس الشهيد الماجد قد فارق الدنيا.

ومن نافلة القول الإلحاح على جمال هذه القصة التي هي في جفائها، كتقرير محاكمة، ترتعش فيها عاطفة قوية. وبدعاء المباركة

الأخيرة الذي دعا به المحكوم عليه للقاضي الذي بعث به للموت، فإنها تضع طابعا فيه رقة إنجيلية سامية.

وسأكتفي بأن أستخرج من «آلام مَرْسلوس» La passio Marcelli المعطيات التاريخية التي تضمنتها :

في يوم 21 يوليوز 298 فإن الجندي مَرْسيل الذي كان يخدم في إحدى الحاميات بِكَلايْسي Callaeci التي لم يحفظ التاريخ ذكرها، قد انتهز الاحتفال بأحد الأعياد الإمبراطورية – ربما في dies imperii لِـمَكْسِميان – ليقوم بعمل خارق. لقد رمي بأسلحته وتنكر ليمينه العسكرية. فقُدِّم في ليجْيو (ليون Leon) أمام فورْتُناتوس Fortunatus حاكمِ كَلايْسي Callaecie، ومَثل أمام هذا البرايْسِس Praeses يوم 13 غشت 298. ولم ير فورْتُناتوس أن يقضي بنفسه، فبعث بالمتّهَم إلى تِنْجي (طنجة) أمام رئيسه في الرتبة، ممثل الولاة في الأبْرشية المكوّنة، كما تخبرنا بذلك «لائحة ڤيرونة» Verone، من الولايات الإسبانية الستّ، وهي: بيتيكا Bétique، لوزيطانْيا Lusitanie، طَرَّكونيز Tarraconaise، القرطاجنية، كَلايْسي، وموريطانيا الطنجية. فيتضح من هذا لأول نظرة أن ربط التنجيتان إلى إسبانيا ليس فحسب أنه كان في 298 أمراً مقضياً، وهو أمر نعلمه من جهة أخرى، بل في هذه السنة فإن ممثل الولاة القضائيين Préfets du prétoire في أبْرشية إسبانيا كان يقيم في طنجة، وكان بالتدقيق ابتعاد طنجة عن ليجيو (ليون) في غاليسيا Gallice، هو الذي يبين طول المدة الفاصلة التي اتخذتها «آلام مَرْسيلوس» la passio Marcelli بين مثول القديس في ليجيو يوم 13 غشت أمام البرايْسِس، وبين الحكم النهائي عليه من قِبَل ممثل الولاة القضائيين Préfet du prétoire بتنجي (طنجة) يوم 30 أكتوبر 298.

والحدث لم يستأثر بالاهتمام كما يحق له. فإذا كان يبين – كما أعتقدُ ذلك – أن إقامة رئيس أبرشية الإسبانيات في طنجة، عوض أن تكون عَرَضية وعابرة، فإنها كانت تطبق فيها قاعدة للإدارة الإمبراطورية في تلك الحقبة. ففي تاريخ 23 أكتوبر، تحتفل الكنيسة بقدّيسَيْن إسبانيَيْن هما سيرْقَنْدوس وجيرْمانوس Servandus وGermanus. وكانا من قبل قد دُفن أحدهما في قادِس والآخر في إشبيلية، فكانا في هذا اليوم، ولربما في 305 ، قد ماتا بالقرب من قادس من أثر التعب وسوء المعاملة في نقلهما، بأمر القضاء من إيمريتا Emerita (ماردَة Merida) في لوزيطانْيا حيث أُلقيَ عليهما القبض لنَشْر المسيحية، إلى ولاية موريطانيا الطنجية التي وُجِّها إليها. وتحكي قصة «آلامِهما» Passio أن ممثل الولاة القضائيين نفسه، ويُدْعى ڤياطور Viator، هو الذي كان مكلّفاً بأخذهما مغلولين في أمتعته. ولكن يتضح للعيان أن محرري «الآلام» la Passio قد حسبوا خطأ أن ممثل الولاة هو الشخص الذي لم يكن سوى كاتبه، وأنهم في خطإ ثان ساذج قد خلطوا صفة وظيفته مع اسم شخصي ڤياطور Viator. ولهذا، فإن كان ممثل الولاة ماراّ بإمِريتا Emerita، عند ما أُلقي القبض على سيرْقَنْدوس وجيرْمانوس، أو لَم يشعر بالحاجة بأخذهما إلى التنجيتان ليحاكمهما حكما نهائيا، فإنه يكون على العكس قد تسارع في محاكمتهما بنفس الموقع الذي أثار فيه موقفهما الهياج وسبب المتابعة. ولقد جرت القضية بالطبع كما لو أن سيرقَنْدوس وجيرْمانوس، قد خضعا في 305 للإجراءات التي في سنة 298 قد أُخضع لها الجندي مَرْسيل. ويتضح من المقارنة بين حالتَي «الآلام» Passiones الإثنتين أن في 305 كما في 298، فإن العدالة التي تفرض سيادتها على الولايات الأسبانية الست كانت تتخذ دائما مقرها بقاصية الأبرشية التي تكوّنها، على الجانب الآخر من البحر المحيط، بعاصمة التنجيتان.

وسريعا ما تجرّ هذه النتيجة إلى أخرى. إذا كانت تنجي (طنجة) فعلا في عهد حكم الأربعة Tetrachie عاصمة أبرشية الإسبانيات، فلأن ممثل الولاة القضائيين كان يملك بها حتما، ليس منصب العدالة المدنية فحسب، بل السلطة العسكرية أيضا، التي كان وجودها مطلوبا، وكذلك العمل المحدد في تخوم عمالته، بحدود الباربار، عند الاتصال بالأراضي التي وقع التخلي عنها حديثا من قِبَل الإمبراطورية وفقا لتصميمات ديوكليتيان، أو لانفلاتها الدائم بسبب انحرافها عن المركز نفسه من السيطرة الرومانية. وهذا الموظف الكبير ذُكر في «آلام» Passio سيرْڤانْدوس وجيرْمانوس بتلميح : *agens vicariam praefecturam*، وفي «آلام» Passio مَرْسيل وكاسْيان ذُكر بتلميح آخر واستُعمل بكثرة حتى صار بها ذا دلالة تقنية : agence vicem Praefectorum praetorio. ولقد طال الحديث في الوظيفة المبينة هكذا، هل هي متوافقة أم لا مع وظيفة Vicarius، وسنجد في مقال المرحوم إتْيان ميشون Etienne Michon عن المدِّ لبونْت بونيد Modius de Ponte Punide (بإسبانيا) ليس فحسب أكملَ عرض وأعدلَ الحجج التي تعرضها وجهتا النظر حول هذه القضية، بل النتيجة الأشد احتمالا، أو الاحتمال الوحيد الذي تحتمله، والتي في الأخير قد ساندها السيد أَلْبِرْتيني على الأقل فيما يخص إسبانيا. والنقائش تصرفنا مطلقا عن تمييز Vice-Préfectures وVicariats لسبب واضح متعلق بالإحصاء. «فالشيء الذي لا يمكننا إنكاره، والذي يبدو لوحده أشد قوة من جميع الاستدلالات، هو أنه في مواجهة العدد الكبير نسبيا من النقائش التي ستذكر خلفاء للوالي القضائي Vice-préfet du prétoire، فإن ثمانية عشر كانت للحقبة المعاصرة لـقُسْطَنْطين Constantin، أو لما بعدها - بدون اعتبار لثلاثة مشكوك فيها - فلا يبقى مطلقا سوى ستة، دون أخرى متعلقة بـ «مدينة روما» (Urbs Roma) التي

تذكر القيكارْيوس Vicarius... وخلفاء الولاية مهما ظنّناهم كثيرين، فإنهم لم يكونوا سوى الاستثناء. ويكون غريبا إن لم نقل أكثر من ذلك، أن الكثير من النصوص المنقوشة قد حافظت لنا على ذكرهم بالتحقيق، في حين أن الوكلاء Vicairesعلى العكس، وهم على كل حال متعددون أيضا، لم يذكروا إلا على قلة».

ولكن بتسوية هذا الموضوع، يظهر مشكل آخر لم يقع التعرض له في أي مكان، وإن كان لا يمكن نكران أهميته. وحيث من المقبول في مختلف الحقب أن خلافة الولاية Vice-préfecture والوكالة Vicariat قد كانتا مترادفتين، فلابد أن نتساءل – والحالة أن ذاتية الصفات تبقى مستمرة – هل حدود الوظيفة التي يعبران عنها معا لم تتغير مع الزمان. وبعبارة أخرى يجب البحث في الأبرشية المكوّنة من عدة ولايات، هل ممثل الولاة القضائيين، قبل تضييق سلطته إلى العدالة المدنية، لم يزاول هذه السلطة أولاً مثلهم في كمال السلطة المدنية والعسكرية. وفي حالة الإيجاب الذي لاشك فيه بعد قراءة «آلام» la Passio مَرْسيل بطنجة، يحسن التنبه للحقبة الزمنية وللظروف التي جرى فيها التغيير.

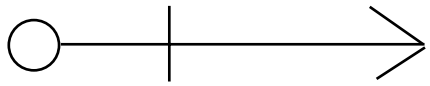

الرمز المسيحي على زلافة

بسوق الأربعاء



النقيشة المسيحية بوَليلي

منذ الدراسة القيّمة التي قام بها السيد روبوزانْسكي Lopuszanski عن الأسلاك العسكرية في عهد الإمبراطورية، فلا يمكن الشك أن في ولايات الفروسية والبروكيراتورية، لم يحافظ الحكّام على قيادتهم للجيوش إلى عهد إصلاح قسطنطين. وتلك بالتأكيد كانت حالة البْريسيس فورْتُناتوس في كَلايْسي Callaecie الذي حكم «ابتدائيا» على الجندي مَرْسيل. وكذلك حسب ما يحتمل أيضا، حالة البْريسيس المجهول الذي في لوزيطانيا، قد بعث بدوره بسيرْقَنْدوس وجيرْمانوس أمام خليفة الوالي المقيم في تنجي (طنجة). وينتج من هذا أن في سنة 305، التاريخ المحتمل «لاستشهاد» سيرْقَنْدوس وجيرْمانوس، كما في 298الذي هو التاريخ المؤكد «لاستشهاد» مَرْسيل، فإن الرئيس الذي يرجع إليه هؤلاء البْرسيدِس Praesides، خليفة الوالي بتنجي (طنجة) كان يملك إلى درجة عليا السلطة Imperium التي كان لا يملكها هذا ولا ذاك إلا بالتبعية. ثم جاء إصلاح قُسْطنطين الذي فصل نهائيا بين السلطتين. وسرعان ما نراه يغير المقر كما يغير الاختصاص. وفي آخر عهد قسطنطين انتقل الوكيل Vicarius إلى هسْباليس (أشبيلية). ومثل ذلك فإن كومسْ هسْبانْياي Comes Hispaniae الذي نظراً لبُعد خليفة الوالي كان آنذاك مكلفا بأمر منه بإجراء العدالة المدنية في إسبانيا نفسها، وأن يقيم في قرطبة، ويرتقي ويتغير إلى حاكم عسكري. فهو الـ Comes Hispaniarumأو Comes per Hispaniam الذي لم يُذكر إلا مرة واحدة بهذه الصفة في Notitia Dignitatum، والذي سيكون في آن واحد مسبوقا ومغلوبا بكومسْ موريطانيا الطنجية Mauritania Tingitanaeالمقيم طبعا في تِنْجي (طَنجة). وهكذا فـ «أعمال القديسين» Acta Sanctorum تؤكد على طريقتها الأهمية الستراتيجية التي اتخذتها منذ دْيوكْليتيان منطقةُ طنجة في الدفاع عن الإسبانيات. لكن «الشهداء» الذين تُقام لهم الذكرى، مع أنهم قد وُجهوا إلى تنجي (طنجة) مثل سيرْقَنْدوس وجيرْمانوس،

او عُذبوا في تنجي (طنجة) مثل مَرْسيل، لم تكن لهم علاقة بتاريخ المسيحية بالمغرب. فمن ناحية كان الجندي مَرْسيل كما كان سيرْقَنْدوس وجيرْمانوس من ناحية أخرى قديسيْن إسبانييْن، جاءت بهم تنظيمات التراتُب الروماني أمام المحكمة التي كان رئيس أبرشية إسبانيا قد أقامها مؤقتا على ساحل المغرب.

2)– وعلى النقيض، حسبما أرى، وبرغم تبعية «آلامه» – في الظاهر – «لأعمال» مَرْسيل، فإن «الشهيد» كاسْيان Cassien، الذي أصله من التنجيتان، إن لم يكن من مدينة تنجي (طنجة) نفسها، يجب أن يُعتبر قدّيساً موريطانيا بالأصالة. فولادة كاسْيان مذكورة في Martyrologe Hiéronymien بتاريخ 3 ديسمبر iii non(as) dec(embres)… (natalis) in Tingi Cassiani. وهذه الكلمة المختصرة تبرهن على أن عبادة القديس كاسْيان قد وقع تنظيمها قبل سنة 450. لأن هذا هو التاريخ الذي يُعطى على العموم، منذ التدقيقات الكبيرة التي ذكرها دوشين L. Duchesne للتحرير الأولي للـ Martyrologe Hieronymien. ولكنها تَدَعنا في جهل فيما يخص ظروف الاستشهاد.

والحقيقة الوحيدة التي لدينا في هذا الشأن، هي أنه قد جرى بالتأكيد قبل الغزو الوَنْدالي (429)، لأن پْرودانْس Prudence قد مجده الـ Peristephanon الذي حُرر قبل 405. فاستشهاد القديس كاسْيان بطنجة لا يمكن إذن النزول به إلى أسفل من آخرِ اضطهاد دموي عظيم في تاريخ الإمبراطورية، وهو الاضطهاد العام الذي أمرت به حكومة الأربعة Tétrarchie بين 303 و305. وفيما يخصّني، فإني مقتنع بأنه يصعد إلى أعلى ببضع سنين، إذا صدّقنا ما جاء في «آلام» كاسْيان، أو إلى جيل على الأقل، إذا أُخِذ برأيي في تأويل الفقرة التي مجّد فيها پْرودانْس هذا

الشهيد. إن «آلام» La Passio كاسْيان قد نشرها روينار Ruinart نقلا عن مخطوط من القرن الرابع عشر، وهو مذكور في «أعمال القديسين» Acta Sanctorum، وليس بتاريخ 3 ديسمبر، بل بتاريخ استشهاد مَرْسيل الذي جرى كما سبق أن رأينا يوم 30 أكتوبر 298. إلى حد أنه يُقدم في اتصال متين معه، أو أنه متعلق به مباشرة.

وتصديقا لمحرر هذه القصة، فإن كاسْيان كان يؤدي خدماته ككاتب – exceptor – لنائب الوالي القضائي، أوريلْيوس أگْريكولانوس Aurelius Agricolanus أي agens vices praefectorum (praetorio) لـمّا كان هذا الأخير في تنجي (طنجة) يوم 3 من كَلَنْدات Kalendes نوفمبر (في عهد قُنْصلية فاوُسْتوس Faustus وگالوس Gallus)، أي يوم30 أكتوبر 298، وكان عليه أن يحاكم الجنديَّ مَرْسيل. وبتسجيل الأسئلة وأجوبة الاستنطاق، فإن كاسْيان تأثر بموقف المتهَم ومنطقه، ثم إنه، بعد أن نطق القاضي بالحكم بالإعدام، رمى فجأة على الأرض بألواحه وقلمه. فذُهل كُتّاب – officium – نائب الوالي القضائي، بينما كان مَرْسيل يبتسم. وقف أگْريكولانوس مغضبا وأمر بالإيضاح، فأجاب كاسْيان : «إنك قد حكمتَ حكما جائراً»، ولكنهم لم يَدَعوا له مجالا ليقول أكثر من ذلك. فأُخذ في الحال للسجن، وبعد شهر مَثُل كاسْيان أمام أگْريكولانوس. وفي اليوم 3من إداتْ ديسمبر، أجاب تقريبا نائبَ الوالي القضائي بنفس الأجوبة وأعلن عن نفس الآراء، مِثل مَرْسيل سابقاً، وأحرز مثْله على مجد الاستشهاد : triumphum meruit obtinere martyrii. إن الاختصار العاري لهذه القصة والدقة الواضحة في تفاصيلها، كل ذلك أخذ يجذب النقد المعاصر لصالحها. فالقسّ دولَهاي R. P. Delehay في كتابه «حكايات هَجْيوغرافية» Légendes hagiographiques كان في سنة 1905 يميل إلى إعطائها مكانا مشرفا بين الوثائق الهجيوغرافية القيمة. ومن جانبه فإن

بول مونْصو Paul Monceaux في نفس السنة في الجزء الثالث من كتابه «التاريخ الأدبي لأفريقيا المسيحية» كان غير بعيد من أن يعترف فيه على أصالة التقرير الرسمي. ولكن عند تدقيق النظر فالخيبة تحل. ففي سنة 1923، جاء النقد القاسي الذي قام به البُلَنْديون Bollandistes وأوضحوا فيه أنه باستثناء بضعة أسطر ذَكرت حادثة الجلسة التي أفضت إلى إلقاء القبض السريع على كاسْيان، «فإن جميع العناصر والجمل الكاملة لهذه الرواية قد أُخذت من «آلام» La passio القديس مَرْسيل». والكاتب الهجيوغرافي لم يعن نفسه بتوضيح لماذا أگريكولانوس قد تَرك ثلاثة وثلاثين يوماً تمرّ بين السجن وبين إعدام كاتبه. وقد غفل حتى عن المحتملات. وعندما كان يعاني في النقل، فإنه ببساطة قد عزا لصيغة استنطاق الكاتب كاسْيان، صيغةَ استنطاق الجندي مَرْسيل، بمشابهة يمنع منها – والحالة هذه – الاختلاف في وضعية كل منهما. أما فقرة الألواح والقلم التي ليس لها مماثل في «آلام» القدّيس مَرْسيل، والتي يلوح عليها حال من التوافق مع وضعية المتهم كاسْيان، فمشكوك فيها هي أيضا بأنها إنما تأتّت من تصويب أدبي محض. والأب دولاهي R. P. Delehay لم يتعب في إزاحة العناصر التي دخلت في هذا الخليط. إن «آلام» سَمِيٍّ إيطالي يُدعى القدّيس كاسْيان ديمولا Cassien d'Imola، بقيت لاصقةً بذاكرة الكاتب الهجيوغرافي للقديس كاسْيان الطنجي، إلى حد أنه كاد أن يتناقض مع نفسه، فأعطى لبطله، فيما كتب، تاريخَ إداتْ Ides شهر غُشت، التي يحال عليها بالتدقيق مولد القديس الإيطالي، وفيها أيضا تُذكر الألواح والقلم. ولاشك أن الوضعية ليست متشابهة. فالكاتب كاسْيان الطنجي، يقال عنه إنه أثار عليه عواصف العدالة الإمبراطورية برَمْيه على الأرض أدوات عمله، أي القلم والألواح، أما معلّم المدرسة كاسْيان ديمولا فقد مات تحت ضربات تلامذته الوثنيين، منهوكا بألواحهم ومنخورا بأقلامهم.

ولكن لإحداث التغيير الذي يقتضيه تتابع حكايته، فإن الكاتب الهجيوغرافي عن القديس كاسْيان الطنجي ما كان عليه إلا أن يتابع في اطمئنان الأمثلة التي تعرضها «آلام» القدّيس جُنيس St. Genès، وإيلاسيپْ Elasippe، وميليسيپْ Melesippe، الذين نرى في أعمالهم الإنجاز بألواحهم وبأقلامهم العملَ الذي بالنسبة لشهيد طنجة، قد كلفه حريته وحياته. وبعد مقال محزن من ثلاثين سطرا تكون مالدينا عن عذاب كاسْيان، فإننا مرغمون على القول بما قاله الشارح المدقق بوجوب عدم ذكرها بجانب أعمال القديس مَرْسيل كنص مستقل. وبالطبع فهي مصنوعة بسرقات لا نستطيع أن نستخرج منها شيئا، لا عن المحاكمة التي حكم فيها على مَرْسيل، ولا حتى عن شخص كاسْيان ولا عن حياته وموته. فنحن فيها مرغمون، للتعرف عليها، بالرجوع إلى الفقرة التي خصصها لها پْرودانْس Prudence في الـ Peristephanon. وأول شيء، كما قال القسّ دولاهي R. P. Delehay الذي ذكرها ولم يترجمها، فإن هذه الفقرة ليست واضحة تمام الوضوح :

Ingeret Tingis sua Cassianum

Festa Massulum monumenra regum

Qui cinis gentes domitas coegit

Ad iuga Christi.

ومع الاحتفاظ بحق المراجعة، فإنني أقترح أن نفهم من النص : «تنْجس ستُعارض (المولد) كاسْيان بالأعياد التي تحتفل بذكرى ملوكها المَسيليين Massyles، هو الذي بالاستشهاد قد دفع بالقبائل الخاضعة تحت نير المسيح». ولكني لا أخفي أن هذا التأويل يتطلب شرحا. فقبل كل شيء ماذا يعني ذكر أعياد الملوك المسيليين ؟ فلقد بدت غير صالحة

لپَـبِـبْروس Papebroche الذي اقترح تغيير «فيسْطا» festa بكلمة «فيسّا» Fessa. وهو تغيير ينمحي فيه اللفظ ليخلي مكانة للإسم القديم لفاس Fès. كما أنه عرف في ملوك المسيليين، الشهداء المسيلتانيين Massylitains الذين تحدث عنهم القديس أوغسطين في إحدى خطبه المهداة لذكراهم. فطنجة إذن كان لها أن تطالب بمجد كاسْيان، لتواجه به المجد الذي أوجبه الشهداء المسيلتانيون لفاس. هذه الافتراضات هي بالتأكيد ذكية، ولكنها لا تقاوم الامتحان الفعلي، الذي لپَـبِـبْروس الحقّ ربما في جهله، والذي لا يمكننا اليوم أن نجهله. ففي الدرجة الأولى إن مدينة فاس لم تذكر بالتأكيد إلا بعد التأسيس الإدريسي لها في نهاية القرن الثامن، ولم يتأكد أن المدينة الإسلامية قد جاءت عقب مدينة رومانية باسم فيسّا Fessa. والعلامة الوحيدة التي لا يمكن الطعن فيها، والتي نملكها عن وجود منشأة سابقة بموقعها هي في «باب الكنيسة» الذي أطلقه «روض القرطاس» والبَكْري على أحد أبواب الحوزة الأولى لمدينة فاس. وفي المرحلة الثانية فإن الشهداء المسيلتانيين Massylitani لا علاقة لهم بالموسول Mussules الذين ذكرهم پْرودانْس، لسبب بسيط هو أن Martyrologe Hieronymien الذي يذكرهم بأسمائهم : أنْدرياس Andreas، آيلْيوس Aelius وكُبوسا Cobosa، يجعلهم في القاصية الأخرى لشمال أفريقيا. وحسب هذه المخطوطات فالأمر يتعلق بالمَكْسِليتاني Maxilitani أي بمسيحيّي مكْسولا التي هي رَادِس Radès اليوم، بخليج قرطاجة.

فواضح جدا، أن پَـبِـبْروس Papebroche قد أخطأ، ويجب علينا أن نبحث في وجهة أخرى. وفي البداية لا داعي لإدخال أي تحوير على نص پْرودانْس Prudence الذي ضمنه إجماع الروايات المخطوطة. وإنما يكفي توضيحه بما تعلمناه منذ نصف قرن من الاكتشافات المنجزة في شمال

أفريقيا. أما عن عبادة الملوك الأهالي، فقد أعطتنا بغزارة المعلومات التي جمعها علم اصْطِفان اكْصيل من كل جهة. فليس المنافحون عن النصرانية وحدهم، مثل ترْتولْيان Tertulien (Apolog, 24)، أو مينوكْيوس فيلكْس (Octav., 21, 9)، أَو سانْ سبْريان (Quod idola dei non sint, 2)، أو لَكْتانْس (Inst. Div., I, 15, 1)، الذين يؤكدون أن المورِيين كانوا يعبدون ملوكهم، ومنهم يوبا الثاني. إنه صوت المعالم الأثرية الذي يؤكد بوضوح أقوالهم. فمَسِّنيسا بعد موته بعشر سنين أقام له رعاياه في ثوگا Thugga معبدا نملك اليوم إهداءه المكتوب بالبونيقية وبالليبية. وهناك نقيشة اكتشفت بشرشال متأخرة بنحو نصف قرن على موت مِسِبْسا Micipsa، تذكر ربما المدفن الذي كان هذا الأمير الذي عرف على الخصوص بما كتبه سالوسْت – قد حاز به التشريف بدوره. ونقوش لاتانية تؤرخ بعهد الإمبراطورية الرومانية هي تمجيد ديني للملوك : گُلوسا Gulussa (C.I.L.,VIII, 18752)، هيمْبسال Hiempsal : (Gsell, Inscrip, lat. Alger 1242. C.I.L, VIII 8834) ويوبا الثاني (C.I.L, VIII 20677)، ولجدّهم المشترك مَسِّنيسا Masinissa : (tab(u)la deo Masi(nissae) C.I.L., VIII, 20731). وسواء حكموا نوميديا مثل گُلوسا وهيمْبسال، أو موريطانيا، كَيوبا الثاني، فإنهم جميعا كانوا ماسيليين حقيقةً. لأنهم كانوا بواسطة جدهم الأكبر المشترك مسِّنيسا، يرتبطون بأب هذا الأخير وهو گاياGaïa الذي عرّفه تيتْ ليڤْ Tite-Live، وأپْيان Appien باسم ملك المسيليّين.

إذن فيْرودانْس كان على صواب في جميع الأحوال، في معارضة العبادة الأرثودكسية للقديس الشهيد كاسْيان، بالعبادة الوثنية التي يقوم بها البربر لأمرائهم المسيليين. وأضيف أنه لاشك كان مدفوعا بالبقية نفسها للقبائل المسيلية والماسيسيلية في منطقة طنجة. وفي القرن

الثالث قبل الميلاد عندما كان يتواجه، أثناء الحرب البونيقية سيفَكْس Syphax حليف قرطاجة، ومسِّنيسا الوفي للرومانيين، كان يتميز بوضوح الماسيسيليون الذين كان على رأسهم سيفَكْس، بين مُلوشا (الملوية) ورأس تْريتون Cap Treton (رأس بوگْرون Cap Bougroun)، والمسيليون الذين كان على رأسهم مسنيسا بين رأس تْريتون وحدود الدولة القرطاجية. ولكن في مجرى القرن من عهد الإمبراطورية، فإن التمييز انمحى، والسلالتان أخذتا في ذوبان بعضهما في البعض أو في حالة تعاوض، والأمران فيها سِيان. فمثلاً سيلْيوس إيطاليكوس في ملحمة «البونيكا» Punica، لا يريد أن يعرف شيئا عن التمييز الذي استقاه سْتْرابون Strabon من بوسيدونْيوس Posidonius ، ويسمي باسم المَسيل في عدة مناسبات سيفَكْس ملك الماسيسيليين. وپْلين الكبير في وصفه للتنجيتان، يُلصق إحدى القبائل المورية التي انحطت إلى بعض الأسَر بسبب الحرب، بإحدى قبائل الماسيسيليين الذين حكم عليهم بنفس المصير. ويضيف أن قبائل جيتولية حلّت محلها. ولكن المظنون هو أن هؤلاء الجيتوليين، لم يكن لديهم ما يسارعون لحيازته لمصلحتهم، في هذه أو تلك من الصيغ التي اتخذوها، سِوى اسمِ من سبقوهم. فإيزيدور الإشْبيلي Isidore de Séville يذكر أن بالمغرب، بين الأطلس وحدائق الهِسْپْريد، توجد مدينة مَسيلْيا Massilia التي منها اشتق اسمهم المسيليون الذين يسكنون المنطقة.

وأنا نفسي كنتُ قد نقلت في سنة 1933 بمتحف تطوان شاهد قبر مفيد جدا، وكان قد جيء به من اللّنْجرة في صيف سنة 1930، وكان لاشك يرجع لآخر القرن الثاني أو الثالث. وقد كان محررا باسم أحد الموتى هو تكْنيديس Tacneidis، وكان وَرَثَتُه يذكرون عنه، بفخر على ما يظهر، أنه من إحدى قبائل الماسيسيل. وبهذا فكل شيء يتضح في فقرة

پْرودانْس. فهي تعارض عبادة شهيد طنجة كاسْيان بوثنية أهالي المنطقة، التي يدْعونها ماسول Massule والتي نجدها في مكان آخر مسمّاة باسم ماسيلي Massili، أو ماسيسيلي Masaisyli أو ماسيكولي Masaiculi. وفي نفس الحين تعلمنا أن تضحية كاسْيان كانت مثالاً يحتذى لاعتناق المسيحية عند قبائل مكثت على الوثنية حتى ذلك العهد، وبهذا الإيضاح فإشارة الشاعر تصبح ذات مغزى تاريخي مهم.

ولا يكفي أن نلاحظ – كما أشار لذلك عن صواب القسّ دولاهي R. P. Delehay في سنة 1923 – أن في التعذيب المزعوم للقديس كاسْيان «لاشيء يذكر بأبيات پْرودانْس»، إذ الحقيقة هي أن هذا التعذيب الذي لا قيمة له هو متعارض مع تلك الأبيات. وهي بوهم محض قد حولت التنجيتاني كاسْيان إلى موظف روماني بحكومة إسبانيا، دعته واجبات عمله لجانب نائب الوالي لأبرشية طنجة. والـ Peristephanon يمجد كاسْيان بكونه القديس الإفريقي الذي بجرأته وحدها قد غرس إيمانَه في قلوب جيرانه الأهالي. فباختراع مصنوع بكل أجزائه، فإن التعذيب قد أناط استشهاد الكاتب كاسْيان إلى استشهاد الجندي مَرْسيل من جيش إسبانيا. والـ Peristephanon قطع هذا الاتصال الزائف، وأعاد لكاسْيان حياة وعملا مستقلا. ولكن هناك ما هو أكثر: إذ بينما زيف محرر التعذيب Passio لا يفسر إلا بجهله، الذي يظهر بوضوح بالتأخير الذي تنمحي من زمنه صورة القديس كاسْيان، فالـ Peristephanon يعرض علينا أن نزيد في سنها وذلك بالمقابلة التي أجراها بين موته وبين اعتناق المسيحية للقبائل المجاورة لتنجي (طنجة).

إننا بالفعل لا نملك أيَّ داعٍ صحيح لنفترض أن تِنْجي التي كانت بها جالية يهودية مذكورة منذ الإمبراطورية العليا، والتي كانت واقعة

بالقرب المباشر لإسبانيا الآهلة منذ القرن الثالث بجمهرة كبيرة من المسيحيين، قد ازدهر فيها الخطاب الإنجيلي متأخراً جداً عن مدن أخرى أقل أهمية، والمرور على ساحل موريطانيا، كـ «قيصرية» (شرْشال) مثلا التي تركت كنيستُها المحلية آثارا معاصرة لبلدية القرن الثالث، أو في تيپازا Tipasa حيث من المؤكد أن المجموعة الرهبانية قد ابتدأت في نفس العهد. ويجب أن لا ننسى أن ترْتولْيان كان يَعُدّ الجيتوليين وعدداً كبيراً من المورِيين من بين المؤمنين بالمسيح. وبعد ذلك بقليل، يذكر القدّيس سيْپريان St. Cyprien قد ذكر وجودَ أساقفة في المجمع المنعقد في سنة 256 بقرطاجة، أتوا عديدين من موريطانيا، بدون أن نستطيع تحديد إشارته إلى موريطانيا القيصرية، لأن التنْجيتان، في عدة مناسبات في القرن الثالث للميلاد، قد اندمجت مع القيصرية في عدة مرات من القرن الثالث الميلادي ضمن ولاية واحدة تُسمّى موريطانيا. ومن هنا فإن فقرة پْرودانْس تحمل التأويل الذي أعطيته لها وتحضّنا على جعل استشهاد القديس كاسْيان الطنجي في مجرى القرن الثالث، إما في عهد اضطهاد ڤاليرْيان Valérien، وإما في عهد اضطهاد سيپْتيمْ سيڤير Séptime-Sévère الذي لم يتردد دُوروسي De Rossi فيما مضى في أن يرجع إليه تكوين «الأريا» area، مَدْفن «قيصرية» (شرشال).

الروميّون بوَليلي(*)

ربما سيُعترض عليّ بأن المعالم الأثرية هي متأخرة جدا عن هذا التوقيت. وسوف يُحتج بأن أي شاهد قبر مسيحي مكتشف في طنجة لا ينزل إلى أسفل من العهد القسطنطيني، وعلى النقيض فإن أيّاً مما اكتُشف في وليلي لا يصعد إلى أعلى من 599. ولكنني أخشى أن يكون هذا البرهان فاسدا، ليس فحسب بالوهم الشائع جدا بأن الأحداث هي حتميا معاصرة للشهادات الواقعية الأولى التي وصلت إلينا. بل أن تكون مغلوطة بمظاهر مخطئة. وبالفعل يجب أن نُدخل في الاعتبار قلة تقدمنا في بحوثنا المغربية. والتنقيب الأريكيولوجي بطنجة الذي سار أول الأمر بالصدفة، لم يبدأ فيه على وجه التحقيق. أما التنقيب في وَليلي الذي سار بمنهج وحزم، فلم يصل بعد إلى تنظيف المدافن، ولا نملك منه سوى شواهد القبور التي اكتشفت بالمصادفة، عندما تكون الأحجار الحاملة للشواهد قد استُعملت سابقاً بداخل المدينة في بناءات جديدة. إذن لا ينبغي أن نيأس أمام خصاص عرَضي جدا، بل، على النقيض، يجب أن نتذكر أن المسيحية منذ القرن الثالث قد تقدمت في أبعد مناطق موريطانيا القيصرية. بالخصوص في منطقة وهران التي كان تضامنها مع التنجيتان القارية –كما سبق أن رأينا– أمرا مستمرا في تاريخ شمال أفريقيا. ولم يظهر بوضوح -كما سنرى - إلا في الأعصر المظلمة،

*) ليس المقصود بالروميين هنا أهل بيزنطة الذين عرفهم العرب باسم الروم، وإنما المقصود فحسب هو الأجانب الأوربيون مطلقا الذين كان عموم الشعبيين بالمغرب يطلقونه على كل أوربي مسيحي. والكاتب استخدم هذ التعبير للدلالة على مطلق الأجانب الذين كانوا بالمغرب آنذاك، أي في العهد الذي يتحدث عنه. (المترجم).

التي يفصل ظلامها التاريخ القديم عن الأعصر الوسطى. والنقوش المسيحية المؤرخة بالتأكيد بسنة الولاية، هي عديدة قبل الاضطهاد الأكبر. وبدون شك فلن نستطيع الوصول إليها كما في سنة 238 في تيپازا Tipasa. ولكن الأمر قطعي بأننا نستطيع الحصول على اثنين من نومِروس سيرُروم Numerus Syrorum (لالّة مَغْنية) منذ 272، وعلى واحد من آدْريجْياس Ad Régias (أربال) من سنة 295، وعلى ثلاثة من ألْطاڤا Altava (لَمُريسْيير) قبل سنة 305. وإني على يقين، بالمقابلات التي ستقدمها لنا الحقب المتأخرة بين مقاطعة وهران والمغرب الداخلي، أن انتشار المسيحية لم يقف عند أقسام من الـ Nova praetentura التي أبدتها لنا، وأنها سايرت كذلك اللّيمَس بطوله، فلمست بعد بضع سنين جميع المناطق في نفس الحين.

ولكن هناك ما هو أكثر، فحول هذا الليمس لم يقف تقدمه أبدا بسبب سقوط الإمبراطورية الرومانية بل يمكن القول بالعكس. ففي منطقة طنجة التي استمرت بها السلطة الرومانية طويلا، والتي استمرت بها أبرشية تنجي حتى القرن الثامن، فالمسيحية، وهي غير مبالية بحياة الجماعة التي هي جزء منها، لم تلبث أن جمدت وجفت. وعلى النقيض ففي التنجيتان الداخلية وفي مقاطعة وهران المجاورة التي تركت لشأنها منذ سنة 285، فإن المسيحية الوفية بإصرار إلى لغة وإلى فكر وإلى ذكريات الإمبراطورية الفقيدة التي لم تتنكر إلا لسيطرتها، لم تفتأ تجلب المهتدين وأن تتابع مسيرتها المنتصرة. ولنقابل أولاً الأدوات المنقوشة من طنجة من ناحية أولى ثم من ناحية أخرى ما أتى من وَليلي ومن ناحية وهران. إن غنيمتنا من النقوش المسيحية من طنجة ضعيفة جدا، فهي تتكون في الكل من ثلاثة نصوص هي هذه :

1) - من نـشرة Boletin de la R.A. de la historia 1896 p.385, Cf
: C.I.L. VIII 21817 et Diehl 2572 C

Vixit an(nos) li | *Silius r(equiescit) i(n) t(umolo) h(oc) Ü* | *Nasonis Crispus.*

«في هذا القبر يستريح سيلْيوس كريسْبوس ابن ناصو، فقد عاش 51 عاما».

والطابع المسيحي للشاهد القبري، يشهد له وجود الشعار المسيحي : Ü.

2) - Boletin de la R.A.. de la historia 1896. P427, Cf. C.I.L. VIII, 21816, Diehl 1471 :

Crementia an- | *cilla Ü vix(it) an(nos)* | *xxxvii, men(ses) v, d-* | *ies xi, requevit* | *in pace. Potentianis meritus.*

«هنا كْرِمِنْتيا خادمة المسيح التي عاشت 37 سنة و5 أشهر، وأحد عشر يوما، قد ارتاحت في سلام. زوجها پوتانْتِيانوس أقام لها هذا المعْلَم».

3)- Archives marocaines, XVIII, 1912, P 379, Cf Diehl 1470 : *Aurelia Sabia ancilla* | *Cresti vixsit p(lus) min(us) Ü* | *annis xxiii, me (nsibus) v, di(ebus) xiii ,* | *(h)oris viii , fe(cit) in pace requit(ionem)* | *Amantio et Albino con-*| *solibus.*

«هنا أوريلْيا سَبينا خادمة المسيح، عاشت أكثر أو أقل من 23 عاما و5 أشهر، وثلاثة عشر يوما وتسع ساعات، وجدت الراحة في سلام في عهد قُنْصلية أمانْتيوس وألْبينوس = (345 للميلاد)».

النصوص ثلاثتها تتشابه في تماثل العرض. والتحرير بها يمكن تحديده بأنه تحرير (البحر الأبيض المتوسط، وروماني)، بمعنى أن الصيغ التي تميزها توجد على جميع دائرة البحر الأبيض المتوسط الغربي وحتى بروما نفسها. وهكذا فالعرض في النص رقم 1 :

r(equiescit) in t(umulo) h(oc) ، يعود في انتظام in hoc tumulo requiescit، على شواهد للقبور المسيحية في المدينة الفرنسية «أَرْل» Arles، وفي «ڤْيينا» Vienne، و«لْيون» Lyon، و«كاپو» Capoue، وفي «ڤيل» Ville. وصيغة requieto in pace (النص رقم 3) توجد كذلك في روما. وختاما فتشبيه الدفينة مع خادمة المسيح ancillae chresti, – ancilla Ü – استثنائي بداخل أفريقيا، لكنه معتاد في إسبانيا. إن مسيحيي طنجة استخدموا إذن اللغة المعتادة للكنيسة، ولكنهم لم يستعملوها لأمد طويل، لأن الشهادات الثلاث التي خلفوها لنا قد نُقشت في القرن الرابع، وعلى الأصح في الأرباع الثلاثة الأولى من القرن، لا في الأخير. وفيما يتعلق بالنقشين 1 و2، فالتوقيت يُستنتج من الشعار المسيحي الذي رسمه هؤلاء المسيحيون. فهو مجرد تشبيك لاسم قُسْطنطين، وستعوضه ابتداء من نهاية القرن الرابع أشكال أكثر تشعّبا واقترابا في Ω-A. أما النقش 3 فقد أرّخوه في سنة 345 باسمَيْ أمانْتيوس وألْبينوس قنصلَيْ تلك السنة. ومن الطبيعي أن يكونوا قد نسوا عهد موريطانيا، إذ من 285 كانوا منفصلين بالكلية عن ولايتهم القديمة. ولكن المدهش هو أنهم يعتمدون دائما على الدعامة الإمبراطورية ولم يستفيدوا منها لا قوة ولا ثقة في نفوسهم. وفي الإطارات الجديدة لأبرشية الإسبانيات التي أدخلتهم فيها إرادة دْيوكْليتيان، فلم يستطيعوا منذ ذلك الحين سوى أن يحيوا خاملين. وعلى كل حال بعد سنة 345 لم يكتبوا أي شيء، ولم نعد نسمع أي حديث عنهم.

ما أكبر الاختلاف عن الرعايا القدماء للإمبراطورية في بقية موريطانيا ! لقد تحرروا من عبودية القياصرة، ولكنهم كانوا متملئين بالحضارة التي عرّفهم القياصرة بها، فيظهر أنهم زادوا تعلقا بها، وأنهم أرادوا، في حريتهم وبجهودهم الخاصة، الزيادة فيما تلقّوه عن روما، مجتهدين في الحفاظ عليه. فمن الناحية المادية، نشعر وكأن هذه المناطق التي غادرها الجنود والموظفون الإمبراطوريون على عجل، لم تكن آهلة أكثر مما هي عليه بعد هذا الانسحاب. ولنستعرض «الأطلس الأرْكيولوجي» الفريد في نوعه الذي صنعه اكْصيل. فالصفحات التي تغطي غرب منطقة وهران : تلمسان، نمور Nemours، وسَبْدو Sebdou ولالّة مغْنية، تتلألأ فيها نقط حمراء، تتطابق إما مع خرائب يعتبرها البعض رومانية، والبعض بربرية، أو هي خرائب بربرية لا يستطاع تحديد عهدها، ولكنها تتزاحم في عدد كبير، وليس لنا حق الرجوع بها إلى تهديم كلي، إلى غزوة جامحة عربية، هاجمت أراضي شمال أفريقيا بين القرن السابع والقرن الحادي عشر.

لكن لنعتبر على الخصوص التغييرات المعنوية التي تحملتها هذه المناطق آنذاك. فبعد انسحاب روما أصبحت وطنا مختارا للمسيحية، وملجأ نراهم فيه يعظمون ويكثرون، كما لم يكونوا من قبل، وأكثر ممن عداهم بجوارهم.

والإحصائية المدمجة في «الإشارات» Indices الثمينة لديوان النقائش المسيحية بقلم ديهل Diehl، هي في هذا المجال ذات إيضاح كاف. في المنطقة الترابية التي تغطي موريطانيا القيصرية القديمة، بين الوادي الكبير وبين مَلوية، فإن ديهل قد أحصى 64 نقشا مسيحيا، مؤرخا بتدقيق بسنة الولاية ومتدرجا بين سنة 450 و651 للميلاد. لكنه

في المجموع لم يُحْص سوى 14 في شرق مصبّ نهر شْلِيف، أي بالمنطقة التي بقيت إمبراطورية حتى الهجوم الوندالي (429)، وعادت إمبراطورية مع الاحتلال البيزنطي (535). والباقي كله جاء من منطقة وهران، أي واحدة من نومِروس سورُروم (لالّة مغْنية) وأربعة من آدْريجْياس Ad Regias (عينَ تموشَنْت) وعشرة من أَلْطاڤا (لَمُريسْيير)، واثنان وعشرون من پومارية Pomaria (تلمسان)، الذي تحتوي مدافنها على الأحدث عهداً منها. وبغرب ملْوية، فبَدايات حصائدنا تجعلنا ننتظر أنها ستماثل وتزيد ربما ذات يوم، على هذه المجموعة. والنقائش الأربع المسيحية التي أعطاها لنا حتى الآن التراب الوَليلي، هي أيضا أحدث عهدا مما في مقاطعة وهْران، تبتدئ في سنة 599 وتنتهي في 655 للميلاد.

ومع أني قد نشرتُها فيما سبق، وأعدتُ نشرها، فإني أرى وجوب عرضها هنا، بعد إعادة النظر في اثنتين من بينها عن النُّسخ التي أملكها، أما عن الأخريات فمن الصوَر المصاحبة لنشرية السيد ثوڤْنو.

1) - ثوڤْنو Thouvenot في مجلّة «هيسْبريس» Héspéris 1935 ، ص 132، وارْجع إلى ج. كَرْكوبينو، في «مجلة الفلسفة»، 1936، ص 105.

فوق النص توجد دائرتان. في الدائرة اليسرى خُطّ الرمز القسطنطيني Ü، وفي الدائرة اليمنى صليبٌ إغريقي بسيط، اتخذ شكل شي Chi الإغريقي : X ، وتحته نقرأ :

[M(emoria) lu]li Mater(ni). Cui fili et mater fe-lcer(unt) domum (a)eternale(m), l vics(it) pl(us) minus l ..., (dis)cessit in pace l ... an (no) p(rovinciae) dix...

«ذكْرى لْيولْيوس ماترْنوس، الذي أنجز له أبناؤه وأمّه هذا المسكن للخلود. لقد عاش أكثر أو أقل... وابتعد في سلام... سنة الولاية 560». سنة الولاية 560 تساوي 599 للميلاد.

2)- ثوڤْنو، في «هسْبريس» 1935 ص 136. وارْجع إلى ج. كرْكوپينو، «مجلة الفلسفة»، كذلك. وفوق النص دائرة وبداخلها الرمز المسيحي Ü. وتحته نقرأ :

Memoria Iulius Principi(?), cui fi-| *li(i) fecerunt domum (a) eternale(m),* | *vixit annis plus m(inus) Ixiii, dis-*| *ces(sit) in pace die vi q(alendas) a(u)custas (sic) anno pro-*| *(vi)n(ciae) dlxg.*

في السطر الأول يولْيوس خطأٌ عن يولْيِي Iulii، وPrincipi خطأ لاشك عن Princeps الذي قد يكون صفة للشخص. ويمكن أيضا قراءة Principi(us)، ولن يكون سوى لقب، ولكن هذا التأويل ضعيف جدا. وفي السطر الخامس، فالإشارة النهائية تظهر هنا بـ g الذي معناه ستّة 6 في الكتابات اللاتانية VI=6. وأُترجم إذن كما يلي :

«ذكرى ليولْيوس الرئيس (؟) الذي صنع له أبناؤه هذا المنزل للخلود. قد عاش أكثر أو أقل من 63 سنة، وابتعد في سلام، اليوم السادس قبل كَلَنْدات غُشت، في سنة الولاية 566».

واليوم السادس من كَلَنْدات Kalendes غُشت يتوافق مع 27 يوليوز. وسنة 566 للولاية تعادل 605 للميلاد.

3) - ج. كَرْكوپينو، «هيسْپِريس» 1928 ص 135، أعاد النظرَ فيه ونقّحه ثوڤْنو في «هيسْپِريس» 1933، ص 131، وأُعيد نشره بعناية ج. كرْكوپينو بـ «مجلة الفيلولوجيا» 1936، ص 105.

فوق النص ثلاث دوائر، في اليمنى منها كُتب الرمز المسيحي بشكل طغراء قسطنطينية، يمر بوسطها خط معترض : Ü. وفي كل واحدة من دائرتَيِ اليسار صليب إغريقي بشكل شي X : chi. وتحته نقرأ ما يلي :

M(e)moria Iuli(i) Vicepr(a)epositi, | *cui parentes et nepo-* | *tes fecerunt domum (a)eternale(m), visit annis lxviii,* | *d(i)scessit* | *kal (endas) no-vembres anno pro(vinciae) dexvi.*

وإليك الترجمة : «ذكرى ليولْيوس، نائب المتعهد، الذي صنع له أحبابه وأحفاده هذا المنزل الأبدي. عاش 68 عاما، وابتعد في فاتح نوفمبر من سنة الولاية 616». وسنة 616 من سنة الولاية تعادل 655 من الميلاد.

4)- ل. شاتْلان L. Chatelain في «هيسْپِريس» 1923 ص 500، أعيد فيه النظر والنشر بعناية ج. كركوپينو، بـ «مجلة الفيلولوجيا» 1936 ص 109.

لا يوجد أي رمز فوق النص. ونقرأ :

D(is) m(anibus) s(acrum) [ou D(eo)m(agno) s(acrum)]\
Memorta Iulia Rogativa de Altava ko(o)ptativa, | *cui fili(i) et nep (otes) decer(unt),* | *vix(it) ann(is) pl(us) m(inus) ixx,* | *disc(essit) in p (ace) an(no) p(rovinciae) dexg.*

الترجمة : «لآلهة المنزل (التمجيد) المقدّس – أو للإله الكبير (المجد) المقدّس. ذكرى ليولْيا روگاتيڤا اختيرت لألْطاڤا بولَيلي.أقام لها أبناؤها وحفدتها هذا المعْلم، عاشت أكثر أو أقل من سبعين سنة

وابتعدت في سلام في سنة الولاية 616». وسنة الولاية 616 تعادل سنة 655 بالتاريخ الميلادي.

وهكذا ففي سنة 655 للميلاد، بثمان سنين بعد اغتيال الْبَتْريس البيزنطي في سفَتولا Suffetula أي (سْبيطْلَة)، وبعد الاستيلاء الأول الإسلامي على أفريقيا (تونس)، بتسع سنين فحسب على وصول فرسان سيدي عُقبة عابراً المغرب حتى سواحل المحيط، فإن البَكْواتيين بوَليلي، في ولائهم الراسخ للمسيحية، التي اعتنقها أجدادهم قبل ذلك بأربعة قرون، لم يضيعوا أيّاً من العادات التي كان رعايا توكودا Tuccuda قبل ذلك بمائة عام قد اقتبسوها من الإمبراطورية. فلا اللغة اللاتانية التي تعوّدوا على النطق والكتابة بها، ولا الحالة المدنية الرومانية التي حافظوا فيها على الاسم العائلي دائما – يولْيوس – وأحيانا على الاسم العائلي واللقب الشخصي – ماتيرْنوس وروگاتيڤا – وحتى هذا الشبح أي الولاية الرومانية التي شاهدوها تسقط إرباً إرباً منذ سنة 284، فهم يحترمون ذكرها ويحافظون على تقويمها الزمني. فأي حجة حاسمة يمكن أن نطالب بها على قوة انتشار المسيحية عند هؤلاء البربر ؟ وأية علامة أشد وضوحا من القوة التي بها تبدو أشكال الحضارة العليا قادرة على البقاء في الحياة برغم العوائق التي سبق أن فرضتها ؟ أية إمارة أوضح من هذه الحقيقة غير المنتظرة، ولكنها صارت مؤكدة أن في المناطق الغربية من أفريقيا الشمالية، التي كأنها انعزلت عن بقية عالم البحر الأبيض المتوسط، وانفصلت عن العالم الروماني، فالمسيحية التي في قلوب الأهالي العائدين لاستقلالهم الأولي، هي التي أنقذت وقوّت الفكرة الرومانية ؟ ونفهم الآن أن على هؤلاء المورِيّين الثابتين بدينهم على اللاتانية، أطلق العرب الفاتحون على الجميع سويّةً وبدون تمييز اسم الرومي.

إذا كان بربر وَليلي رومانييّن حقيقة، فإنهم لم يكونوا رومانيّين بالمعنى السياسي للفظ لأنهم كانوا قد نفضوا عنهم النير الإمبراطوري. وفي التنجيتان الداخلية كانوا قد أخرجوا سادتهم القدماء وحلّوا مكانهم. ولم يكونوا رومانيين بالمعنى السُّلالي، ولا باختلاط الدماء، لأن الإخلاء كان شاملا للعناصر الرومانية التي أصدر لها الأمرَ دْيوكْليتيان في وليلي. ولكنهم قد صاروا رومانيين بأرواحهم، وذلك بتأثير إيمانهم، حتى لكأن روما لما تخلت عن حكمها عليهم، قد أنهت عملية السيطرة عليهم.

ولهذا، فيؤذن لنا أن نرى في الظِّلال بعضا من عناصر هذا الاستمرار الذي لا يصدّق.

إن البكْواتيين-الروم بوَليلي، يمكنهم بكامل الثقة الاعتماد على (إخوانهم) الساكنين بالقسم الآخر من اللّيمس القديم بالتنجيتان، أي بالمناطق القديمة لمقاطعة وهران الحالية. فقد كان يوجد بينهم وبين المسيحيين الذين بنومِروس سيرُروم Numerus Syrorum (لالّة مغْنية)، وأَلْبولاي Albulae (عين تِموشَنْت)، وپوماريا Pomaria (تِلمْسان) وألطاڤا (لَمُريسْيير) وحدة في العَقيدة تدل في العلاقات وتشارُك في العادات، التي تعبر حسب عادتهم الجمل الفقيرة المشحونة بالأخطاء والمضروبة في قالب واحد الموجودة في شواهد القبور بوليلي. وصيغهم المتوحدة هي ككتابتهم الموجزة وخطوطهم الخاصة، والتي هي على الأقل ضالة، وتجمعهم إلى غير انفصام بمنطقة وهران التي هي وحدها في جميع أفريقيا الشمالية تنتهجها معهم. ففي وَليلي، كما في أَلْبولاي، ونومِروس سيرُروم، وعلى الخصوص في ألطاڤا، فإن فكرة الموت يُعبّر عنها بفعل معناه يدل على خلود الميّت. الذي يقال عنه إنه ابتعد عن الأحياء : discessit. وفي وَليلي، كما في بوماريا وفي ألطاڤا فإن اسم الميت يتبعُه

ذكر القبر الذي أقامه له أقرباؤه Cui… fecerunt، ويسمونه منزل خلوده : domum (a)eternale(m). وفي وَليلي كما في پومارية وفي ألطاڤا فرقم 6 مُعبّر عنه بالْباو العِبري *bau* hébraïque بصيغة G وتنتهي زائدته بشيء كالفاصلة.

وفي وليلي كما في ألطاڤا فإن الرمز القسطنطيني يستمر في القرنين السادس والسابع في مجاورة الصليب العادي الذي لم يصبح معتادا في موريطانيا إلا في العهد البيزنطي.

وتَطابُق صِيغ وَليلي مع صِيغ هاتين المدينتين (اللتين حافظتا بجدية على صيغهما) لا يمكن تفسيره إلا باقتباسات متكررة، ويفترض وجود اتصالات مستمرة بين مسيحيّي ألطاڤا وپومارية من ناحية، وبين مسيحيّي وَليلي من ناحية أخرى. والوضوح في النقطة مضيء، بحيث أمام شاهد قبر مسيحي من وليلي سنة 1928، وكان أول ما استُخرج من التراب، فإن أستاذي العزيز السيد پول مونْصو P. Monceaux قد شك في الأصل وسألني : ألا تكون حَجَرة القبر المغربية قد نُقلت من مقاطعة وهران إلى الموقع الذي اكتُشفت فيه الآن ؟ إن الاكتشافات الموالية ستكذّب افتراض هذا النقل المادي، إذ ليس الحجارة هي التي انتقلت من ألطاڤا وپومارية إلى وَليلي والعكس، ولكن الصيغ هي التي انتقلت مع المسيحيين الذين اتخذوها ولم يغيروا شيئا.

مما لاشك فيه، أن من القرن الرابع إلى السابع، حدث في أشلال الإمبراطورية، حركة سير كثيفة للرجال والأشياء والأفكار بين المغرب المستقل ومقاطعة وهران المستقلة، وعن هذه الهجرات والمبادلات بين الجهتين تعطينا النقيشة الرابعة بوَليلي البرهان القاطع.

ولنُعد قراءتها، فالصفة العجيبة Ko(o)ptativa التي ضمت إلى اسم المتوفاة يولْيا روگاتيڤا المولودة في ألطاڤا، لا تهدف إلا لبيان الحالة الشخصية المضمونة بالتبني الجماعي الذي حظيت به في وليلي. فبين وطنها الأصلي ألطاڤا ووطنها الذي تبناها وَليلي كان يهيمن سلام حقيقي، أو على الأصح اتحاد واقعي : وإذا شئنا : سلام اتحادي : فيه الجغرافيا التي تفرض أن الحلل المجاورة لألطاڤا، كأَلْبولاي والمدن الوسيطة بين وليلي وألطاڤا، مثل نومِروس سيرُروم، وپوماريا، قد كانت كلها مشتركة.

ولكن، سيكون من الخطإ أن نتصور أنّ هذه الفيدرالية، التي لا نمسك بآثارها سوى عند موسطة القرن السابع، تأسست منذ بداية الاستقلال. فقد تقدم عليها بالتأكيد الممالك المختلفة والمتماثلة التي توزعت فيما بينها الأراضي التي عليها أن تجمعها. فمملكة البكْواتيين كانت قد تأسست في ظل الإمبراطورية، وعند أحواز ليمَس وَليلي، كما يتضح من معاهدات 277 و280. فملوكهم الذين تحرروا في سنة 285 من العرقلات الإمبراطورية، قد أضافوا لتاجهم الزهور التي ما كان عليهم إلا أن ينحنوا لاقتطافها في وَليلي وفي غيرها بالمنطقة المتخلَّى عنها بأمر دْيوكْليتيان. ولكن إذا فرضنا، فرضاً غير صحيح، أنهم لم ينجرفوا في أمواج هجوم جِنْسِريك Genséric في سنة 429، فلابد أنهم بعد ذلك قد حسبوا حساب الممالك المماثلة، التي أعلمتنا معالمها ونقوشها بوجودها بجانبهم. وكانت في القرنين الخامس والسادس مملكة موريّي تْيارْت Tiaret، التي يحسن بنا تصورها على مثال مقابر أمرائها (الجدار djedar) التي هي بربرية في حلتّها، وفي الوقت نفسه إغريقية-لاتانية بالنقيشة الوحيدة التي جاءتنا منها، وبدون أن نستطيع تصويبها.

وختاما هي مسيحية بالرمز المسيحي الذي يزينها. وكذلك في القرنين الخامس والسادس كانت هناك مملكة ألطاقا التي يحكمها مَصّونا Masuna والتي حلت دون شك محل الجمهورية المستقلة، التي كانت دون شك سلطاتها مركزة في يد «معتمدها» dispunctor الذي نلاحظ نشاطه بين سنة 344 و348 للميلاد، وقد أخبرنا پْروكوب Procope بالمساعدة التي «قدّمها مصّونا للبيزنطيين ضد الوندالبين» في سنة 535. ومن بعد، فإن إهداءاً من ألطاقا، مُنح تحية له في سنة 508، قد أطْلعنا على هندامه المتشعب وعلى النظام الذي أقامه. وكان هذا الملك الأهلي المسيحي يجمع تحت صولجانه القبائل المورية التي هو منها ودرية الرومانيين الذين اشتركوا معهم. فكان كذلك يوزع إحسانه بين رعاياه، بين البربري ميسْگِقين Mesgivin واللاّتاني مَكْسيموس Maximus، مثلاً. وكان بكل بساطةَ قد استولى على أدوات الحكومة الإمبراطورية بما فيها الحصون التي لم يغير أسماءها، والتي لا تزال إحداها تسمى دائما باسم Castra Severiana، وحتى الأطر الإدارية التي منها وُلاتُه وقُضاته. فَلكأن انهيار الإمبراطورية قد سار على منهاج واحد. ومما له مغزى أن كْلوڤيس Clovis كان في گالْيا La Gaule، في نفس العهد، البِطريقَ الإمبراطوري وملكَ الفرنْكيين، وكان يحكم حسب المبادئ المماثلة لمصّونا القبائل الجرمانية والگالّيين-الرومانيين بمملكته. إلا أننا نعلم خصوم كْلوڤيس، والوسائل التي استعملها لتنحيتهم. ولكننا نجهل كل شيء عن العلاقات التي ربطت أو عارضت هؤلاء بأولئك من الأسر المورية الحاكمة في تْيارت، وألطاقا ووَليلي، بحيث إننا لا نعرف لا متى، ولا كيف انتهت. ومن المحتمل أن أسرة مصّونا Masuna بألطاقا قد انتهت بالصراع الذي ارتمت فيه. ومن المحتمل – كما افترض ذلك اكْصيل – أن أسرة تْيارت لم تعش بعد انتصار البيزنطيين. والمتأكد هو أن أسرة المغرب قد

انطفأت عندما انفتحت بوَليلي سلسلة النقوش المسيحية التي عاد البْرِنْسبس Principes للظهور بها. والتاريخ يتطور كما لو أن هذه الممالك المتولدة عن الانهيار الإمبراطوري قد انهارت هي أيضا، وبدورها ليتكون الاتحاد Conféderation الملتحم بالمسيحية المشتركة بينهم، والذي يحطم حدودهم، ويجمع في شبه وحدة مناطقهم ورعاياهم.

وعلى أية حال، ففي نهاية القرن السادس وفي السابع يبدو جيدا أنه حول وليلي – القاعدة الأشد بعدا والأقل تعرضا نتيجة لذلك – كانت تدور جماهير السكان الذين أصبحوا حلفاء بالمغرب ومقاطعة وهران. وإذا حلّ مجلس للرؤساء محلّ ملك وَليلي، كما يتضح من الشاهد القبري الثاني، فهذا المجلس بين يديه، وتحت إمرته قائدٌ أولي Pr(a)epositus، وقائد ثانٍ vice pr(a)epositus، اللذان ذَكَرهما باسميْهما الشاهدُ القبري الثالث. وختاماً وعلى الخصوص يظهر أن هذا المجلس قد أخذ أعنّة الاتحاد، وليس فحسب لأنه كان قادرا على أن يخوّل الجنسية الوليلية لأشخاص أصلهم من ألطاقا، بل لأن في القرنين السادس والسابع، سواء في ألطاقا أو في نومِروس سيرُروم، وفي أَلْبولاي، وفي پوماريا يسيطر كما في وَليلي اسمُ يولْيوس هذا الذي لا يجدُ تفسيره إلا في وَليلي، وخصوصاً في اللقب الذي حمله منذ القرن الثالث ملوك البكْواتيينن يولْيوس ماتيف، ويولْيوس نُفوسي، ويولْيوس مِرْزيل، وبواسطتهم انتقل إلى رعاياهم، ومن بعد إلى حلفاء رعاياهم. وهكذا فالبكْواتيين، الذين خلفوا الرومانيين، قد استقوا منهم طرائق دمج الغرباء، فلقد جذبوا إليهم موريّي وهْران بالطريقة التي رَوْمَنَتْهُم في ما مضى، ولقد نجحوا نجاحا كليا في عملية الابتلاع، إلى حد أنه عندما ناب الإخباريون العرب في الرواية القديمة الضعيفة غاية الضعف، فإننا

نجدهم يوقِفون ثم يَرْغمون المهاجمين المسلمين على الصلح. وموت يولْيوس vice Pr(a)epositus (الشاهد القبري 3) والتبنّي الرسمي ليولْيا روگاتيڤا (الشاهد القبري 4) قد احتفل بهما في سنة 556. وفي السنة الموالية انفجرت في الإسلام الإفريقي ثورة الخوارج، وهي انشقاق ديموقراطي يدعو للتسوية، وقد قوبل بالدوناتية عند المسيحيين. لكن ابن خلدون يعرفنا بأن الخوارج قد نالوا العون التام من قِبل البرغواطيين الذين كانوا مسيطرين على الأرض بين فاس وتلمسان، وأنهم بذلك أحرزوا على انتصارهم الكبير حول نهر سْبو سنة 741.

ويضيف ابن خلدون لروايته نقطتين مهمتين جدا، أولاهما أنه عقب انتصار سْبو فإن ما بقي من قبيلة أوْرَبَة قد هاجر إلى المغرب الأقصى، وليس فحسب إلى منابع تلمسان (پومارْية) التي بقربها اعتُقل من قبلُ رئيسُهم المسيحي كُسَيْلة في سنة 687، بل حتى إلى وَليلي. وثانية نقط ابن خلدون هي أن هذه الهجرة قد ضمنت سيطرة الهراطِقَة الخوارج من المغرب إلى تْيارْت.

فهل تبعا لذلك يجب التأريخ بحوالي سنة 741 كبداية لتغيير الدين (لاعتناق الإسلام) عند البَكْواتيين ؟ إنهم إذا كانوا قد خضعوا لذلك، فإن خضوعهم لم يكن دون فائدة لهم، لأنهم استفادوا أن يحفظوا السيادة التي – وهم مسيحيون – كانوا حسب رأيي قد زاولوها في القرن الماضي على روميّي هذه المناطق.

وأيّا ما كان الأمر، فقد أصبحت مسلَّماً بها، ولكي يقاوموا تدخل الخليفة، فإنهم ربطوا قضيتهم بقضية إدريس الذي أنكر الخلفاءُ انتسابه للنبي وحكموا عليه بإبعاد لا هوادة فيه. فالتجأ إلى وَليلي، يصحبه رشيد

وحده، وهناك فإن «رئيس المدينة قد جمع إخوته وأورَبَة، ونادوا بإدريس سلطانا»(*).

وبَحثُنا حيث يقف، يتصل بالوعي العبقري لكتاب گوتْيِيه E.F.Gautier عن «العصور المظلمة لأرض المغارب» Les siècles obscurs du Maghreb. إنه لن يكون عديم الفائدة إذا – بحسب ما يسمح به الاحتياج في الوثائق القديمة – كان يوضحها ويبررها. وربما سيجري الأسف على كون هذا المجهود الطويل للموريّين المسيحيين بالتنجيتان القديمة الداخلية، قد أُجهظ في الإسلام. ولكن يجب تذكر الظروف التي من نهاية القرن الثالث إلى الثامن اضطربت فيه حياتهم. فقد أرغموا على الانطواء على أنفسهم، مجهولين في آن واحد من لدن المجامع الإفريقية ومن بابا روما، ومتأثرين بدون شك بالدوناتية التي في سنة 435عرفت يقظة مهتاجة في مقاطعة وهران. ولربما أن الأرْيانية الونْدالية قد مسّتهم، وأوصلت إليهم، ليس فحسب بالمرور العارض لجِنْسِريك Génséric في سنة 429، بل بالفيض الدائم لأصحاب جيلِمير Gélimer في سنة 535. فلم يكونوا يستطيعون في أعماق عزلتهم إلا أن يقعوا في الهرطقات. ولكي نكون عادلين معهم، يحسن أن لا ننتقد هذه النهاية التي لا مفر منها، بل يحسن الإعجاب بصراعهم العنيف الذي به أخروها إلى أقصى حدود قوتهم، إلى ما وراء حدود المملكة. فلمدة أربعة قرون ونصف، من سنة 285 إلى سنة 741 كان لهم الطاقة المعنوية بالمحافظة بداخل أنفسهم على المسيحية حية، التي كانت الإمبراطورية

*) هذا التأويل غير صحيح تاريخيا، فإدريس كان طالبا للخلافة أي معارضا سياسيا لبني العباس، ولم ينكر أحد انتسابه للنبي، ولم ينفه أحد، بل هو اختار النفي على الإقامة المهددة بالموت. ولم يقل قائل إن أوربة حين مبايعتها (إماماً لا سلطاناً)، قد كانوا من الخوارج. (المترجم)

وهي تنهار، قد استودعتهم إياها، وبفضل المسيحية حافظوا على مقومات الحضارة الرومانية. وعندما والوا الأدارسة بضغط من الظروف، فقد كانوا هم المرشدين على طريق فاس، وحملوا في المجتمع المقبل للكافرين الذين سيكونونه معهم، قسما من الإرث العتيق. حتى إن خاتمة تحليل التاريخ لهؤلاء المنكرين بدون أن يشعروا، الذين سهروا طويلا على الشعلة ودفعوا في الأخير بعضا من مشاعلها لتشهد لصالحهم وتشهد في نفس الحين في هذه الصفات المتواضعة بسموّ الفكر الذي لا يُغلب.

نقطة إضافية

يوم 19 فبراير1943 أبلغ زميلي وصديقي السيد جاك زيلير Jacques Zeiller، «أكاديمية النقوش» بدايةَ إهداء وقع العثور عليه في سنة 1942 بالجوار المباشر للخرائب التي طالما دُعيتْ باسم «قصر گورْديان» Palais de Gordien، وهي التي لم ينته بعد السيد ثوڤْنو من قرائتها.

إنها مكسّرة من كل جهة، وتقدم في سطورها الخمسة الأولى ما يكفي من الكلمات هي معروفة منذ الآن، الأمر الذي يجعل المعْلَم الأثري الذي نُقشت عليه معروفا بدقة، والمعطيات التاريخية التي يحتملها يمكن استخدامها بسهولة. فلقد قرأ السيدان ثوڤْنو وزيلير :

SALVTI

ERI ALEXANDR SAVG

O LEGATOCOLLOQVIVM

GENTIS BAVARVM ET BAQVATVM

TARAMI

إن كلمة Colloquium التي تظهر في السطر 3 والمضاف Baquatum – ما لم يكن المضاف Baquatium مع ربط هين في t وi – الذي ينهي السطر الرابع، ثم المفعول Aram الذي يقرأ في السطر 5، لا يترك لنا أي شك في طبيعة الوثيقة. إنها تتعلق بكامل الوضوح بهيكل خامس مكرّس للسلام من قِبَل حاكم موريطانيا الطنجية عقب اتصال مع الرئيس الأهلي الذي كان يحكم آنذاك البكْواتيين.

فاثْنان من هذه الهياكل كانا قد أقيما في عهد پْروبوس Probus (276-280)، والثالث مؤرخ بعهد مارْك أوريلْ، والرابع يصعد على ما يحتمل إلى 150 لعهد أنْطونان التقيّ (138-161) ، والهيكل الجديد يحتل مكانته في النصف الأول من القرن الثالث أثناء إمرة سيڤير أَلكْسَندر (222-235) الذي حروفه المحفوظة في السطر 2 كافية لتعريفنا بالاسم دون أي خطإ. أما الحاكم الذي سيكون من العبث البحث للتعرف عليه مثل افتراض اسم رئيس البكواتيين الذي دخل معه في المحادثات، فإنه كان Procurator prolegato، أي فارساً، رفعه الإمبراطور بوهم شرعي، كثيراً ما تكرر، إلى مستوى منوّب من الطائفة السِّناتورية ليمكنه تقوية جيشه للاحتلال بوحدات الفيالق التي هي في العادة خارجة عن سلطة البروكيراتورات الذين من طائفة الفرسان.

ولهذا فيمكننا منذ الآن بالاسم التقريبي لهذا الحاكم ولمخاطبه أن نقترح من مجموعة إهدائه، صورة استرجاع هي حسب رأيي وبصفة عامة تقدّم عن طريق المماثلة مع النصوص التي شرحناها من قبل، فتكون تقريبا كما يلي :

i. o. m. proSALVTE

imp. Caes. M. aureli. sevERI ALEXANDRi pii feliciS AVG

.....proc. prO LEGATO COLLOQUIVM cum...

.....principe GENTIS BAVARVM ET BAQUATVM

vovit(?)e TARAMI aci d.d.d.

ويكون بسط الموضوع على وجه الاحتمال كما يلي :

[I(orvi) o(ptimo) m(aximo), pro] salute ׀ *[Imp(eratoris) Caes (aris) (Marci) Aurel(i) Sev]eri Alexandr[i Pii Felici]s Aug(usti)* ׀ *.... [proc(urator) pr]o legato colloquium [cum...* ׀ *...[princ(ipe)] gentis Bavarum et Baquat(i)um* ׀ *[vovit (?) e]t aram p[aci d(edit) d(e) d (icavit)].*

وهكذا استرجعت هذه القطعة الصغيرة وهي ذات نتائج قيّمة.

1)- كما أشرت لذلك في مقالي التكميلي الذي تلا مذكّرتي عن «وليلي دار إقامة ليوبا الثاني وللحكام الرومانيين»، فكون بقايا هذا الهيكل قد عُثر عليها في أحواز النياية التي طالما عُرفت بكونها «قصر گورْديان» هي علامة إضافية على أنها بعد أن استُخدمت مسكنا للملك، كانت حقيقة، كما حاولتُ بيان ذلك، منزل الحكام الإمبراطوريين.

2)- إن السلام الذي أراد تكريسه بروكيراتور سيڤير أَلِكْسَندر لصالح سيّده، لم يكن بكل أسف سوى سلام مسلح، لأنه كان مَحتاجا للنجدات التي يفرضها تمثيله بمنوّب إمبراطوري (أنظر سابقا ص 238-239). ولربما أنه هو كايوس فابْيوس مَكْسيموس C(aius) Fabius Maximus المذكور في النقيشة 41 من الديوان الجديد للنقوش اللاتانية عن المغرب. وكذلك حكومة گورْديان الثالث (238-244) التي هي أيضا استُخدمت في التنْجيتان قوة الـ Procuratores a legato (ارجع إلى كانْيا

Cagnat، وميـرْلان Merlin، وشـاتْـلان Chatelain بـرقـم 614)، فـحـكـومـة سيقير أَلِكْسَندر، بينما قابلتها في شمال أفريقيا حقبة هدوء وازدهار، فإنها لقيت بالمغرب مصاعب نظام ضعيف، فاضطرت لتعاقب، أو على الأقل لتحتاط ولتحذر هياج القبائل.

3)- بفضل الهيكل الجديد للسلام بوَليلي، وبفضل المماثلات التي يحملها مع الهياكل التي لدينا، فإننا نعرف أحسن معرفة تطور الأهالي في التنجيتان أثناء القرنين الثاني والثالث للميلاد.

فعلى الهيكلين اللذين أقيما في عهد بْروبوس (276-282) لم تُذكر سوى قبيلة واحدة، مرتبطة بروما بمعاهدة، فقبيلة g(ens) البكواتيين وحدهم، التي كانت آنذاك تحت حكم ملك Rex. وعلى الهيكل الذي في عهد سيقير أَلِكْسَندر (222-235) قد أهدي بخمسة وأربعين عاما قبل ذلك، فالبكْواتيون مشتركون مع الباقاريين Bavares في قبيلة واحدة خاضعة لأوامر قائد واحد، نفتقد صفته، ولكنه لم يكن بعدُ سوى Princeps. هذا اللقب هو الذي كان يحمله الموري المجهول الذي كانت سيطرته تجمعهم آنفا في عهد مارك أوريل (161-180)، عندما كانت المجموعتان تحتفظ كل واحدة منهما بهيأتها الخاصة ضمن اجتماعهما، لأننا الآن نستطيع أن نقارن النص الذي اكتشف حديثا بالنص الذي سبق أن ترجمه بينْيِي Besnier. ويظهر أن هذا الأخير يجب أن يتمم كما يلي (انظر أعلاه ص 268) :

Genio imp(eratoris) | *M(arci) Aureli Antonini Aug(usti)* / *P (ublius) Aelius Crispinus proc(urator) conlocutus cum* | *… o princ (ipe) gentium* | *[Bavarum et Baquatium]…*

وبالأحرى يجب التسليم بأن الهيكل المقام في عهد أنْطونان التقيّ (138-161) يعرض تحريراً مماثلاً (ارجع أعلاه ص 272)، كأن يكون مثلا :

...Q(uintus) [Porcius Vel\/tustinus proc(urator) Aug(usti), colocutus cum\ … princ(ipe) \ gentium Bavarum \ et Baquatium, ar-/am pa]cis firmandae\ ……..[dedicavit]…

وبتقريب هذه الصيغ المختلفة، يتضح بكل تأكيد أن تمتيناً أولياً في الاتحاد بين البقاريّين والبَكْواتيين قد جرى بين موت مارْك أوريل، الذي في حياته بين 161 و180 كانوا منقسمين إلى مجموعتَيْن متميزتين، ومن ذلك كان التعبير بالجمع gentium، وبين صعود سيڤير أَلِكْسَندر للحكم (سنة 222) الذي في عهده تجمعوا في مجموعة واحدة، ومن ذلك التعبير بالمفرد - gentis - وينتج أيضا أن هذا التمتين سيفضي إلى اندماجهم تحت الاسم الجنسي والعام الذي هو البكْواتيون، في المدة المتراوحة بين موت سيڤير أَلِكْسَندر (235) وصعود پْروبوس للحكم (276) لأن عهد پْروبوس فيه انمحى اسم البقاريين من القائمة.

وزيادة على ذلك، وحسبما يلوح، ففي نفس المدة الزمنية فإن الـ Princeps لهؤلاء الأهالي ارتقى إلى منصب Rex. بمعنى أنني لم أُخطئ عندما (انظر أعلاه ص 294 رقم 1) جازفتُ، تبعا لأسماء العائلات الملكية، أن أضع هذا الارتقاء في عهد إمرة فيليپْ العربي Philippe l'Arabe (244-249) أي في منتصف الطريق بين حكم سيڤير أَلِكْسَندر وحُكم پْروبوس.

4)- وهذا التضامن بين الباقاريين والبكْواتيين يصعب تصوره بدون علاقات الجوار والمماسة تقريبا التي فضلاً عن ذلك نشاهد وجودها.

ومما لا شك فيه فمن البسائط العليا بمقاطعة وهْران كان البكواتيون قد ارتموا على كَرْتِنايْ Cartenae (تِنيس) في عهد هادْريان (انظر أعلاه ص 264-265). وفي نفس المنطقة كان يوجد الباقاريون المسگّنيون Bavares Mesegnenses الذين دحرهم وغزاهم أحد پْروكيرات دْيوكْليتيان بأحواز مَنْلِيانا Manliana (أي Affreville)، وذلك أثناء معركة وصلتنا أصداؤها عن طريق إحدى النقائش (راجع پالو دوليصير)، (C.I.L, VIII, 21486, Cf. Pallu de Lessert, Fastes, II, P. 343)، وهنا دائما كانت توجد – إلى انقراضهم الأخير بالقرب من وهران – درّيتُهم الحقيقية بنو مَزْكِن Beni Mezquen الذين تحدث عنهم ابن خلدون (انظر كَرْكوپينو في «النشرة الأركيولوجية للجنة الأعمال التاريخية» Bulletin Archéologique du Comité des Travaux Historiques 1920, P. CV. وعندما وقع نقل البكواتيين في جموعهم إلى الأطلس المتوسط وإلى البسائط العليا التي تمتد به إلى الشمال الشرقي، فقد جعلوهم على الجانب الغربي لنهر مَلْوِية، ولم يفصلوا بينهم في المدى المكاني في أي وقت.

5)- ولم يفتأوا يتقاربون في الزمان حتى ابتلع البكْواتيون الباقاريّين ابتلاعًا كلياً. إن هذه الحميمية التي كانت بين القبيلتين أدت بهما في القرن الثالث الميلادي إلى الاندماج والذوبان في مملكة واحدة، أو بتعبير آخر، في مَلَكية واحدة، وعاشت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وانتهت في الأخير إلى كونها موجودة في فيديرالية أخوية، هي التي في القرن السابع للميلاد وحّدت روميِّي وليلي بالمغرب وروميِّي پومارية (تِلِمْسان) وألطاڤا (لَمُريسْيير) في مقاطعة وهْران التي تفسرها.

شـروح وتـعاليـق

1) البونيقيون Puniques : كثيرون هـم الذين يرفضون تعريب هذا اللفظ بهذه الصيغة، ولا يقبلون صيغة ما هو منسوب لينسب كما هو، ويفضلـون صيغة «البونيّين». ولكنني أصرُّ على لفظ البونيقيين، لأن بونيين فيه أيضا نسبة إلى مدينـة بونة في المغرب الأوسط. ثم إننا قبل كل شيء وبعده لسنا في درس نحوي. فالبونيقيون هم من نذكرهم باسم Puniques.

2) هذا البطل المغربي المقاوم الذي قاد الثورة ضد الرومانيين بعد قتل أيدْمون، نجد اسمه في جميع المراجع هو صَلاپيوس Salabius، وبصيغة فرنسية هي صَلاب Salab، ولكن المؤلف هنا يصر على تسميته باسم سبال أو سابل Sabal ولا أعلم مرجعه في هذا.

3) الملوك : III، 10، 27.

4) النِّمية Néméennes هي الألعاب التي كان الإغريق يقيمونها كل ثلاث أو خمس سنوات على شرف هرْكول Hercule الذي قتل الأسد الجبار كما في الأسطورة بالغابة المجاورة لمدينَة نيمي Nemée (أسَد نيمي). والنيمية أشعار نظمها پَنْدار Pindare تمجيدا لأبطال تلك الألعاب. وإليها يشير كاتبنا هنا.

5) يقصد الكاتب «بالمتنقل بين الموانئ» الشاعر الناظم الذي كان يحمل في بلاد اليونان القديمة شعره أو شعر غيره من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى، فَيَرويه بمقابل. وكونه مشكوكا فيه أن الملحمة الهوميروسية مطعون في نسبتها له حقيقة، أو هو مشكوك فيه لكون هوميروس – على قول – قد جمع ملحمته من أشعار الغير وربط بينها ونسّقها، فعُزيت إليه دون معرفة الناظمين الحقيقيين. وعلى كل فهذا من جملة ما يقال عن الإلْيادة والأوديسة وكلام النقاد لا حدّ له.

6) الإسْتمية Isthmiques نسبة إلى الألعاب التي كان الإغريق يقيمونها في مضيق كورانْث Isthme de Corinthe كل ثلاث أو أربع أو خمس سنين. وقد نظم الشاعر پَنْدار Pindare أشعارا عُرفت بأنها إسْتمِية مجّد فيها الأبطال المنتصرين في هذه الألعاب.

7) ثيبة القَدْمُسية Thèbes la Cadméenne، أي نسبة إلى قَدْمس أو قَدْموسCadmus البطل الأسطوري الفينيقي الذي أسس مدينة ثيبة في مقاطعة بِيوتيا Béotie في بلاد الإغريق.

8) ستون سنة من تاريخ كتابة المؤلّف كَرْكوپينو التي جرى طبعها في كتابه «المغرب العتيق» سنة 1943.

9) المثل الفرنسي الأصلي يقول A beau mentir qui vient de loin أي «ليكذب كما شاء من جاء من بعيد». والمؤلف عبّر بقوله : فليخطئ. ثم حرف المثل عن قصده فقال : «من أتى من قريب». والقريب هنا هو الشواطئ الواقعة وسطا بين قرطاجة وبين سواحل البلاد البعيدة. لأن الشواطئ القريبة نظرا لقربها من الأجانب فإن القرطاجيين كانوا يكذبون ويخادعون في وصفها لإبعاد الأجانب عنها.

10) من تعليق للمؤلف هنا : أن السفن من 60 طولاً و4 أمتار في مسحوبها المائي كانت تستطيع تخطي الحاجز المائي وتدخل إلى ميناء العرائش في سنة 1928. انظر : Instructions nautiques, Atlantique Est, Paris 1932, P.192.

11) من تعليق هنا للمؤلف، أختصرُه، إذ يقول : «لا يستحيل أن هذه الكتابة بالتورية، تكون قد سهلت وتأكدت بالطابع الشمسي للمعبودات البونيقية (ارجع لكُصيل في تاريخه ج 4 ص 313). وقد كان اسم «ليكْسوس ماقُمْ شمِّس» Makom shemesh على بعض نقودها. وقد فسر بوشار Bochard الاسم العجيب «كَريكون طيخوس» Karikon Teichos المدينة الأشد قربا من سُلويْس باشْتقاق من التعبير البونيقي المركب «كيرْخَريص» Kir-Chares أي سور الشمس، وختاماً فإن السيد دوصوّ Dusseau قد نبهني إلى احتمال كون سُلويْس Soloeis مشتقا ليس من اللفظ الفينيقي سَلْعَة Sala أي الصخرة، ولكن من كلمتَيْن فينيقيتَيْن هما «سَلْعَة إلْ» أي صخرة المعبود إل Sela'El وهكذا فهذا التركيب يؤكد لنا قدم احتلال الفينيقيين لهذا الموقع.

12) المؤلف هنا لم يشر بالتدقيق إلى مرجعه باسم الكتاب ورقم الصفحة، وإنما اكتفى بأن قال : الإخباري العربي ياقوت روى... ولم أهتد أنا بدوري إلى المصدر الآتي بقول ياقوت بنصه، فاكتفيتُ بأن ترجمت كلام المؤلف.

13) من تعليق للمؤلف أن الحجرة – أو الأحْجار – المصرية هي لآلئ الزجاج... التي حسب الإدريسي، كانت العشائر السوداء بالنيجر تفضل التزين بها في القرن الثاني عشر.

14) البِريجيز Périégèse في الأدب الإغريقي القديم هو وصف جغرافي، أو روايات عن الرحلات والأسفار مع وصف للأرض وأهلها. والپريجيت Périégète هو الدليل المرشد، أي الكتاب المؤلف والراوي لتلك المشاهد والأوصاف بقلمه. وهم كثيرون في الأدب الإغريقي القديم، من أشهرهم هيكاتي الميليتي Hécatée de Milet، من أهل القرن السادس ق.م، وقد كتب وصفا لأرض ذكر فيه المغرب وأسماء بعض مدنه التي كانت موجودة آنذاك، مثل تِنْجي (طنجة) وتْرانْكي Trinke... إلخ. ومنهم بوزانياس Pausanias من أهل القرن الثاني ق.م وقد كتب وصفا لأرض اللإغريق، ثم دونيس الپريجيت Denys le Périegète وهو المقصود هنا، وهو من أهل القرن الأول ق م وقد ترك وصفا منظوما شعرا لجولة حول العالم نقلت فيما بعد إلى اللاتانية.

15) الإيفيميرية Evhémérisme مذهب فلسفي باسم صاحب إيفمير Evhémère من أهل القرن الرابع ق.م، يقوم مذهبه على اعتبار أن ألهة الوثنيين هي رجال كانوا في الحياة ثم وقع تأليههم.

16) الميدوسية La Méduse هي في الميثولوجيا اليونانية إحدى الگرگونات الثلاث كان شعرها من الأفاعي، وكانت تصعق من ينظر إلى وجهها. وقد قتلها پيرْصي Persée ومن دَمِها الذي وقع في البحر تولّد پيگاس Pégase الفرَس ذو الجناحين.

17) الكاتب قال : Pylones وهي الأركان أو السواري على الباب الفخم، ثم قال : Amer وهو منار للدلالة... وقصْده من هذه التعابير المجازية : أن «رأس بوجدور» الحقيقي الذي كما وصفه هو ركام من الرمل الأحمر وهو الدلالة على باب الصحراء. ولذلك عديت أنا النظر عن تعابيره وقلتُ الأصواء التي هي جمع الصوة أي العلامة المرشدة على الطريق والدالة عليه...

18) يجب أن نذكر دائما أن المؤلف يتحدث في كتابه المطبوع سنة 1943 والمغرب إذ ذاك مقسم بين الاستعمارين الفرنسي والإسباني ومرادي الذهب حيث جزيرة قيرْني المذكورة كان طبعا خاضعا لإسبانيا.

19) تِنْبُش Tenbuch قيل قد تكون هي تَمْبُكْتو Toumbouctou ولكن هذه في نفس العهد كانت تُعرف باسم تومبتّو Tumbettu أو تامبتّو Tambettu. وحتى اليوم فالعوام بالمغرب يسمونها تيمكتو.

20) نُنّوس Nonnos من أهل القرن الرابع، شاعر إغريقي عاش بمصر، واعتنق المسيحية بالإسكندرية. ترك أثرين مهمين أولهما الدّيونيسيّات Les Dionysiaques وهو من 48 كتابا، وذو نَفَس وثني. أما الأثر الثاني فهو ذو نفس مسيحي... إلخ.

21) الحرب الداسية هي التي خاضها الرومانيون ضد (جمهورية رومانياRoumanie الحالية) داسْيا Dacie قديما، وضد زعيمها ضيسْبال Decebale. وأهل موريطانيا الطنجية خاضوها بحزم مع قائدهم المعتق العتيق لوكْيوس كْويتوس Lucuis Quietus، الذي كان أصله من مكان ما بوادي الذهب الحالي. ولما انتهت الحرب جمع لوكْيوس جنوده وعبر بهم البحر الأسود، ونزل آسيا الصغرى، ومنها سار جنوبا إلى سورية فمر بها، واتجه بجنوده (بگومِه) إلى فلسطين فقضى باسم روما على ثورة اليهود القضاء النهائي الذي لم تقم لهم بعده قائمة. وكان له حزب يناصره في روما، ولكن ربما لهذا السبب وخوفا من أن ينال كويتوس هذا منصبَ الإمبراطور فإن خصومه بعثوا له من قتله في طريق عودته. (المترجم)

22) هنا تعليق قصير جدا للمؤلف ذكر فيه أن بسيوس قد كان يحمل رتبة دوق dux، كما أشار فيه باختصار إلى القائد المعتق لوكيْوس كويتوس Lucius Quietus وجنوده (الگوم) الذي ذكرته أنا في التعليق السابق.

23) المؤلف أوضح أن كْلود Claude الإمبراطور انتصر على من سماهم المؤلف بالفرنسية Bretons فعربتُها بـ «بروطونيين» لا بـ «بريطانيين» Britaniques، ثم قال : ouvre la Bretagne أي فتح أرض البروطونيين أي بروطونيا في نظري.

24) عرف المغرب مدينتين باسم روسَّدير Rusaddir هما المليلية في الشمال على البحر الأبيض المتوسط، وأگادير، لا موگادور التي أقام بها يوبا معاملَه للأرجوان التي اكتسبت شهرة وأكسبته ثراء. (المؤلف)

فهرس الموضوعات

تصدير 5

مقدمة المترجم 9

محتويات الكتاب 15

نظرة إجمالية في تاريخ المغرب القديم

1- الجغرافيا المقارنة 21

– الحدود 21

– الملامح الطبيعية 25

2- الخطوط الكبرى للتطور التاريخي 35

– الفينيقيون 36

– الملوك الأهالي 43

– الاحتلال الروماني 57

– المغرب ولاية رومانية 61

المغرب البونيــقي

1- الفينيقيون والإغريق : تاريخ وأساطير 75

– تأسيس ليكْسوس Lixus 75

– الإمبراطورية البونيقية واحتكاراتها 87

– المغرب البونيقي في الأساطير الإغريقية 95

2- المغرب، السوق البونيقية للذهب 111

– رحلة حَنّون وأسرارها الخاطئة 111

– حنّون واللِّكسِيون Lixites 129

– البحث عن الذهب وعن قيرْني 157

– التعرّف على قيرْني 175

– قيرْني ووادي الذهب 189

– حنّون عند السّود 217

– نهاية الذهب البونيقي 225

مغرب الرومانيين

1- وَليلي مدينة إقامة يوبا والحكّام الرومانيين 239

2- موت بطُلِمي ملك موريطانيا 279

3- سَـلاَ (شالّة–الرباط) في عهد الأنْطونانيّين استناداً إلى النصوص المنقوشة على قاعدة مَرْكوس سِلْـپـيـكْـيـوس فيلِكْس ... 291

– قاعدة تمثال سِلْپيكْيوس فيلِكْس وإهداؤها 295

– قـائمة الأصدقـاء (Amici) 301

– قـرار ديـكورْيونـات سَلا 307

4- نهـاية المغـرب الـروماني 337

– التخلّيات عن القيْصرية وتأثيرها على التنْجيتان 341

– إخــلاء وَلـيـلــي 357

– البكْـواتـيون Les Baquates 379

– أقـدم آثار المسيحيّة في المغـرب 405

– الـروميّون بوَلـيـلي 423

شروح وتعاليق 445

فهرس الخرائط والصوَر

ما بقي من ليكسوس الرومانية 109

رحـــلـــــة حنّـــون 134

خريطة «ريـو دي أورو» وادي الذهب (1913) 179

وادي الذهب على الشاطئ الغربي لأفريقيا 1821 194

جزء من خريطة «گْلاسْ» 197

طــرُق الـذهــب الســودانـــي 201

الخريطة العامة لـ گريك Cresques (تفصيل) 215

وَليلي : رأس من الـمرمر 242

وَليلي : في الأعلى رأس البغلة، وفي الأسفل تمثال الكلب 243

الفتى الفارس..... 254

الفتى الـمتوّج بالغار..... 254

وليلي : تصميم عام..... 255

وليلي : منظر عام 255

نقيشة مَرْكوس ڤاليرْيوس سيڤير 267

نقيشة مَرْكوس فادْيوس كيليرْ 267
العمود الأيوني 273
نقيشة منزل الحاكم 273
القطعتان الفنيتان اللتان اكتشفتا بوليلي في سنة 1944..... 274
بطليمي ملك موريطانيا..... 281
قاعدة مركوس سِلْبيكْيوس فيلِكْس 292
منظر شالة 292
قرار ديكورْيوناد 308
قرار المجلس البلدي 314
اللّيمس الرّوماني 340
تقسيمات أفريقيا في عهد السيڤيريّين 344
أفريقيا في عهد دْيوكْليتيان 344
موريطانيا الطنْجية في عهد السيڤيريّين 355
كايوس يولْيوس پاكْتِيانوس 366
موريطانيا الطنجية الولاية الإسبانية لِـ دْيوكْليتْيان 371
النقيشة المسيحية بوَليلي 412